



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



ارسلنا  
عليكم يا صابغ  
الرماد

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

# الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٢٤	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٨
٢٤	اشاره
٢٧	اشاره
٣١	سوره الحجر
٣١	اشاره
٣٣	محتوى السوره:
٣٥	الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ١ الى ٥]
٣٥	اشاره
٣٥	التفسير
٣٥	اشاره
٣٥	الأمانى الزائفه!
٣٩	ملاحظه:
٣٩	اشاره
٣٩	الغفله و طول الأمل
٤١	الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٦ الى ٨]
٤١	اشاره
٤١	التفسير
٤١	اشاره
٤١	طلب نزول الملائكه:
٤٥	الآيه [سوره الحجر (١٥): آيه ٩]
٤٥	اشاره
٤٥	التفسير
٤٥	اشاره

٤٥ ..... حفظ القرآن من التحريف:

٤٦ ..... بحث

٤٦ ..... اشاره

٤٦ ..... في عدم تحريف القرآن:

٤٩ ..... أدله عدم تحريف القرآن:

٥٣ ..... روايات التحريف:

٥٨ ..... الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١٥]

٥٨ ..... اشاره

٥٨ ..... التفسير

٥٨ ..... اشاره

٥٨ ..... العناد و التعصب:

٦٠ ..... ملاحظات

٦٠ ..... اشاره

٦٢ ..... سنه الأولين:

٦٤ ..... الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٦ الى ١٨]

٦٤ ..... اشاره

٦٤ ..... التفسير

٧٠ ..... نتیجه البحث:

٧٥ ..... الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٩ الى ٢١]

٧٥ ..... اشاره

٧٥ ..... التفسير

٧٩ ..... بحوث

٧٩ ..... اشاره

٧٩ ..... ١- ما هي خزائن الله تعالى؟

٨٠ ..... ٢- النزول مكاني و مقامي

٨٢ ..... الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٢٢ الى ٢٥]

٨٢	.....	اشاره
٨٢	.....	التفسير
٨٢	.....	اشاره
٨٢	.....	دور الزياح و الأمطار:
٨٤	.....	بحث
٨٤	.....	اشاره
٨٤	.....	من هم المستقدمون و المستأخرون؟
٨٤	.....	الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٢٦ الى ٤٤]
٨٤	.....	اشاره
٨٧	.....	التفسير
٨٧	.....	اشاره
٨٧	.....	خلق الإنسان:
٩١	.....	بحوث
٩١	.....	اشاره
٩١	.....	١-التكبر و الغرور من المهالك العظام:
٩٣	.....	٢-على من يتسلط الشيطان؟
٩٣	.....	٣-أبواب جهنم!
٩٤	.....	٤-(الحمأ المسنون)و(روح الله):
٩٥	.....	٥-ما هو الجان؟
٩٧	.....	٦-القرآن و خلق الإنسان:
٩٩	.....	أدله القائلين بالتكامل:
٩٩	.....	أجوبه القائلين بثبوت الأنواع:
١٠١	.....	نظريه التكامل و.الإيمان بالله:
١٠٢	.....	القرآن و مسأله التكامل:
١٠٦	.....	الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٤٥ الى ٥٠]
١٠٦	.....	اشاره

التفسير ..... ١٠٦

اشاره ..... ١٠٦

نعم الجَنَّة الثَّمَان: ..... ١٠٦

بحوث ..... ١٠٨

اشاره ..... ١٠٨

١-رياض و عيون الجنة: ..... ١٠٨

٢-التعم الماديه و غير الماديه: ..... ١٠٩

٣-الحقد و الحسد عدواً الأخوه: ..... ١١٠

٤-الجزء الكامل: ..... ١١٠

٥-تعالوا لنجعل من هذه الدنيا جنّة: ..... ١١١

الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٥١ الى ٦٠] ..... ١١٢

اشاره ..... ١١٢

التفسير ..... ١١٢

اشاره ..... ١١٢

الضيوف الغرباء!! ..... ١١٢

الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٦١ الى ٧٧] ..... ١١٦

اشاره ..... ١١٦

التفسير ..... ١١٧

اشاره ..... ١١٧

عاقبه مذنبى قوم لوط: ..... ١١٧

بحوث ..... ١٢٢

اشاره ..... ١٢٢

١-ما المقصود ب بَقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ؟ ..... ١٢٢

٢-تفسير قوله تعالى: وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . ..... ١٢٣

٣-علاقه الربط بين «المتوسم» و«المؤمن». ..... ١٢٤

٤-سكر الشهوه و الغرور! ..... ١٢٤



- الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٧٨ الى ٨٤] ..... ١٢٦
- اشاره ..... ١٢٦
- التفسير ..... ١٢٦
- اشاره ..... ١٢٦
- خاتمه أصحاب الأيكة و أصحاب الحجر: ..... ١٢٦
- من هم أصحاب الأيكة؟ ..... ١٢٧
- الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٨٥ الى ٩١] ..... ١٣١
- اشاره ..... ١٣١
- التفسير ..... ١٣١
- بحوث ..... ١٣٧
- اشاره ..... ١٣٧
- ١- القرآن..عطاء إلهي عظيم ..... ١٣٧
- ٢- الطمع بما عند الغير..مصدر الانحطاط ..... ١٣٨
- ٣- تواضع القائد ..... ١٣٩
- ٤- من هم المقتسمون؟ ..... ١٤٠
- الآيات [سوره الحجر (١٥): الآيات ٩٢ الى ٩٩] ..... ١٤٢
- اشاره ..... ١٤٢
- التفسير ..... ١٤٢
- بحوث ..... ١٤٦
- اشاره ..... ١٤٦
- ١- بدايه الدعوه العلنيه للإسلام ..... ١٤٦
- ٢- الأثر الزوجي لذكر الله ..... ١٤٦
- ٣- العباده و التكامل ..... ١٤٧
- سوره التحل ..... ١٤٩
- اشاره ..... ١٤٩
- محتويات السوره: ..... ١٥١

- ١٥٣ ..... فضيله السوره:
- ١٥٤ ..... الايتان [سوره النحل (١٦): الآيات ١ الى ٢]
- ١٥٤ ..... اشاره
- ١٥٤ ..... التفسير
- ١٥٧ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٣ الى ٨]
- ١٥٧ ..... اشاره
- ١٥٧ ..... التفسير
- ١٥٧ ..... اشاره
- ١٥٧ ..... الحيوان ذلك المخلوق المعطاء:
- ١٦٢ ..... أهميه الزراعه و الثروه الحيوانيه:
- ١٦٥ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٩ الى ١٣]
- ١٦٥ ..... اشاره
- ١٦٥ ..... التفسير
- ١٦٥ ..... اشاره
- ١٦٥ ..... كل شيء فى خدمه الإنسان!
- ١٦٦ ..... توضيح:
- ١٦٩ ..... البحوث
- ١٦٩ ..... اشاره
- ١٦٩ ..... ١- النعم الماديه و المعنويه
- ١٧٠ ..... ٢- لما ذا الزيتون و النخيل و الأعتاب دون غيرها؟!
- ١٧٣ ..... ٣- التفكر و التعقل و التذكر:
- ١٧٥ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١٤ الى ١٨]
- ١٧٥ ..... اشاره
- ١٧٥ ..... التفسير
- ١٧٥ ..... اشاره
- ١٧٥ ..... نعمه الجبال و البحار و النجوم:

١٨٢ ..... بحث

١٨٢ ..... اشاره

١٨٢ ..... الطريق،العلامه،القائد:

١٨٥ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١٩ الى ٢٣]

١٨٥ ..... اشاره

١٨٥ ..... التفسير

١٨٥ ..... اشاره

١٨٥ ..... آلهه لا تشعرا!

١٨٨ ..... بحث

١٨٨ ..... اشاره

١٨٨ ..... من هم المستكبرون؟

١٩٠ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٢٤ الى ٢٩]

١٩٠ ..... اشاره

١٩٠ ..... سبب النزول

١٩١ ..... التفسير

١٩١ ..... اشاره

١٩١ ..... حمل أوزار الآخرين:

١٩٧ ..... بحثان

١٩٧ ..... اشاره

١٩٧ ..... ١-السنة سنتان..حسنه و سيئه:

١٩٩ ..... ٢-التسليم بعد فوات الأوان:

٢٠١ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٣٠ الى ٣٢]

٢٠١ ..... اشاره

٢٠١ ..... التفسير

٢٠١ ..... اشاره

٢٠١ ..... عاقبه المتقين و المحسنين:

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٣٣ الى ٣٧] ..... ٢٠٥

اشاره ..... ٢٠٥

التفسير ..... ٢٠٥

اشاره ..... ٢٠٥

البلاغ المبين..وظيفة الأنبياء: ..... ٢٠٥

بحثان ..... ٢١٣

اشاره ..... ٢١٣

١-ما هو البلاغ المبين؟ ..... ٢١٣

٢-لكل أمه رسول ..... ٢١٣

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٣٨ الى ٤٠] ..... ٢١٥

اشاره ..... ٢١٥

سبب النزول ..... ٢١٥

التفسير ..... ٢١٦

اشاره ..... ٢١٦

المعاد و..نهاية الاختلافات: ..... ٢١٦

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٤١ الى ٤٢] ..... ٢١٩

اشاره ..... ٢١٩

سبب النزول ..... ٢١٩

التفسير ..... ٢٢٠

اشاره ..... ٢٢٠

ثواب المهاجرين: ..... ٢٢٠

بحوث ..... ٢٢٠

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٤٣ الى ٤٤] ..... ٢٢٣

اشاره ..... ٢٢٣

التفسير ..... ٢٢٣

بحث ..... ٢٢٥

٢٢٥ ..... اشارة

٢٢٥ ..... من هم أهل الذكر؟

٢٢٩ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

٢٢٩ ..... اشارة

٢٢٩ ..... التفسير

٢٢٩ ..... اشارة

٢٢٩ ..... لكل ذنب عقابه:

٢٣٢ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

٢٣٢ ..... اشارة

٢٣٢ ..... التفسير

٢٣٢ ..... اشارة

٢٣٢ ..... سجود الكائنات لله عزّ و جلّ:

٢٣٣ ..... أثر الظلال في حياتنا:

٢٣٧ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٥١ الى ٥٥]

٢٣٧ ..... اشارة

٢٣٧ ..... التفسير

٢٣٧ ..... اشارة

٢٣٧ ..... دين حق و معبود واحد:

٢٤٢ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

٢٤٢ ..... اشارة

٢٤٢ ..... التفسير

٢٤٢ ..... اشارة

٢٤٢ ..... عند ما كانت ولاده البنت عارا!!

٢٤٤ ..... بحوث

٢٤٤ ..... اشارة

٢٤٤ ..... ١- لماذا اعتبروا الملائكة بناتا لله؟

٢-لما ذا شاع وأد البنات في الجاهليه؟----- ٢٤٥

٣-دور الإسلام في إعادته اعتبار المرأة:----- ٢٤٩

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٦١ الى ٦٤]----- ٢٥١

اشاره ----- ٢٥١

التفسير ----- ٢٥١

اشاره ----- ٢٥١

وسعت رحمته غضبه:----- ٢٥١

بحث ----- ٢٥٣

اشاره ----- ٢٥٣

ما هو الأجل المسمى؟----- ٢٥٣

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٦٥ الى ٦٧]----- ٢٥٧

اشاره ----- ٢٥٧

التفسير ----- ٢٥٧

اشاره ----- ٢٥٧

المياه، الثمار، الأنعام:----- ٢٥٧

بحوث ----- ٢٦٠

اشاره ----- ٢٦٠

١-كيف يتكوّن اللبن؟----- ٢٦٠

٢-أهم ما في اللبن من مواد غذائيه----- ٢٦١

٣-اللبن..غذاء خالص و سهل الهضم----- ٢٦٢

الآيتان [سوره النحل (١٦): الآيات ٦٨ الى ٦٩]----- ٢٦٤

اشاره ----- ٢٦٤

التفسير ----- ٢٦٤

اشاره ----- ٢٦٤

١-ما هو «الوحى»----- ٢٦٤

٢-هل يختص الإلهام الغريزي بالنحل؟----- ٢٦٥

٢٦٦ ..... ٣-المهمته الأولى في حياه النحل: .....

٢٦٧ ..... ٤-اين مكان النحل: .....

٢٦٧ ..... بحوث .....

٢٦٧ ..... اشاره .....

٢٦٧ ..... ١-مم يتكون العسل؟ .....

٢٦٨ ..... ٢-السبل المذللله! .....

٢٦٩ ..... ٣-أين يصنع العسل؟ .....

٢٦٩ ..... ٤-ألوان العسل المختلفه .....

٢٧٠ ..... ٥-العسل..و الشفاء من الأمراض: .....

٢٧٢ ..... ٦- لِلنَّاسِ : .....

٢٧٢ ..... ٧-ملاحظات مهمته بخصوص العسل: .....

٢٧٤ ..... ٨-عجائب حياه النحل .....

٢٧٦ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٠ الى ٧٢] .....

٢٧٦ ..... اشاره .....

٢٧٦ ..... التفسير .....

٢٧٦ ..... اشاره .....

٢٧٦ ..... سبب اختلاف الأزراق: .....

٢٧٨ ..... هل التفاضل فى الرزق من العداله؟! .....

٢٨٢ ..... بحثان .....

٢٨٢ ..... اشاره .....

٢٨٢ ..... ١-أسباب الرزق: .....

٢٨٢ ..... اشاره .....

٢٨٤ ..... و للاجابه نذكر الملاحظتين التاليتين: .....

٢٨٦ ..... ٢-مواساه الآخرين: .....

٢٨٧ ..... الآيتان [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٣ الى ٧٤] .....

٢٨٧ ..... اشاره .....

٢٨٧ ..... التفسير

٢٨٧ ..... اشاره

٢٨٧ ..... لا تجعلوا لله شبيها:

٢٩٠ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٥ الى ٧٧]

٢٩٠ ..... اشاره

٢٩٠ ..... التفسير

٢٩٠ ..... اشاره

٢٩٠ ..... مثلان للمؤمن والكافر!

٢٩٣ ..... بحوث

٢٩٣ ..... اشاره

٢٩٣ ..... ١- الإنسان بين الحرية والأسر

٢٩٥ ..... ٢- دور العدل والاستقامة في حياة الإنسان

٢٩٦ ..... ٣- أمّا الزوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام

٢٩٧ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٨ الى ٨٣]

٢٩٧ ..... اشاره

٢٩٧ ..... التفسير

٢٩٧ ..... اشاره

٢٩٧ ..... أنواع النعم المادية والمعنوية:

٢٩٨ ..... ملاحظات

٢٩٨ ..... اشاره

٢٩٨ ..... ١- بدايه الإدراك عند الإنسان

٢٩٩ ..... ٢- نعمه وسائل المعرفة

٣٠١ ..... ٣- لعلكم تشكرون

٣٠٢ ..... بحوث

٣٠٢ ..... اشاره

٣٠٢ ..... ١- أسرار تحليق الطيور في السماء



٣٠٤ ..... ٢-ترابط الآيات:

٣٠٦ ..... ٣-الظلال، المساكن، الأغطية:

٣١٠ ..... بحثان

٣١٠ ..... اشاره

٣١٠ ..... ١-كلمات المفشرين

٣١١ ..... ٢-صراع الحق مع الباطل

٣١٢ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٨٤ الى ٨٩]

٣١٢ ..... اشاره

٣١٢ ..... التفسير

٣١٢ ..... اشاره

٣١٢ ..... عند ما تغلق الأبواب أمام المجرمين:

٣١٥ ..... و هنا ينبغى التذكير ببعض الملاحظات:

٣١٩ ..... بحثان

٣١٩ ..... اشاره

٣١٩ ..... ١-القرآن تبيان لكل شيء:

٣٢٢ ..... ٢-مراحل الهداية الأربع

٣٢٣ ..... الآية [سوره النحل (١٦): آيه ٩٠]

٣٢٣ ..... اشاره

٣٢٣ ..... التفسير

٣٢٣ ..... اشاره

٣٢٣ ..... أكمل برنامج اجتماعي:

٣٢٧ ..... أشمل آيات الخير والشر:

٣٣٠ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٩١ الى ٩٤]

٣٣٠ ..... اشاره

٣٣٠ ..... سبب النزول

٣٣١ ..... التفسير

- ٣٣١ ..... اشارة
- ٣٣١ ..... الوفاء بالعهد دليل الإيمان:
- ٣٣٥ ..... بحثان
- ٣٣٥ ..... اشارة
- ٣٣٥ ..... ١-فلسفه احترام العهد
- ٣٣٧ ..... ٢-ما لا يقبل فى نقض العهد:
- ٣٣٨ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٩٥ الى ٩٧]
- ٣٣٨ ..... اشارة
- ٣٣٨ ..... سبب النزول
- ٣٣٩ ..... التفسير
- ٣٣٩ ..... اشارة
- ٣٣٩ ..... ثمن الحياه الطيبه:
- ٣٤١ ..... بحوث
- ٣٤١ ..... اشارة
- ٣٤١ ..... ١-منايع الخلود
- ٣٤٢ ..... ٢-التساوى بين الرجل و المرأه
- ٣٤٢ ..... ٣-جذور العمل الصالح ترتوى من الإيمان
- ٣٤٤ ..... ٤-ما هى الحياه الطيبه؟
- ٣٤٤ ..... الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ٩٨ الى ١٠٠]
- ٣٤٤ ..... اشارة
- ٣٤٤ ..... التفسير
- ٣٤٤ ..... اشارة
- ٣٤٤ ..... اقرأ القرآن هكذا:
- ٣٤٧ ..... بحوث
- ٣٤٧ ..... اشارة
- ٣٤٧ ..... ١-موانع المعرفه

- ٢-لما ذا يكون التعوذ «من الشيطان الرجيم»؟ ٣٤٨
- ٣-بين لوائى الحق و الباطل ٣٤٩
- ٤-آداب تلاوه القرآن: ٣٥٠
- الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١٠١ الى ١٠٥] ٣٥٣
- اشاره ٣٥٣
- سبب النزول ٣٥٣
- التفسير ٣٥٣
- اشاره ٣٥٣
- الافتراء ٣٥٣
- بحوث ٣٥٩
- اشاره ٣٥٩
- ١-قبح الكذب فى المنظور الإسلامى ٣٥٩
- ٢-الكذب منشأ جميع الذنوب: ٣٦٠
- ٣-الكذب منشأ للنفاق: ٣٦١
- ٤-لا انسجام بين الكذب و الإيمان: ٣٦١
- ٥-الكذب يرفع الاطمئنان: ٣٦١
- الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١٠٦ الى ١١١] ٣٦٣
- اشاره ٣٦٣
- سبب النزول ٣٦٣
- التفسير ٣٦٤
- اشاره ٣٦٤
- المرتدون عن الإسلام: ٣٦٤
- بحثان ٣٦٧
- اشاره ٣٦٧
- ١-التقيه و فلسفتها: ٣٦٧
- ٢-المرتد الفطرى و الملى و.المخدوعين: ٣٧٠

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١١٢ الى ١١٤] - ٣٧٢

اشاره ..... ٣٧٢

التفسير ..... ٣٧٢

اشاره ..... ٣٧٢

الذين كفروا فأصابهم العذاب ..... ٣٧٢

بحوث ..... ٣٧٣

اشاره ..... ٣٧٣

١-أهو مثال أم حدث تاريخي؟ ..... ٣٧٣

٢-الرابطة ما بين الأمن و الزق الكثير ..... ٣٧٥

٣-لباس الجوع و الخوف ..... ٣٧٦

٤-أثر كفران النعمة فى تضييع المواهب الإلهيه ..... ٣٧٧

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١١٥ الى ١١٩] - ٣٧٩

اشاره ..... ٣٧٩

التفسير ..... ٣٧٩

اشاره ..... ٣٧٩

لا يفلح الكاذبون: ..... ٣٧٩

جواب على سؤال: ..... ٣٨١

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١٢٠ الى ١٢٤] - ٣٨٦

اشاره ..... ٣٨٦

التفسير ..... ٣٨٦

اشاره ..... ٣٨٦

كان إبراهيم لوحده أمه! ..... ٣٨٦

١- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . ..... ٣٨٧

الآيات [سوره النحل (١٦): الآيات ١٢٥ الى ١٢٨] - ٣٩١

اشاره ..... ٣٩١

التفسير ..... ٣٩١

- ٣٩١ ..... اشارة
- ٣٩١ ..... عشره قواعد أخلاقيه..سلاح داعيه الحق: ..
- ٣٩٨ ..... خاتمه مقال سوره النحل «سوره النعم»: ..
- ٤٠١ ..... الهدف من ذكر النعم: ..
- ٤٠٤ ..... سوره الإسراء
- ٤٠٤ ..... اشارة
- ٤٠٦ ..... أولاً:أسماء السوره و مكان النزول: ..
- ٤٠٧ ..... ثانياً:فضيله سوره الإسراء: ..
- ٤٠٨ ..... ثالثاً:خطوط عامته فى محتوى السوره: ..
- ٤١٠ ..... الآيه [سوره الإسراء (١٧): آيه ١] ..
- ٤١٠ ..... اشارة
- ٤١٠ ..... التفسير
- ٤١٠ ..... اشارة
- ٤١٠ ..... معراج النبى صلى الله عليه و آله و سلم: ..
- ٤١٤ ..... المعراج:
- ٤١٤ ..... اشارة
- ٤١٥ ..... المعراج فى القرآن و الحديث: ..
- ٤١٨ ..... هل كان المعراج جسدياً أم روحياً؟ ..
- ٤١٩ ..... هدف المعراج: ..
- ٤٢٠ ..... المعراج و العلوم العصريه: ..
- ٤٢١ ..... فى مواجهه هذه الأسئلة: ..
- ٤٢٤ ..... الآيات [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢ الى ٨] ..
- ٤٢٤ ..... اشارة
- ٤٢٤ ..... التفسير
- ٤٢٨ ..... ملاحظات
- ٤٢٨ ..... اشارة

- ٤٢٨ ..... الأولى:الإفسادان التآريخيان لبنى إسرائيل: -
- ٤٣٣ ..... الثانيه:تحمل الإنسان لتبعات أعماله: -
- ٤٣٤ ..... الثالثه:تطبيق الآيات على أحداث التاريخ الإسلامى: -
- ٤٣٤ ..... الآيات [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٩ الى ١٢] .....
- ٤٣٤ ..... اشاره .....
- ٤٣٤ ..... التفسير .....
- ٤٣٤ ..... اشاره .....
- ٤٣٤ ..... أقصر الطرق للهدايه و السعاده: .....
- ٤٤٣ ..... بحوث .....
- ٤٤٣ ..... اشاره .....
- ٤٤٣ ..... أولاهل الإنسان عجول ذاتا؟ .....
- ٤٤٤ ..... ثانيًا:أضرار العجله .....
- ٤٤٥ ..... ثالثًا:دور العدد و الحساب فى حياه الإنسان: .....
- ٤٤٧ ..... الآيات [سوره الإسراء (١٧): الآيات ١٣ الى ١٥] .....
- ٤٤٧ ..... اشاره .....
- ٤٤٧ ..... التفسير .....
- ٤٤٧ ..... اشاره .....
- ٤٤٧ ..... أربعة أصول إسلاميه مهمه: .....
- ٤٥٢ ..... بحوث .....
- ٤٥٢ ..... اشاره .....
- ٤٥٢ ..... ١-التفؤل و التطير .....
- ٤٥٣ ..... ٢-صحيفه أعمال الإنسان العجيبه: .....
- ٤٥٥ ..... ٣-البرىء لا يؤخذ بجريره المذنب: .....
- ٤٥٤ ..... ٤-قاعده «أصل البراءه» و آيه! مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ: .....
- ٤٥٧ ..... الآيتان [سوره الإسراء (١٧): الآيات ١٦ الى ١٧] .....
- ٤٥٧ ..... اشاره .....

٤٥٧ ..... التفسير

٤٥٧ ..... اشاره

٤٥٧ ..... مراحل العقاب الإلهي:

٤٦١ ..... الآيات [سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٨ إلى ٢١]

٤٦١ ..... اشاره

٤٦١ ..... التفسير

٤٦١ ..... اشاره

٤٦١ ..... طلاب الدنيا والآخرة:

٤٦٥ ..... بحوث

٤٦٥ ..... اشاره

٤٦٥ ..... أولاً: هل الدنيا والآخرة تقعان على طرفي نقيض؟

٤٦٧ ..... ثانياً: دور السعي في تحقيق المكاسب:

٤٦٨ ..... ثالثاً: الإمدادات الإلهية:

٤٦٩ ..... الآيات [سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٢ إلى ٢٥]

٤٦٩ ..... اشاره

٤٦٩ ..... التفسير

٤٦٩ ..... اشاره

٤٦٩ ..... أحكام إسلاميه مهمه:

٤٧٢ ..... الأهميه الاستثنائيه لاحترام الوالدين:

٤٧٤ ..... بحوث

٤٧٤ ..... اشاره

٤٧٤ ..... أولاً: احترام الوالدين في المنطق الإسلامى

٤٧٧ ..... ثانياً: بحث حول كلمه «قضى»:

٤٧٨ ..... ثالثاً: بحث حول معنى كلمه «أف»:

٤٨٠ ..... الآيات [سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٦ إلى ٣٠]

٤٨٠ ..... اشاره

٤٨٠ ..... التفسير

٤٨٠ ..... اشاره

٤٨٠ ..... رعايه الاعتدال فى الإنفاق و الهبات:

٤٨٥ ..... بحوث

٤٨٥ ..... اشاره

٤٨٥ ..... أولاً:من هم المقصودون بذى القربى؟

٤٨٧ ..... ثانياً:مصائب الإسراف و التبذير:

٤٨٨ ..... ثالثاً:الفرق بين الإسراف و التبذير:

٤٨٩ ..... رابعاً:هل ثمة تعارض بين الاعتدال فى الإنفاق و الإيثار؟

٤٩٠ ..... الآيات [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٣١ الى ٣٥]

٤٩٠ ..... اشاره

٤٩٠ ..... التفسير

٤٩٠ ..... اشاره

٤٩٠ ..... ستة أحكام مهمه:

٤٩٣ ..... فلسفه تحريم الزنا:

٥٠٠ ..... ملاحظات

٥٠٠ ..... اشاره

٥٠٠ ..... ١-أضرار التطفيف فى الكيل:

٥٠١ ..... ٢-ما هو حكم التطفيف و بخص الكيل؟

٥٠١ ..... ٣-ما هو معنى «قسطاس»؟

٥٠٣ ..... الآيات [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

٥٠٣ ..... اشاره

٥٠٣ ..... التفسير

٥٠٣ ..... اشاره

٥٠٣ ..... الانقياد للعلم:

٥٠٥ ..... درس فى استقرار النظام الاجتماعى:



الأوهام و سبيل مكافحتها ----- ٥٠٧

ثانياً: الكبر و الغرور: ----- ٥٠٨

ثالثاً: لا تكن مشركاً: ----- ٥١١

بنات الله!! ----- ٥١٢

تعريف مركز ----- ٥٢٤

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱









## سوره الحجر

### اشاره

مکيه و عدد آياتها تسع و تسعون آيه

ص: ۵





## محتوى السّوره:

المشهور عند جل المفسّرين أنّ سوره الحجر مكّيه، وهى السوره الثّانيه و الخمسون من السور التى نزلت على النّبي الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم فى مكّه المكرمه على ما ذكره ابن النديم فى فهرسته تحت موضوع تاريخ القرآن، و عدد آياتها تسع و تسعون آيه باتفاق كل المفسّرين.

و لم تشذ السوره فى سياقها و مضامينها عن السور المكّيه السابقه لها، و كما ذكرنا سابقا فإنّ السور المكّيه تشتمل على جمل من الكلام حول أصول الدين كالتوحيد و المعاد، و إنذار المشركين و العاصين و الظالمين، بالإضافة إلى ما يحمله تاريخ الأقسام السالفه من دروس العبره للاعتبار.

و يمكننا تلخيص ما حوته السوره فى سبع نقاط:

١- الآيات المتعلقه بمبدأ عالم الوجود، و الإيمان به بالتدبر فى أسرار الإيجاد.

٢- الآيات المتعلقه بالمعاد و عقاب الفجره الفسقه.

٣- أهميه القرآن باعتباره كتابا سماويا.

٤- محاوله إيقاظ و تنبيه البشر من خلال طرح قصّه خلق آدم، و تمرد إبليس، و تبيان عاقبه التمرد.

٥- زياده فى محاوله الإيقاظ و التنبيه من خلال عرض القصص القرآنى لما جرى لأقوام لوط و صالح و شعيب عليهم السلام.

٦- إنذار و بشاره، مواعظ لطيفه و تهديدات عنيفه، إضافة إلى المرغبات المشوقه.

٧- مخاطبه النبى صلى الله عليه و آله و سلم لتقويه صبره و ثباته قبال ما يحاك من دسائس، و بالذات ما كان يجرى داخل إطار مكه.

و قد اختير اسم السوره من الآيه الثمانين التى ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، علما بأن السوره تناولت ذلك فى خمس آيات، و هى السوره الوحيدة فى القرآن التى ذكرتهم بهذه التسميه، و سيأتى ذلك مفصلا فى تفسير الآيات (٨٠-٨٤) إن شاء الله.

ص: ٨



لغة العرب- كما يتنا سابقا-تسمح بذلك لبيان عظمه المشار إليه، فالمراد أنّ لشأن القرآن عظمه، و كأنه في موضع بعيد جدًا بين طيات السماء، لا يناله إلا من ملك مستلزمات التحليق إليه. و يقارب ذلك ما تتداوله فيما يتنا عند تعظيم شخص معين فنقول له مثلا: (إن سمح لنا ذلك السيد أن...) فنستعمل (ذلك) مع كون الشخص مخاطبا.

و أما بشأن مجيء صيغته «قرآن» نكره فليبيان عظمته أيضا، و ذكر «القرآن» بعد «الكتاب» تأكيد، و وصفه بال «مبين» لأنه يظهر الحقائق و يبين الحق من الباطل.

و أما ما احتمله بعض المفسرين من أنّ المراد بكلمه «الكتاب» إشاره إلى التوراه و الإنجيل، فهو كما يبدو بعيد جدًا و يفتقد الى الدليل.

ثم يحذر الذين يصرون على الفساد و مخالفه آيات الله الجليه، و يخبر بأنهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر و تعصب أعمى و عناد. و يقول: رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ .

فالمراد بكلمه «يود» التمني حسب ما ورد في تفسير الميزان، و ذكر كلمه «لو» للدلاله على تمنيه الإسلام في وقت لا يمكنهم فيه العوده إلى ما كانوا ينكرون، و هذه إشاره إلى أن تمنيهم سيكون في العالم الآخر و بعد معاينه نتائج الأعمال.

و يؤيد هذا المعنى و ما

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ينادى مناد يوم القيامة يسمع الخلائق إنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، فتم يود سائر الخلائق أنهم كانوا مسلمين». (1)

ص: ١٠

---

١ - ١) - مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٢٨، كذلك ورد الحديث الأول في تفسير الثقلين عن تفسير العياشى، و أورد الفخر الرازى في تفسيره حديثا يشابه الحديث الثانى مع تفاوت يسير، و ذكر في تفسير الطبرى أيضا عدّه أحاديث في مضمون الحديث الثانى ضمن تفسير الآيه المذكوره.

روى أيضا عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين، قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب (كبائر) فأخذنا بها (و هذا الاعتراف بالذنب و التقصير و لوم الأعداء يكون سببا لأن) يسمع الله عزّ و جلّ ما قالوا فأمر من كان في النار من أهل الإسلام فأخرجوا منها فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنّا مسلمين». (1)

و ربّما كان ظاهر الآيه يوحي إلى أولئك الكفرة الذين ما زالت جذوه الفطره تسرى في أعماق وجدانهم، و حينما لمسوا من نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم تلك الآيات الرّبانيه التي تناغى أوتار القلوب، لانت قلوبهم و تمنوا أن لو يكونوا مسلمين، إلا أنّ تعصبهم الأعمى و عنادهم القائم، أو قل منافعهم الماديه حجبتهم عن قبول دعوه الحق، و بذلك بقوا بين قضبان كفرهم و استحوذت عليهم أحابيل الكفر و الضلال.

ذكر لنا أحد الأصدقاء من المؤمنين المجاهدين و كان قد سافر إلى أوروبا قائلا: ذات مرّه التقيت بأحد المسيحيين - و كان رجلا منصفاً - و بعد أن بينت له بعض خصال ديننا، استهوته و مال إليها قائلا: أهنتكم من أعماقي على عظمه معتقدكم، و لكن - ما إذا نصنع مع الظروف الاجتماعيه التي أجبرتنا على أن لا نحيد عنها! و من تاريخ الإسلام نطالع ما حصل لقيصر الروم عند ما وصله رسول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و يذكر بأنّ القيصر قد أظهر الإيمان سرّاً للرسول حتى أنّه رغب في دعوه قومه لدين التوحيد إلا أنّه خاف قومه و فكر بامتحانهم ف (أمر مناديا ينادى:

ألا إنّ هرقل قد ترك النصرانيه و اتبع دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فأقبل جنده بأسلحتهم حتى

ص: ١١

طافوا بقصره، فأمر مناديه فنادى: ألا إن قيصر إنما أراد أن يجربكم كيف صبركم على دينكم، فارجعوا فقد رضى عنكم. ثم قال للرسول: إننى أخاف على ملكى. وإنى لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، والذى كنا ننتظره و نجده فى كتابنا، ولكنى أخاف الروم على نفسى، ولو لا ذلك لاتبعته). (١)

و على أية حال، ينبغى التنويه بعدم وجود تعارض بين أى من التفسيرين، فيمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين فى كلا العالمين (الدنيا و الآخرة)، و اعتبار عدم استطاعتهم العوده إلى الإسلام فى حياتهم الدنيا و فى الآخرة لجهات مختلفه-فتأمل.

ثم يأتى نداء السماء بلهجه لاذعه، يا محمد ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلهمهم الأمل فسوف يعلمون فهم كالأنعام التى لا تعرف سوى الحقل و العلف، و لا تفهم سوى اللذات الماديه، و كل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف و تفهم.

إنهم لا يدركون فقه الحقائق، لأن حجب الغرور و الغفله و الأمانى الزائفه ختمت على قلوبهم.

و لكن، عند ما يصفع الأجل وجوههم و ترتفع تلك الحجب عن أعينهم، و حينما يجدون أنفسهم أمام الموت أو فى عرصه يوم القيامه، هنالك سيدركون عظمه حجم غفلتهم و مدى خسرانهم، و كيف أنهم قد ضيعوا أعلى ما كانوا يملكون! الآية التاليه توضح محدوديه اللذات الدنيويه لكى لا يظن أحد إنمّا خالده فتقول: **مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبِهِ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ** ثم يقول تعالى: **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ .**

فقد سرت سنّه البارى جل شأنه بأن يعطى المدّه الكافيه لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبه تاره، و بفيوضات رحمه الرخاء

ص: ١٢

تاره أخرى، فمن لا تنفعه البشاره يأتيه الإنذار و هكذا، كل ذلك إتماما للحجه عليهم.

صحيح أنّ المصلحه الموجهه للتربيه الربانيه تقتضى (بعلم ربّ الأرباب) أن يمهل و لكنّه سبحانه لا يهمل، و عاجلا أم آجلا سينال كلّ نصيبه بما كسبت يده.

من الآيتين الأخيرتين، تتضح لنا فلسفه تكرار آيات القرآن لذكر تاريخ الأمم السابقه.

أفلا تكفيننا قصص السابقين عبره لإصلاح أنفسنا و الرجوع إلى الله تعالى؟ بل كيف نسترخى بالقعود حتى يقدر علينا ما كتب على الذين ضلوا و ظلموا من قبلنا؟ اذن و علينا الإعتبار، و إلا فسنكون عبره لمن سيأتي بعدنا.

**ملاحظه:**

**اشاره**

**الغفله و طول الأمل**

مما لا شك فيه أن الأمل بمثابة العامل المحرك لعجله حياه الإنسان، فلو ارتفع الأمل يوما من قلوب الناس لارتبكت مسيره الحياه و لا تجد إلا القليل ممن يجد في نفسه دافعا لمواجهة صراع الحياه معه، و الحديث النبوي الشريف: «الأمل رحمه لأمتي، و لو لا الأمل ما رضعت والده ولدها، و لا غرس غارس شجرا» (1) يشير لهذه الحقيقه.

و إذا ما تجاوز الأمل حده المعقول فإنه سيتحول إلى (طول أمل) و هو ما ينذر بالانحراف و الهلاك، و مثله كمثل ماء المطر الذي يمثل عامل الحياه الفياض للأرض و النبات و الحيوان، فلو زاد عن حدّ الحاجه إليه، أصبح عاملا للغرق

ص: ١٣

١-١ (١) - سفينه البحار، ج ١، ٣٠ (أمل).

و الهلاك.

و هذا الأمل القاتل هو أساس الجهل بالله و عدم معرفه الحق و الابتعاد عن الحقيقه، و يؤدي الى تقوقع الإنسان فى دائرته الفرديه بما ينسجه الخيال الواسع و يتعد عن هدف وجود الإنسان على الأرض و المصير الذى يصبو إليه.

و

يحدثنا أمير المؤمنين على عليه السّلام عن هذا المضمون بقوله: «يا أيّها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى و طول الأمل، فأما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخره» (١).

حقاً، كم هم أولئك الذين امتازوا بالملكات الفائقه و الكفاءات اللائقه، و لكنهم سقطوا فى شباك فسخ طول الأمل فتحولوا إلى موجودات ضعيفه، بل و ممسوخه! و أصبحوا لا يستطيعون تقديم شىء لمجتمعهم، بل ضيّعوا حتى ما ينفع أنفسهم و أثقلوا عمّا يسمون به إلى التكامل.

و هذه الصوره نتلمس ملامحها بجلاء

فى دعاء كميل: «و حبسنى عن نفعى بعد أملى».

بديهى أنّ الأمل الذى يتجاوز الحد المعقول، يجعل الإنسان عرضه للانهماك و العجز و الاضطراب، و يصوّر لصاحبه أنّ هذه الحال ستوصله إلى السعاده و الرفاه، و ما يدرى أنّه يخطو صوب جرف الشقاء و النكد.

و غالباً ما تطوى صفحات هؤلاء بالدمعه الجاربه و الحسره لما آل إليه المآل ليكونوا عبره لكل ذى عين بصيره و أذن سميعه.

ص: ١٤



اشاره

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ (٨)

التفسير

اشاره

طلب نزول الملائكة:

تبتدى الآيات بتبيان موقف العداة الأعمى و التعصب الأصم للقرآن الحكيم و النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم من قبل الكفار، فتقول: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

و من خلال كلامهم يظهر بجلالة مدى وقاحتهم و سوء الأدب الذى امتازوا به حين مخاطبتهم للنبى صلى الله عليه و آله و سلم، فتاره يقولون: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بصيغه الهزؤ و الإنكار لآيات الله سبحانه، و ثالته: يستعملون أدوات التوكيد «إن» و لام القسم ليتهموا أشرف خلق الله صلى الله عليه و آله و سلم بالجنون! نعم، الخصم ينطق المريض الجاهل حينما يقابل حكيمًا لا نظير له، فأول ما يرميه بالجنون، لأنه ينطق من جهله الذى لا يستوعب الحكمة و المعقول، فيرى كل ما فوق تصوره القاصر غير معقول، و يوصم خصمه بالمجنون!

هؤلاء الأشخاص لديهم تعصب خاص نحو كل ما ألفوه في محيطهم الاجتماعى حتى و إن كان ضلالا و انحرافا،لذا تراهم يواجهون كل دعوه جديده على أساس أنها غير معقوله،فهم يخشون من كل جديد،و يتمسكون بشده بالعادات و التقاليد القديمه.

أضف إلى ذلك،أن من استهوته الدنيا و عاش لها لا- يفقه المعانى الروحيه و القيم الإنسانيه و يوزن كل شىء بالمعايير الماديه،فإذا شاهد شخصا يضحى بكل شىء و حتى بنفسه لأجل أن يصل إلى هدف معنوى،فسوف لا يصدق بأنه عاقل، لأن العقل فى عرفهم هو ما يصيب:المال الوافر،الزوجه الجميله،الحياه المرفهه، و الوجاهه الكاذبه! و عليه،فحينما يرون رجلا- قد عرضت عليه الدنيا بكل ما يحملون به فأبى أن يقبلها بقوله:«و الله لو وضعت الشمس فى يمينى و القمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ما تركته»فسيقولون عنه:إنه لمجنون! الملفت فى التهم الموجهه إلى أنبياء الله تعالى أنها تحمل بين طياتها تضادا واضحا يلمس بأدنى تدبر،ففى الوقت الذى يرمون النبى بالمجنون يعودون و يقولون عنه:إنه لساحر،فمع أن الساحر لا بد له من الذكاء و النباهه،فهل يعقل أن يكون الساحر،مجنونا؟! إنهم لم يكتفوا بنسبه الجنون إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم،بل تحججوا قائلين: لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

فيجيبهم البارى جل شأنه: مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ .فلو ثم إنزال الملائكه و شاهدوا الحقيقه بأعينهم ثم لم يؤمنوا بما فسوف يحق بهم،العذاب الالهى دون إمهال.

و للمفسرين وجوها متباينه فى تفسير مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ :

١-يرى البعض،أن أمر تنزيل الملائكه لا يتعلق بما يتقوله القائلون تحججا،

بل هو إعجاز رباني لإظهار الحق وإحقاقه.

و بعبارة أخرى، فالإعجاز ليس أمراً ترفيهاً يناغى تصورات الآخرين بقدر ما هو حجة إلهية لإثبات الحق وإماته الباطل.

و قد أشبعت هذه الحقيقة بما فيه الكفاية لمن يرى النور نورا و الظلام ظلاما من خلال ما أوصله نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عن طريق القرآن و المعاجز الأخرى.

٢- المقصود من كلمة «الحق» هو العقاب الدنيوى بالبلاء المهلك، و بعبارة أخرى (عذاب الاستئصال).

أى... فى حال عدم إيمان الكفار المعاندين بعد نزول الملائكة على ضوء اقتراحهم فهم هالكون قطعاً.

و بهذا تكون جملة وَ مَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ مُؤَكَّدَةً لهذا المعنى، و أمّا على التفسير الأول فإنها تتناول موضوعاً جديداً.

٣- و قيل المراد بالحق فى الآية الموت، أى أنّ الملائكة لا تنزل إلا لقبض الأرواح.

لكنّ هذا المعنى بعيد جداً أمام ما يحفل به القرآن من ذكر نزول الملائكة فى قصتى إبراهيم و لوط عليهما السلام و معركة بدر... إلخ.

٤- و قيل المراد بالحق الشهادة (المشاهدة).

أى... ما دام الإنسان يعيش فى عالم الدنيا فهو عاجز عن رؤيته ما وراء هذا العالم حيث هناك تسبح الملائكة بحمد ربّها، لأنّ الحجب المادى قد أفسدت رؤيته و لا- يتسنى له ذلك إلا بعد الرحيل إلى العالم الآخر، و حين ذلك ينتهى مفعول الماديات فتزال الحجب و يرى الملائكة.

يواجه هذا التفسير نفس ما واجهه التفسير الثالث من إشكال، فقوم لوط مثلاً،

على ما كانوا عليه من كفر و انحراف فقد رأوا ملائكة العذاب في دنياهم (١).

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن التفسيرين الأول والثاني ينسجمان مع ظاهر الآية دون الآخرين.

أما ما ورد في ذيل الآية من عدم الامهال بعد استجابته مطالبهم في رؤيه المعاجز الحسيه و عدم إيمانهم بها، فلأنه قد تمت الحججه عليهم و انتفت جميع اعدارهم و تبريراتهم، و بما أن استدامه الحياه إنما هو لأجل إتمام الحججه و احتمال توبه و رجوع الافراد المنحرفين الى الصراط المستقيم، و هذا الأمر لا موضوع له في مثل هؤلاء الأشخاص، فلذلك يحين أجلهم و ينالون جزاءهم الذى يستحقونه.

(فتدبر)

ص: ١٨

---

١-١) - راجع سورة هود، ٨١.

اشاره

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)

التفسير

اشاره

حفظ القرآن من التحريف:

بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار و استهزاءهم بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و القرآن، تأتي هذه الآيه المباركه لتواسى قلب النبي صلى الله عليه و آله و سلم من جهه و لتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهه أخرى، من خلال طرح مسأله حيويه ذات أهميه بالغه لحياه الرساله، ألا و هي.. حفظ القرآن من أيادى التلاعب و التحريف إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ... فبناء هذا القرآن مستحکم و شمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، و مصباح هديه أبدى الإناره، و لو اتحد أعتى جبابره التاريخ و طغاته و حكامه الظلمه، محفوفين بعلماء السوء، و مزودين بأقوى الجيوش عدّه و عتادا، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبار سبحانه تعهد بحفظه و صيانتته..

و قد اختلف المفسرون في دلاله (حفظ القرآن) في هذه الآيه المباركه:

١- قال بعضهم: الحفظ من التحريف و التغيير، و الزيادة و النقصان.

٢- و قال البعض الآخر: حفظ القرآن من الضياع و الفناء إلى يوم قيام الساعه.

٣- وقال غيرهم: حفظه أمام المعتقدات المضله المخالفه له.

بما أنه لا يوجد أى تضاد بين هذه التفاسير و تدخل ضمن المفهوم العام لعباره **إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** فلا داعى لحصر مصاديقها فى بعد واحد، خصوصا و إن «لحافظون» ذكرت بصيغه مطلقه و ليس هناك ما يخصصها.

و الصحيح، وفقا لظاهر الآيه المذكوره، أن الله تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحي: من التحريف، من التلف و الضياع، و من سفسطات الأعداء المزاجيه و وساوسهم الشيطانيه.

أما ما احتمله بعض قدماء المفسرين بأنه الحفظ على شخص النبى صلى الله عليه و آله و سلم باعتبار أن ضمير «له» فى الآيه يعود إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بدلاله إطلاق لفظه «الذكر» على شخص النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى بعض الآيات (١)، فهو احتمال يتعارض مع سياق الآيات السابقه التى عنت ب«الذكر» «القرآن»، بالإضافه إلى إشاره الآيه المقبله لهذا المعنى.

**بحث**

**إشاره**

**فى عدم تحريف القرآن:**

المشهور بين أوساط جُلّ علماء المسلمين شيعه و سنه، أن القرآن لم يتعرض لأى نوع من التحريف، و أن الذى بين أيدينا هو عين القرآن الذى نزل على صدر الحبيب محمد النبى صلى الله عليه و آله و سلم. فلا زياده أو نقصان، حتى و لو بكلمه واحده، أو قل بحرف واحد.

و من جمله من صرح بهذا من العلماء الأعلام الشيعه (من المتقدمين و المتأخرين) تغمدهم الله برحمته.

ص: ٢٠

١- ١) - راجع سورة الطلاق، الآيه العاشره.

١- الشيخ الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (٤٦٠هـ-ق)، و له بحث صريح و قاطع بهذا الشأن في أول تفسيره المعروف ب(التبيان).

٢- الشريف المرتضى، و يعتبر من كبار علماء الإماميه في القرن الرابع الهجري.

٣- الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه المعروف برئيس المحدثين، حيث يقول في بيان عقائد الإماميه: (إن اعتقادنا بالقرآن أنه سالم من أي تحريف).

٤- المفسر الكبير الشيخ الطبرسي، و له في مقدمه تفسيره بحث مفصل بهذا الشأن.

٥- المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، من كبار العلماء المتأخرين.

٦- المرحوم المحقق اليزدي، و قد نقل في كتابه (العروه الوثقى) مسأله عدم تحريف القرآن عن جمهور مجتهدي الشيعة.

٧- بالإضافة إلى جمع من العلماء الآخرين، أمثال: الشيخ المفيد، الشيخ البهائي، القاضي نور الله مع سائر محققي الشيعة.

و قد نحى هذا المنحى علماء و محققوا أهل السنه.

و قد نقل عن بعض محدثي الشيعة و بعض أهل السنه، اعتقادهم بوقوع التحريف في القرآن. إلا أن كبار علماء الفريقين بأدلتهم القاطعه قد أبتلوا زعم هؤلاء و أدخلوه في حيز النسيان.

و أفاد العلامة الشريف المرتضى في جواب (المسائل الطرابلسيات) «إن صحه نقل القرآن واضحه و بينه كمعرفتنا لعواصم العالم و الحوادث المهمه في التاريخ و الكتب الشهيره» فهل هناك من يشك في وجود مدن كمكّه و المدينه أو لندن و باريس و إن لم يزرها؟! أو هل هناك من ينكر وقوع الهجوم المغولي على الشرق، الثوره الفرنسيه،

الحرب العالميه الأولى أو الثانيه؟! فإن لم يكن هناك من يشك أو ينكر، بسبب تواتر ذكر وجودها، فكذلك آيات القرآن الكريم، وهذا ما سيأتى بيانه إن شاء الله.

و إذا كان بعض المغرضين قد نسبوا للشيعة اعتقادهم بتحريف القرآن، فغايتهم إشعال فتيل التفرقة و الفتنه بين الشيعة و السنه، و قد فندت كتب كبار علماء الشيعة هذه الأباطيل الفاقده لأى دليل منطقى.

و لا نستغرب من الفخر الرازى قوله فى ذيل الآيه مورد البحث: (إن الآيه:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

دليل على بطلان قول الشيعة فى حصول التغيير و الزيادة و النقصان فى القرآن)، ممّا نعلمه عن هذا الرجل من حساسيه و تعصب تجاه الشيعة.

و هنا.. لا بدّ من كلمه: إن كان يقصد بالشيعة كبار علمائهم و محققيهم، فليس هناك من يعتقد بذلك.

و إن كان يقصد بوجود قول ضعيف بهذا الشأن بين أوساط الشيعة، فإنّ نظيره موجود فى أوساط السنه أيضا، و هو ما لم يعتن به من قبل الطرفين.

و قد تطرق لذلك بوضوح المحقق الشيخ جعفر المعروف بكاشف الغطاء فى كتابه (كشف الغطاء) بقوله: لا-ريب أنّه (أى القرآن) محفوظ من النقصان بحفظ الملك الديان، كما دل عليه صريح القرآن، و إجماع العلماء فى كل زمان، و لا عبره بنادر (1).

إنّ التأريخ الإسلامى مزدحم بالتهم الباطله المتغذيه من ثدى العصبية المقيته، مع علمنا القاطع بأنّ أعداء الإسلام يقفون وراء حياكه و نشر هذه التهم لإيقاع البغضاء بين أبناء الدين الواحد، و أنّ غايه ما يسعون إليه أن يروا المسلمين أمّة

ص: ٢٢



مفككه غير قادره على القيام بمهامها الوحديه التوحيديه.

ترى كاتباً معروفاً (من أهل الحجاز) في عرض ذمّه للشيعة من خلال كتابه (الصراع) يقول: (و الشيعة هم أبدا أعداء المساجد) (١).

و الحال لو أجرينا إحصاء لعدد المساجد في شوارع و أسواق و أزقه المدن الشيعيه لأخذ منّا الوقت الطويل لكثرتها، لدرجه أنّ بعضاً من الشيعة بات يشكل على كثره المساجد في المنطقه الواحده و يرى لو يلتفت المحسنون لدور الأيتام و المستشفيات الخيريّه و ما شاكلها، بدلاً من بنائه المساجد لكفايه الموجود و مع هذا ترى كاتباً معروفاً يتحدث بصراحه عن أمر يدعو إلى الضحك.

و عليه فلا ينبغي الاستغراب لما افتراه الفخر الرازي.

### أدله عدم تحريف القرآن:

١- أدله عدم تحريف القرآن كثيره-فبالإضافه الى الآيه محل البحث و آيات أخر-كيفية تعامل الناس مع هذا الكتاب السماوي العظيم عبر التاريخ.

و قبل البدء ينبغي التنويه بأنّ من احتمال التحريف في القرآن، إنّما أراد بذلك حصول النقص فيه، و لم نر من احتمال الزيادة في القرآن.

و نظره فاحصه إلى تاريخ حياه المسلمين نرى من خلالها أنّهم كانوا يعايشون القرآن في كافه مرافق حياتهم، فهو القانون و الدستور الحاكم، و نظام الدوله، و هو الكتاب المقدس السماوي و رمز العباده.. و بعد هذا كله هل يحتمل أن تطرأ عليه الزيادة أو النقصان؟! يحدثنا التاريخ بأنّ القرآن ما كان ليفارق الإنسان المسلم في: صلاته، المسجد، البيت، ميدان الحرب عند مواجهه الأعداء، بل إنّ المسلمين كانوا

ص: ٢٣

---

١-١) -الصراع، لعبد الله على القصيمي، ج ٢، ص ٢٣، على ما نقل عنه العلامة الأميني في الغدير، ج ٣، ص ٣٠٠.

يجعلون تعليم القرآن مهورا للنساء. فكان للقرآن الحضور الفاعل في كل صغيره و كبيره من شؤون المسلمين، حتى أن الطفل ينمو على هديه.

و مرّه أخرى نقول: أو يعقل أن يصاب هذا الكتاب السماوى المقدس بسهام التحريف و التغيير و هو محفوظ فى قلوب و سلوك المسلمين على مرّ التاريخ؟! لقد تمّ جمع القرآن- كما ذكرنا فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير- فى عهد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و اهتمّ به المسلمون الأوائل أقصى درجات الاهتمام، فى مجال تعلم أحكامه، و حفظه، لدرجه أصبحت فيها مكانه الفرد الاجتماعيه تقاس بقدر حفظه من سور القرآن الكريم، حتى أصبح عدد حفاظ القرآن من الكثره بحيث أنّه فى إحدى المعارك قتل فيها أربعة آلاف منهم (١).

و كذلك الحال فى عهد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم حينما استشهد سبعون رجلا من الصحابه الذين حفظوا القرآن فى معركة بئر معونه- و هى إحدى المناطق المجاوره للمدينه- (٢).

من هذين المثليين (و أمثالهما كثير) يتّضح لنا أن حفظه و قراءه و معلمى القرآن الكريم من الكثره بحيث يستشهد منهم فى معركة واحده ذلك العدد الضخم.

و هذا طبيعى جدا إذا ما نظرنا إلى طريقه تعامل المسلمين مع القرآن، باعتباره القانون الحاكم النافذ، و الكتاب المقدس الذى لا يوجد سواه.

لم يكن القرآن الكريم كتابا مهملا فى زوايا البيوت و المساجد يعلوه غبار النسيان حتى تسنح الفرصه لمن يريد أن يزيد فيه أو ينقص، بل إنّ مسأله حفظه كانت و ما زالت عباده عظيمه و سنّه متبعه تمتد جذورها فى عمق التاريخ الإسلامى.

و بعد أن ظهرت الطباعه كان القرآن الكريم أكثر الكتب من حيث الطبع

ص: ٢٤

١-١) -منتخب كنز العمال، كما نقل عنه(البيان فى تفسير القرآن)، ص ٢٦٠.

٢-٢) -سفينه البحار، ج ١، ص ٥٧.

و الانتشار بين صفوف المسلمين في كافة بلدانهم، و لا تخلو مدينه إسلاميه من حفاظ للقرآن. و الأمثله أكثر من أن تقال، ففي البلدان الإسلاميه هناك مدارس خاصه لقراءه و حفظ القرآن و ذكر أحد المطلعين: أنه يوجد في بعض بلاد الإسلاميه ما يقرب من مليون و نصف المليون حافظ للقرآن.

و بناء على ما ذكره فريد و جدى في كتابه (دائره المعارف): إن من شروط امتحان القبول في كليه الأزهر في مصر، هو حفظ القرآن الكريم كاملا و درجه النجاح في ذلك (٢٠) من (٤٠) كحد أدنى.

خلاصه القول: إن حفظ القرآن منذ عصر ظهور الإسلام أصبح سنّه حيه في حياه المسلمين، من خلال ما أمر و أكد عليه النبي صلى الله عليه و آله و سلم (و هو ما تعضده الزوايات الكثيره)، و إلى هنا نعاود طرح السؤال: هل هناك مجال لاحتمال وجود التحريف في القرآن؟! ٢- بالإضافة إلى ما تقدم تواجها مسأله (كتاب الوحي) و هم الأشخاص الذين أو كل إليهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم مهمه تسجيل الآيات القرآنيه بعد نزولها، و يذكر أن عددهم كان بين ١٤-٤٣ رجلا.

يقول أبو عبد الله الزنجاني في كتابه القيم (تاريخ القرآن): (كان للنبي كتياب يكتبون الوحي و هم ثلاثه و أربعون، أشهرهم الخلفاء الأربعة، و كان ألزمهم للنبي زيد بن ثابت و علي بن أبي طالب عليه السلام) فكيف لكتاب له كل هؤلاء الكتياب أن تمتد إليه يد التحريف؟! ٣- دعوه الأئمه المعصومين عليهم السلام للعمل بالقرآن الموجود بين أيدينا. و لو تفحصنا كلامهم عليهم السلام لوجدنا أنهم قد دعوا الناس لتلاوه و دراسه القرآن و العمل على هديه منذ صدر الإسلام و على امتداد وجودهم المبارك بين الناس، و هذا دليل على أن الأيادي المفسده ما استطاعت النيل من هذا الكتاب السماوي.

و خطب الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغه خير شاهد ينطق بهذا الادعاء: فنقرأ

فى الخطبه (١٣٣): «و كتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه، و بيت لا تهدم أركانه، و عز لا تهزم أعوانه».

و

يقول فى الخطبه (١٧٦): «و اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لا يغش، و الهادى الذى لا يضل...».

و نطالع

قوله عليه السلام فى نفس الخطبه المذكوره: «و ما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزياده أو نقصان: زياده فى هدى، أو نقصان من عمى».

و نتابع ذات الخطبه حتى نصل

لقوله عليه السلام: «و إنَّ الله سبحانه لم يعط أحدا بمثل هذا القرآن، فإنَّه حبل الله المتين، و سببه الأمين».

و نقرأ

فى الخطبه (١٩٨): «ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحہ، و سراجا لا يخبو توقده،... و منهاجا لا يضل نهجه،... و فرقانا لا يخمد برهانه» و أمثال ذلك كثير فى كلام على و الأئمه عليهم السلام.

و لو فرضنا أن يد التحريف قد طالت كتاب السماء، فهل من الممكن أن يدعو إليه الأئمه عليهم السلام بهذه القوه؟ و يصفونه بأنہ: صراط هدايه، و سيله التفريق بين الحق و الباطل، التور الذى لا- يطفأ أبدا، مصباح هدايه لا يخبو، حبل الله المتين و العروه الوثقى.

٤- و إذا ما سلمنا ب(خاتميہ) النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن الدين الإسلامى هو خاتم الأديان الإلهيه، و إن رساله القرآن باقيه إلى يوم القيامه.

فهل يصدق أن الله سبحانه سوف لا- يحفظ دليل دينه و حججه نبيه الخاتم صلى الله عليه و آله و سلم؟ و هل يجتمع تحريف القرآن مع بقاء الإسلام عبر آلاف السنين و دوامه حتى نهايه العالم؟! ٥- و هناك دليل آخر على أصاله القرآن و حفظه من أيه شائبه نتلمسه فى روايات الثقلين المرويه عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم بطرق متعدده معتبره.

ص: ٢٦

فقد روى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي، مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا» (١).

فهل يصح هذا التعبير عن كتاب تطاله يد التحريف؟! ٦-بالإضافة إلى كل ذلك فالقرآن طرح على المسلمين باعتباره الحد الفاصل المأمون الجانب في تمييز الأحاديث الصادقة من الكاذبة، وتشير كثير من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى أن صدق أو كذب أي حديث يتبين من خلال عرضه على القرآن، فما وافق القرآن فهو حق و ما خالفه فهو باطل.

فلو افترضنا أن تحريفا قد طرأ على القرآن (و لو بصوره نقصان) فهل يمكن اعتباره فاصلا بين الحق و الباطل، أو معيارا دقيقا لتمييز الحديث الصحيح من السقيم؟!

### روايات التحريف:

يستند القائلون بتحريف القرآن مره على روايات قد أسىء فهمها نتيجة عدم الوصول لما كانت ترمز إليه من معنى، و أخرى على روايات ضعيفه السند و يمكن تقسيم روايات التحريف إلى ثلاثة أقسام:

١- الروايات القائلة: إن علينا عليه السلام شرع بجمع القرآن بعد وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و عند ما تم جمعه عرضه على جمع من الصحابه ممن تربعوا فى مقام الخلافة فلم يقبلوه منه،

فقال على عليه السلام: إنكم لن تروه بعد الآن أبدا.

و بنظره فاحصه إلى تلك الروايات نصل إلى أن القرآن الذى كان عند على

ص: ٢٧

١ - ١) - حديث الثقلين من الأحاديث المتواتره، رواه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جمع من الصحابه مثل: أبو سعيد الخدرى، زيد بن أرقم، زيد بن ثابت، أبو هريره، حذيفه بن أسيد، جابر بن عبد الله الأنصارى، عبد الله حنطب، عبد بن حميد، جبير بن مطعم، ضميره الأسلمى، أبو ذر الغفارى، أبو رافع، أم سلمه و غيرهم.

عليه السلام لا يختلف مع بقيه النسخ من حيث المضمون، سوى اختلافه من حيث العرض و الترتيب فى ثلاثه أمور:

الأول: أن آياته و سوره كانت مرتبه حسب تأريخ النزول.

الثانى: تثبيت سبب النزول لكل آيه و سوره.

الثالث: تضمن تفسير النبى صلى الله عليه و آله و سلم للآيات بالإضافه إلى ذكر النسخ و المنسوخ.

فالقرآن الذى جمعه أمير المؤمنين عليه السلام ليس إلا عين القرآن الموجود سوى أنه أضاف إليه: (التفسير) و (التأويل) و (سبب النزول) و (بيان النسخ و المنسوخ) و ما شابه ذلك. و بعبارة أخرى، و كان قرآنا مع تفسيره الأصيل.

كما أنه

ورد فى كتاب سليم بن قيس: (إن أمير المؤمنين عليه السلام لما رأى غدر الصحابه و قلبه و فائهم لزم بيته، و أقبل على القرآن، فلما جمعه كله، و كتابه بيده، و تأويله النسخ و المنسوخ، بعث إليه أن أخرج فبايع، فبعث إليه إنى مشغول فقد آليت على نفسى لا أرتدى بردائى إلا لصلاه حتى أولف القرآن و أجمعه) (١).

٢- الزوايات المشيره إلى «التحريف المعنوى» للقرآن.

إن التحريف- كما نعلم- على ثلاثة ضروب: لفظى، معنوى، و عملى.

فالتحريف اللفظى: هو تغيير ألفاظ و عبارات القرآن و حصول الزيادة و النقصان فيها. (و هذا ما نرفضه بشده- و جميع محققى الإسلام- و نكره إنكارا قاطعا).

و التحريف المعنوى: هو تفسير الآيه خلافا لمفهومها و معناها الحقيقى.

أمّا التحريف العملى: فهو العمل على خلاف المقتضى.

ففى تفسير على بن إبراهيم عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآيه

ص: ٢٨

(١- ١) -بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤١.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «تَرَدُّ عَلَيَّ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى خَمْسِ رَايَاتٍ، فَرَايَهُ مَعَ عَجَلٍ هَذِهِ الْأَمَّةُ، فَأَسْأَلُهُمْ: مَاذَا فَعَلْتُمْ بِالثَّقَلَيْنِ مِنْ بَعْدِي؟ فَيَقُولُونَ: أَمَّا الْأَكْبَرُ فَحَرَفْنَاهُ وَنَبَذْنَاهُ وَرَاءَ ظَهْرِنَا...» (١).

و واضح أن التحريف هنا يقصد به التحريف المعنوي للقرآن و نبذه وراء الظهر.

### ٣- الروايات المختلفة:

فقد سعى أعداء الدين و المنحرفون عن الصراط المستقيم، و تبعهم الجهلة، في اختلاق بعض الروايات للحط من شرف القرآن و قدسيته، و منها الروايات التي رواها أحمد بن محمد بن السيارى و البالغه (١٨٨) روايه (٢)، و قد استدل العلامة الشيخ التورى بكثير من هذه الروايات في كتابه (فصل الخطاب).

و السيارى هذا مطعون عند كثير من علماء (علم الرجال) و يقولون عليه كان:

فاسد المذهب، لا يعتمد عليه، و ضعيف الحديث.

و على قول بعضهم: إنه من أهل الغلو، منحرف، معروف بالتقول بالتناسخ، و كذاب، و يقول عنه الكشى (صاحب كتاب الرجال المعروف): إن الإمام الجواد عليه السلام وصف ادعاءات السيارى في رسالته بأنها باطله.

مع أن روايات التحريف غير مقتصره على السيارى، إلا أن أكثرها و أهمها تعود إليه.

و بين هذه الروايات المزيفه ما تضحك الكلى، و ينكرها كل ذى لب لبيب، و على سبيل المثال ما جاء في إحداها بخصوص الآيه الثالثه من سوره النساء وَ إِنِ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّهُ: قد سقط بين شرطها و جزاءها ثلث القرآن!!!

ص: ٢٩

١-١) - تفسير البرهان، ذيل الآيه (١٠٦) من سوره آل عمران.

٢-٢) - أورد هذا الإحصاء مؤلف كتاب (البرهان المبين).

و قد ذكرنا فى تفسير الآيه المذكوره، أن الشرط و الجزء فى الآيه مرتبطان ارتباطا تاما، و لم يسقط من بينهما و لو كلمه واحده.

أضف إلى ذلك، أن ثلث القرآن ما يعادل أربعة عشر جزء منه تقريبا، فكيف يدعى هذا المدعى مع ما للقرآن من كتاب وحي و حفاظ و قراء منذ عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و هل يعقل أن يحصل ذلك دون أن يلتفت إليه أحد؟! و كأن هؤلاء لم يعيشوا و يعاشوا التاريخ بواقعيته و جلاءه، ألم يثبت التاريخ بأن الشىء الأساسى فى حياه المسلمين هو القرآن؟ أو لم يكن القرآن يتلى فى آناء الليل و أطراف النهار فى جميع البيوت و المساجد؟ إذن.. فكيف يحتمل إسقاط كلمه واحده دون أن يلتفت إليه أحد، فضلا عن كون السقط ثلث القرآن؟! لا يسعنا إلا أن نقول: إن كذبه بهذه المواصفات لدليل جلى على سذاجه واضعى مثل هذه الأحاديث.

و قد اعتمد الكثير من المتذرعين فى إثبات تحريف القرآن على كتاب (فصل الخطاب) المشار إليه آنفا.

و لا بدّ من الإشارة إلى غرض و غايه هذا الكتاب من خلال ما كتبه تلميذ المؤلف العلامة الشيخ آغا بزرك الطهرانى فى الجزء الأوّل من كتاب (مستدرک الوسائل)، حيث يذكر أنه سمع من استاذه مرارا: إن ما فى كتاب فصل الخطاب لا يمثل عقيدتى الشخصيه، إنّما ألفته للبحث و المناقشه، و أشرت فيه إلى عقيدتى فى عدم تحريف القرآن دون أن أصرح، و كان من الأفضل أن أسميه (فصل الخطاب فى عدم تحريف الكتاب).

ثمّ يقول المحدث الطهرانى: هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه، و أما عمله فقد رأيناه يقيم وزنا لما ورد فى مضامين الأخبار، و يراها أخبار آحاد لا بدّ أن تضرب عرض الحائط، و لا أحد يستطيع نسبه التحريف إلى أستاذنا إلا من هو غير عارف بعقيدته و مرامه.



و أخيراً..فالأيدى المغلوله لا يسعها فى هذا المجال إلا أن تبذل كل جهودها للنيل من أصاله و عظمه و قدسيه كتاب السماء عند المسلمين عن طريق بث الخرافات و الأباطيل.

و طالعنا الصحف من مدّه ليست بالبعيده بأن أباد إسرائيليه صهيونيه قامت بطبع نسخه جديده للقرآن غيروا فيها كثيرا من الآيات القرآنيه، و كما هو معهود فقد انتبه علماء المسلمين بسرعه لهذه الدسيسه الخبيثه و جمعوا تلك النسخ، فباءت محاولتهم بالفشل و الخذلان.

وفات هؤلاء الأعداء من أصحاب القلوب الداكنه، أن نقطه واحده لو غيّرت في القرآن فسيعيدها إلى نصابها المفسرون و الحفاظ و قراء هذا الكتاب العظيم يُريدون أن يُطفئوا نورَ الله بأفواههم و يَأبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١).

ص: ٣١

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْخِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسِيتُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)

التفسير

اشاره

العناد و التعصب:

تواسى الآيات قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم و قلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب فى طريق دعوتهم، من خلال الإشاره إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالاه و المتعصبه.

فتقول أولاً: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْخِ الْأَوَّلِينَ .

و لكنهم من العناد و التعصب لدرجه و مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

ذلك الاستهزاء و تلك السخرية لاعتبارات عدّه:

-مره، يريدون بالسخرية إسقاط شخصيه النبي كى لا يؤثر فى أوساط الفئه الواعيه.

-و أخرى، يحاولون بالاستهزاء تغطيه ضعفهم و عجزهم أمام المنطق القوى و الحجج الدامغه لرسل الله عزّ و جلّ.

-و تاره، يأخذهم الاستغراب لدعوات الأنبياء الثوريه ضد طريقه حياتهم الموبوءه و تقاليدهم الباليه، و لما كانوا مكيفين لها و مسترخين بين أجوائها، فيدفعهم جهلهم و تعصبهم الأعمى لما هو سائد، لأنّ يستهزاءوا.

-و أخرى، محاوله تخدير وجدانهم السارح فى المتاهات كى لا يصحوا على حين غرّه فيعتنق الحق و ينهض بأعباء مسؤوليته.

-و قد يكون الاستهزاء بسبب خطل مقياسهم و معيارهم للقدوه و القائد فما تعارفوا عليه فى مواصفات الزعيم أو القائد، أن يكون من الطبقة الثريه المرفهه، و قيمه الإنسان عندهم من خلال: لباسه الأنيق، مركبه الفاره، بيته الفخم، و حياته المحفوفه بالزخارف و إذا نهض بدعوه الحق إنسان فقير لا يمتلك من حطام الدنيا شيئاً، فسيكون موضع سخريتهم! -و أخيراً، فقبولهم لدعوه الأنبياء عليهم السلام- حسب تصورهم- يستلزم تقويضا لكل شهواتهم الدنيويه، و تحميلهم وظائف جديده لا يطيقونها، فليجئون للاستهزاء لتبرير إعراضهم و انكارهم و إراحه ضمائرهم.

ثمّ يقول جلّ و علا: <sup>□</sup>كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أَى نوصل الآيات القرآنيه الى اعماق وجدانهم و عقولهم.

و مع وضوح البلاغ و التأكيد و بيان المنطق الربانى و إظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزين لا- <sup>□</sup>يُؤْمِنُونَ بِهِ و هو ليس بجديد و قد خلت سنّه الأولين .

و يصل أمر الغارقين فى شهواتهم و المصرين فى عنادهم على الباطل إلى أنّهم

لا يؤمنون حتى و لو فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ و مع ذلك لَقَالُوا إِنَّمَا سَيِّكْرُتُ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ

عجبا، أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد و التعصب! إن الذنوب و الجهل و معاداة الحق تؤثر على الروح الطاهره و الفطره السليمه، فتحجبهما عن رؤيه وجه الحقيقه الناصع، و تمنعهما من إدراك الحقائق، و إذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب و إزاله الموانع، فإن صورته الحق ستتلو في نظره فينكر كل ما هو معقول و محسوس معا، و من الممكن تطهير الفطره في المراحل الأولى، و لكن إذا رسخت في قلبه هذه الحاله و تجذرت و أمست «ملكه» و صفه أخلاقيه، فلا يمكن إزالتها بسهولة، و عندها سوف لا تترك أقوى الأدله العقليه و لا أوضح الأدله الحسيه أى تأثير في قلبه.

## ملاحظات

## إشارة

١- (شيع) جمع (شيعه)، و يطلق على المجموعه و الفرقة التي تمتلك نهجا مشتركا.

يقول الراغب الأصفهاني في كتاب (المفردات) -باب شيع: الشيع الانتشار و التقويه، يقال شاع الخبر أى كثر و قوى، و شاع القوم انتشروا و كثروا، و شيعت النار بالحطب قويتها، و الشيعه: من يتقوى بهم الإنسان.

أما العلامه الطبرسى في (مجمع البيان) فيعتبر أنّ أصلها من المشايعه، و هى المتابعه، يقال شاع فلان فلانا على أمره أى تابعه عليه، و منه شيعه على عليه السلام و هم الذين تابعوه على أمره و دانوا بإمامته، و

في حديث أم سلمه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ:

«شيعه على هم الفائزون يوم القيامة» إشارة لهذا المعنى.

و على أیه حال... فالشيع بمعنى الانتشار و التقويه، أو المشايعه بمعنى

المتابعه، كلاهما دليل على وجود نوع من الاتحاد و الارتباط الفكرى و الدينى فى مفهوم (الشيعة) و (التشيع).

و إطلاق لفظ (شيع) على الأقبام السابقه يدل على أنهم فى قبال دعوه الأنبياء عليهم السلام كانوا متحدين فى توجههم و متأزرين متعاضدين فى عملهم.

فإن كان لأهل الضلال هذا الاتحاد و التنسيق أ فلا ينبغى لأتباع الحق أن يسيروا على نور هديه متكاتفين و متأزرين؟ ٢-مرجع الضمير فى «نسلكه»:

من لطف البارى جلّ شأنه أن يوصل و يفهم آياته للمجرمين و المخالفين بطرق شتى، عسى أن تستقر فى قلوبهم، و لكنّ عدم صلاحيه و لياقه المحل يكون سببا لخروجها من تلك الأجواف النتنه، فتبقى قلوبا غير متأثره، شبيها بمرور الغذاء النافع فى معدة مريضه فلا تتقبله و تقذفه إلى الخارج. (و يستفاد هذا المعنى من (السلوك) الماده الأصلية لعباره «نسلكه»).

و على هذا الأساس فضمير «نسلكه» يعود إلى «الذكر» أى القرآن كما ورد فى الآيات المتقدمه، و كذلك حال الضمير فى لا يُؤْمِنُونَ بِهِ يَعُودُ إِلَيْهِ أَيْضًا، أَى:

إنهم مع كل ذلك لا يؤمنون بالذكر.

فلنحظ التوافق التام بين الضميرين بالضبط كما جاء فى سوره الشعراء فى الآيتين ٢٠٠ و ٢٠١.

و ذهب بعض المفسرين إلى أن ضمير «نسلكه» يعود إلى الاستهزاء المذكور فى الآيه المتقدمه لها، فىكون المعنى: إننا ندخل الاستهزاء و السخرية فى قلوبهم نتيجة لذنوبهم و عنادهم.

و يكفينا لتضعيف هذا التفسير أن نقول: إنه يذهب بالتناسق بين الضميرين.

و نستفيد كذلك من عباره «نسلكه» أنّ على المبلغ و المرشد أن لا يكتفى فى أداء وظيفته بإيصال صوته الى أسمع الناس، بل عليه أن يطرق كل الآفاق حتى

يوصل صوت الحق إلى القلوب ليقترّ فيها.

و بعبارة أخرى، ينبغي الاستفادة من جميع الوسائل...السمعيه و البصريه، البرامج العمليه،الأدب-شعرا و قصه-و الفن الأصيل  
الهادف.لتكون كلمه الحق واضحه لذوى القلوب الواعيه،و الحججه تامه على من ظلم و عاند.

٣-

### سنّه الأولين:

تفيدنا الآيه الآنفه المذكور بأنّ أساليب أهل الضلال الراميه لتخدير الناس و محاوله تفريقهم و إبعادهم عن أولياء الله لا تختص  
بزمان و مكان معينين،بل هى ممارسه موجوده منذ القدم و باقيه ما بقى صراع الحق ضد الباطل على الأرض و لهذا لا ينبغي أن  
نستوحش من ذلك و نتراجع امام المشاكل و العراقيل التى يدبرها الأعداء.

و لا نسمح لليأس من أن يدخل قلوبنا،و لا لأساليب الأعداء من أن تفقدنا الثقه بالنفس فذكر سنن الأولين فى القرآن ما هى إلا  
مواساه و تسليه مؤثره لقلوب دعاه الإيمان.

و إذا ما تصورنا يوما أن نشر دعوه الحق و رفع رايه العدل و الهدايه لا يواجهان برد فعل الأعداء،فإننا فى خطأ كبير،و أقل ما فيه  
أننا سنصاب بحاله اليأس المهلكه،و ما علينا إلا أن نستوعب مسير خط الأنبياء عليهم السّلام فى مواجهاتهم لأعداء الله،و أن  
نجسد ذلك الإستيعاب فى سلوكنا،بل و علينا أن نزداد فى كل يوم عمقا فى دعوتنا.

٤- تفسير فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرِجُونَ :

يظهر هذا المقطع القرآنى-بوضوح-تصويرا لحال المعاندين، فلو أنّ بابا من السماء فتحت لهم و ظلوا يصعدون و ينزلون من  
خلاله،لقالوا:سحرت عيوننا و حجبت عن رؤيه الواقع!(يببدو أنّ المراد من السماء هنا:الفضاء الخارجى الذى لا يمكن النفوذ منه  
بسهوله).

علما بأنّ كلمه «ظلوا» تستعمل لاستمرار العمل فى النهار و تقابلها كلمه

ص: ٣٦

(باتوا) من البيوتته الليل.

و يميل إلى هذا المعنى غالب المفسرين و لكن العجيب أن بعض المفسرين احتملوا عوده ضمير «ظلّوا» إلى الملائكة، فيكون المعنى: أنهم لو رأوا الملائكة تصعد و تنزل من السماء بأمر أعينهم لما آمنوا أيضا.

و لكن إضافه لعدم انسجام هذا الاحتمال مع تسلسل الآيات السابقه و اللاحقه التي تتحدث عن المشركين، أن ذكر الملائكة إنما ورد قبل ست آيات (فعوده الضمير إلى الملائكة بعيد جدًا) فإنّ هذا المعنى يقلل من بلاغه العبارة القرآنيه، لأنّ القرآن يريد أن يقول أنّ المشركين لا يستسلمون للحق حتى لو صعدوا و هبطوا من السماء مرارا في ساعات النهار.

٥-معنى عبارته سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا .

جمله «سُكَّرَتْ» من ماده (سكر) أى: التغطيه.

و يراد بها: أنّ الكافرين المعاندين يقولون: قد غطيت عيوننا عن رؤيه الواقعيات، و إذا رأينا أنفسنا نصعد إلى السماء و نزل إلى الأرض سنحكم على ذلك بأنّه و هم و خيال، كما فى ما يسمّى بالشعوذه التي يستفيد صاحبها من خفه حركه يده فيخدع أنظار الحاضرين بها.

و يضيفون القول: بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ، فبالرغم من أنّ الشعوذه هى لون من ألوان السحر، لكنهم ربما يشيرون إلى ما هو أشد من الشعوذه التي تختص بخداع البصر فقط، ألا و هو السحر الكامل الذي يغطى على كل وجود الإنسان و يفقد معه الإحساس بكل ما هو واقع! فلو أغلقنا عين انسان ما فإنّه لا يفقد الشعور فيما لو أنّه يصعد به إلى الأعلى أو ينزل إلى الأسفل.

فمعنى الآية: لو أخذنا المشركين إلى أقطار السماوات لقالوا أولا: إنّنا أصبنا بالشعوذه، و بعد أن يجدوا أنّ هذه العمليه لا تتوقف على العين فقط فسيقولون حينها: إنّنا مسحورون!

اشاره

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ (١٨)

التفسير

تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات للدلالة على معرفه توحيد الله، و بسياقها جاءت تكمله لبحثى القرآن و النبوه المذكورين فى الآيات السابقه.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا**.

«البروج»: جمع «برج» و يعنى «الظهور»، و لهذا يطلق على البيت الذى يبنى فى سور المدينه أو على سور الحصن الذى يعتصم به المقاتلون، و ذلك لما له من بروز و ارتفاع خاص. و يقال كذلك (تبرجت) للمرأة التى تظهر زينتها.

و البروج السماويه: هى منازل الشمس و القمر. و بعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس و القمر يامعان فسئراها فى كل فصل من فصول السنه و لفته زمنييه معينه يقابلان أحد الصور الفلكيه (الصور الفلكيه: مجموع نجوم على هيئه خاصه) فنقول: إنَّ الشمس فى برج الحمل (١) -مثلا- أو الثور أو الميزان أو العقرب

ص: ٣٨

١-١) -الحمل: مجموع شمسيه تظهر فى السماء على هيئه الحمل تقريبا. و كذلك الثور و الميزان و غيرها.



و يعتبر وجود الأبراج السماويه، و كذلك النظام الدقيق فى حركه منازل الشمس و القمر ضمن هذه البروج (و هو التقويم المجسم لعالم وجودنا)، يعتبر من الأدله الواضحه على علم و قدره الخالق جل و علا.

إنّ هذا النظام العجيب بما يحمل من دقه فى حساب تشكيله يكشف لنا وجود هدف لخلق هذا العالم، و كلما أمعنا النظر فى خلق الله ازددنا مقربه من معرفه الخالق الجليل.

ثم يضيف: زَيْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ (١).

انظروا لإحدى الليالى المظلمه ذات النجوم الكثيره فسترون مجموعات نجميه اثلتفت فيما بينها فى كل زاويه من زوايا السماء، و كأنها حلقات تنظيميه تتجاذب أطراف الحديث، و ترى تلك كأنها ترمقنا شابحه، و أخرى تغمزنا باستمرار و كأنها تدعونا إليها، و يخال من بعضها و كأنها تقترب منّا لشده تلالئها، و تلك التى تنادينا بخافت ضوئها و ينطق لسان حالها من أعماق السماء و جوفها المتباعده.. إننى هنا! هذه اللوحه الشعريه الرائعه ربّما ألفها البعض على أنّها عاديه نتيجه لتكرار المشاهده، و مع ذلك فلها جذب خاص و هى جديره بالتأمل.

و حينما يبرز القمر (و بأشكاله المختلفه) وسط تلك المجاميع، يضيف إلى سحرها و جمالها رونقا جديدا.

و تراها خجله، لا تقوى على أن ترفع رأسها إلا بعد غروب الشمس، فتتألأ الواحده تلو الأخرى، كأنهن يخرجن على استحياء من خلف ستار.. و ما إن يحل الطلوع حتى نراها تفر فرارا لتختفى.

و مضافا الى ذلك فإنّ لها من الجماليه العلميه و الأسرار المخفيه ما لا يصدق، و يكفيك لجماليتها أنّها جعلت أنظار العلماء تشخص إليها منذ آلاف السنين حتى زماننا الذى ما توصل العلماء إلى صناعه المرقبات (التلسكوبات)، إلا للوصول لاكتشاف أسرار جديده عن هذا العالم الدائب الملتهب رغم صمته.

و يضيف فى الآيه التاليه: وَ حَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ .

الآيه المذكوره، من الآيات التى أشبعت شرحا و تفسيراً من قبل المفسرين، و كلّ منهم قد نحى منحى خاصا فى فهم معناها.

و قد ورد ذات المضمون فى سوره الصافات (الآيتان ٦ و ٧) و كذلك فى سوره الجن الآيه (٩).

و ربّما ارتسمت فى أذهان البعض أسئلته لم يسعفوا بالإجابه عنها، فكان لزاما علينا فى بادئ الأمر أن نلقى نظره إلى آراء كبار المفسرين فيما يخص الموضوع الذى نحن بصدده، و من ثم نخرج إلى ما نراه راجحا من هذه الآراء:

١- بعض المفسرين و منهم صاحب تفسير (فى ظلال القرآن) قد اكتفوا بالتفسير الإجمالى و لم يغوصوا إلى كثير من التفاصيل، و لم يعيروا أهميه لكثير من المسائل على اعتبار أنّها حقائق فوق البشر و لا يمكننا إدراكها، و ما علينا إلا أن نهتم بالآيات التى ترتب الآثار على حياتنا العمليه و تنظم لنا السلوك و التوجه الى الحق.

فكتب يقول: و ما الشيطان؟ و كيف يحاول استراق السمع؟ و أى شىء يسترق؟..

كل هذا غيب من غيب الله لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص، و لا جدوى فى الخوض فيه، لأنّه لا يزيد شيئا فى العقيدة و لا يثمر إلا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه، و بما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياه، ثم

لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقته جديده (١).

و ينبغي التنويه هنا إلى أنّ القرآن كتاب سماوى جاء لتوجيه الإنسان إلى الحق، و هو كتاب حياه و تربيته، فإن كان فيه ما لا يخص الحياه الإنسانيه فمن الأولى أن لا- يطرح أصلا، و هذا خلاف التخطيط و المنهج الزباني، و كلّ ما فيه دروس لنا و منهج قويم للحياه.

و التسليم بوجود حقائق غامضه فى القرآن أمر مرفوض.. أو ليس القرآن كتاب نور، و كتابا مبيّنا؟! أو لم ينزل كى يفهمه الناس و يسيروا بهديه؟! فكيف إذن.. لا يهمننا فهم بعض آياته؟! و بكلمه: فإنّ هذا التفسير مرفوض.

٢- يصرّ جمع لا بأس به من المفسّرين (و خصوصا القدماء منهم) على الوقوف عند المعنى الظاهرى لهذه الآيات.

فالسماء هى هذه السماء، و الشهاب هو ما نراه و نسميه شهابا (أى الكرات الصغيره التى تسبح فى الفضاء، و تخرق بين الحين و الآخر جاذبيه الأرض فتنتقل نحوها بسرعه فتخرق نتيجة لاحتكاكها بالهواء المسبب لزياده حرارتها).

و الشيطان هو ذلك الموجود الخبيث المتمرد الذى يحاول أن يخرق أعماق السماوات ليطلع على أخبار ذلك العالم ليوصل تلك الأخبار إلى أوليائه الأشرار على الأرض من خلال استراقه السمع، و لكنّه يمنع من الوصول إلى هدفه برميّه بالشهب (٢).

ص: ٤١

١- ١) - تفسير فى ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٩٦.

٢- ٢) - ذكر هذا التفسير الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، و كذلك الألوسى فى (روح المعانى) بعد طرح الإشكالات المختلفه فى الموضوع اعتمادا على علم الهيئه و الطبقات الفلكيه القديم و أمثال ذلك. و أكثر العلماء فيه البيان من خلال الإجابة على تلك التساؤلات. و لا ضروره لذكرها لما وصل إليه علم الفلك فى يومنا.

٣- و ذهب جمع من المفسرين مثل العلامة الطباطبائي في (تفسير الميزان) و الطنطاوى في تفسير (الجواهر) إلى حمل هذه الآيات على التشبيه و الكناية و ضرب الأمثال، أو ما يسمّى ب (البيان الرمزي) ثم شرحوا ذلك بصور عدّه:

ألف: نقرأ في تفسير الميزان: (أورد المفسرون أنواعا من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين و رميهم بالشهب، و هى مبينه على ما سبق إلى الذهن من ظاهر الآيات و الأخبار، إنّ هناك أفلاكا محيطه بالأرض تسكنها جماعات من الملائكة و لها أبواب لا يلج فيها شيء إلا منها، و إنّ فى السماء الأولى جمعا من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع من الشياطين فيقذفونهم بالشهب.

و قد اتضح اليوم اتضح عيان بطلان هذه الآراء.

و يحتمل -و الله العالم- أنّ هذه البيانات فى كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبه تصور بها الحقائق الخارجه عن الحس فى صوره المحسوس لتقريبها من الحس، و هو القائل عزّ و جلّ فى سوره العنكبوت (٤٣): **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**، و هو كثير فى كلامه تعالى و منه العرش و الكرسي و اللوح و الكتاب.

و على هذا يكون المراد من السماء التى تسكنها الملائكة عالما ملكوتيا ذا أفق أعلى، نسبتة إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسه بأجرامها إلى الأرض، و المراد لاقتراب الشياطين من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقه و الحوادث المستقبله و رميهم بما لا يطيقونه من نور الملكوت (١).

ب- و الطنطاوى فى تفسيره المعروف، هكذا يرى: (إنّ العلماء المحتملين

ص: ٤٢

(١-١) - تفسير الميزان، ج ١٧، ص ١٢٤ (فى تفسير الآيات من سوره الصافات).

المرائين الذين يتبعهم عوام الناس دون أن تكون لهم الأهليه لأن يطلعوا على عجائب السماوات و بدائع العالم العلوى و أجرامه غير المحدوده، و ما يحكمها من نظم و حساب دقيق، فإنّ الله تعالى يمنع عنهم هذا العلم و يجعل هذه السماء المليئه بالنجوم الوضاءه بكل أسرارها فى اختيار من له عقل و نباهه و إخلاص و إيمان، و من الطبيعى أن يمنع هذا الصنف من العلماء من النفوذ فى أسرار هذه السماء، فكل شيطان يطرد عن الحضرة الإلهيه سواء كان من البشر أو من غيرهم، و ليس له حق الوصول إلى هذه الحقائق، و متى ما اقترب منها طرد عنها، فيمكن أن يعيش هكذا أشخاص سنوات كثيره ثم يموتون و لكنهم لا يدركون هذه الأسرار أبداً، لهم أبصار ينظرون بها و لكن لا تستطيع رؤيه هذه الحقائق، أليس العلم لا يناله إلا عشاقه و لا يدرك جماله و لا ينظر إليه إلا عرفاؤه (١)؟! و يقول فى مكان آخر: ما المانع أن تكون هذه التعبيرات كناية، فيكون المنع الحسى رمزا للمنع العقلى، و الكنايه من أجمل أنواع البلاغه، ألا ترى أن كثيرا من الناس حولك محبوسون فى هذه الأرض، غائبه أبصارهم، لا يسمعون إلى الملاء الأعلى و لا يفهمون رموز هذه الدنيا و عجائبها و قد قذفوا من كل جانب، مطرودين حيث طردتهم شهواتهم و عداواتهم و كبرياؤهم و حروبهم و طمعهم و شرهم عن تلك المعانى العالیه (٢)، و إن أصيب أحد بهذه الأهواء يوما بسبب التلوثات التى تملأ قلبه و روحه فإنه سيطرد أيضا.

ج- و له كلام فى مكان آخر، خلاصته: تبقى قائمه بين أرواح البشر المنتقله إلى عالم البرزخ مع الأرواح التى ما زالت مع البشر فى الحياه الدنيا، و إذا ما توفر التشابه و السنخيه فيما بينها فيمكن و الحال هذه إحضارها و التكلم معها فتطلعها على أمور واقع و دقيقه جدا، و لا تتمكن من أن تعطى الصوره الحقيقيه لبعض

ص: ٤٣

١-١) - تفسير الجواهر، ج ٨، ص ١١.

٢-٢) - تفسير الجواهر، ج ١٨، ص ١٠.

الأمر، لأنها لا- تنقل بدقه إلا- ما هو ضمن عالمها المحدود، و لا يمكنها أن تصل إلى عالم أعلى منها، فكما أن الأسماك لا تتمكن من اختراق عالمها المائي، كذلك هذه الأرواح فإنها لا تقوى على الخروج لأكثر من حدود عالمها.

د- وقال بعض آخر: أظهرت الاكتشافات الأ-خيره وجود أشعه قويه تنبعث باستمرار من الفضاء البعيد، و يمكن استلامها على الأرض بوضوح بواسطه أجهزه استقبال خاصه، و إن مصدر هذه الأمواج لا- زال مجهولا، إلا أن بعض العلماء يحتملون وجود كائنات حيه كثيره تعيش على الأ-جرام السماويه البعيده و ربّما كانت متفوقه علينا مدنيا فيرسلون هذه الأمواج ليخبرونا عن وجودهم و بعض أخبارهم، و فى تلك الأخبار مسائل جديده علينا، و لكنّ الجن تسعى للاستفاده من تلك المسائل فتطرد بتلك الأشعه القويه المقتدره على أن لا تصل لفهم ما أرسل إلى أهل الأرض (1).

كانت هذه آراء المفسرين و العلماء و أقوالهم المختلفه.

### نتيجه البحث:

طال بنا البحث فى تفسير الآيات الأنفه الذكر، و قبل الخروج بمحصله البحث لا بدّ من ذكر بعض الملاحظات:

١- أشار القرآن الكريم بكلمه «السما» إلى نفس هذه السماء التى يتبادر الذهن إليها تاره، و إلى السمو المعنوى و المقام العلوى تاره أخرى.

فمثلا نقرأ فى الآيه (٤٠) من سوره الأعرافِ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .

فمن الممكن حمل معنى السماء هنا على الكنايه عن مقام القرب من الله عزّ

ص: ٤٤

و جَلَّ، كما نقرأ فى الآيه العاشره من سوره فاطر إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .

و كما هو بيّن أن كلاً- من الحكم الطيب و العمل الصالح ليسا من الأشياء التى يقال عنها ذلك، بل المراد هو الارتفاع إلى مقام القرب الإلهى و التشرف بالسمو و الرفعه المعنويه.

و المقصود من تعبير «أنزل» و «نزل» فى آيات القرآن هو النزول من الساحة الإلهيه المقدسه على قلب النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و قرأنا فى تفسير الآيه (٢٤) من سوره إبراهيم أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ إِنَّ أَصْلَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الْمَشَارِإِلَيْهَا فِي الْآيَةِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الْفَرْعُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ (و الفرع هنا هو الأصل الثانوى الذى يرتفع فى السماء) و الأئمه عليهم السلام هم الفروع الأصغر (١).

و كذلك ما نقرؤه

فى أحد الأحاديث: «كذلك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء.

لا ريب أن «السماء» المستعمله هنا ليست السماء المشاهده.

نستنتج ممّا سبق أن «السماء» قد استعملت بمفهومها المادى و المعنوى أو الحقيقى و المجازى.

٢- و «النجوم» كذلك، بمفهومها المادى.. هذه الأجرام السماويه التى تشاهد فى السماء. و مفهومها المعنوى.. أولئك العلماء و الأشخاص الذين ينيرون درب المجتمعات البشريه.

فكما أنّ سالك الصحراء و عابر البحر يستهديان بالنجوم و الليالى الحالكه الداكنه، فكذلك المجتمعات البشريه، فإنّها تسلك الطريق السليمه لترشيد حياتها

ص: ٤٥

و نيل سعادتها بنور أولئك المؤمنين الواعين من العلماء و الصالحين.

و

فى الحديث المعروف عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «مثل أصحابى فيكم كمثل النجوم بأبها اقتديتم اهتديتم» (١) و هو إشاره جليه لهذا المعنى.

كما نقرأ فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل الآيه وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ (٢) ..

إن الإمام عليه السلام قال: «النجوم آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم» (٣) .

٣- يستفاد من الروايات العديده التى وردت فى تفسير الآيات المبحوثة، أن منع الشياطين من الصعود إلى السماوات و طردها بالشهب تم حين ولاده النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و يستفاد من بعضها أن ذلك حدث أثناء ولاده عيسى بن مريم عليه السلام كذلك و لكن لفته معينه، و أمّا عند ولاده نبينا الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فقد تم المنع بشكل كامل (٤) .

و من كل ما تقدم يمكننا القول: إن «السما» كناية عن سماء الحق و الإيمان، و الشياطين تسعى أبدا لاختراق هذه السماء و التسلل إلى قلوب المؤمنين المخلصين عن طريق تخدير حماره الحق بأنواع الوسوس لصرعهم.

و لكن علم و تقوى أولياء الله و قاده دعوه الحق من الأنبياء و الأئمة عليهم السلام و العلماء العاملين كفيل بأن يبعد عبده الجبت و الطاغوت عن هذه السماء.

و هذا ما يساعدنا على فهم ذلك الترابط بين ولاده النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو ولاده المسيح عليه السلام، و بين طرد الشياطين عن السماء.

و يساعدنا كذلك على أن نفهم تلك الرابطة بين الصعود إلى السماء و الاطلاع

ص: ٤٦

١-١) -سفينه البحار، ج ٢، ص ٩.

٢-٢) -الأنعام، ٩٧.

٣-٣) -نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥٠.

٤-٤) -نور الثقلين، ج ٣، ص ٥، ٥-تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٦٢٦.



على الأسرار، لتيقننا بعدم وجود أخبار خاصه بين طبقات هذه السماء المشاهده، و كل ما هناك لا يتعدى عجائب الخلقه التي صورها الباري جل شأنه و التي يمكن دراسته الكثير منها على سطح الأرض، و الذي ربما أصبح شبيه بالبيهي من أن الأجرام السماويه المنتشره في الفضاء اللامتناهي بعضها أجرام فاقده للحياه و أخرى حيه، و لكن حياتها ليست كحياتنا.

و لا بدّ من الالتفات إلى أنّ مسأله وجود الشهب منحصره ضمن منطقه الغلاف الجوى للأرض فقط، و ذلك حينما تلتهب تلك الصخور المتساقطه صوب الأرض من خلال احتكاكها بالهواء، أمّا خارج منطقه الغلاف الجوى فخال من الشهب.

نعم، هناك صخور و كرات تسبح في الفضاء إلاّ أنّها لا تسمى شهباً إلاّ بعد دخولها في منطقه الغلاف الجوى فتلتهب و تظهر للعيان على هيئه خط ناري واضح تخيل للناظر أنّها نجمه متحركه بسرعه.

و كما هو معلوم، فإنّ إنسان العصر الحديث قد نفذ مرارا من هذه المنطقه، بل و غالى في نفوذه حتى وطأت قدماه سطح القمر (علما بأنّ سمك الغلاف الجوى يبلغ من مائه إلى مائتي كيلومتر طولاً.. و أنّ القمر يبعد عن الأرض بأكثر من ثلاثمائه ألف كيلومتر).

فإنّ كان المقصود من الشهب في الآيه عين الشهب المشاهده لنا، فيمكن القول: إنّ علماء البشر قد اكتشفوا هذه المنطقه و لم يجدوا الأسرار الخاصه المدعاه.

و الخلاصه: يظهر لنا من خلال ما ذكر من قرائن و شواهد كثيره أن المقصود من السماء هو.. سماء الحق و الحقيقه، و أنّ الشياطين ذوى الوسوس يحاولون أن يجدوا لهم سبيلاً لاخترق السماء و استراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، و لكنّ النجوم و الشهب (و هم القاده الربانيون من الأنبياء و الأئمّه و العلماء) يبعدونهم و يطردونهم بالعلم و التقوى.

و لكن.. بما أن القرآن الكريم بحر غير متناه، فلا ينبغي البناء القطعي على هذا التأويل، وربما المستقبل سيحفل بتفسير آخر لهذه الآيات مستندا على حقائق لم نصل لها في زماننا.

ص: ٤٨

إشاره

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)

التفسير

و إتماما لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، و مظاهر عظمه البارى على وجه البسيطة، و يبدأ بنفس الأرض و الأرض مَدَدْنَاهَا .

«المد»، فى الأصل بمعنى: التوسعه و البسط، و من المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء، لأنّ سطح الأرض (كما هو معلوم) كان مغطى بالمياه بشكل كامل نتيجة للأمطار الغزيره، و استقرت المياه على سطح الأرض بعد أن مرّت السنين الطويله على انقطاع الأمطار، و بشكل تدريجى ظهرت اليابسه من تحت الماء، و هو ما تسمّيه الروايات بـ«دحو الأرض».

ثمّ يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّه كما يه من آيات التوحيد و أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ .

عبر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، ولعل المراد بـ«إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد) لأن الجبال هي الارتفاعات الشاخصه على سطح الأرض الناشئه من بروده قشره الأرض التدريجي، أو من المواد البركانيه.

و من بديع خلق الجبال إضافه إلى كونها أوتادا لتثبيت الأرض و حفظها من التزلزل نتيجه الضغط الداخلى، فإنها تقف كالدرع الحصين فى مواجهه قوه العواصف، بل و تعمل على تنظيم حركه الهواء و تعيين اتجاهه، و مع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صورته ثلوج و عيون.

و استعمال كلمه «رواسى» جمع (راسيه) بمعنى الثابت و الراسخ، إشاره لطيفه لما ذكرناه.

فهى: ثابتة بنفسها، و سبب لثبات قشره الأرض و ثبات الحياه الإنسانيه عليها.

ثم ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياه البشريه و الحيوانيه، ألا و هو النبات وَ أَتُبَّتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ .

ما أجمل هذا التعبير و أبلغه! «موزون» من ماده (وزن) (1)، و يشير بذلك إلى:

الحساب الدقيق، النظام العجيب، و التناسق فى التقدير فى جميع شؤون النباتات، و كل أجزاءها تخضع لحساب معين لا يقبل التخلخل من السارق، الغصن، الورقه، الورده، الحبه و حتى الثمره.

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، و كل تحمل خواصا معينه و لها من الآثار ما يميزها عن غيرها، و هى باب بمعرفه واسع وصولا لمعرفه البارئ المصور جل شأنه، و كل ورقه منها كتاب ينطق بعرفه الخالق.

و قد ذهب البعض إلى أن المقصود هو إحداث المعادن و المناجم المختلفه فى الجبال، لأن كلمه «إنبات» تستعمل فى اللغه العربيه للمعادن أيضا.

ص: ٥٠

وقد وردت الإشارة في بعض الروايات لهذا المعنى،

ففي روايه عن الإمام الباقر عليه السلام عند ما سئل عن تفسير هذه الآية أنبتنا فيها من كل شيء موزون، أنه قال: «فإن الله تبارك و تعالى أنبت في الجبال الذهب و الفضة و الجواهر و الصفر و النحاس و الرصاص و الكحل و الزرنيخ و أشباه هذه لا يباع إلا وزناً» (١).

و هناك من ذهب إلى أن المقصود من الإنبات في الآية إلى معنى أوسع يشمل جميع المخلوقات على هذه الأرض، كما يشير إلى ذلك نوح عليه السلام حين مخاطبته قومه و الله أنبتكم من الأرض نباتاً (٢).

و عليه، فليس هناك ما يمنع من إطلاق مفهوم الإنبات في الآية ليشمل النبات و البشر و المعادن... إلخ.

و بما أن وسائل و عوامل حيازه الإنسان غير منحصره بالنبات و المعادن فقط، ففي الآية التاليه يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب بقوله: وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ .

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحيه حتى الخارجه عن مسؤوليتكم و مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ .

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش» جمع «معيشه»، و هي: الوسائل و المستلزمات التي تتطلبها حياه الإنسان، و التي يحصل عليها بالسعي تاره، و تأتيه بنفسها تاره أخرى.

و مع أن بعض المفسرين قد حصر كلمه «معايش» بالزراعه و النبات أو الأكل و الشرب فقط، و لكن مفهومها اللغوي أوسع من أن يخصص، و يطلق ليشمل كل ما يرتبط بالحياه من وسائل العيش.

و انقسم المفسرون في تفسير مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ إلى قسمين:

ص: ٥١

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦ (يعود ضمير «فيما» بناء على هذا التفسير إلى الجبال).

٢-٢) - سورة نوح، ١٧.

الأول: أن الله تعالى يريد أن يبين مواهبه و نعمه الشامله للبشر و الحيوان و الكائنات الحيه الأخرى التي لا يملك الإنسان أمر تغذيتها و لا يستطيعه.

الثانى: أن الله تعالى يريد تذكير الإنسان بأنه سبحانه هو الرازق، و قد تكفل بإيصال رزقه إلى كل محتاج له سواء كان بواسطة الإنسان أو بواسطة أخرى (١).

و يبدو لنا أن التفسير الأول أكثر صوابا، و يعزز ذلك الحديث المروى فى تفسير على بن إبراهيم، حيث يتناول معنى وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ عَلَى أَنَّهُ:

(لكل ضرب من الحيوان قدرنا له مقدرًا) (٢).

أمّا آخر آيه من الآيات المبحوثة، فتحوى جوابا لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، و هو: لماذا لم تهبأ النعم و الأرزاق بما لا يحتاج إلى سعى و كدح؟! افتنطق الحكمة الإلهيه جوابا: وَ إِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ. فليست قدرتنا محدوده حتى نخاف نفاذ ما نملك، و إنما منبع و مخزن و أصل كل شىء تحت أيدينا، و ليس من الصعب علينا خلق أى شىء و بأى وقت يكون، و لكن الحكمة اقتضت أن يكون كل شىء فى هذا الوجود خاضعا لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنما تنزل إليكم بقدر.

و نقرأ فى مكان آخر من القرآن: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ (٣).

ص: ٥٢

١ - ١) - بناء على التفسير الأول يكون الاسم الموصول «من» فى «من لستم له برازقين» عطفًا على ضمير «لكم» و بناء على التفسير الثانى عطفًا على «معاش» و بعض المفسرين اعترض على التفسير الأول بأن الاسم الصريح المجرور لا يعطف على ضمير مجرور إلا بإعادة ذكر حرف الجر، أى.. دخول اللام على «من» هنا واجبا، و ثمة اعتراض آخر يقول: كيف يطلق الاسم الموصول «من» على غير العاقل؟ و الاعتراضان مردودان، لأن عدم تكرار حرف الجر جار على لسان العرب، و كذا الحال بالنسبة لاستعمال «من» لغير العاقل. بل التفسير الثانى يواجهه ما لسعه المفهوم «للمعاش»، حيث يشمل جميع وسائل الحياه حتى الحيوانات الداجنه و ما شابهها.. و على هذا الأساس رجحنا التفسير الأول.

٢ - ٢) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦.

٣ - ٣) - الشورى، ٢٧.

إنَّ السعى و الكسح فى صراع الحياه يضفى على حركة الإنسان الحيويه و النشاط، و هو بقدر ما يعتبر وسيله سليمه و مشروعه لتشغيل العقول و تحريك الأبدان، فإنه يطرد الكسل و يمنع العجز و يحيى القلب للتحرك و التفاعل مع الآخرين... و إذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الربانى، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشريه؟ فيكفى لحفنه ضئيله من العاطلين، ذوى البطون المنتفخه، و بدون أى وازع انضباطى، يكفيهم لأن يعيشوا فى الأرض الفساد، لماذا؟ لأنَّ الناس ليسوا كالملائكه، بل هناك الأهواء التى تلعب بالقلوب و المغريات التى تدنى إلى الانحراف.

لقد اقتضت الحكمة الربانيه أن يكون الإنسان حاملاً لجميع الصفات الحسنه و السيئه، و يمتحن على هذه الأرض بما يحمل، و بما ذا يعمل، و عن ماذا يتجاوز؟...

و السعى و الحركة لما هو مشروع، المجال الأمثل للامتحان.

و الفقر و الغنى من البلاء الذى يدخل ضمن مخطط التمحيص و الامتحان، فكما أنَّ الفقر و العوز قد يجران الإنسان نحو هاويه السقوط فى مهالك الانحراف، فكذلك الغنى فى كثير من حالاته يكون منشأ للفساد و الطغيان.

**بحوث**

**اشاره**

### **١- ما هى خزائن الله تعالى؟**

نقرأ فى آيات القرآن أن: لله عزَّ و جلَّ خزائن، لله خزائن السماوات و الأرض، بيده خزائن كل شىء.. فما هى خزائنه تعالى؟ «الخزائن» لغه جمع «خزانة»: و هى المكان المخصص لحفظ و تجميع المال.

و هى من ماده (خزن) على وزن (وزن) بمعنى: حفظ الشىء و حبسه.

ص: ٥٣

بديهي، أن من كانت قدرته محدوده و غير قادر على أن يهيء لنفسه كل ما يحتاج إليه على الدوام، يبدأ بجمع ما يملك و خزنه لوقت الحاجه إليه مستقبلا.

و هل يمكن تصور ذلك في شأنه سبحانه؟! الجواب بالنفي قطعاً.. و لهذا فسّير جمع من المفسّرين أمثال العلامه الطبرسي في (مجمع البيان) و الفخر الرازي في (تفسيره الكبير) و الراغب في (المفردات)، فسّيروا خزائن الله بمعنى (مقدورات الله)، يعني: أن كل شيء جمع في خزانه قدره الله، و كل ما يخطه ضروره أو صلاحاً لمخلوقه يخلقه بقدرته.

و قد فسّير بعض كبار المفسّرين «خزائن الله» بأنّها: (مجموع ما في الكون من أصوله و عناصره و أسبابه العامه الماديه، و مجموع الشيء موجود في مجموع خزائنه لا في كل واحد منها) (١).

هذا التفسير و إن كان مقبولاً من الناحيه الأصوليه و لكنّ تعبير «عندنا» ينسجم أكثر مع التفسير الأول.

و أنّ عبارته «خزائن الله» و ما شابهها لا- تصف مقام الرب و شأنه الجليل، و لا- يصح أن نعتبرها بعين معناها، و إنّما استعملت للتقريب، من باب تكلم الناس بلسانهم، ليكونوا أكثر قرباً للسمع و أشد فهماً للمعنى.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ «خزائن» تختص بالماء و المطر، و لكن من الواضح حصر مفهوم «خزائن» بهذا المصداق المحدد تقييداً بلا مقيد لإطلاق مفهوم الآيه، و هو خال من أيّ دليل أو قرينه.

## ٢- النزول مكانى و مقامى

كما بيّنا سابقاً أنّ النزول لا يرمز إلى الحاله المكانيه دوماً (أى النزول من

ص: ٥٤



مكان عال إلى أسفل)، بل يرمز إلى النزول المقامى فى بعض الموارد، فمثلاً.. فى حال وصول نعمه من شخص ذى شأن إلى من هم أقل منه شأنًا، فإنه يعبر عنها بالنزول.

وقد استعملت هذه الكلمه فى القرآن الكريم فى مورد النعم الإلهيه، سواء كانت نازله من السماء إلى الأرض كالمطر، أو ما يتوالد على الأرض كالحيوانات، وهذا ما نلاحظه فى الآيه السادسه من سوره الزمر وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ، وكذلك فى الآيه الخامسه والعشرين من سوره الحديد، بشأن الحديد، وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ... إلخ.

خلاصه القول:

إنّ (نزول) و(إنزال) هنا بمعنى وجود و إيجاد و خلق، و ما استعمال هذا اللفظ إلا لأنها نعم الله عزّ و جلّ التى وهبها لعباده.

ص: ٥٥

اشاره

وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِذَا لَنْحُنُّ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

التفسير

اشاره

دور الرياح والأمطار:

بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة قسما من أسرار الخلقه و النعم الإلهيه كخلق الأرض و الجبال و النباتات و ما تحتاجه الحياه من مستلزمات،يشير في أولى الآيات المبحوثه إلى حركة الرياح و مالها من آثار في عمليه نزول المطر،فيقول: وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ .

«لواقح» جمع «لاقح»...و هي تشير هنا إلى دور الرياح في تجميع قطع الحساب مع بعضها لتهيئه عمليه سقوط الأمطار.

و قد ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن الآيه تشير إلى عمليه تلقيح

النباتات بواسطة الرياح، و بها يستدلون على الإعجاز العلمي للقرآن، على اعتبار أن عصر نزول القرآن ما كان يحظى بما وصل إليه عصرنا من العلوم الحديثه، و أنّ إخبار القرآن بهذه الحقيقه العلميه (علميه التلقيح) من ذلك الوقت لدليل على إعجازه العلمى.

مع قبولنا بحقيقه تلقيح النباتات و دور الرياح فيها، إلا أننا لا نرى ما يشير لما ذهب إليه علماء اليوم لسببين:

الأول: وجود قرينه نزول المطر بعد كلمه لواقع مباشره.

ثانيا: وجود فاء السببيه بينها (بين لواقع و نزول المطر).

مما يبين بشكل جلى أن تلقيح الرياح يعقبه نزول المطر.

و يعتبر ما جاء فى الآيه المباركه من روائع الكلم، حيث شبّه قطع الحساب بالآباء و الأمهات يتم تراوهم بأثر الرياح، فتحمل الأمهات، ثم تلقى بما حملت (قطرات المطر) إلى الأرض.

و يمكن حمل ﴿مَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ على أنها إشاره لخزن ماء المطر فى السحب قبل نزوله، أى إنكم لا تستطيعون استملاك السحب التى هى المصدر الأصلى للأمطار.

و يمكن حملها على أنها إشاره إلى جمع و خزن الأمطار بعد نزولها، أى إنكم لا تقدرّون على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيره حتى بعد نزوله، و أنّ الله عزّ و جلّ هو الذى يحفظها و يخزنها على قمم الجبال بهيئه ثلوج، أو ينزلها فى أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيوننا و آبارا.

ثمّ ينتقل من مظاهر توحيد الله إلى المعاد و مقدماته: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾، فيذكر مسأله الحياه و الموت التى تعتبر من أهم المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسأله من مكملات موضوع التوحيد، باعتبار مسأله الحياه منذ بدايتها و حتى انتهائها بالموت تشكل نظاما مترابطا فى عالم

الوجود لا- يمكن تصور تشكيله إلا- بوجود علم و قدره مطلقين،بالإضافة إلى أن وجود الحياه و الموت بحد ذاته دليل على أن موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عما هو بأيديها،و أن الوارث الحقيقي لكل شيء هو الله تعالى.

ثُمَّ يَضِيفُ: وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ .

أى،نحن على علم بهم و بما يعملون،و إن أمر محاسبتهم و جزائهم فى المعاد علينا سهل يسير.

و لهذا،نرى الآيه التى تليها: وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ مرتبطه تماما مع ما قبلها و متممه من خلال طرحها مسأله ما سيكون بعد الموت..فحكمه البارى أوجبت أن لا يكون الموت نهايه لكل شيء.

فلو أن الحياه انحصرت بهذه الفتره الزمنيه المحدوده و ينتهى كل شيء بالموت لكانت عمليه الخلق عبثا،و هذا غير معقول،لأنه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمه الإلهيه اقتضت من «حياه الدنيا أن تكون مرحله استعداد لمسيره دائمه نحو المطلق»،و بتعبير آخر.مقدمه الحياه أباديه خالده.و أميا كونه سبحانه عليما..فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة فى قلب هذا العالم الطبيعى من جهه،و كذلك فى اعماق وجود الإنسان من جهه أخرى،و لا تخفى عليه خافيه يوم يقوم الحساب.

و كونه سبحانه الحكيم العليم فى هذا المورد دليل قوى و عميق الغور على مسأله الحشر و المعاد.

**بحث**

**اشاره**

**من هم المستقدمون و المستأخرون؟**

ذكر المفسرون فى تفسير وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا

ص: ٥٨

احتمالات كثيرة، فذكر العلامة الطبرسى فى (مجمع البيان) ستة احتمالات، و القرطبى ثمانية احتمالات، و أبو الفتوح الرازى بحدود العشره احتمالات، و الملاحظه الدقيقه تظهر أنه يمكن لنا أن نجمع كل ما ذكره فى تفسير واحد، لأن كلمه «المستقدمين» و «المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين و المتأخرين من حيث الزمان، و كذلك من حيث أعمال الخير و الجهاد و حتى الحضور فى الصفوف المتقدمه لصلاه الجماعه و ما شابهها. و إذا ما أخذنا بهذا المعنى الجامع فيمكننا جمع كل الاحتمالات الوارده فى «تقدم» و «تأخر» المذكورتين فى الآيه فى تفسير واحد.

و فيما

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى الحث على الاشتراك فى الصف الأول من صفوف صلاه الجماعه أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ و ملائكته يصلون على الصف المتقدم» فزادهم الناس و كانت دور بنى عذره بعيده عن المسجد فقالوا: «لنبيعن دورنا و لنشترين دورا قريبه من المسجد حتى ندرك الصف المقدم»، فنزلت هذه الآيه.

(و أفهمتهم على أن الله تعالى عليم بتياتكم، فحتى لو كنتم فى الصف الأخير فإنه يكتب لكم ثواب الصف الأول حسب تيتكم و عزمكم على ذلك).

فمحدوده شأن نزول الآيه لا يكون أبدا سببا لحصر مفهومها الواسع.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَبَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجِدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْمَآرِضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهُمَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)

## خلق الإنسان:

بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات الله في الآيات السابقة، تأتي هذه الآيات لتبين أن الهدف الأساسي من إيجاد كل الخلق إنما هو خلق الإنسان. وتتطرق الآيات إلى جزئيات عديده في شأن الخلق، زاخره بالمعاني.

وقبل الدخول في بحوث مفصله حول بعض المسائل التي ذكرت في الآيات المباركات نشرع بتفسير إجمالي..

يقول تعالى في البدايه: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** ، «الصلصال» هو التراب اليابس الذي لو اصطدم به شيء أحدث صوتا... و«الحما المسنون» هو طين متعفن.

**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ**

«السَّمُوم» لغه: الهواء الحارق، وسمى بالسموم لأنه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان، وكذلك يطلق على المادة القاتله (السم) لأنها تنفذ في بدن الإنسان و تقتله.

ثم يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مره أخرى فيتعرض إلى كلام الله تعالى مع الملائكه قبل خلق الإنسان: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وَهُوَ رُوحٌ شَرِيفٌ طَاهِرٌ جَلِيلٌ فَفَعَلُوا لَهُ سَاجِدِينَ** .

و بعد أن تم خلق الإنسان من الجسم و الروح المناسبين فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

و لم يعص هذا الأمر إلا إبليس: إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ .

و هنا سأل الله إبليس: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ .

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقاً في بحر الغرور المظلم، و تائها في حب النفس المقتسم، و بعد أن غطى حجاب الخسران عقله.. أجاب بوقاحة قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ .. فأين النار المضيئه من التراب الأسود المتعفن! و هل لموجود شريف مثلي أن يتواضع و يخضع لموجود أدنى منه! أى قانون هذا؟!..

و نتيجة للغرور و حب النفس، فقد جهل أسرار الخليقه، و نسى بركات التراب الذى هو منبع كل خير و بركه، و الأهم من ذلك كله.. فقد تجاهل شرافه تلك الروح التى أودعها الرب فى آدم.. و كنتيجة طبيعیه لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون فى درجه الملائكه و بين صفوفهم، فجاء الأمر الإلهى مقررعا: قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، أى أخرج من الجنه، أو من السماوات أو اخرج من بين صفوف الملائكه.

و اعلم يا إبليس بأن غرورك أصبح سببا لكفرك، و كفرك قد أوجب طردك الأبدى وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أى، إلى يوم القيامة.

و هنا.. حينما وجد إبليس نفسه مطرودا من الساحة الإلهيه، ساوره إحساس بأن خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد و الضغينه فى قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم عليه السلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقيقى يرجع إلى إبليس نفسه و ليس لآدم دخل فى ذلك، إلا أن غروره و حبه لنفسه و عناده المستحکم لم يعطياه الفرصه لدرك حقيقه شقائه، و لهذا قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، ليركز عناده و عداؤه! و قبل الله تعالى طلبه: قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ .

و لكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد، بل إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . فما هو



يوم الوقت المعلوم؟ قال بعض المفسرين: هو نهايه هذا العالم و انتهاء التكليف، لأنّ بعد ذلك (كما يفهم من ظاهر الآيات القرآنيه) تحلّ نهايه حياه جميع الكائنات، و لا يبقى حى إلا الذات الإلهيه المقدسه، و من هذا نفهم حصول الموافقه على بعض طلب إبليس.

و قال بعض آخر: هو زمان معين لا يعلمه إلا الله، لأنه لو أظهره عزّ و جلّ لكان لإبليس ذريعه فى المزيد من التمرد و المعاصى.

و ثمه من قال: إنّه يوم القيامه، لأنّ إبليس أراد أن يكون حيا إلى ذلك اليوم ليكون بذلك من الخالدين فى الحياه، و إن يوم الوقت المعلوم قد ورد بمعنى يوم القيامه فى سوره الواقعه (الآيه ٥٠/٥٠)، و هو ما يعزز هذا القول.

و يبدو أن هذا الاحتمال بعيد جدا لأنه يتضمن الموافقه الإلهيه على كل طلب إبليس، و الحال أن ظاهر الآيات المذكوره لا تعطى هذا المعنى، فلم تبيّن الآيات أن الله استجاب لطلبه بالكامل، بل يوم الوقت المعلوم... و من هنا يكون التفسير الأوّل أكثر توافقا مع روح و ظاهر الآيه، و كذلك ينسجم مع بعض الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص (١).

و هنا أظهر إبليس نيته الباطنيه قَال رَبِّ بِمَا أَعُوذُ بِكَ وَ كَانَ هَذَا الْإِنْسَانَ سَبِيًّا لِشِقَائِي لَمَأَزَيْنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ نِعْمَهَا الْمَادِيه وَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ بِالْهَائِهِمْ بِتِلْكَ النِّعَمِ.

إلاّ أنه يعلم جيدا بأن وساوسه سوف لن تؤثر فى قلوب عباد الله المخلصين، و أنّهم متحصنون من الوقوع فى شباكه، لأنّ قوه الإيمان و درجه الإخلاص عندهم بمكان يكفى لدرء الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم.. و لهذا نراه قد استثنى فى طلبه إلاّ عبادك منهم المخلصين .

ص: ٦٣

من البديهي أنّ الله سبحانه منزّه عن تضليل خلقه، إلاّ- أنّ محاوله إبليس لتبرير ضلاله و تبرئه نفسه جعلته ينسب ذلك إلى الله سبحانه و تعالى. هذا الموقف هو ديدن جميع الأبالسه و الشياطين، فهم يلقون تبعه ذنوبهم على الآخرين أوّلا و من ثمّ يسعون لتبرير أعمالهم القبيحه بمنطق مغلوّط ثانيا، و المصيبة أن مواقفهم تلك إنّما يواجهون بها ربّ العزه و الجبروت، و كأنّهم لا يعلمون أنّه لا تخفى عليه خفيه.

و ينبغي ملاحظه أنّ «المخلصين» جمع مخلص (بفتح اللام) و هو- كما بيّناه في تفسير سوره يوسف- المؤمن الذي وصل إلى مرحله عاليه من الإيمان و العمل بعد تعلم و تربيته و مجاهده مع النفس، فيكون ممتنعا من نفوذ وساوس الشيطان و أيّ وساوس آخر.

ثمّ قال تعالى تحقيرا للشيطان و تقويه لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ .

يعنى، يا إبليس ليس لك القدره على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلاّ- المنحرفين عن الصراط المستقيم و المستجيبين لدواعى رغباتهم و ميولهم.

و بعبارة أخرى... إنّ الإنسان حر الإراده، و إنّ إبليس و جنوده لا يقوون على أن يجبروا إنسانا واحدا على السير فى طريق الفساد و الضلال، لكنّه الإنسان هو الذى يلبى دعوتهم و يفتح قلبه أمامهم و يأذن لهم فى الدخول فيه! و خلاصه القول: إنّ الوسواس الشيطانيه و إن كانت لا- تخلو من أثر فى تضليل و انحراف الإنسان، إلاّ- أنّ القرار الفعلى للانصياع للوسواس أو رفضها يرجع بالكامل إلى الإنسان، و لا- يستطيع الشيطان و جنوده مهما بلغوا من مكر أن يدخلوا قلب إنسان صاحب إرادته موجهه صوب الإيمان المخلص.

و أراد الله سبحانه بهذا القول نزع الخيال الباطل و الغرور الساذج من فكر

الشیطان من أنه سيجد سلطه فائقه على الناس و بلا منازع، يمكنه من خلالها إغواء من يريد.

ثم يهدد الله بشده أتباع الشيطان: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ و أن ليس هناك وسيله للفرار، و الكل سيحاسب فى مكان واحد.

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ

هى أبواب للذنوب التى يدخلون جهنم بسببها، و كل يحاسب بذنبه.. كما هو الحال فى أبواب الجنه التى هى عباره عن طاعات و أعمال صالحه و مجاهده للنفس يدخل بها المؤمنون الجنه.

**بحوث**

**اشاره**

### **١- التكبر و الغرور من المهالك العظام:**

المستفاد تربويا من قصه إبليس فى القرآن هو أن الكبر و الغرور من الأسباب الخطيره فى عمليه الانهيار و السقوط من المكانه المحترمه الوسيط المرموقه إلى مدارك الدون و الخسران.

فكما هو معلوم أن إبليس لم يكن من الملائكه (كما تشير إلى ذلك الآيه الخمسون من سوره الكهف) إلا أنه ارتقى الدرجات العلا- و نال شرف العيش بين صفوف الملائكه نتيجة لطاعته السابقه لله عزّ و جلّ، حتى أن البعض قال عنه: إنه كان معلما للملائكه، و يستفاد من الخطبه القاصعه فى (نهج البلاغه) أنه عبد الله عزّ و جلّ آلاف السنين.

لكن شراك التعصب الأعمى و عباده هوى النفس المهلك قد أدّى الى خسارته كل ذلك فى لحظه تكبر و غرور.

بل إن حب الذات و الغرور و التعصب و التكبر قد جعلته يستمر فى موقفه

المريض و يوغل قدمه فى وحل الإصرار على الإثمّ و السير المتخبط فى جاده العناد،فنى أو تناسى ما للتوبه و الاستغفار من أثر إيجابى،حتى دعتة الحال لأن يشارك كل الظلمه و المذنبين من بنى آدم فى جرائمهم و ذنوبهم بوسوسته لهم...

و بات عليه أن يتحمل نصيبه من عذاب الجميع يوم الفزع الأكبر.

و ليس إبليس فحسب،بل إنّ التّاريخ يحدثنا عن أصحاب النفوس المريضة ممن ركبهم الغرور و الكبر فعاثوا فى الأرض فسادا بعد أن غطت العصبية رؤاهم، و حجب الجهل بصيرتهم،و سلكوا طريق الظلم و الاستبداد و سادوا على الرقاب بكل جنون فهبطوا إلى أدنى درجات الرذيله و الانحراف عن الطريق القويم.

إنّ هاتين السمتين الأخلاقيتين(التكبر و الغرور)فى الواقع..نار رهيبه محرقه.فكما أن من صرف و طراً من عمره فى بناء و تأنيث دار،لربّما فى لحظات معدودات يتحول إلى هباء منثور بسبب شراره صغيره..فالتكبر و الغرور يفعل فعل النّار فى الحطب و لا تنفع معه تلك السنين المعموره بالطاعه و البناء.

فأىّ درس أنطق من قصه إبليس و أبلغ؟! إنّ إبليس قد اختلطت عليه معانى الأشياء فراح يضع المعانى حسب تصوراته الخادعه المحدوده و لم يدرك أن النّار ليست أفضل و أشرف من التراب، و التراب مصدر جميع البركات كالنباتات و الحيوانات و المعادن و هو محل حفظ المياه،و بعبارة اشمل هو منبع و أصل كل الكائنات الحيه،و ما عمل النّار إلاّ الإحراق و كثيرا ما تكون مخربه و مهلكه.

و يصف أمير المؤمنين عليه السّلام إبليس بأنّه

«عدو لله،إمام المتعصبين و سلف المستكبرين» ثمّ

يقول: «ألا ترون كيف صغّره الله بتكبره و وضعه بترفعه،فجعله فى الدنيا مدحورا و أعد له فى الآخره سعيرا» (1).

ص: ٦٦

(١- ١) -نهج البلاغه،من الخطبه ١٩٢.

و كما أشرنا سابقا أنّ إبليس كان أوّل من وضع أسس مذهب الجبر الذى ينكره وجدان أى إنسان. حيث أنّ الدافع المهم لأصحاب هذا المذهب تبرئه ساحه المذنبين من أعمالهم المخالفه لشرع الله، و كما قرأنا فى الآيات مورد البحث من أنّ إبليس تذرّع بتلك الكذب الكبيره لأجل تبرئه نفسه، و أنّه على حق فى إضلاله لبنى آدم حين قال: رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَمَا زَيَّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

## ٢- على من يتسلط الشيطان؟

نرى من الضرورى أن نكرر القول بأنّ نفوذ الوسواس الشيطانيه فى قلب الإنسان لا- تأتي فجأه أو إجبارا، و إنما بوجود الرغبه الكافيه عند الإنسان بفسح المجال أمام دخول الوسواس إلى دواخله، و على هذا فالشيطان يعلم تماما بأن ليس له سبيل على المخلصين الذين طهّروا أنفسهم فى ظل التربيه الخالصه من الشوائب و الأدران و غسلوا قلوبهم من صدأ الشرك و الضلال. و بتعبير القرآن الكريم إنّ رابطة الشيطان مع الضالين هى رابطة التابع و المتبوع و ليس رابطة المجر و المجبور.

## ٣- أبواب جهنم!

قرأنا فى الآيات مورد البحث أن لجهنم سبعة أبواب (و ليس بعيدا أن يكون ذكر العدد فى هذا المورد للكثرة كما ورد هذا العدد فى الآيه السابعه و العشرين من سوره لقمان بهذا المعنى أيضا).

و من الواضح أنّ تعدد أبواب جهنم (كما هو تعدد أبواب الجنّه) لم يكن لتسهيل أمر دخول الواردين نتيجه لكثرتهم، بل هى إشاره إلى الأسباب و العوامل المتعدده التى تؤدى لدخول الناس فى جهنم، و أنّ لكل من هذه الذنوب باب معين

يؤدي إلى مدركه.

ففي نهج البلاغه: «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّه أوليائه» (١) ، و

في الحديث المعروف: «إن السيوف مقاليد الجنّة».. فهذه التعبيرات تبين لنا بوضوح ما المقصود من تعدد أبواب الجنّة و النار.

و ثمه نكته لطيفه في ما

روى عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ للجنة ثمانيه أبواب» (٢) ، في حين أن الآيات تذكر أن لجهنم سبعة أبواب، وهذا الاختلاف في العددين إشاره إلى أنّه مع كثره أبواب العذاب و الهلاك إلا أن أبواب الوصول إلى السعاده و النعيم أكثر، (وقد تحدثنا عن ذلك في تفسير الآيه الثالثه و العشرين من سوره الرعد).

#### ٤- (الحمأ المسنون) و (روح الله):

يستفاد من الآيات أن خلق الإنسان تمّ بشيئين متغايرين، أحدهما في أعلى درجات الشرف و الآخر في أدنى الدرجات (بقياس ظاهر القيمه).

فالطين المتعفن خلق منه الجانب المادى منه الإنسان، في حين جانبه الروحي و المعنوى خلق بشيء سمي (روح الله).

و بديهى أنّ الله سبحانه منزّه عن الجسيمه و ليس له روح، و إنّما أضيف الروح إلى لفظ الجلاله لإضفاء التشريف عليها و للدلاله على أنّها روح ذات شأن جليل قد أودعت في بدن الإنسان، بالضبط كما تسمى الكعبه (بيت الله) لجلاله قدرها، و شهر رمضان المبارك (شهر الله) لبركته.

و لهذا السبب نرى أن الخط التصاعدي الإنسان يتساهى في العلو حتى يصل الى أن لا يرى سوى الله عزّ و جلّ، و خط تسافله من الانحطاط حتى يركد في

ص: ٦٨

١- ١) - نهج البلاغه، الخطبه ٢٧.

٢- ٢) - الخصال للشيخ الصدوق - باب الثمانيه.

أدنى مرتبه من الحيوانات بَيْلٌ هُمْ أَضَلُّ و هذا البون الشاسع بين الخطين التصاعدي و التنازلي بحد ذاته دليل على الأهميه الاستثنائية لهذا المخلوق.

إنَّ شرف مقام الإنسان و تكريمه يأتي من خلال هذا التركيب الخاص، و لكن ليس بفضل جنبته الماديه لأنه ليس سوى (حمأ مسنون) و إنما بفضل الروح الإلهيه المودعه فيه، بما تحمل من استعدادات و لياقه لأن تكون منعكسا للأنوار الإلهيه، تلك الأنوار التي استمد منها الإنسان شرف قدره و مقامه.. و لا سبيل لتكامل الإنسان إلا ببنائه الروحي و وضع بعده المادى فى خدمه طريق التكامل و الوصول لساحه رضوانه جل شأنه.

و المستفاد من الآيات المتعلقة بخلق آدم فى أوائل سوره البقره أنّ مسأله سجود الملائكه لآدم، كان لما أودع فيه من العلم الإلهي الخاص.

و قد أجبنا على سؤال: كيف يصحّ السجود لغير الله؟ و هل أنّ سجود الملائكه كان فى حقيقه لله عزّ و جلّ لأجل هذا الخلق العجيب؟ أم كان لآدم؟.. فى تفسير الآيات المتعلقة بخلق آدم سوره البقره.

#### ٥- ما هو الجن؟

إنّ كلمه (الجن) فى الأصل بمعنى: الشىء الذى يستر عن حس الإنسان، فمثلا نقول (جنّه الليل) أو (فلما جنّ عليه الليل) أى عند ما غطته ستاره الليل السوداء، و يقال (مجنون) لمن فقد عقله أى ستر، و (الجنين) للطفل المستور فى رحم أمّه، و (الجنّه) للبيستان الذى تغطى أشجاره أرضه، و (الجنان) للقلب الذى ستر داخل صدر الإنسان، و (الجنّه) للدرع الذى يحمى الإنسان من ضربات الأعداء.

و المستفاد من آيات القرآن أنّ «الجنّ» نوع من الموجودات العاقله قد سترت عن حس الإنسان، و خلقت من النار، أو من مارج من نار، أى من صافى

شعلتها، وإبليس من هذا الصنف.

وقد عبّر بعض العلماء عن الجن بأنها: نوع من الأرواح العاقله المجرده من الماده (و واضح أن تجردها ليس كاملا، فما يخلق من الماده فهو مادي، ولكن يمكن أن يكون نصف مجرد لأنه لا يدرك بحواسنا، وبتعبير آخر: إنه نوع من الجسم اللطيف).

و يستفاد من الآيات القرآنيه أيضا أنّ الجن فيهم المؤمن المطيع و الكافر العاصي، و أنّهم مكلفون شرعا، و مسئولون.

و من الطبيعي أنّ شرح هذه الأمور و مسأله انسجامها مع العلم الحديث يتطلب منا بحثا مطولا، و سنتناوله إن شاء الله في تفسير سورة الجن.

و ممّا ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد.. أنّ كلمه «الجان» الوارده في الآيات مورد البحث هي من ماده (الجن) و لكن.. هل ترمزان إلى معنى واحد؟ فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الجان نوع خاص من الجن، و لكننا لا نرى ذلك.

فلو جمعنا الآيات القرآنيه الوارده بهذا الشأن مع بعضها البعض لا- تضح أن كلا- المعنيين واحد، لأن الآيات القرآنيه وضعت «الجن» في قبال الإنسان تاره، و وضعت «الجان» تاره أخرى.

فمثلا نقرأ في الآية (٨٨) من سورة الإسراء قُلْ لئن اجتمعت الإنس و الجن .

و في بعض الآيه (٥٦) من سورة الذاريات و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون .

في حين نقرأ في الآية (١٥) من سورة الرحمن خلقت الإنسان من صلصال كالفخار و خلق الجن من نار .

و في الآية (٣٩) من نفس السوره فيؤمئذ لا يسئل عن ذنبه إنس و لا جان .

فمن مجموع الآيات أعلاه و الآيات القرآنيه الأخرى يستفاد بوضوح أن الجن و الجان لفظان لمعنى واحد، و لهذا وردت في الآيات السابقه كلمه «الجن»



فى مقابل الإنسان، و كذا الحال بالنسبه «للجان».

و ينبغى التنويه إلى أن القرآن الكريم قد ذكر «الجان» و يريد به نوعا من الأفاعى كما جاء فى قصه موسى عليه السلام كَأَنَّهُمَا جَانٌّ فى سورة القصص -٣١، إلا أن ذلك خارج نطاق بحثنا.

## ٦- القرآن و خلق الإنسان:

شاهدنا فى الآيات الأنفه أن القرآن قد تناول مسأله خلق الإنسان بشكل مختصر و مكثف تقريبا، لأن الهدف الأساسى من تناول هو الجانب التربوى فى الخلق، و ورد نظير ذلك فى أماكن أخرى من القرآن، كما فى سورة السجده، و المؤمنون، و سورة ص، و غيرها.

و بما أن القرآن الكريم ليس كتابا للعلوم الطبيعه بقدر ما هو كتاب حياه الإنسان يرسم له فيه أساليب التربيه و أسس التكامل. فلا ينتظره منه أن يتناول جزئيات هذه العلوم من قبيل تفاصيل: النمو، التشريح، علم الأجنه، علم النبات و ما شابه ذلك، إلا أنه لا يمنع من أن يتطرق بإشارات مختصره إلى قسم من هذه العلوم بما يتناسب مع البحث التربوى المراد طرحه.

بعد هذه المقدمه نشرع بالموضوع من خلال بحثين:

١- التكامل النوعى من الناحيه العلميه.

٢- التكامل النوعى وفق المنظور القرآنى.

فى البدء، نتناول البحث الأول و ندرس المسأله وفق المقاييس الخاصه للمعلوم الطبيعه بعيدا عن الآيات و الروايات:

ثمه فرضيتان مطروحتان فى أوساط علماء الطبيعه بشأن خلق الكائنات الحيه بما فيها الحيوانات و النباتات:

ألف: فرضيه تطوّر الأنواع (ترانسفورميسم) و التى تقول: إن الكائنات الحيه

لم تكن في البدايه على ما هي عليه الآن، وإنما كانت على هيئه موجودات ذات خليه واحده تعيش فى مياه المحيطات، و ظهرت بطفره خاصه من تعرقات طين أعماق البحار.

أى أنها كانت موجودات عديمه الروح، و قد تولدت منها أوّل خليه حيه نتيجه لظروف خاصه.

و هذه الكائنات الحيه لصغرها لا ترى بالعين المجزّده و قد مرت بمراحل التكامل التدريجى و تحولت من نوع إلى آخر.

و تمّ انتقالها من البحار إلى الصحارى و منها إلى الهواء...فتكونت بذلك أنواع النباتات و الحيوانات المائيه و البريه و الطيور.

و إن أكمل مرحله و أتمّ حلقه لهذا التكامل هو الإنسان الذى نراه اليوم، الذى تحول من موجودات تشبه القروذ إلى القروذ التى تشبه الإنسان ثم وصل إلى صورته الحاليه.

ب-فرضيه ثبوت الأنواع(فيكنسيسم)، و التى تقول: إنّ أنواع الكائنات الحيه منذ بدايتها و ما زالت تحمل ذات الأشكال و الخواص، و لم يتغير أى من الأنواع إلى نوع آخر، و من جملتها الإنسان فكان له صورته الخاصه به منذ بدايه خلقه.

و قد كتب علماء كلا الفريقين بحثوا مطوله لإثبات عقيدتهم، و جرت مناظرات و منازعات كثيره فى المحافل العلميه حول هذه المسأله، و قد اشتد النزاع عند ما عرض كل من (لامارك) العالم الفرنسى المعروف المتخصص بعلوم الأحياء و الذى عاش بين أواخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر، و (داروين) عالم الأحياء الإنكليزى الذى عاش فى القرن التاسع عشر نظراتهما فى مسأله تطوّر الأنواع بأدله جديده.

و ممّا ينبغى التنويه إليه، هو أنّ معظم علماء اليوم يميلون إلى فريضه تطوّر أو

تكامل الأنواع هذه خصوصا في محافل العلوم الطبيعيه.

### أدله القائلين بالتكامل:

يمكننا تلخيص أدلتهم بثلاثة أقسام:

الأول: الأدله المأخوذه من الهياكل العظيمة المتحجره للكائنات الحيه القديمه فإن الدراسات لطبقات الأرض المختلفه (حسب اعتقادهم) تظهر أن الكائنات الحيه قد تحولت من صور بسيطه إلى أخرى أكمل و أكثر تعقيدا، ولا يمكن تفسير ما عثر عليه من متحجرات الكائنات الحيه إلا بفرضيه التكامل هذه.

الثاني: مجموع القرائن التي جمعت في (التشريح المقارن).

و يؤكد هؤلاء العلماء عبر بحوثهم المطوله المفصله: إننا عند ما نشرح الهياكل العظيمة للحيوانات المختلفه و نقارنها فيما بينها، نجد أن ثمة تشابها كبيرا فيما بينها، مما يشير إلى أنها جاءت من أصل واحد.

الثالث: مجموع القرائن التي حصل عليها من (علم الأجنه).

فيقولون: إننا لو وضعنا جميع الحيوانات في حالتها الجنينه- قبل أن تأخذ شكلها الكامل- مع بعضها، فسنرى أن الأجنه قبل أن تتكامل في رحم أمهاتها أو في داخل البيوض تشابه إلى حد كبير.. وهذا ما يؤكد على أنها قد جاءت في الأصل من شيء واحد.

### أجوبه القائلين بثبوت الأنواع:

إلا أن القائلين بفرضيه ثبوت الأنواع لديهم جواب واحد لجميع أدله القائلين بالتكامل و هو: أن القرائن المذكوره لا تملك قوه الإقناع، و الذي لا يمكن إنكاره أن الأدله الثلاثه توجد في الذهن احتمالا ظنيا لمسأله التكامل، إلا أنها لا تقوى أن تصل إلى حال اليقين أبدا.

و بعبارة أوضح: إنَّ إثبات فرضيه التكامل و انتقالها من صورته فرض علمى إلى قانون علمى قطعى..إمّا أن يكون عن طريق الدليل العقلى، أو عن طريق الحس و التجربة و الإختيار، و لا ثالث لها.

أمّا الأدله العقلية و الفلسفيه فليس لها طريق إلى هذه المسائل كما نعلم، و أما يد التجربة و الإختيار فأقصر من أن تمتد إلى مسائل قد امتدت جذورها إلى ملايين السنين.

إنَّ ما ندركه بالحس و التجربة لا يتعدى بعض الحالات السطحيه، و لفته زمنيه متباعده، على شكل طفرة وراثيه (موتاسيون) فى كل من الحيوان و النبات.

فمثلا... نرى أحيانا فى نسل الأغنام العاديه ولاده مفاجئه لخروف ذى صوف يختلف عن صوف الخراف العاديه، فيكون أنعم و أكثر لنا من العاديه بكثير، فيكون بدايه لظهور نسل جديد يسمّى (أغنام مرينوس).

أو أنّ حيوانات تحصل فيها الطفره الوارثيه فيتغير لون عيونها أو أظفارها أو شكل جلودها و ما شابه ذلك.. لكنّه لم يشاهد لحدّ الآن طفرة تؤدى إلى حصول تغيير مهم فى الأعضاء الأصلية لبدن أى حيوان، أو يتبدل نوع منها إلى نوع آخر.

بناء على ذلك.. يمكننا أن نتخيل أنّ نوعا من الحيوان يتحول إلى نوع آخر بطريق تراكم الطفره الوارثيه، كأن تتحول الزواحف الى طيور و لكنّ ذلك ليس سوى حدس و مجرد تخيل لا غير، و لم نر الطفرات الوارثيه قد غيرت عضوا أصليا لحيوان ما إلى صورته أخرى.

نخلص ممّا تقدم إلى النتيجة التاليه: إن الأدله التى يطرحها أنصار فرضيه (الترانسفورميسم) لا تتجاوز كونها فرضا لا غير، لذا نرى أنصارها يعبرون عنها ب (فرضيه تطوّر الأنواع) و لم يجرأ أى منهم من تسميتها بالقانون أو الحقيقه العلميه.

الكثير ممّن يحاولون تصوير نوع من التضاد بين هذه الفرضيه و مسأله الإيمان بالله، و لعل الحق يعطى لهم من جهه، حيث أنّ العقيده الداروينيه فى واقعها قد أوجدت حربا شعواء بين أصحاب الكنيسه من جانب و مؤيدى داروين من جانب آخر، حتى وصل الصراع ذروته بين الطرفين فى تلك الفتره بعد ما لعب الظرف السياسى و كذا الاجتماعى دورهما (مما لا يسع المجال لشرح ذلك هنا)، فكانت النتيجة أن اتهم أصحاب الكنيسه الداروينيه بأنها لا تنسجم مع الإيمان بالله.

و قد كشفت الأتيام عن عدم وجود تضاد بين الأمرين، فإننا سواء قبلنا بفرضيه التكامل أو نفيناها لفقدانها الدليل، فلا يمنع من الإيمان بالله بكلا الاحتمالين.

فإذا قبلنا بالفرضيه فلكونها قانونا علميا مبني على العله و المعلول، و لا فرق فى علاقته بين العله و المعلول فى عالم الكائنات الحيه و بقيه الموجودات، فهل يعتبر اكتشاف العلل الطبيعيه من قبيل نزول الأمطار، المد و الجزر فى البحار، الزلازل و ما شابهها، مانعا من الإيمان بالله؟ الجواب بالنفى قطعاً. إذن فالكشف وجود رابطته و علاقته تكاملية بين أنواع الموجودات الحيه لا يؤدي إلى تعارض مع مسأله الإيمان بالله كذلك.

إذن، فالأشخاص الذين يتصورون أن كشف العلل الطبيعيه ينافى الإيمان بوجود الله هم الذين يذهبون هذا المذهب و إلا فإنّ كشف هذه العلل ليس فقط - لا - يتعارض مع التوحيد، و إنما سيعطينا أدله جديده من عالم الخليقه لإثبات وجوده سبحانه و تعالى.

و ممّا ينبغى ذكره: أنّ داروين قد تبرأ من تهمة الإلحاد و صرح فى كتابه (أصل الأنواع) قائلاً: إننى مع قبولى لتكامل الأنواع فإننى اعتقد بوجود الله، و أساساً فإنّه

بدون الاعتقاد بوجود الله لا يمكن توجيه مسأله التكامل.

وقد كتب عن داروين بما نصه: (إنه بقى مؤمنا بالله الواحد رغم قبوله بالعلل الطبيعيه فى ظهور الأنواع المختلفه من الأحياء، وقد كان إحساسه بوجود قدره ما فوق البشر يشتد فى أعماقه كلما تقدم فى السن، معتبرا أن لغز الخلق يبقى لغزا محيرا للإنسان) (١).

كان يعتقد أن توجيه هذا التكامل النوعى المعقد والعجيب، وتحويل كائن حى بسيط جدّا إلى كل هذه الأنواع المختلفه من الأحياء لا يتم إلا بوجود خطه دقيقه يضعها و يسيرها عقل كلى.

وهو كذلك.. إذ كيف يمكن إيجاد كل هذه الأنواع العجيبه والمحيه والى لكل منها تفصيلات و شؤون واسعه، من ماده واحده بسيطه جدا و حقيره.. كيف يمكن ذلك بدون الاستناد على علم و قدره مطلقين؟! النتيجة: إن الضجّه المفتعله فى وجود تضاد بين عقيدته التكامل النوعى و بين مسأله الإيمان بالله إنما هى بلا أساس و فاقده للدليل (سواء قبلنا بالفرضيه أو لم نقبلها).

تبقى أمامنا مسأله جديره بالبحث و هى: هل أن فرضيه تطور الأنواع تتعارض مع ما ذكره القرآن حول قصه خلق آدم، أو لا؟

### القرآن و مسأله التكامل:

الجدير بالذكر أن كلاً من مؤيدى و منكرى فرضيه التكامل النوعى -نعنى المسلمين منهم- قد استدلت بآيات القرآن الكريم لإثبات مقصوده، ولكنهما فى بعض الأحيان و تحت تأثير موقفهما قد استدلا بآيات لا ترتبط بمقصودهما إلا من

ص: ٧٤

بعيد، ولذلك سنتطرق إلى الآيات القابله للبحث و المناقشه.

□  
أهم آيه يتمسك بها مؤيد و الفرضيه، الآيه الثالثه و الثلاثون من سوره آل عمران إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ .

فيقولون: كما أنّ نوحا و آل إبراهيم و آل عمران كانوا يعيشون ضمن أممهم فاصطفاهم الله من بينهم فكذلك آدم، أى ينبغي أنّه كان فى عصره و زمانه أناس باسم «العالمين» فاصطفاه الله من بينهم، و هذا يشير إلى أن آدم لم يكن أوّل إنسان على وجه الأرض، بل كان قبله أناس آخرون، ثمّ امتاز آدم من بينهم بالطفره الفكرية و الروحية فكانت سببا لاصطفائه من دونهم.

هذا و ذكروا آيات آخر و لكنّها من حيث الأصل لا ترتبط بمسأله البحث، و لا يعدو تفسيرها بالتكامل أن يكون تفسيراً بالرأى، و بالبعض الآخر مع كونه ينسجم مع التكامل النوعى إلاّ أنّه ينسجم مع الثبوت النوعى و الخلق المستقل لآدم كذلك، و لهذا ارتأينا صرف النظر عنها.

أمّا ما يؤخذ على هذا الاستدلال فهو أنّ كلمه «العالمين» إن كانت بمعنى الناس المعاصرين لآدم عليه السلام و أنّ الاصطفاء كان من بينهم، كان ذلك مقبولا، أمّا لو اعتبرنا «العالمين» أعم من المعاصرين لآدم، حيث تشمل حتى غير المعاصرين، كما

روى فى الحديث المعروف عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم فى فضل فاطمه عليها السّلام حيث قال: «أمّا ابنتى فاطمه فهى سيده نساء العالمين من الأولين و الآخرين»، ففى هذه الحال سوف لا تكون لهذه الآيه دلالة على مقصودهم، و هو شبيه بقول قائل: إنّ الله تعالى اصطفى عدّه أشخاص من بين الناس جميعا فى كل القرون و الأزمان، و آدم عليه السّلام أحدهم، و عندها سوف لا- يكون لازما وجود أناس فى زمان آدم كى يطلق عليهم اسم «العالمين» أو يصطفى آدم من بينهم، و خصوصا أن الاصطفاء إلهى، و الله عزّ و جلّ مطلع على المستقبل و على كافة الأجيال فى كل

و أمياً مؤيد و ثبوت الأنواع فقد اختاروا الآيات مورد البحث و ما شابهها، حيث نقول إنَّ الله تعالى خلق الإنسان من تراب من طين متعفن.

و من الملفت للنظر أن هذا التعبير قد ورد في صفة خلق «الإنسان» وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ -الآيه السادسة والعشرون من سوره الحجر-و أيضا في صفة خلق «البشر» وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ -الآيه الثامنه و العشرون من سوره الحجر-و في مسأله سجود الملائكه بعد خلق شخص آدم أيضا(لاحظ الآيات ٣١، ٣٠، ٢٩ من سوره الحجر).

عند الملاحظه الأولى للآيات يظهر أن خلق آدم كان من الحمأ المسنون أولاً، و من ثم اكتملت هيئته بنفخ الروح الإلهيه فيه فسجد له الملائكه إلا إبليس.

ثم إنَّ أسلوب تتابع الآيات لا ينم عن وجود أى من الأنواع الأخرى منذ أن خلق آدم من تراب حتى الصوره الحاليه لبينه.

و على الرغم من استعمال الحرف «ثم» في بعض من هذه الآيات لبيان الفاصله بين الأمرين، إلا أنه لا يدل أبدا على مرور ملايين السنين و وجود آلاف الأنواع خلال تلك الفاصله.

بل لا مانع إطلاقا من كونه إشاره إلى نفس مرحله خلق آدم من الحمأ المسنون، ثم مرحله خلقه من الصلصال، فخلق بدن آدم، و نفخ الروح فيه.

و ذلك ما ملاحظه في استعمال «ثم» في مسأله خلق الإنسان في عالم الجنين و المراحل التي يطويها.. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ

ص: ٧٨

١- ١) - و هناك احتمال آخر و هو: أن اصطفاء آدم من بين أولاده بعد أن مرت عليهم مده ليست بالطويله فتشكل من بينهم مجتمع صغير.



فهذه الآيه المباركه تدلل على أن استعمال «ثم» يعبر عن وجود فاصله ليس من الضرورى أن تكون طويله، فيمكن كونها فاصله طويله أو قصيره.

و خلاصه ما ذكر: أن الآيات القرآنيه و إن لم تتطرق مباشره لمسأله التكامل النوعى أو ثبوت الأنواع، لكنّ ظاهرها (فى خصوص الإنسان) ينسجم مع مسأله الخلق المستقل، و إن لم يكن بالتصريح المفصل، لأنّ أكثر ما يدور ظاهر الآيات حول الخلق المستقل المباشر، أمّا ما يتعلق بخلق سائر الأحياء (من غير الإنسان) فقد سكت القرآن عنه.

ص: ٧٩

اشاره

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) أُدْخِلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَيَّ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)

التفسير

اشاره

نعم الجنه الثمان:

رأينا في الآيات السابقه كيف وصف الله تعالى عاقبه أمر الشيطان و أنصاره و أتباعه،و أنّ جهنم بأبوابها السبعه مفتحه لهم. و جريا على أسلوب القرآن في الترييه و التعليم جاءت هذه الآيات المباركات(و من باب المقارنه)لترفع الستار عن حال الجنه و أهلها و ما ترفل به من نعم ماديه و معنويه،جسديه و روحيه.

و قد عرضت الآيات ثمانيه نعم كبيره(ماديه و معنويه)بما يساوى عدد أبواب الجنه.

١-أشارت في البدء إلى نعمه جسمانيه مهمّيه حيث: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ و يلاحظ أنّ هذه الآيه قد اتخذت من صفه(التقوى)أساسا لها،و هي

الخوف من الله و الورع و الالتزام، فهي إذن...جامعه لكافه صفات الكمال الإنسانى.

إن ذكر الجنات و العيون بصيغه الجمع إشاره إلى تنوع رياض الجنّه و كثره عيونها،و التى لكل منها لذه مميزه و طعم خاص.

٢ و ٣- ثم تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمّتين أخيرتين (السلامه) و(الأمن)..السلامه من أى أذى و ألم،و الأمن من كل خطر،فتقول-على لسان الملائكه مرحبه بهم :- **أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ** .

و فى الآيه التّاليه بيان لثلاث نعم معنويه أخرى:

٤- **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ** أى:الحسد و الحقد و العداوه و الخيانه (١) .

٥- **إِخْوَانًا تَرِبُّهُمْ أَقْوَى** صلوات المحبه.

٦- **عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** (٢) .

إن جلساتهم الاجتماعيه خاليه من القيود المتعبه التى يعانى منها عالمنا الدنيوى،فلا طبقه و لا ترجيح بدون مرجح و الكل إخوان،يجلسون متقابلين فى صف واحد و مستوى واحد.

و بطبيعه الحال،فهذا لا- ينافى تفاوت مقاماتهم و درجاتهم الحاصله من درجه الإيمان و التقوى فى الحياه الدنيا،و لكن ذلك التساوى إنما يرتبط بجلساتهم الاجتماعيه.

٧- ثم تأتي الإشاره إلى النعمه الماديه و المعنويه السابعه:

ص: ٨١

١ - ١) -الغل:فى الأصل بمعنى النفوذ الخفى للشيء،و لهذا يطلق على الحسد و الحقد و العداوه التى تنفذ بخفاء فى نفس الإنسان،فالغل مفهوم واسع يشمل الكثير من الصفات الأخلاقيه القبيحه.

٢ - ٢) -السرر:جمع سرير،و هى المقاعد التى يجلسون عليها فى جلسات سمرهم.(علما بأن كلا- من سرر و سرير من ماده واحده).

إنه ليس كيوم استراحه بهذه الدنيا يقع بين تعب و نصب قبله و بعده، ولا يدع الإنسان يجد طعم الراحة و الاستقرار.

٨- ولا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نعم و ما هم منها بمُخْرَجِينَ .

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليله التي ينالها المتقون في الجنه بذلك الروثق المؤثر الذي يوقع المذنبين و العاصين في بحار لجه من الغم و الحسره و يجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح الله الرحمن الرحيم أبواب الجنه لهم و لكن بشرط، فيقول لهم بلهجه ملؤها المحبه و العطف و الرحمه و على لسان نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله و سلم: نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ .

إنّ كلمه «عبادى» لها من اللطافه ما يجذب كل إنسان، و حينما يختم الكلام ب «الغفور الرحيم» يصل ذلك الجذب إلى أوج شدته المؤثره.

و كما هو معهود من الأسلوب القرآنى، تأتي العبارات العنيفه حين تتحدث عن الغضب و العذاب الإلهي لتمنع من سوء الاستفاده من الرحمه الإلهيه، و لتوجد التعادل بين مسألتى الخوف و الرجاء، الذى يعتبر رمز التكامل و التربه فيقول و بدون فاصله: وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ .

## بحوث

## اشاره

### ١- رياض و عيون الجنه:

إنّ فهم و استيعاب أبعاد النعم الإلهيه التي تزخر بها الجنه و نحن نعيش في هذا العالم الدنيوى المحدود، يعتبر أمرا صعبا جدا، بل و من غير الممكن، لأنّ نعم هذا العالم بالنسبه لمنعم الآخره كنسبه الصفر إلى رقم كبير جدا.. و مع ذلك فلا يمنع من أن نحس ببعض أشعتها بفكرنا و روحنا.

إنّ القدر المسلم بهذا الخصوص، هو أنّ النعم الأخرويه متنوعه جدا، و ينطق

بهذه الحقيقه التعبير بال«جنات»فى الآيات المتقدمه و غيرها من الآيات الأخر، و كذلك التعبير بال«عيون».

لقد ورد فى القرآن الكريم(فى سور الإنسان،الرحمن،الدخان،محمد و غيرها)إشاره إلى أنواع مختلفه من هذه العيون،و أشير الى تنوعها بإشارات صغيره.و لعل ذلك تصوير لأنواع الأعمال الصالحه فى هذا العالم،و سنشير إلى هذا الأمر إن شاء الله عند تفسيرنا لهذه السور.

## ٢-النعم الماديه و غير الماديه:

على خلاف ما يتصور البعض..فإنّ القرآن لم يبشر الناس دائما بالنعم الماديه للجنّه فقط،بل تحدث مرارا عن النعم المعنويه أيضا،و الآيات مورد البحث نموذج واضح لذلك حيث نرى أن أول ما يواجه أهل الجنّه هناك هو الترحيب و البشاره من الملائكه لأهل الجنّه عند دخولهم فيها أُدْخِلُوها بِسَلَامٍ آمِنِينَ .

و من النعم الروحيه الأخرى التى أشارت إليها هذه الآيات..تطهير الصدور من الأحقاد و كل الصفات المذمومه كالحسد و الخيانه و ما شابهها،و التى تذهب بروح الأخوه.

و كذلك حذف الاعتبارات و الامتيازات الاجتماعيه المغلوطة التى تخدش استقرار فكر و روح الإنسان،و هو ما ذكره فى وصف جلساتهم.

و من نافله القول..أن(السلامه)و(الأمن)المجعولتين على رأس النعم الأخرى،هما أساس لكل نعمه أخرى،و لا يمكن الاستفادة الكامله من أيه نعمه بدونهما و هذا ما ينطبق حتى على الحياه الدنيا،فالأمن و السلام أساس لكل نعيم و رخاء و إلا فلا.

### ٣- الحقد و الحسد عدو الأخوة:

من لطيف ما يلاحظ في هذه الآيات أنها بعد أن ذكرت نعمه السلامه و الأمن، و قبل أن تتعرض لبيان حال الأخوة و الألفه التي سيكون عليها أهل الجنه، أشارت إلى مسأله نزع الصفات المانع للأخوة، كالحقد و الحسد و الغرور و الخيانه، جامعهم كل ذلك بكلمه «الغل» ذات المفهوم الواسع.

و في الحقيقه، إن قلب الإنسان ما لم يطهر من هذا «الغل» فسوف لا تتحقق نعمه السلامه و الأمن و لا الأخوة و المحبه، بل الحروب و المظالم و المجابهات و الصراعات على الدوام، و هو ما يؤدي إلى قلع جذور الأخوة و السلامه و الأمن من الحياه.

### ٤- الجزء الكامل:

يقول بعض المفسرين: إن الجزء لا- يكتمل إلا- بأربعة أمور: منافع و خيره، أن تكون مقرونه بالاحترام، خاليه من أى ألم، دائمه و خالده.

و قد أشارت الآيات مورد البحث إلى هذه الأمور الأربعة...

□  
فعباره إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ إِشَارَه إِلَى المنفعه الأولى.

□  
و عباره أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ دليل على الاحترام و التقدير.

□  
و عباره وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ إِشَارَه إِلَى نفى أى نوع من الآلام و المعاناه الروحيه (النفسيه).

□  
و عباره لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ إِشَارَه إِلَى نفى الآلام الجسمانيه.

□  
أما عباره وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ فهى حاكيه عن آخر شرط، و هو دوام و بقاء النعم.

و بهذا يكون هذا الجزاء و الثواب كاملا من كل الجهات (١).

## ٥-تعالوا لنجعل من هذه الدنيا جنّه:

إنّ النعم الماديّه و الروحيه الأخرويه التي صورتها الآيات السابقه في حقيقتها تشكل أصول النعم لهذا العالم، و لعل القرآن الكريم يريد أن يفهمنا بأننا يمكن أن نوجد جنّه صغيره في حياتنا تكون شبيهه بتلك الجنّه الكبيره، فيما لو استطعنا أن نوفر شرائطها المطلوبه اللازمه.

فلو طهرنا قلوبنا من الحقد و العداوه.

و قوينا بيننا روابط الأخوه و المحبّه.

و حذفنا من حياتنا تلك الاعتبارات و اشكال الترف الزائده و المفرقه.

و إذا ما عملنا لتحقيق الأمن و السلام في مجتمعنا.

و إذا أدرك الناس بأنّه لا استعباد و لا استغلال و لا طبقه فيما بينهم...فإننا- و الحال هذه-سنكون في جنّه الحياه الدنيا!!

ص: ٨٥

اشاره

وَ بَيَّنَّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذِ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣)  
قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي (٥٤) قَالُوا بِشَرِّ نَارِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَلَمَّا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِذْ أَنَا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا إِمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمَنِ الْغَابِرِينَ (٦٠)

التفسير

اشاره

الضيوف الغرباء..!

تتحدث هذه الآيات المباركات و ما بعدها عن الجنبه التربويه فى تاريخ حياه الأنبياء عليهم السلام و ما جرى لهم مع العصاه من أقوامهم، و تطرح الآيات نماذج حيّه للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد الله المخلصين من طرف و أتباع





فى سورة هود، الآيه (٧١) أن امرأه إبراهيم كانت واقفه بقربه عند ما بشرته الملائكه، و يظهر كذلك أنها كانت امرأه عاقرا فبشروها أيضا و امرأته قائمه فضحكّت فبشروها يا إسحاق .

و كما هو معروف فإن ساره، هى أم إسحاق، و لإبراهيم عليه السلام ولد آخر أكبر من إسحاق و اسمه (إسماعيل) من (هاجر) - الأُمّه التى تزوجها إبراهيم.

كان إبراهيم يعلم جيدا أنه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعیه، (و مع أن كل شىء مقدورا لله عز و جلّ)، و لهذا أجابهم بصيغه التعجب:

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ

..هل البشاره منكم أم من الله عزّ و جلّ و بأمره، أجيبونى كى أزداد اطمئنانا؟ إنّ تعبير «مسنى الكبر» إشاره إلى ما كان يجده من بياض فى شعره و تجاعيد فى وجهه و بقيه آثار الكبر فيه.

و يمكن لأحد أن يشكّل: بأنّ إبراهيم عليه السلام قد سبق بحاله مشابهه حينما ولد له إسماعيل عليه السلام و هو فى الكبر.. فلم التعجب من تكرار ذلك؟ و الجواب: أولًا: كان بين ولاده إسماعيل و إسحاق (على ما يقول بعض المفسرين) أكثر من عشر سنوات، و بذلك يكون تكرار الولاده مع مضى هذه المدّه ضعيف الاحتمال.

و ثانيًا: إنّ حدوث و وقوع حاله مخالفه للموازين الطبيعیه مدعاه للتعجب، و إذا ما تكررت فلا- يمنع من التعجب لحدوثها و تكرارها مرّه أخرى.

فولاده مولود جديد فى هكذا سن أمر غير متوقع، و إذا ما وقع فهو غريب و عجيب فى كل الأحوال (١).

و على أية حال.. لم يدع الملائكه مجالاً لشك أو تعجب إبراهيم حيث قالوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فهى بشاره من الله و بأمره، فهى حقّ مسلمّ به.

ص: ٨٨

١ - ١) - يذكر بعض المفسرين أن عمر إبراهيم عليه السلام عند ولاده ابنه إسماعيل كان (٩٩) عاماً، و عند ولاده إسحاق كان عمره (١١٢) عاماً.

و تأكيداً للأمر و دفعا لأي احتمال في غلبه اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ .

لكن إبراهيم عليه السلام طمأنهم بعدم دخول اليأس من رحمه الله إليه، وإنما هو في أمر تلك القدرة التي تجعل من اختراق النواميس الطبيعية أمر حاصل و بدون الخلل في الموازنه، قَالَ وَ مَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ .

إن الضالين هم الذين لا- يعرفون الله و قدرته المطلقة، الله الذي خلق الإنسان ببنائه العجيب المحير من ذره تراب و من نطفه حقيقه ليخرجه ولدا سويا، الله الذي حوّل نخله يابسه الى حامله للثمر ياذنه، الله الذي جعل النار بردا و سلاما..هل من شك بأنه سبحانه قادر على كل شيء، بل و هل يصح ممن آمن به و عرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته؟! و راود إبراهيم عليه السلام- بعد سماعه البشاره- أن الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشاره، و ما البشاره إلا مهمته عرضيه ضمن مهمتهم الرئيسيّه، و لهذا قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ .

و مع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السلام المرهف و أنه دقيق في كل شيء و لا- يقنع بالعموميات، فبينوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله إلا آل لوطِ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ .

إن ظاهر تعبير «آل لوط» و ما ورد من تأكيد بكلمه «أجمعين» سيشمل امرأه لوط الضاله التي وقفت في صف المشركين، و لعل إبراهيم كان مطلعاً على ذلك، و لذا أضافوا قائلين: إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ .

و«قدرنا» إشاره إلى المهمه التي كلفوا بها من الله عزّ و جلّ.

هذا و قد بحثنا قصه نزول الملائكة على إبراهيم عليه السلام و تبشيره بإسحاق عليه السلام و حديثهم معه بشأن قوم لوط عليه السلام مفصلاً في تفسيرنا للآيتين (٦٩ و ٧٠) من سورة هود من هذا التفسير.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضُرُوفٌ فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ (٦٩) قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَامْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

## عاقبه مذنبى قوم لوط:

طالعنا الآيات السابقة بقصه اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء و بين إبراهيم عليه السلام، وهذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصه فتبتدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السلام.

فقرأ أولاً فلما جاء آل لوط المرسلون .

فالتفت إليهم لوط قال إنكم قوم منكرون .

يقول المفسرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة ريعان الشباب، وهو يعلم ما كان متفشيا بين قومه من الانحراف الجنسي.. فمن جهه، هم ضيوفه و مقدمهم مبارك و لا بد من إكرامهم و احترامهم، ولكن المحيط الذى يعيشه لوط عليه السلام مريض و ملوث.

ولهذا ورد تعبير «سوء بهم» فى الآيات المتعرضه لقصه قوم لوط فى سورة هود، أى إن هذا الموضوع كان صعبا على نبي الله و قد اغتم لقدمهم لتوقعه يوما عصيبا! ولكن الملائكة لم يتركوه و هذه الهواجس طويلا حتى سارعوا الى القول:

قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون

، أى إننا جئنا بالعذاب الذى واعدتهم به كثيرا، و ذلك لأنهم لم يعتنوا و لم يصدقوا بما ذكرته لهم.

ثم أكدوا له قائلين: وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ، أى العذاب الحتمى الجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثم أضافوا لزياده التأكيد: وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ .

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العوده و لم يبق فى شأنهم محلا للشفاعه و المناقشه، كى لا يفكر لوط فى التشفع لهم و ليعلم أنهم لا يستحقونها أبدا.

ثم قال الملائكة للوط: أخرج و أهلك من المدينه ليلا حين ينام القوم أو

ينشغلوا بشرابهم و شهواتهم، لأجل نجاه الله المؤمنه من قومهم (و هم أهلهم ما عدا زوجته).

فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ

و كن خلفهم كى لا يتخلف أحد منهم و لتكون محافظا و رقيقا لهم وَ اتَّبِعْ أَذْوَاجَهُمْ وَ عَلَى أَنْ يَكُونَ نَظْرُكُمْ إِلَى الْأَمَامِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ، أى إلى أرض الشام، أو أى مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثم ينتقل مجرى الحديث حيث يقول تعالى: وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصَيِّبِينَ، أى سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

و من الملفت للنظر، أن القرآن قد ترك القصه عند هذا الحد و عاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه-لسبب سنشير إليه فيما بعد-فيقول: وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ أى إنهم قد ظنوا بحصول لقمه جديده سائغه عن طريق ضيوف لوط! إن تعبير أهل المدينة ليوحى إلى أن الذين تحركوا صوب منزل لوط عليه السلام كانوا جمعا كبيرا، و هو ما يوضح بجلاء تلك الوقاحه و القبح و الجساره التى كانوا عليها، و خصوصا قوله يَسْتَبْشِرُونَ التى تحكى عمق تلوثهم بذلك الدررك السافل، مع أن مثل هذا الفعل القبيح ربما لا يشاهد حتى بين الحيوانات، و إذا ما ابتلى به إنسان (و العياذ بالله) فإنه سوف يحاول كتمه و إخفاؤه، حيث أن الإتيان به مدعاه للتحقير و الازدراء من قبل الآخرين.. أما قوم لوط، فكانوا مستبشرين بذلك الصيد الجديد و كل يهنئ الآخر على ما سيصيبه من نصيب!! و حينما سمع لوط أصواتهم و ضجيجهم أغتم غمًا شديدا لأجل ضيوفه، لأنه ما كان يدرى أنهم ملائكة العذاب الى ذلك الوقت و لهذا قال إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَعِيفَىٰ فَلَا تَفْضَحُونِ .

أى.. إن كنتم لا تؤمنون بالله و لا تصدقون بالنبي و لا تعتقدون بثواب و عقاب، فراعوا حق الضيافه التى هى من السنن المتعارف عليها عند كل

المجتمعات سواء كانت مؤمنه أم كافره، أئى بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانيه، فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحرارا فى دنياكم! ثم أضاف قائلا: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ (١) أمام ضيفى.

و لكنهم من الوقاحه و الإصرار على الانحراف بحيث صاروا لا- يشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطا و يحاسبونه، و كأنه ارتكب جرما فى استضافته لهؤلاء القوم قَالُوا أ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ، باستضافتهم! فلما ذا خالفت أمرنا؟! و كان قوم لوط من البخل بحيث أنهم لا- يحبون الضيافه، و كانت مدينتهم على طريق القوافل، و يبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لأجل أن لا ينزل عندهم أحد من القوافل الماره، و تعارفوا على ذلك حتى أصبح عندهم عاده.

و كما يبدو أن لوطا كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينه يسرع لاستضافته خوفا عليه من عمل قومه الخبيث، و لما علم أهل المدينه بذلك جاؤوا إليه غاضبين و نهوه عن أن يستضيف أحدا مستقبلا.

عليه، فكلمه «العالمين» فى الآيه أعلاه- ما يبدو- إشاره إلى عابرى السبيل، و من هم ليسوا من أهل تلك المدينه.

و عند ما رأهم لوط على تلك الحال من الوقاحه و الجساره، أتاهم من طريق آخر لعلهم يستفيقون من غفلتهم و سكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلما ذا تسلكون سبيل الانحراف و لا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ .

ص: ٩٣

١- ١) - نرى فى هذه الآيات أن لوطا يطلب من قومه أن لا يفضحوه تاره و ألا يخزوه تاره أخرى، الفضيحه لغه بمعنى: انكشاف شىء، و ظهور العيب أيضا( و أراد لوط أنه يفهمهم بأن عملكم القبيح هذا سيخجلنى أمام ضيوفى و يعرفوا مدى خباثه أهل مدينتى). أميا الخزى: فهو بمعنى الإبعاد و كذلك بمعنى الخجل( و أراد لوط أن يقول لهم: لا تخجلونى أمام ضيوفى و تباعدوا بينى و بينهم).

مما لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره، و لكن لوطا الذى كان يهدف إلى إلقاء الحجّة عليهم أراد أن يقول لهم:

اننى مستعد الى هذه الدرجة للتضحيه من أجل الضيف، و كذلك لأجل إنقاذكم من الفساد و نجاتهم من الانحراف.

و ذهب البعض إلى أنّ المقصود من هؤلاءِ بَنَاتِي كل بنات المدينة، باعتباره أبا روحيا للجميع. (إلا أنّ التفسير الأوّل أقرب إلى معنى الآية).

و ليس نجاف أنّ لوطا ما كان ليزوج بناته من أولئك المشركين الضالين، و لكنّه أراد أن يقول لهم: تعالوا آمنوا لأزواجكم بناتى.

لكنّ الويل، كل الويل من سكرات الشهوه، الانحراف الغرور و العناد.. التى مسحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانيه و أفرغتهم من العواطف البشريه، و التى بها يحسون بالخجل و الحياء أمام منطق لوط عليه السلام، أو أن يتركوا بيت لوط و ينسحبوا عن موقفهم، و لكنّ أتى لهم ذلك، و الأكثرية بسبب عدم تأثرهم بحديث لوط استمروا فى غيهم و أرادوا أن يمدوا أيديهم إلى الضيوف.

و هنا يخاطب الله تعالى نبيّه قائلا: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .

و قرأنا فى سوره هود- فيما يتعلق بهذه القصّه- أنّ ملائكه العذاب قد كشفوا عن أمرهم و قالوا للوط: لا تخف إنهم لن يصلوا إليك.

و فى الآية السابعه و الثلاثين من سوره القمر نقرأ وَ لَقَدْ رَأَوْدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ .

و فى بعض الروايات: إنّ أحد هؤلاءِ الضيوف أخذ قبضه من تراب فرماها فى وجوه القوم فأصبحوا لا يبصرون جميعا.

و بعد ذلك يبلغ كلام الله تعالى عن هؤلاءِ القوم الذروه حينما بيّن عاقبتهم السيئه فى آيتين قصيرتين و بشكل حدّى ملء بالدروس و العبر بقوله: فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ أَى صوت شديد عند شروق الشمس.



و يمكن حمل «الصيحة» على أنها صاعقه عظيمه أو صوت زلزاله رهيب، و المهم أنه كان صوتا مرعبا أسقط الجميع مغميا عليهم أو ميتين.

و المعلوم أنّ الأمواج الصوتيه إذا ما تعدت حدّا معيناً فستكون مرعبه مخيفه تهز فرائص الإنسان، و إذا ما ازدادت شدتها فستبهدت الإنسان و تشلّه عن الحركة و ربّما تودى بحياته، بل و من الممكن لها أن تهدم الأبنيه، و هذا ما تفعله المتفجرات.

و لم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينه أيضا فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا .

و زيد في التنكيل بهم وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ .

إنّ سقوط الحجارة على رؤوسهم ربّما كان يستهدف من لم يمت من الصيحة المرعبه و لم يصبح تحت الأنقاض، و ربّما لأجل محو أجسادهم، و جثثهم من على الأرض كي لا يبقى أثر لهؤلاء القوم المجرمين، حتى أنّ المار على تلك الديار بعد نزول الأحجار لا يصدق بسهولة أنّها كانت مدينه معموره! ثمّ إنّ نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيبه، قلب المدينه، المطر الحجري) - رغم أن كل واحد منهن كانت تكفى لقطع دابر القوم - كان لمضاعفه عذابهم لشده فسادهم و جسارتهم و إصرارهم على إدامه التلوّث بتلك القبائح الشنيعه، و كي يكون عبره لمن يعتبر.

و هنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية و التربيه فيقول: **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (١)** العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراستهم و ذكائهم و نظرهم الثاقب و يحملون من كل إشاره حقيقه و من كل تنبيه درسا.

و لا تتصوروا أن آثارهم ذهبت تماما، بل هي باقيه على طريق القوافل و الماره و إنّها لَسَبِيلٌ مُّقِيمٌ .

ص: ٩٥

---

١ - ١) - متوسم: من ماده (وسم) - على وزن رسم - أي ترك أثرا، و يقال لمن يخلص من أثر صغير إلى نتائج و حقائق كبيره (متوسم).

و إن لم تصدقوا فاذهبوا لرؤيه آثار المدن المعذبه الواقعه على طريق المسافرين إلى الشام(من المدينه)فانظروا و فكروا و اعتبروا،و عودوا إلى الله، و اسلكوا طريق التوبه،و طهروا نفوسكم من الآثام و الذنوب.

ثم تدعوا الآيه المؤمنين إلى التفكير مليا في هذه القصة و استخلاص العبر منها:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ

فكيف يمكن للمؤمن أن لا يعتبر و لا يهتز عند ما يطالع خبر هذه الواقعه؟! بحثنا بشيء من التفصيل في الآيات المتعلقة بقوم لوط في سوره هود من هذا التفسير، فبحثنا في معنى «سجيل»، و لما ذا أمطر على هؤلاء القوم المنحرفين بالحجاره، و لما ذا قلبت مدينتهم، و لما ذا كان العذاب صباحا، و لما ذا أمر لوط و أهله أن لا يلتفتوا إلى الوراء، و كذلك بحثنا مسأله تحريم الشذوذ الجنسي في الأديان السماويه و فلسفه التحريم، بالإضافة إلى بحث في أخلاق قوم لوط...

و سنبحث هنا بعض ما تبقى من الإشارات المتعلقة بهذه القصة.

**بحوث**

**إشاره**

**١- ما المقصود بـ بَقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ؟**

«القطع» بمعنى سواد الليل، يقول المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان): القطع كأنه جمع قطعه، و معناه: سر بأهلك بعد ما يمضى أكثر الليل و تبقى قطعه منه.

و لكنّ الراغب الأصفهاني في مفرداته يعتبر كلمه «قطع» بمعنى قطعه على صيغه المفرد، مع أن كثيرا من المفسرين فسروها بأواخر الليل و عند السحر، و لعل تفسيرهم يعود إلى الآيات الأخرى التي تحدد هذا الوقت في قصه آل لوط

ص: ٩٤

أى إنهم خرجوا عند ما كان عبّاد الشهوه غارقين فى نوم غفلتهم و قد أفسد وجودهم سكر الشراب و الغرور و الشهوات، فكانت المدينه مهيئه لآل لوط فى الخروج بسلام.

ثم إنّ نزول العقاب كان فى الصباح عند شروق الشمس، و لعل انتخاب هذا الوقت كان لإعطاء المهله لقوم لوط بعد أن فقدوا أبصارهم، عسى أن يتفكروا فى أمرهم فيعيدوا النظر فى شركهم و عصيانهم، فكانت تلك الليله آخر فرصه لهم.

و يستفاد من بعض الرّوايات.. أنّ بعضا منهم عند ما كانوا فى طريق عودتهم إلى دورهم أقسموا أن لا يدعوا أحدا من آل لوط حيا عند الصباح، و لهذا نزل عليهم العذاب الإلهيه فى ذلك الوقت (٢).

## ٢- تفسير قوله تعالى: وَ أَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

ذكرنا أنّ الملائكه أوصت آل لوط بالخروج آخر الليل إلى المكان الذى عين لهم، إلا أن الآيات القرآنيه لم تدخل فى تفاصيل ذلك السفر و لم تعين المنطقه التى سيذهبون إليها، لذلك عرض المفسرون جملة آراء بهذا الخصوص.

فمنهم من قال: أمروا بالسير نحو الشام لأنّ محيطها أكثر طهاره.

و قال بعض آخر: إنّ الملائكه عينت لهم قريه و طلبت منهم الذهاب إليها.

و اكتفى تفسير الميزان بعبارته: كان لديهم نوع من الهديه الإلهيه و الدلاله العلميه فى سلوك طريقهم.

ص: ٩٧

١- ١) -سوره القمر، ٣٤.

٢- ٢) -نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٥٨.

### ٣- علاقته الرّبط بين «المتوسم» و«المؤمن».

لاحظنا تعبيراً إنّ في ذلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّ فِي ذلِكَ لَمَآيَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الآيَاتِ الْحَاكِيهِ عَن قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ التَّعْبِيرِينَ يَعْطِينَا: أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ الْمُتَوَسِّمُ الَّذِي ذُو الْفِرَاسَةِ وَالنَّبَاهَةِ.

و

فِي رِوَايَةٍ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ مَا سُئِلَ عَن تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ قَالَ: هُمُ الْأَمَّةُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

و

فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمُ الْأَمَّةُ» (٢).

و

رَوَى أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ الْمُتَوَسِّمُ، وَأَنَا مِنْ بَعْدِهِ، وَالْأَمَّةُ مِنْ ذُرِّيَّتِي الْمُتَوَسِّمُونَ» (٣).

### ٤- سكر الشّهوه و الغرور!

إِنَّ سُكْرَ الْخَمْرِ مَعْرُوفٌ، وَثَمَّةٌ سُكْرٌ أَشَدُّ مِنْهُ آثَارًا كَسُكْرِ الْمَنْصَبِ وَ سُكْرِ الشَّهْوَةِ، وَقَرَأْنَا فِي الآيَاتِ السَّابِقَةِ كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ يَقْسِمُ بِرُوحِ نَبِيِّهِ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَ لِهَذَا فَإِنَّهُمْ لَا يَبْصُرُونَ أَوْضَحَ طَرِيقِ النِّجَاحِ، وَ بَلَغَ بِهِمُ الْحَالُ أَنَّ يَرُدُّوهُمَا مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ نَبِيَّتُهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّ يَشْبَعُوا شَهْوَاتِهِمْ بِالطَّرِيقِ الصَّحِيحِ الْمَشْرُوعِ لِيَتَخَلَّصُوا مِنَ الذُّنُوبِ وَ التَّلَوُّثَاتِ وَ قِبَائِحِ الْأَفْعَالِ! وَ الَّذِي نَسْتَفِيدُهُ مِنْ مَوْقِفِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَنَّ مَكَافَحَةَ الْفِسَادِ لَا يَتِمُّ بِالنَّهْيِ عَنْهُ فَقَطْ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَهْيِئَتِهِ وَ تَعْبِيدِ الطَّرِيقِ الْمَعْبُودِ الْبَدْلِيَّةِ، لِيَنْتَقِلَ الضَّالُّ أَوْ الْمُضِلُّ بِهِ مِنْ جَادَةِ الْفِسَادِ إِلَى جَادَةِ الصَّلَاحِ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَهْيِئَةِ الْأَوْضَاعِ وَ الْأَجْوَاءِ السَّلِيمَةِ

ص: ٩٨

١- ١) - نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٣.

٢- ٢) - المصدر السابق.

٣- ٣) - المصدر السابق.

و من غريب ما نطالعه فى بعض الروايات..أن لوطا(هذا النبى الجليل) قد قضى بين قومه ثلاثين عاما و هو يدعوهم إلى الهدى و يحذرهم من مغبه الانغماس فى متاهات الضلال،و مع ذلك لم يؤمن به إلا أهل بيته(ما عدا زوجته) (١).

ما أعظم ثباته عليه السلام مع منحرفين لدرجه لا يطيق أى إنسان العيش معهم حتى و لو لساعه واحده! بل و ما أصعب العيش مع تلك الزوجه! و نقرأ فى الآيتين الخامسه و الثلاثين و السادسه و الثلاثين من سوره الذاريات: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ فيتضح لنا..أن العقاب الإلهى لا يكون عشوائيا،بل لا يشمل إلا المستحقين له و لو كان هناك مؤمن واحد عامل بواجباته لا نقذه الله تعالى من بينهم.

ص: ٩٩

اشاره

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِالِمَامِ مُبِينٌ (٧٩) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَ  
آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَآخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَلَمَّا أَغْنَى  
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)

التفسير

اشاره

خاتمه أصحاب الأيكة و أصحاب الحجر:

يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى قصتين من قصص الأمم السالفة، و هما (أصحاب الأيكة) و(أصحاب الحجر) ليكمل  
البحث الذى عرضه فى الآيات السابقه حول قوم لوط.

يقول أولاً: وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (١).

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ

و عاقبناهم على ظلمهم و استبدادهم..

ص: ١٠٠

١-١) - إن كلمة «إن» فى هذه الآيه ليست شرطيه و إنما هى مخففه، فيكون تقدير الكلام (إنه كان أصحاب الأيكة لظالمين).

و جعلنا أرضهم و أرض قوم لوط-المتقدمه قصّيتهم-على طريقكم وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ فانظروا إليها و إلى عاقبه أمرهم، و اعتبروا يا أولى الألباب.

### من هم أصحاب الأيكة؟

قال جمع من المفسّرين،بالإضافه إلى أرباب اللغه:«الأيكة»:هى الأشجار المتشابهه مع بعضها،و«أصحاب الأيكة»:هم قوم«شعيب»الذين عاشوا فى بلده مليئه بالماء و الأشجار بين الحجاز و الشام و كانت حياتهم مرفهه ثريه فأصيبوا بالغرور و الغفله،فأدى ذلك إلى الاحتكار و الفساد فى الأرض.

و قد دعاهم شعيب عليه السّلام إلى التوحيد و نهج طريق الحق،مع تحذيره المكرر لهم من عاقبه أعمالهم السيئه فيما لو استمروا على الحال التى هى عليها.

و من خلال ما بيّنته الآيات فى سوره هود،فإنّهم لم ينصاعوا للحق و لم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب الله المهلك.

فبعد أن يئس من إصلاحهم أصابهم حرّ شديد استمر لعدّه أيام متصله،و فى اليوم الأخير ظهرت سحابه فى السماء اجتمعوا فى ظلها،ليتفيئوا من حر ذلك اليوم،فنزلت عليهم صاعقه مهلكه فقطعت دابرهم عن آخرهم.

و لعل استعمال القرآن لعباره«أصحاب الأيكة»فى تسميتهم،إشاره إلى النعم التى أعطاهها الله لهم،و لكنّهم استبدلوا الشكر بالكفر،فأقاموا صرح الظلم و الاستبداد،فحقّت عليهم كلمه الله فأهلكوا بالصاعقه هم و أشجارهم.

و ورد ذكرهم مفصلا-مع التصريح باسم شعيب-فى الآيات(١٧٦)حتى (١٩٠)من سوره الشعراء.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ عبارته فانتقمنا منهم يمكن أن تشمل قوم لوط و أصحاب الأيكة معا،بدليل ما يأتى بعدها مباشرة وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ .

و المشهور عند المفسّرين أنّ الآيه تشير إلى مدينه قوم لوط و مدينه أصحاب

و كلمه «إمام» بمعنى طريق و جاده، لأنها من ماده. «أم»، بمعنى القصد، حيث أنّ الإنسان حينما يسير فى طريق ما إنّما يسير لأجل الوصول إلى غايه معينه أو قصد معين.

و احتمال البعض أنّ الإمام المبين هو اللوح المحفوظ، بدلاله الآيه (١٢) من سوره يس.

و لكن هذا الاحتمال مستبعد، لأنّ القرآن هنا فى صدد إعطاء درس العبره للاعتبار، و وجود اسم هذين البلدين فى اللوح المحفوظ سيكون بعيدا عن التأثير فى اعتبار الناس و تذكيرهم، فى حين أنّ وجود هذين البلدين على طريق القوافل و الماره يمكن أن يكون له الأثر البالغ فيهم.

فعند وقوف الناس قرب تلك الآثار و تذكر خبر أهلها و ما جرى لهم من سوء العاقبه، ربّما سيهمل دموع العابرين عند أرض قوم لوط مرّه، و عند أرض أصحاب الأيكه مرّه أخرى.. فتكون تلك اللحظات لحظات اعتبار، بعد ما عرفوا أو استذكروا ما حل بالقومين من دمار و هلاك نتيجة ظلمهم و ظلالهم.

أمّا «أصحاب الحجر» فهم قوم عصاه عاشوا مرفهين فى بلده تدعى «الحجر» و قد بعث الله إليهم نبيّه صالح عليه السّلام لهدايتهم.

و يقول القرآن عنهم: **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ!** و لكن أين تقع هذه البلده؟ يذكر بعض المفسّرين و المؤرخين: أنّها كانت على طريق القوافل بين المدينه و الشام فى منزل يسمى (وادى القرى) فى جنوب (تيماء) و لا أثر لها اليوم- تقريبا.



و يذكرون أنها كانت إحدى المدن التجاريه فى الجزيره العربيه، و لها من الأهميه بحيث ذكرها (بطليموس) فى مذكراتها لكنها إحدى المدن التجاريه.

و كذلك ذكرها العالم الجغرافى (بلين) باسم (حجرى).

و نستشف من بعض الروايات أنّ الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم عند ما قاد جيشا لدفع جيش الروم فى السنه التاسعه للهجره، أراد الجنود أن يتوقفوا فى هذا المكان، فمنعهم النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و

قال: هنا نزل عذاب الله على قوم ثمود (١).

و من الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسأله تكذيب الأنبياء فى خبر أصحاب الحجر (و كذلك قوم نوح و قوم شعيب و قوم لوط فى الآيات (١٠٥ و ١٢٣ و ١٦٠) من سوره الشعراء) بالإضافة إلى أقوام آخر كذبت الأنبياء عليهم السلام، و الواضح من خلال ظاهر القصص أن لكل قوم كان نبى واحد لا أكثر.

و لعل مجىء هذا التعبير فى هذه الآيه (المرسلين)، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد و هدف واحد، و بينهم من درجه من الصله بحيث أن تكذيب أى منهم هو تكذيب للجميع.

و احتمال آخرون وجود أكثر من نبى وسط الأمه الواحده، و ذكر اسم أحدهم لأنه أكثر شهره.

و كما يبدو فإنّ التفسير الأول أقرب إلى الصواب منه إلى الثانى.

و يستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ و موقف الأعراض المشار إليه - كما يبدو - هو عدم استعدادهم لسماع الآيات و التفكير بها.

و تشير الآيه إلى أنّهم كانوا من الجد و الدقه فى أمور معاشهم و حياتهم الدنيويه حتى أنّهم وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ .

ص: ١٠٣

و هو ما بيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جليله، بالإضافة إلى ما توصلوا إليه من مدنيه متقدمه، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول و العواصف و الزلازل.

و العجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز و تحصين مستلزمات حياته الفانيه، و لا يعير أياً اهتماماً لحياته الباقية، حتى يصل به المال لأن لا يكلف نفسه بسماع آيات الله و التفكير بها!!!.

و أياً عاقبه ينتظرون بعد عنادهم و كفرهم غير أن يطبق عليهم القانون الإلهي الموعدين به (البقاء للإصلاح) و عدم إعطاء حق إدامه الحياه لأقوام فاسدين و مفسدين..فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، و لهذا يقول القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ .

و كانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمر نزل على دورهم و كان من القوه و الرهبه بحيث جعل أجسادهم تتناثر على الأرض.

و الشاهد على ما قلناه ما تحدثنا به الآيه الثالثه عشر من سوره فصلت: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ .

فالعذاب الإلهي لا تقف أمامه الجبال الشاهقه، و لا البيوت المحصنه، و لا الأبدان القويه أو الأموال الوافره، و لهذا يأتي في نهايه قصتهم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

و جاءت الآيات (١٤١ إلى ١٥٨) من سوره الشعراء بتفصيل أكثر، و هو ما سيأتي في محله إن شاء الله تعالى.

اشاره

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْرِفْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ  
(٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ  
إخْفِضْ جَنَاحَيْكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضًا مِنْ  
(٩١)

التفسير

يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفه-كقوم لوط وقوم شعيب و صالح-إلى مسأله التوحيد و المعاد، لأن سبب ضلال  
الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدته صحيحه، و لعدم ارتباطه بمسأله المبدأ و المعاد، فيشير إليهما معا في آيه واحده و مَا خَلَقْنَا  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ .

فنظامها محسوب و محكم و هو حق، و كذا هدف خلقها حق.

فيكون هذا النظام البديع و الخلق الدقيق المنظم دليلا واضحا على الخالق

العالم القادر جلّ و علا، وهو حق أيضا، بل هو حقيقه الحق، وكل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، وكل شيء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل.. وهذا ما يخصّ التوحيد أمّا في المعاد فيقول: **وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ**.. وإن تأخرت فإنّها آتية بالنتيجه.

ولا يبعد أن تكون فقره الأولى بمنزله الدال على فقره الثانيه، لأنّ هذا العالم إنّما يكون حقا عند ما يكون لهذه الأيام الدنيويه المليئه بالآلام و المتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير-فليست الدنيا لنحيائها و تنتهي- و لهذا فمسأله خلق السماوات و الأرض و ما بينهما حقّ يدل على وجود يوم القيامة و الحساب، و إلا لكان الخلق عبثا و ليس حقا-فتأمل.

و بعد ذلك.. يأمر الله تعالى نبيه الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يقابل عناد قوميه و جهلهم و تعصبهم و عداؤهم بالمحبّه و العفو و غض النظر عن الذنوب، و الصفح عنهم بالصفح الجميل، أى غير مصحوب بملامه **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** .

لأنّك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوه إليه، فلا تحتاج و إيّاهم إلى الخشونه لتثيت عقيدته المبدأ و المعاد فى قلوب الناس، فالعقل و المنطق السليم معك.

بالإضافه إلى أنّ الخشونه مع الجهله غالبا ما تؤدى بهم إلى الرد بالمثل، بل و بأشد من ذلك.

الصفح: هو وجه كل شيء، كوجه الصوره (1)، و لهذا فقد جاءت كلمه «فاصفح» بمعنى أدر وجهك و غض النظر عنهم.

و بما أنّ إداره الوجه و صرفه عن الشىء قد تعطى معنى عدم الاهتمام و النفرة و ما شابه ذلك بالإضافه لمعنى العفو و الصفح، فقد ذكرت الآيه المتقدمه كلمه

ص: ١٠٦

---

١ - ١) - يقول الفيروز آبادى، فى القاموس، ج ١، ص ٢٤٢: الصفح: الجانب، و من الجبل مضطجعه، و منك جنبك، و من الوجه و السيف عرضه.

فى روايه عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى تفسير هذه الآيه أنه قال:

العفو من غير عتاب (١).

و روى مثل ذلك عن الإمام زين العابدين عليه السلام (٢).

□  
الآيه التاليه- كما يقول جمع من المفسرين- بمنزله الدليل على وجوب العفو و الصفح الجميل، حيث يقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

فالله يعلم بأن الناس ليسوا سواسيه من جهه الطبائع و المستويات الفكرية و العاطفيه و هو سبحانه مطلع على ما تخفيه صدورهم، و ينبغى معاملتهم بروحيه العفو و المسامحه ليهدوا إلى طريق الحق بأسلوب الإصلاح المرحلى أو التدريجى.

و لا- يرمز ذلك إلى الجبر فى أعمال الناس و سلوكهم، بقدر ما هو إشاره إلى أمر تربوى يأخذ بنظر الاعتبار اختلاف الناس فى القابليات.

و ممّا يجدر ذكره.. تصور البعض أنّ الأمر الإلهى مختص بفترة حياه النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى مكه قبل الهجره، و عند ما هاجر صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينه أصبح للمسلمين القدره و القوه فنسخ هذا الأمر و جاء الجهاد بدله.

و لكننا نجد ورود هذا الأمر فى السور المدينه أيضا (كسوره البقره و سوره التور و التغابن و المائده)، فبعض منها يأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالعفو و الصفح، و البعض الآخر يأمر المؤمنين بذلك.

فيتّضح لنا أنّ أمر الصفح عام و دائم، و هو لا يعارض أمر الجهاد أبدا، فلكلّ محله الخاص به.

فإذا كان الموقف يستدعى العفو و التسامح، فلم لا يؤخذ به! و إذا كان مدعا

للتجرؤ و الجساره من قبل الأعداء و لا ينفع معهم إلا الشده، فلا مناص حينئذ من الأخذ بأمر الجهاد.

ثم يواسى الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه و آله و سلم.. أن لا تقلق من وحشيه الأعداء و كثرتهم و ما يملكون من إمكانات ماديه واسعه، لأن الله أعطاك ما لا يقف أمامه شيء و لقد آتيناك سبعا من المثنائى و القرآن العظيم .

و كما هو معلوم، فإن «السبع» هم العدد سبعة، و «المثنائى» هو العدد اثنان، و لهذا اعتبر أكثر المفسرون أن «سبعا من المثنائى» كناية عن سورة الحمد، و الروايات كذلك تشير لهذا المعنى.

و الداعى لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها و عظمه محتواها فقد نزلت مرتين على النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم، أو لأنها تتكون من قسمين (فنصفها حمد و ثناء لله عز و جلّ و النصف الآخر دعاء عباده)، أو لأنها تقرأ مرتين فى كل صلاه (١).

و احتمال بعض المفسرين أن «السبع» إشاره إلى السور السبع الطول التى ابتدأ بها القرآن، و «المثنائى» كناية عن نفس القرآن، لأنه نزل مرتين على النبي صلى الله عليه و آله و سلم مره بصوره كامله، و أخرى نزل نزولا تدريجيا حسب الاحتياج إليه فى أزمته مختلفه.

و على هذا يكون معنى سبعا من المثنائى سبع سور مهمات من القرآن.

و دليلهم فى ذلك الآيه الثالثه و العشرون من سورة الزمر، حيث يقول تعالى:

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيًّا، أى مرتين على النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و لكنّ التفسير الأوّل يبدو أكثر صوابا، خصوصا و أنّ روايات أهل البيت عليهم السلام تشير إلى أنّ «السبع المثنائى» هى سورة الحمد.

و اعتبر الراغب فى مفرداته أنّ كلمه «المثنائى» أطلقت على القرآن لما يتكرر

ص: ١٠٨

١- ١) - و فى حديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «إنّ الله عزّ و جلّ قال: قسّمت الصلاه بينى و بين عبدى نصفين، نصفها لى و نصفها لعبدى» مجمع البيان، ج ١، ص ١٧، و راجع كذلك تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٨ و ٢٩.

من قراءه آياته، وهذا التكرار هو الذى يحفظه من التلاعب و التحريف (إضافه إلى أن حقائق القرآن تتجلى فى كل زمان بشكل جديد ينبغى له أن يوصف بالمثانى).

و على أية حال، فذكر عبارته «القرآن العظيم» بعد ذكر سورة الحمد، بالرغم من أنها جزء منه، دليل آخر على شرف و أهميه هذه السوره المباركه، و كثيرا ما يذكر الجزء مقابل الكل لأهميته، و هو كثير الاستعمال فى الأدب العربى و غيره.

و خلاصه المطاف أن الله تعالى قد صرّح لنبىه الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم بأنك قد ملكت سندا عظيما (القرآن)، و لا تستطيع أى قوه فى عالم الوجود أن تصرعه.

سندا كلّه نور، بركه، دروس تربويه، برامج عمليه، هدايه و تسديد، و بالذات سوره الفاتحه منه التى لها من المحتوى و الأثر بحيث لو ارتبط العبد برّبّه و لو للحظه واحده لحلقت روحه لساحه قدس الربّ، و هى تعيش حال التعظيم و التسليم و المناجاه و الدّعاء.

و بعد هذه الهبه العظيمه بأمر الله تعالى نبىه الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم بأربعه أوامر فيقول له أولا: **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ (١)**.

فتمتع الحياه الدنيا ليست دائمه و لا خاليه من التبعات، و الحفاظ عليها أمر صعب فى أحسن الحالات.

و لهذا، لا تستحق الاهتمام بها مقابل ما أعطاك الله عزّ و جلّ من العطاء المعنوى الجزيل (أى القرآن).

ثم يقول فى الأمر الثانى: **وَلَا تَخْزَنَ عَلَيْهِمْ** لما عندهم من أموال و نعم ماديه.

فالأمر الأوّل فى الحقيقه يتعلق بعدم الاهتمام و التوجه نحو النعم الماديه، و الأمر الثانى يتعلق بعدم التأثر لفقدانها.

ص: ١٠٩

---

١-١) - أزواجاً: مفعول (متعنا). و منهم: جار و مجرور متعلق بفعل مقدر. فيكون المعنى إجمالاً: مجموعات مختلفه من الكفار.

وقد جاء ما يشبه هذا المضمون في الآية (١٣١) من سورة طه حيث يقول جل و علا بتفصيل أكثر: **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .**

و الأمر الثالث: جاء بخصوص ضروره اللين و التواضع مع المؤمنين حيث يقول: **وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .**

إنّ هذا التعبير، كناية جميله عن التواضع و المحبّه و الملاطفه، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد حفظها، فتجسّم بذلك أعلى صور العاطفه و الحنان و تحفظهم من الحوادث و الأعداء، و تحميهم من التشتت.

و التعبير المذكور عباره عن كناية مختصره بليغه ذات مغزى و معان كثيره جدًا.

و يمكن أن يحمل ذكر هذه الجملة بعد الأوامر الثلاثة المتقدمه إشاره تحذير بعدم إظهار التواضع و الانكسار أمام الكفار المتنعمين بزهو الحياه الدنيا، بل لا بدّ للتواضع و الحب و العاطفه الفياضه لمن آمن و إن كان محروما من مال الدنيا.

و نصل إلى الأمر الرابع: **و قل لهؤلاء الكفره المنعمين بكل حزم إنني أنا النذير المبين .**

قل: أنذركم من أمر الله بنزول عذابه عليكم كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين (١)، أى الذين قسموا الآيات القرآنيه أصنافا، فما كان ينفعهم أخذوه، و ما لا ينسجم و مشتهاهم تركوه.

فبدل أن يتخذوا كتاب الله هاديا و قائدا لهم، جعلوه كآله بأيديهم و وسيله للوصول لأهدافهم الشريره، فلو وجدوا فيه كلمه واحده تنفعهم لتمسكوا بها، و لو وجدوا ألف كلمه لا تنسجم مع منافعهم الدنيويه لتركوها بأجمعها!!

ص: ١١٠

---

(١-١) -عضين: (جمع عضه) أى التفريق، و يقال لكل جزء ممّا قسم عضين أيضا.



## ١- القرآن.. عطاء إلهي عظيم

يخبر الله تعالى في الآيات المذكورة نبيه الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبعنوان تنبيه لجميع مسلمي العالم، أن هذا القرآن جعل في اختياركم، وفيه من العطاء ما لا يعد، و ليكن رأس مالكم الذي تتعاملون فيه في حياتكم، و لو عملتم به ل جعلتم دنياكم كلها سعادة و رفاه و أمن و صلاح.

و هذه حقيقة يعترف بها حتى غير المسلمين، فهم يعتقدون بأن المسلمين إذا أخذوا القرآن و جعلوه أساس حياتهم، و عملوا بأحكامه و هديه، فسيكونون من القوّه و التقدم بحيث لا يسبقهم في ذلك أحد.

ف نرى مثلاً، سورة الحمد «سبعاً من المثاني» و التي تسمى «خاتمة الكتاب» لوحدها تمثل مدرسه كامله للحياه:

فأولها... يشير إلى خالق الوجود الذي يربى جميع أهل العالم في مسيره تكاملية شامله، هذا الخالق الذي وسعت رحمته «خاصّه» و عامّه كل شيء.. ثم تشير إلى محكمه العدل الإلهيه التي يكفل الإيمان بها خلق رقابه دقيقه على جميع سلوكيات الإنسان و نواياه.

ثم الإشاره إلى عدم الاتكال على غير الله، و عدم الخضوع و التسليم لغيره لتتهياً الأرضيه الصالحه للسير على صراطه المستقيم الذي لا عوج فيه و لا ميل له إلى شرق و لا إلى غرب، كما أنه ليس فيه إفراط و لا تفريط، و كذلك ليس فيه ضلال و لا غضب من الله عزّ و جلّ.

إنّها جملة أمور، لو تمثلها الإنسان و بنى عليها كيانه، لكانت كفيله بأن تجعل له شخصيه ساميه متكامله.

و للأسف الشديد فقد وقع هذا العطاء الإلهي بأيدي أناس لم يعرفوا جلاله قدره، و لم يغور و العمق معناه، بل إنهم من الجهل بمكان حتى وصل بهم الأمر أن

تركوا تلك الآيات الربانية المنجيه من التيه و الضلال و الجهل، و ركضوا لاهئين وراء من ملكته شهواته و من لم يصل إلى أدنى درجات النضج الفكرى، ليستجدوا منهم القوانين و البرامج التربويه التى صنعها جهلهم المتلبس بلباس العلم و التقدم! فهؤلاء المساكين يبعون أعلى ما عندهم بثمان بخس، و يشتركون به ما يبعدهم عن بناء أخراهم! و لا يعنى هذا بأننا ضد التقدم التقنى، بل علينا أن لا- نحصر كل أنفسنا فى هذا الجانب من الحياه الإنسانيه..ففى الوقت الذى نجد فى القرآن تلك العيون الفياضه بالمعنويات، نراه كذلك صاحب برامج حيويه فى مجالات التقدم و الرفاه الماديين، و هذا ما أوضحناه فى الآيات المتقدمه و ما سنزيد فيه فى الآيات القادمه إن شاء الله تعالى.

## ٢-الطمع بما عند الغير..مصدر الانحطاط

هناك الكثير من أصحاب العيون الضيقه الذين يلاحظون هذا و ذاك باستمرار بعيون ملؤها الطمع و الجشع! لقد دأب هؤلاء على قياس حالهم و حال الآخريين و يغمون غما شديدا فيما لو وجدوا أن شيئا من الحاجات الماديه الحياتيه ناقصا عندهم، فيبذلون كل شىء فى سبيل الحصول عليها حتى و إن كلفهم ذلك خساره القيم الإنسانيه و بيع كرامتهم! هذا نمط من التفكير ينم عن حاله التخلف، و يكشف عن الشعور بعقده الحقاره و نقص الهمة. و هو من العوامل الفاعله فى تخلف الإنسان فى حياته، و على كافه الأصعدة.

و الشخص المستقل لا يتعامل مع مجريات الحياه بذلك النمط من التفكير المتخلف، و إنما يستعمل قواه الفكرية و الجسمانيه فى طريق رشده و تكامله، فهو

كمن يحدث نفسه قائلاً: بما أنه لا ينقصني عن الآخرين شيء، ولا يوجد دليل على عدم استطاعتي التقدم أكثر منهم أو الوصول لمصافهم.. فلما ذا أمد عيني لما متع به الآخرين من مال و جاه و ما شاكل...

فصاحب الشخصية المستقلة لا يربط هدفه و مقصده من الحياه بالجوانب الماديه البحتة فقط، بل يطلبها لإشباع ما يحتاجه روحيا و تربويا، و يطلبها لكي يحفظ بها استقلاله و حريته، و لكي لا- يكون عاله على الآخرين، فهو لا يطلبها بحرص، و لا يطلبها بكل ما يملك، لأن ذلك ليس بيع الأحرار، و لا هو بيع عباد الله الصالحين.

و نختم الحديث بالحديث النبوي الشريف: «من رمى ببصره ما فى يد غيره كثر همّه و لم يشف غيظه» (١).

### ٣- تواضع القائد

لقد أوصى النبي صلى الله عليه و آله و سلم مرارا من خلال القرآن أن يكون مع المؤمنين متواضعا، محتيا، سهلا و رحيفا، و الوصايا ليست منحصره بخصوص نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، بل هى عامه لكل قائد و موجه، سواء كانت دائره قيادته واسعه أم محدوده، فعليه أن يأخذ بهذا الأصل الأساسى فى الإدارة و القيادة الصحيحه.

إن حبّ و تعلق الأفراد بقائدهم من الأسس الفاعليه لنجاح القائد، و هذا ما لا يتحقق من دون تواضعه و طلاقه وجهه و حبه لخير أفراده.

أمّا خشونه و قساوه القائد فلا- تؤدى إلا- إلى فصم رابطة الالتحام بينه و بين الأفراد ممّا يؤدى إلى تفرق و تشتت الناس عن قائدهم.

قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى رسالته إلى محمد بن أبى بكر: «فاخفض لهم

ص: ١١٣

جناحك و أن لهم جانبك و ابسط لهم وجهك و آس بينهم فى اللحظه و النظرة» (١).

#### ٤- من هم المقتسمون؟

إن التوجيهات الإلهية بلا شك تراعى فيها المصلحة العامه و مصلحة الأفراد بصورة عامه، و لكن البعض منها قد يوافق مصالحنا الشخصيه بحسب الظاهر و البعض الآخر على خلافها. و من خلال قبول أو رفض ما يدعونا إليه الله يمحص المؤمن الخالص من المدعى للإيمان، فالذى يقبل كل شىء نازل من الله و يسلم له، حتى و إن ظاهره لا يتوافق مع مصلحته، و يقول «كل من عند ربنا» و لا يجرأ على تجزئه أو تقسيم أو تبعض الأحكام الإلهيه.. فذلك هو المؤمن حقًا.

أما الذين استفحل المرض فى قلوبهم فيحاولون تسخير دين الله و أحكامه لخدمه مصالحهم الشخصيه، فيقبلون ما يدعم منافعهم و يتركون غيره، فتراهم يجزؤون الآيات القرآنيه، بل و تراهم فى بعض الأحيان يجزؤون الآيه الواحده، فما يوافق ميولهم احتدوا به و يتركون القسم الباقي من الآيه! و لكن من القبح أن نردد ما قاله بعض الأقوام السابقه نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ فهذا شأن عبید الدنيا.

أما معيار تشخيص أتباع الحق من أتباع الباطل فمن خلال التسليم للأوامر و التوجيهات الإلهيه التى لا تنسجم مع الميول و الأهواء و المنافع الدنيويه، فمن هنا يعرف الصادق من الكذاب و المؤمن من المنافق.

و تجدر الإشارة هنا إلى وجود تفاسير أخرى لمعنى المقتسمين (غير ما ذكرناه)، حتى أن القرطبي قد ذكر فى تفسيره سبعة آراء فى معنى هذه الكلمه، إلا أن أكثرها خال من القرينه، و البعض الآخر لا يخلو من مناسبه و هو ما سنذكره

ص: ١١٤

فمنها.. أنّ جمعا من رؤوس المشركين كانوا يقفون في أيّام الحج على رؤوس طرق و أزقه مكّه، و يشرع كل واحد منهم بالسخرية و الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه و آله و سلّم و القرآن لينفروا الناس عنه.

فبعض يقول: إنّه «مجنون» فإنّ ما يقوله ليس بموزون..

و بعض يقول: إنّه «ساحر» و قرآنه نوع من السحر..

و بعض يقول: إنّه «شاعر» و النغمه البلاغيه للآيات السماويه هي شعر..

و بعض يقول: إنّه «كاهن» و إنّ أخبار القرآن الغيبية هي نوع من الكهانه.

و قد سمى هؤلاء بالمقتسمين لتقسيمهم شوارع و أزقه مكّه و معابرها بينهم ضمن خطه دقيقه و محسوبه.

و لا مانع من دخول هذا التفسير و ما ذكرناه معا ضمن مفهوم الآيه المبحوثة.

اشاره

فَو رَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَ لَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

التفسير

فاصدع بما تؤمر!

يبين القرآن في أواخر سورة الحجر مصير المقتسمين الذين ذكروا في الآيات السابقة فيقول: فَو رَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إنَّ عالم السر و العلن و من لا يخفى عليه ذره ما في السماوات و الأرضين لا يسأل لكشف أمر خفى عليه (سبحانه و تعالى عن ذلك)، و إنما السؤال لتفهم المسؤول قبح فعله، أو كون السؤال نوعاً من العقاب الروحي، لأنَّ الجواب سيكون عن أمور قبيحة و مصحوباً باللوم و التوبيخ، و ذلك ما يكون له بالغ الأثر في ذلك المقام، حيث أنَّ الإنسان عندها أقرب ما يكون إلى الحقائق و إدراكها.

و على هذا الأساس فالسؤال قسم من العقاب الروحي.

و عموم قوله تعالى: عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ يرشدنا إلى أنّ السؤال سيكون عن جميع أفعال الإنسان بلا استثناء، و هو درس بليغ كى لا نغفل عن أفعالنا.

أمّا ما اعتبره بعض المفسرين من اختصاص السؤال عن التوحيد و الإيمان بالأنبياء، أو هو مرتبط بما يعبد المشركون.. فهو كلام بلا دليل، و مفهوم الآيه عام.

و قد يشكل البعض من كون الآيه المتقدمه تؤكّد على أنّ الله تعالى سيسأل عباده، فى حين نقرأ فى الآيه التاسعه و الثلاثين من سورة الرحمن فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ .

و قد أجبنا عن ذلك سابقا، و خلاصته: فى القيامه مراحل، يسأل فى بعضها و لا يسأل فى البعض الآخر حيث تكون الأمور من الوضوح بحيث لا- تستوجب السؤال، أو أن لا يكون السؤال باللسان، و هذا ما نستنتجه من الآيه الخامسه و الستين من سورة يس حيث تشير إلى غلق الأفواه و بدأ أعضاء البدن-حتى الجلد-بالسؤال. (١)

ثمّ يأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه و آله و سلم بقوله فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، أى لا تخف من ضوضاء المشركين و المجرمين، و لا تضعف أو تتردد أو تسكت، بل ادعهم إلى رسالتك جهارا.

وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

، و لا تعتن بهم.

«فاصدع»، من ماده (صدع) و هى لغه بمعنى «الشق» بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمه بما يكشف عمّا فى داخلها، و يقال أيضا لألم الرأس الشديد (صداع) و كأنه من شدته يريد أن يشق الرأس! و هى هنا...بمعنى: الإظهار و الإعلان و الإفشاء.

ص: ١١٧

١-١) -لمزيد من الإيضاح، راجع ذيل تفسير الآيه (٧) من سورة الأعراف.

و على آيه حال...فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم و حربهم، لأن المسلمين في ذلك الوقت لم تصل قدرتهم-بعد- لمستوى المواجهه مع الأعداء و حربهم.

ثم يطمئن الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم تقويه لقلبه: **إِنَّا كَفَيْتَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** .

أن مجيء الفعل بصيغته الماضى فى هذه الآيه مع أن المراد المستقبل يشير إلى حتميه الحمايه الربانيه، أى:سندفع عنك شهر المستهزئين،حتما مقضيا.

و قد ذكر المفسرون روايه تتحدث عن ست جماعات(أو أقل)كان منهم يمارس نوعا من الاستهزاء تجاه النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

فكلما صدع النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالدعوه قاموا بالاستهزاء تفريقا للناس من حوله صلى الله عليه و آله و سلم، إلا أن الله تعالى ابتلى كلا منهم بنوع من البلاء،حتى شغلهم عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم،(و قد ورد تفصيل تلك الابتلاءات فى بعض التفاسير).

ثم يصف المستهزئين: **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** .

كأن القرآن يريد أن يقول:إن أفكار و أعمال هؤلاء بنفسها عبث سخف حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر و خشب،و دفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع الله ما صنعوا بأيديهم آلهه!و مع ذلك..يستهزءون بك! و لمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النبي صلى الله عليه و آله و سلم،يضيف تعالى قائلا: **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** .فروحك اللطيفه و قلبك الطيب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيئه و أحاديث الكفر و الشرك،و لذلك يضيق صدرك.

و لكن لا تحزن من قبح أقوالهم **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** .

لأن تسبيح الله يذهب أثر أقوالهم القبيحه من قلوب أحياء الله،هذا أولا..

و ثانيا،يعطيك قدره و قوه و نورا و صفاء،و يخلق فيك تجليا و انفتاحا،و يقوى ارتباطك مع الله،و يقوى إرادتك و يثبت فيك قدره أكبر للتحمل و الثبات و المجاهده فى قبال أعداء الله.



فى روايه نقلنا عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أجزنه أمر فرع إلى الصلاة.

ثم يعطى الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم آخر أمر فى هذا الشأن: **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**.

المعروف و المشهور بين المفسيدين أن المقصود من «اليقين» هنا الموت، و سمي باليقين لحتميته، فربما يشك الإنسان فى كل شىء، إلا الموت فلا يشك فيه أحد قط.

أو لأن الحجب تزال عن عين الإنسان عند الموت فتتضح الحقائق أمامه و يحصل له اليقين.

و فى الآيتين السادسة و الأربعين و السابعة و الأربعين من سورة المدثر نقرأ عن لسان أهل جهنم: **وَ كُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ** أى الموت.

و من هنا يتضح خطأ ما نقل عن بعض الصوفيه من أن الآية أعلاه دليل على ترك العباده. فقالوا: أعبد الله حتى تحصل على درجه اليقين، فإذا حصلت عليها فلا حاجه للعباده بعدها! و نقول:

أولاً: اليقين هنا بمعنى الموت بشهاده الآيات القرآنيه المشار إليها، و هو ما يحصل للمؤمن و الكافر سواء.

ثانياً: المخاطب بهذه الايه هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و مقام اليقين للنبى من المسلمات، و هل يجرأ أحد أن يدعى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل لدرجه اليقين، حتى يخاطب بالآيه المذكوره؟! ثانياً: المقطوع به أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يترك العباده حتى آخر لحظات عمره الشريف، و كذا الحال بالنسبه لأمر المؤمنين على عليه السلام و هو المستشهد فى المحراب، و هو ما سار عليه بقيه الأئمه عليهم السلام.

## ١- بدايه الدعوه العلنيه للإسلام

المستفاد من بعض الروايات أنّ الآيتين: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ نزلتا في مكّه بعد أن قضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثلاث سنوات في الدعوه السريه لرسالته، ولم يؤمن به إلا القليل من المقربين إليه، و أول من آمن من النساء خديجه عليها السلام و من الرجال على عليه السلام.

من البدايه، أنّ الدعوه إلى التوحيد الخالص المصاحبه لتحطيم نظام الشرك و عباده الأصنام في تلك البيئه و فترتها كانت في الواقع عملا عجيبا و مخيفا، و استهزاء المشركين و سخريتهم كان معلوما عند الله من قبل أن يمارس، و لهذا أراد الله تعالى تقويه قلب نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كي لا يخشى المستهزئين، و يعلن رسالته بكل قوه على الملأ و يشرع بجهاد منطقي معهم (١).

## ٢- الأثر الزوحي لذكر الله

إنّ حياه الإنسان (كانت و ما زالت) زاخره بالمشاكل بحسب ما تقتضيه طبيعه الحياه الدنيا، و كلما علا الإنسان درجه كثرت مشاكله و تعددت، و من هنا نفهم شدة ما واجهه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من مشاكل و صعاب في طريق دعوته الكبيره.

و يكون العلاج الزباني لتجاوز العقبات عباره عن محاوله تحصيل القوه من مصدرها الحق مع التحلى بسعه الصدر، فيأمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالتسيح و الذكر و الدعاء و السجود، لما للعباده من أثر عميق في تقويه روح الإنسان و إيمانه و إرادته.

و نستفيد من روايات مختلفه أنّ الأئمه عليهم السلام إذا واجهتهم المصاعب الشداد و البلاء، لجؤوا إلى الله و شرعوا بالعباده و الدعاء، كي يستمدوا القوه من معينها الأصيل.

ص: ١٢٠

و كما هو معلوم فإنّ الإنسان قد بدأ انطلاقته في الحياه من نقطه العدم و لا يزال يسير نحو المطلق، و لن تتوقف عجله تكامله (ما دام مداوما على الطريق) كما أنّه يمتلك مقومات السير و يمتاز بقابليه فائقه و استعداد كامل في طلبه للتكامل، هذا من جهه.

و من جهه أخرى-تعتبر العباده مدرسه عاليه للتربيه، لأنّها توقظ عقل الإنسان، و توجه فكره نحو المطلق، و تغسل غبار الذنوب و الغفله من قلبه و روحه، و تنمي فيه الصفات الإنسانيه الرفيعه، و تقوى إيمانه و تجعله أكثر و عيا و اكبر مسؤوليه.

فلا- يمكن للإنسان الواقعي أن يستغنى عن هذه المدرسه الراقيه، أمّا الذين يعتقدون بأنّ الإنسان قد يصل إلى درجه معينه لا يحتاج عندها إلى العباده، فأولئك إمّا أنّهم يعتبرون عمليه تكامل الإنسان محدوده و تنتهي بحدّ معين، أو أنّهم لم يدركوا معنى العباده حقًا.

و للعلاّمه الطّباطبائي رحمه الله في تفسير الميزان بيان بهذا الشأن، إليك ملخصه، (إن كل نوع من أنواع الموجودات له غايه كماليه، و كذلك الإنسان له غايه تكاملية لا ينالها إلاّ بالاجتماع المدني، و لهذا فهو اجتماعي بالطبع، و إن تحقق هذا الاجتماع فسيحتاج أفراد المجتمع إلى أحكام و قوانين ينتظم باحترامها و العمل بها شتات أمورهم، و ترتفع بهذا اختلافاتهم الضروريه، و يقف بها كل منهم في موقفه الذي ينبغي له، و يحوز بها سعادته و كماله الوجوديه.

و بعبارة أخرى: إن كان المجتمع الإنساني صالحا أمكن لأفراده الوصول إلى هدفهم النهائي في الكمال، و إن فسد المجتمع تخلف أفراده عن هذا التكامل.

و إنّ هذه الأحكام و القوانين سواء كانت اجتماعيه أو عباديه، لا تكون مؤثره إلاّ إذا أخذت من طريق التّبوه و الوحي السماوي لا غير.

و نعلم أيضا أنّ الأحكام العباديه تشكل جزءا من هذا التكامل الفردي و الاجتماعي.

و بهذا يتبين أنّ التكليف الإلهي يلازم الإنسان ما عاش في هذه النشأه الدنيويه، و أن تجويز ارتفاع التكليف ملازم لتجويز تخلفه عن الأحكام و القوانين، و هذا يوجب فساد المجتمع! و من الجدير بالملاحظه أنّ الأعمال الصالحه و العبادات منبع للملكات النفسانيه الفاضله فإذا أدت هذه الأعمال بقدر كاف، و قويت تلك الملكات الفاضله في نفس الإنسان، فستكون نفسها منبعاً جديداً لأعمال صالحه أكثر و طاعات و عبادات أفضل.

و من هنا يظهر فساد ما ربّما يتوهم أنّ الغرض من التكليف هو تكميل الإنسان فإذا كمل لم يكن لبقاء التكليف معنى، و ما ذلك إلاّ مغالطه ليس أكثر، لأنّ الإنسان لو تخلف عن التكليف الإلهي فإنّ المجتمع سيسير نحو الفساد فوراً، فكيف يتسنى للفرد الكامل أن يعيش في هكذا مجتمع! و كذلك فرضيه تخلف الإنسان عند امتلاكه الملكات الفاضله عن العبادات و طاعه الله، فإنّها تعنى تخلف هذه الملكات عن آثارها (1) - فتأمل.

ص: ١٢٢

---

(١ - ١) - تفسير الميزان، ج ١٢، ص ١٩٩.

## سوره النحل

### اشاره

مكّيه و عدد آياتها مائه و ثمان و عشرون آيه

ص: ۱۲۳



## محتويات السوره:

يذهب أكثر المفسرين إلى أنّ قسما من آيات هذه السوره مكّيه، و قسما الآخر آيات مدنيّه، في حين يعتبر بعضهم أنّ آياتها مكّيه على الإطلاق. و عند ملاحظه طبيعه السوره المكّيه و المدنيه يتبين لنا أنّ الرأى الأول أكثر صوابا، و يعزز ذلك ما تبخّته الآيه (٤١) وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ...، و الآيه (١١٠) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَ صَبَرُوا... حيث أنّها تناولت بوضوح موضوع الهجره و الجهاد معا.. و كما هو بين فإنّ الموضوعين يتناسبان مع الحوادث التي جرت بعد هجره النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم من مكّه إلى المدينه.

و إذا اعتبرنا الهجره المشار إليها في الآيه (٤١) هي هجره المسلمين الأولى حين هاجر جمع منهم من مكّه إلى الحبشه برئاسة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، فيستبعد أن تكون الهجره و الجهاد المشار إليهما في الآيه (١١٠) الهجره الأولى، و لا تنطبق الآيه المباركه إلا على هجره النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم إلى المدينه.

بالإضافه إلى أنّ الآيه (١٢٦) وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ... قد نزلت في غزوه أحد التي وقعت بعد الهجره الثانيه، و هذا معروف عند المفسرين.

و قال بعض المفسرين: إنّ الآيات الأربعين الأول من السوره نزلت في مكّه و بقيه الآيات نزلت في المدينه، في حين يعتبر البعض الآخر منهم جميع آياتها

مكيه سوى الآيات المتعلقة بغزوه أحد(الآيات الثلاثة الأخيره).

فالمتيقن بخصوص السوره أنّ آياتها مكيه و مدينه، إلاّ أنّه لا يمكن تشخيص ما هو مكي أو مدني بالدقه الكافيه سوى الموارد المذكوره.

و على أيه حال، فمن خلال ملاحظه السوره يبدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تناوله الآيات المكيه تاره مثل: التوحيد، المعاد، محاربه الشرك و عباده الأصنام، و تاره أخرى ما تناوله الآيات المدينه مثل: الأحكام الاجتماعيه و مسائل الجهاد و الهجره. و يمكننا إجمال محتويات السوره المسبوكه بعنايه و إحكام بما يلي:

١- ذكر النعم الإلهيه، و تفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذى حس حي، ليقرب الإنسان من خالق هذه النعم و واهبها.

و من النعم المذكوره فى السوره: نعمه المطر، نور الشمس، أنواع النباتات و الثمار، المواد الغذائيه الأخرى، الحيوانات الداجنه بما تقدمه من خدمات و منافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياه و حتى نعمه الولد و الزوجه، و بعباره شامله (أنواع الطيبات). و لهذا أطلق البعض عليها (سوره النعم).

و عرفت بسوره النحل لورود تلك الإشاره القصيره ذات المعانى الجليله و العجيبه للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهيه الواسعه، و بخصوص اعتبار النحل مصدرا لغذاء مهم من أغذيه الإنسان، و باعتبار حياه هذه الحشره تعبير ناطق لتوحيد الله.

٢- الحديث عن أدله التوحيد، عظمه ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين و المجرمين.

٣- تناول الأحكام الإسلاميه المختلفه، من قبيل: الأمر بالعدل و الإحسان، الهجره و الجهاد، النهى عن الفحشاء و المنكر و الظلم و الاستبداد و خلف العهد،



بالإضافة إلى الدعوه لشكر الله تعالى على نعمه الجزيله،و تأتي الإشاره فى آيات عديده إلى أنّ إبراهيم عليه السّلام رجل التوحيد لأنه كان من الشاكرين.

٤-الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثله جميله حيه.

٥-و أخيرا تحذير الإنسانيه من وساوس الشيطان.

### فضيله السّوره:

روى عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلم،فى فضل سوره النحل،أنّه قال: «من قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التي أنعمها عليه من دار الدنيا» (١).

فقراءه الآيات-التي تتناول جانبا كبيرا من النعم الإلهيه-بتدبر و تفكر مع وجود العزم على العمل و السير وفق الشكر للمنعم،تكون سبيلا لأن يستعمل الإنسان كل نعمه بما ينبغى عليه أن يستعمل،فلا يحبس و لا يهمل،و يكون من الشاكرين..فإن أصبح كذلك فهل سيتعرض لمحاسبه بعد؟

ص: ١٢٧

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

التفسير

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ:

ذكرنا سابقا أن قسما مهمما من الآيات التي جاءت في أول السورة هي آيات مكّية نزلت حينما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخوض صراعا مشтуда مع المشركين و عبده الأصنام، و ما يمر يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهه جديده ضد الدعوه الإسلاميه المباركه، لأنها تريد بناء صرح الحريه، بل كل الحياه من جديد.

و من جمله مواجهاتهم اليائسه قولهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حينما يهددهم و ينذرهم بعذاب الله: إن كان ذلك حقا فلم لا يحل العذاب و العقاب بنا إذن؟! و لعلهم يضيفون: و حتى لو نزل العذاب فسنلتجئ إلى الأصنام لتشفع لنا عند الله في رفع العذاب.. و لم لا يكون ذلك، أو لسن شفيعات؟!...

و أول آيه من السورة تبطل أو هام أولئك بقوله تعالى: أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا

، و إن اعتقدتم أنّ الأصنام شافعه لكم عند الله فقد أخطأتم الظن سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

ف«أمر الله» هنا: أمر العذاب للمشركين، أما الفعل «أتى» فالمراد منه المستقبل الحتمى الوقوع على الرّغم من وقوعه بصيغته الماضى، و مثل هذا كثير فى الأسلوب البلاغى للقرآن.

و احتمال بعض المفسرين أنّ «أمر الله» إشاره إلى نفس العذاب و ليس الأمر به.

و احتمال بعض آخر أنّ المراد به يوم القيامة.

و يبدو لنا أنّ التفسير الذى ذكرناه أقرب من غيره، و الله العالم.

و بما أنّ مستلزمات العدل الإلهى اقتضت عدم العقاب إلا بعد البيان الكافى و الحجّج التامه، فقد أضاف سبحانه: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (١) عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا بِنَاءٍ عَلَىٰ هَذَا الْإِنذَارِ وَ التذكير فَاتَّقُوا .

أمّا المقصود من «الروح» فى الآيه فهناك كلام كثير بين المفسرين فى ذلك إلا أنّ الظاهر منها هو: الوحي و القرآن و النبوه..و التى هى مصدر الحياه المعنويه للبشرية.

و قد فصل بعض المفسرين الوحي عن القرآن و عن النبوه، معتبرا ذلك ثلاثة تفاسير مستقله للكلمه و لكنّ الظاهر رجوع الجميع إلى حقيقه واحده.

و على آيه حال فكلّمه «الروح» فى هذا الموضوع ذات جانب معنوى و إشاره إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب و تهذيب النفوس و هدايه العقول، كما نقرأ فى الآيه الرّابعه و العشرين من سوره الأنفال:

ص: ١٢٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ.. وفي الآية الخامسة عشر من سورة غافر: يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلِيٌّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.. وفي الآية و الثانية الخمسين من سورة الشورى: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .

و جليّ أنّ «الروح» في الآيات المتقدمة ترمز إلى «القرآن» و«الوحي» و «أمر النبوه».

و قد وردت «الروح» بمعانٍ أخرى في مواضع من القرآن الكريم، و لكن مع الأخذ بنظر الإعتبار ما ذكر من قرائن نخلص إلى أنّ المراد من مفهوم «الروح» في الآية مورد البحث هو القرآن و ما تضمنه الوحي.

و جدير بالملاحظة أنّ عبارة عَلِيٌّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لا تعنى أنّ هدايه الوحي و النبوه لا حساب فيها، لأنّه لا انفصام و لا ضديه بين مشيئه الله و حكمته، كما تحدثنا في ذلك الآية (١٢٤) من سورة الأنعام: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .

و لا ينبغي غض الطرف من كون الإنذار من أوائل الأوامر الربانيه الموجهه إلى الأنبياء عليهم السّلام بدليل عبارة أَنْ أَنْذِرُوا، لأنّ من طبيعه الإنذار أن يعقبه انتباه فنهوض و حركه.

صحيح أنّ الإنسان طالب للمنفعه و دافع للضرر، و لكنّ التجربه أظهرت أنّ للترغيب أثر بالغ لمن يمتلك أسس و شرائط قبول الهدايه، أما من أعمت بصيرتهم ملهيات الحياه الدنيا فلا- ينفع معهم إلّا- التهديد و الوعيد، و في بدايه دعوه النّبي كان من الضروري استخدام أسلوب الإنذار الشديد.

اشاره

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَسِقُّ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُفٌ رَحِيمٌ (٧) وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)

التفسير

اشاره

الحيوان ذلك المخلوق المعطاء:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نفي الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، و توجه الإنسان نحو خالقه بطريقتين:

الأول: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم و محاوله استيعاب ما فى الخلائق من نظام عجيب.

الثانى: عن طريق العاطفه ببيان نعم الله الواسعه على الإنسان، عسى أن

يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ .

و تتضح حقائقه السماوات و الأرض من نظامها المحكم و خلقها المنظم و كذلك من هدف خلقها و ما فيها من منافع.

ثم يضيف: تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده الله؟! بل هل تستطيع أن تخلق بعوضه صغيره أو ذره تراب؟! فكيف إذن جعلوها شريكه الله سبحانه!!...

و المضحك المبكى فى حال المشركين أنهم يعتبرون الله هو الخالق عن علم و قدره لهذا النظام العجيب و الخلق البديع.. و مع ذلك فهم يسجدون للأصنام! و بعد الإشارة إلى خلق السماوات و الأرض و ما فيها من أسرار لا متناهيه يعرج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول:

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ

«النطفه»(فى الأصل)بمعنى:الماء القليل،أو الماء الصافى،ثم أطلقت على قطرات الماء التى تكون سببا لوجود الإنسان بعد تلقيحها.

و حقيقه التعبير يراد به تبيان عظمه و قدره الله عزّ و جلّ،حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطره ماء حقيره مع ما له من قيمه و تكريم و شرف بين باقى المخلوقات و عند الله أيضا.

هذا إذا ما اعتبرنا«الخصيم»بمعنى المدافع و المعبر عمّا فى نفسه،كما تخبرنا الآية(١٠٥)من سوره النساء بذلك: وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا كما ذهب إليه جمع من المفسرين.

و هناك من يذهب إلى تفسير آخر،خلاصته:بقدره الله التامه خلق الإنسان من نطفه حقيره،و لكنّ هذا المخلوق غير الشكور يقف فى كثير من المواضع

مجادلا خصيما أمام خالقه، واعتبروا الآيه السابعه و السبعين من سوره يس شاهدا على ما ذهبوا إليه.

إلا- أنّ التفسير الأوّل كما يبدو- أقرب من الثّاني، لأنّ الآيات أعلاه فى مقام بيان عظمه الله و قدرته، و تتبين عظمته بشكل جلى حين يخلق كائنا شريفا جدا من ماده ليست بذى شأن فى ظاهرها.

و جاء فى تفسير على بن إبراهيم: (خلقه من قطره من ماء منتن فيكون خصيما متكلمًا بليغا) (١).

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى نعمه خلق الحيوانات و ما تدر من فوائد كثير للإنسان فيقول: وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

فخلق الأنعام الدال على علم و قدره البارى سبحانه، فيها من الفوائد الكثيره للإنسان، و قد أشارت الآيه إلى ثلاث فوائد:

أولا: «الدفء» و يشمل كل ما يتغذى به (بالاستفاده من وبرها و جلودها) كاللباس و الأغطية و الأخويه و الأحييه.

ثانيا: «المنافع» إشاره إلى اللبن و مشتقاته.

ثالثا: «منها تأكلون» أى، اللحم.

و يلاحظ تقديم الملابس و الأغطية و المسكن، فى عرض منافع الأنعام دون المنافع الأخرى، و هذا دليل على أهميتها و ضرورتها فى الحياه.

و يلاحظ أيضا مجيء كلمه «الدفء» قبل «المنافع» إشاره إلى أنّ ما تدفع به الضرر مقدم على ما يجلب لك فيه المنفعه.

و يمكن للبعض ممن يخالفون أكل اللحوم أن يستدلوا بظاهر هذه الآيه، حيث لم يعتبر البارى جل شأنه مسأله أكل لحومها ضمن منافعها، و لهذا نرى قد جاءت

ص: ١٣٣

بعد ذكر كلمه «المنافع»، و أقل ما يستتج من الآيه اعتبارها لأهميه الألبان أكثر بكثير من اللحوم.

و لم يكتف بذكر منافعها الماديه، بل أشار إلى المنافع النفسيه و المعنويه كذلك حين قال: وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ .

«تريحون»: (من ماده الإراحه) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل استراحتها، و لهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح).

و «تسرحون»: (من ماده السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحا إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمه «جمال» عن تلك الحركه الجماليه للأنعام حين تسرع إلى مراعيها و تعود إلى مراحها، لما لها من جمال و رونق خاص يغبط الإنسان، و المعبر عن حقيقه راسخه فى عمق المجتمع.

فحركه الإبل إضافه إلى روعتها فإنها تطمئن المجتمع بأن ما تحتاجه من مستلزمات حياتك ها هو يسير بين عينيك، فتمتع به و خذ منه ما تحتاجه، و لا داعى لأن ترتبط بهذا أو ذاك فتسضعف، و كأنها تخاطبه: فأنت مكتف ذاتيا بواسطتى.

ف«الجمال» جمال استغناء و اكتفاء ذاتى، و جمال إنتاج و تأمين متطلبات أمه كامله، و بعبارة أوضح: جمال الاستقلال الاقتصادى و قطع كل تبعيه للغير! و الحقيقه التى يدركها القرويون و أبناء الريف أكثر من غيرهم، هى ما تعطيه حركه تلك الأنعام من راحه نفسيه للإنسان، راحه الإحساس بعدم الحاجه و الاستغناء، راحه تأديه إحدى الوظائف الاجتماعيه الهامه.

و من لطيف الإشاره أن بدأت الآيه أعلاه بذكر عوده الأنعام إلى مراحلها، حيث الملاحظ عليها فى هذه الحال أئديتها ملأى باللبن، بطونها ممتلئه، يشاهد على وجوهها علائم الرضا و الارتياح و لا يرى فيها ذلك الحرص و الولع و العجله



التي تظهر عليها حين خروجها في الصباح، بل تسير هادئة مطمئنه نحو محل استراحتها، و يكفيك الشعور بالغنى من خلال رؤيه أئدائها.

ثم يشير تعالى في الآيه التي تليها إلى إحدى المنافع المهمه الأخرى فيقول:

وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ

و هذا مظهر من مظاهر رحمه الله عزّ و جلّ و رأفته حيث سخر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدره و قوه إنّ ربّكم لرؤف رحيم .

«الشق»: (من ماده المشقه)، و لكنّ بعض المفسرين احتمل أنّها بمعنى الشق و القطع، أى أنّكم لا تستطيعون حمل هذه الأثقال و إيصالها إلى مقاصدكم إلا بعد أن تخسروا نصف قوتكم.

و يبدو أنّ التفسير الأوّل أقرب من الثّانى.

فالأنعام إذن: تعطى للإنسان ما يلبسه و يدفع عنه الحر و البرد. و كذلك تعطيه الألبان و اللحوم ليتقوت بها. و تترك في نفس الإنسان آثارا نفسيه طيبه. و أخيرا تحمل أثقاله.

و بالرغم ممّا وصل إليه التقدم التقنى في مدنيه الإنسان و تهيئه وسائل النقل الحديته، إلا أن سلوك كثير من الطرق لا زال منحصر بالدواب.

ثمّ يعرج على نوح آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها في تنقلاته، فيقول: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَهُ .

و «زينه» هنا ليست كلمه زائده أو عابره بقدر ما تعبر عن واقع الزينه في مفهومها الصحيح، و ما لها من أثر على ظاهر الحياه الاجتماعيه.

و لأجل الإيضاح بشكل أقرب نقول: لو قطع شخص طريقا صحراويا طويلا مشيا على الأقدام، فكيف سيصل مقصده؟ سيصله و هو متعب خائر القوى، و لا يقوى على القيام بأى نشاط.

أمّا إذا ما استعمل وسيله مريحه سريعه في سفره، فإنّه -و الحال هذه- سيصل

إلى مقصده و قد كسب الوقت، و لم يهدر طاقاته، و حافظ على النشاط و القدره على قضاء حوائجه... بعد كل هذا، أو ليس ذلك زينه؟! و تأتي الإشاره فى ذيل الآيه إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان فى الحصول على الوسائط النقلية المدينه من غير الحيوانات، فيقول: **وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** من المراكب و وسائل النقل.

و بعض قدماء المفسرين اعتبر هذا المقطع من الآيه إشاره إلى الحيوانات ستخلق فى المستقبل ليستعملها الإنسان فى تنقلاته.

و ورد فى تفسير (المراعى) و تفسير (فى ظلال القرآن) أنّ درك مفهوم هذه الجملة أسهل لنا و نحن نعيش فى عصر السياره و وسائل النقل السريعه الأخرى.

و عند ما تعبّر الآيه بكلمه «يخلق» فذلك لأنّ الإنسان فى اختراعه لتلك الوسائل ليس هو الخالق لها، بل إنّ المواد الأولية اللازمه للاختراعات، مخلوقه و موجوده بين أيدينا و ما على الإنسان إلا أن يستعمل ما وهبه الله من قدره على الاختراع لما أودع فيه من استعداد و قابليه بتشكيل و تركيب تلك المواد على هيئه يمكن من خلالها أن تعطى شيئاً آخر يفيد الإنسان.

### **أهميه الزراعه و الثروه الحيوانيه:**

على الرغم من انتشار الآلات الإنتاجيه فى جميع مرافق الحياه، كما هو حاصل فى يومنا، إلا أن الزراعه و تربيه الحيوانات تبقى متصدره لقائمه المنتجات من حيث الأهميه فى حياه الإنسان، لأنها مصدر الغذاء، و لا حياه بدونه.

حتى أنّ الاكتفاء الذاتى فى مجالى الزراعه و الثروه الحيوانيه يعتبر الدعامة الرئيسيه لضمان الاستقلالين الاقتصادى و السياسى إلى حدّ كبير.

و لذلك نرى شعوب العالم تسعى جاهده لإيصال زراعتها و ثروتها الحيوانيه

لأعلى المستويات مستفيدة من التقدم التقنى الحاصل.

و الحاجة لأى من هذين الإنتاجين الأساسيين من خطوره و الأهميه البالغه ما يجعل دوله عظمى كروسيا تمديد العوز و تعطى بعض التنازلات السياسيه لدول متباينه معها فى الخط السياسى العقائدى لاضطرارها لتأمين احتياجاتها! و أعطت التعاليم الإسلاميه أهميه خاصه للإنتاج الحيوانى و الزراعه بالحث و الترغيب لغور غمار هذه العمليه المعطاءه.

فقد رأينا كيف عرضت الآيات السابقه و بلحن مشوق حركه الأنعام و منافعها للترغيب فيها.

و سيأتى الحديث إن شاء الله فى الآيات القادمه عن أهميه الزراعه و منافع الثمار المختلفه.

و نورد هنا(و من مصادر مختلفه)بعض الروايات التى تخص موضوعنا و ما جاءت به من تعبيرات جميله.

١-

عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال:«قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم لعتمته: ما يمنعك من أن تتخذى فى بيتك ببركه؟ فقالت: يا رسول الله ما البركه؟ فقال:شاه تحلب،فإنه من كانت فى داره شاه تحلب أو نجعه أو بقره فبركات كلهن» (١).

٢-

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال فى الغنم: «نعم المال الشاه» (٢).

٣-

فى تفسير نور الثقلين،فى تفسير الآيات مورد البحث،روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «أفضل ما يتخذه الرجل فى منزله لعياله الشاه،فمن كان

ص: ١٣٧

١-١) -بحار الأنوار،ج ٦٤،ص ١٣٠،ورد ذكر النجعه(فى هذا الحديث)إضافه إلى الشاه و البقره،و هى فى اللغه:البقر الوحشى و الأغنام الجليله و أنثى الغنم.

٢-٢) -بحار الأنوار،ج ٦٤،ص ١٢٩.

فى منزله شاه قدست عليه الملائكه مرّتين فى كل يوم».

و لا- ينبغى الغفله عن أنّ الكثير من بيوت المدن غير صالحه لتربيته الأغنام، و الهدف الأصلي من إشاره الروايات هو إنتاج ما يحتاج إليه الناس على الدوام- فتأمل.

٤-و يكفينا ما

قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى أهميه الزراعة: «من وجد ماء و ترابا ثم افتقر فأبعده الله» (١).

و بديهى انطباق هذا الحديث على الفرد و الأمة معا، فالشعب الذى لديه مستلزمات الزراعة بشكل كاف و مع ذلك يمد يده لطلب المساعدة إلى الآخرين، فهو مبعد عن رحمه الله بلا إشكال.

٥-

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «عليكم بالغنم و الحرث فإنهما يروحان بخير و يغدوان بخير» (٢).

٦-و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما فى الأعمال شىء أحبّ إلى الله من الزراعة» (٣).

٧-و أخيرا نقرأ

فى حديث روى عن الإمام الصادق عليه السلام ما يلى: «الزارعون كنوز الأنام يزرعون طيبا أخرجه الله عزّ و جلّ، و هم يوم القيامة أحسن الناس مقاما و أقربهم منزله، يدعون المباركين» (٤).

ص: ١٣٨

١-١) -بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٩.

٢-٢) -بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٠٤.

٣-٣) -بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٠.

٤-٤) -وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ١٩٤.

اشاره

وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيْلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيْمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيْلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَ سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)

التفسير

اشاره

كل شيء في خدمه الإنسان!

بعد ذكر مختلف النعم في الآيات السابقه، تشير هذه الآيات إلى نعم أخرى...

فتشير أولاً إلى نعمه معنويه عاليه في مرماها وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيْلِ أى عليه سبحانه سلامه الصراط المستقيم و هو الحافظ له من كل انحراف، و قد وضعه في

«القصْد»: بمعنى صفاء و استواء الطريق، فيكون معنى «قصْد السبيل» الصراط المستقيم الذي ليس فيه ضلال و لا انحراف (١).

و لكن أى النحويين من الصراط المستقيم هو المراد، التكويني أم التشريعي؟ اختلف المفسرون في ذلك، إلا أنه لا مانع من قصد الجانبيين معا.

### توضيح:

جهَّز الله الإنسان بقوى متنوعه و أعطاه من القوى و القابليات المختلفه ما يعينه على سلوكه نحو الكمال الذي هو الهدف من خلقه.

و كما أن بقيه المخلوقات قد أودعت فيها قوى و غرائز توصلها إلى هدفها، إلا أن الإنسان يمتاز عليها بالإرادة و بحريه الاختيار فيما يريده، و لهذا فلا قياس بين الخط التصاعدي لتكامل الإنسان و بقيه الأحياء الأخرى.

فقد هدى الله الإنسان بالعقل و قدره و بقيه القوى التكوينية التي تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء و الوحي السماوي و أعطاه التعليمات الكافية و القوانين اللازمه للمضى بهدى التشريع الرباني في تكمله مشوار المسيره، و ترك باقى السبل المنحرفه.

و من لطيف الأسلوب القرآني جعل الأمر المذكور في الآيه فريضه عليه جل شأنه فقال: عَلَيَّ اللَّهُ، و كثيرا ما نجد مثل هذه الصيغه في الآيات القرآنيه، كما في الآيه (١٢) من سوره الليل إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى، و لو دققنا النظر في سعه مدلول عَلَيَّ اللَّهُ قَصْدُ السَّبِيلِ و ما أودع في الإنسان من هدى تكويني

ص: ١٤٠

(١ - ١) - ذكر بعض كبار المفسرين كالعلامة الطباطبائي في الميزان أن «القصْد» بمعنى (القاصد) في قبال «الجائر» أى المنحرف عن الحق.

و تشريعى لأجل ذلك لأدركنا عظمه هذه النعمه و ما لها من الفضل على بقيه النعم.

ثم يحذر البارى جعل شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفه كثيره: وَ مِنْهَا جَائِزٌ (١).

و بما أن نعمه الإراده و حريه الاختيار فى الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآية بجملته قصيره: وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ وَ لا تستطيعون عندها غير ما يريد الله.

إلا أنه سبحانه لم يفعل ذلك، لأن الهدايه الجبريه لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل و الفخر، فأعطاه حريه الاختيار ليسير فى الطريق بنفسه كى يصل لأعلى ما يمكن الوصول إليه من درجات الرفعه و الكمال.

كما تشير الآية إلى حقيقه أخرى مفادها أن سلوك البعض للطريق الجائز و الصراط المنحرف ينبغى أن لا يوجد عند البعض توهم أن الله مغلوب (سبحانه و تعالى) أمام هؤلاء، بل إن مشيئته جل اسمه و مقتضى حكمته دعت لأن يكون الإنسان حرا فى اختياره ما يريد من السبل.

و فى الآية التاليه يعود إلى الجانب المادى بما يثير حس الشكر للمنعم عند الناس، و يوقد نار عشق الله فى قلوبهم بدعوتهم للتقرب أكثر و أكثر لمعرفة المنعم الحق، فيقول: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فِيهِ سَبَبُ الْحَيَاةِ، وَ زَلَالًا - شَفَافًا خَالٍ مِنْ أَى تَلَوْتُمْ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ، وَ تَخْرُجُ بِهِ الْبَنَاتُ وَ الْأَشْجَارُ فَتَرعى أَنْعَامُكُمْ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَيَّمُونَ .

«تسيمون»: (من ماده الإسامه) بمعنى رعى الحيوانات، و كما هو معلوم فإن الحيوانات تستفيد من النباتات الأرضيه و ورق الأشجار، و «الشجر» لغه: ذو معنى واسع يشمل إطلاقه الأشجار و غيرها من النباتات.

ص: ١٤١

و ممّا لا شك فيه أيضا أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان و إرواء النباتات، بل و من فوائده أيضا: تطهير الأرض، تصفيه الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمه لطراوه جلد الإنسان و تنفسه براحه، و ما شابه ذلك.. فالمذكور من فوائده فى هذه الآيه لا حصرا و إنّما من باب الأهم.

فيكمل الموضوع بقوله: يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .

و لا- شك أنّ خلق هذه الثمار المتنوعه و كل ما هو موجود من المحاصيل الزراعيه لآيه للمتفكرين إنّ فى ذلك لَمَآيَه لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

«الزرع»: يشمل كل مزروع و«الزيتون» اسم لشجره معروفه و اسم لثمرها أيضا.

إلا أنّ بعض المفسّرين يذهبون إلى أنّ «الزيتون» هو اسم الشجره فقط، و اسم ثمرتها «زيتونه». فى حين أنّ الآيه الخامسه و الثلاثين من سوره التور تطلق كلمه «الزيتونه» على الشجره.

و«النخيل» تستعمل للمفرد و الجمع... و«الأعنب» جمع أعنبه، و هى ثمره معروفه.

و هنا يرد سؤال و هو: لما ذا اختار القرآن ذكر هذه الثمار دون غيرها (الزيتون، التمر، العنب)؟ ستقرأ توضيح ذلك فى البحوث التفسيريه لهذه الآيات إن شاء الله.

ثمّ يشير إلى نعمه تسخير الموجودات المختلفه فى العالم للإنسان بقوله:

وَ سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

على عظمه و قدره الله و عظمه ما خلق.

قلنا فى تفسيرنا لآيات سورتي الرعد و إبراهيم، أنّ المفهوم الواقعي لتسخير الموجودات للإنسان أن تكون فى منفعته، و يكون ذلك من شأنها و وظيفتها مع



تمكين الإنسان من الاستفادة منها.

فكل من الشمس و القمر و الليل و النهار و النجوم له نوع و أثر خاص في حياه الإنسان، و ما أجمل عبارته (تسخير الموجودات للإنسان بأمر الله) فبالإضافة لما تظهره من شرف و رفعة شخصيه الإنسان بنظر الإسلام و القرآن، و إعطائه من الجلال ما يجعله مؤهلاً لمقام خليفه الله، فهي تذكره للإنسان بأن لا يغفل عمّا أنعم الله عليه، و باعثه فيه شعور لزوم الشكر لله تعالى من خلال ما يلمس و يرى، عسى أن يتقرب لحالقه فينال حسن مآبه.

و لهذا يقول تعالى في ذيل الآيه: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**.

راجع تفسيرنا للآيتين (٣٢ و ٣٣) من سوره إبراهيم للاستزاده في معرفه أسرار التسخير المذكور.

و إضافة لكل ما تقدم و **مَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ سَخَّرَهَا لَكُمْ** و **مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ** من الأغطيه و الملابس و الأغذيه و الزوجات العفيفات و وسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن و كنوز الأرض و سائر النعم الأخرى **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**.

## البحوث

### إشاره

#### ١- النعم الماديه و المعنويه

احتوت الآيات مورد البحث على ذكر النعم الماديه و المعنويه بشكل مترابط لا يقبل الفصل، إلا أن أسلوب و لحن التعبير يختلف بين النعم الماديه و المعنويه، فبالنسبه للنعم الماديه لا نجد مورداً يقول فيه القرآن الكريم: **إِنَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقَكُمْ**، لكنّه في مورد الهدايه يقول: **عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ فَيُعْطِيكُمْ كَلَّ مَا تَحْتَاجُونَهُ تَكْوِينًا وَ تَشْرِيْعًا** للسير باقتدار في الطريق الإلهي.

و حينما يتحدث عن خلق الأشجار و الفواكه و عن تسخير الشمس و القمر نراه سبحانه يضعها في مسير هدف معنوي... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و ذلك لِإِنَّ الأسلوب القرآني - كما هو معروف - لا يتخذ بعدا واحدا في خطابه للناس.

## ٢- لما ذا الزيتون و النخيل و الأعناب دون غيرها؟!

يمكننا للوهله الأولى أن نتصور أنّ ذكر القرآن للزيتون و التمر و العنب، في الآيات مورد البحث، لوجودها في المنطقه التي نزل فيها القرآن.. و لكن بملاحظه الجانب العالمى لرساله القرآن و مع الاعتقاد ببقائها و استمرارها بالإضافة إلى التوجه لعمق التعبير القرآني.. يتضح لنا خطل ذلك التصور.

يقول العلماء المتخصصون بالأغذيه (ممن صرفوا السنين الطول في البحث عن فوائد و خواص الأغذيه): إنّ القليل من الفواكه التي تنفع بدن الإنسان من الناحيه الغذائيه هي بمستوى هذه الثمار الثلاث.

و يقولون: إنّ (زيت الزيتون) له قيمه عاليه جدا لتأمين السرعات الحراريه اللازمه للبدن، و لذلك يعتبر من الأغذيه المقويه للبدن، و على الذين يريدون حفظ سلامتهم أن يواظبوا على تناول هذا الإكسير.

إنّ زيت الزيتون ملائم لكبد الإنسان، مؤثر فعال في رفع عوارض الكلى، و القولنج الكلوى و الكبدى و اليبوسه.

و لهذا نجد له مدحا كثيرا في الروايات،

ففي حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال عن الزيتون: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهه، و يذهب البلغم، و يصفى اللون، و يشد العصب، و يذهب بالوصب، و يطفى الغضب» (١).

و الأهم من ذلك كله تسميه القرآن لشجره الزيتون ب«الشجره المباركه».

ص: ١٤٤

و للتمر حديث أيضا حيث ثبتت الأهميتين العلاجية و الغذائية له من خلال ما بينه علماء الطب و الأغذية..فقد اتضح وجود الكالسيوم فيه الذى يعتبر العامل الأساسى لبناء و تقوية العظام، و كذلك الفسفور الذى يعتبر من العناصر الأساسيه فى تكوّن الدماغ،بالإضافة إلى أن التمر يمنع ضعف الأعصاب و مزيل للتعب، كما أنّ له دورا فى حده البصر.

و فيه البوتاسيوم الذى له الأهميه البالغه فى بناء خلايا الجسم،علاوه على أن فقدانه بسبب قرحه المعده.

كما بات من المعروف عند المتخصصين فى علم الأغذية أن التمر له الدور الفعال فى عدم الإصابة بمرض السرطان.

و أظهرت الإحصائيات أنّ المناطق التى يكثُر فيها تناول التمر هى أقل المناطق إصابه بهذا المرض الفتاك. و لهذا نجد أن البدو فى الصحارى العربيه مع ما يعانونه من فقر غذائى إلا أنّهم لا يصابون بمرض السرطان. و يعزى سبب ذلك إلى وجود المغنيسيوم فى التمر غذائهم الأول.

أمّا السكر الموجود فى التمر فيعتبر من أفضل أنواع السكريات،حتى أنّه لا يسبب ضررا لكثير من المصابين بمرض السكر عند تناوله.

و قد اكتشف العلماء لحدّ الآن ثلاث عشره ماده حياتيه و خمسه أنواع من الفيتامينات فى التمر،تجعله مصدرا غذائيا غنيا و ذا قيمه عاليه جدّا (١).

و لهذا ورد تأكيد واسع على أهميه هذه الماده الغذائية فى الروايات، و ممّا

روى عن على عليه السلام أنّه قال: «كل التمر فإنّ فيه شفاء من الأدواء».

و

قد روى أيضا أنّ طعام أمير المؤمنين عليه السلام كثيرا ما كان الخبز و التمر.

ص: ١٤٥

---

١- ١) -أول جامعه و آخر نبى،الجزء السابع،و يختص هذا الجزء بشرح الخواص الغذائية و الصحيه و العلاجيه للتمر و العنب و يطلع الإنسان من خلاله على أهميه هذين الغذائين.

فى روى أخرى: «بيت لا تمر فيه جياع أهله» (١).

و فى سورة مريم أن الله أطعم مريم عند ما ولدت عيسى عليه السّلام، الرطب، و هو إشارة إلى أن أفضل غذاء للمرأة حديثه الولاده التمر، و عليه كان تأكيد الروايات بخصوص تفسير هذه الآية.. إن أفضل طعام لها هو التمر (٢).

أمّا العنب.. فيقول عنه علماء الأغذية: إن ما فيه الفوائد تدعونا إلى القول بأنه صيدليه طبيعيه متكامله.

إضافه إلى أنّ خواص العنب شبيهه جدا بخواص حليب الأم (أى أنّه غذاء كامل)، و فائدته ضعف فائده اللحم، و هو ذو سعره حراريه عاليه، و مقاوم للسموم، و له أثر علاجي قطعي فى تصفيه الدم و الوقايه من الروماتيزم و النقرس، و يزيد فى الدم، و ينظف المعده و الأمعاء، و هو: منشط، مزيل للتعب، مقو للأعصاب، و تعطى الفيتامينات المختلفه التى يحتويها قوه للإنسان.

و إضافه لكونه ماده غذائيه مهمه فله القدره على مكافحه الميكروبات بدرجه ملحوظه، حتى أعتبر من العوامل المهمه فى مكافحه مرض السرطان و الوقايه منه (٣).

روى عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «خير طعامكم الخبز، و خير فاكهتكم العنب» (٤).

و لو أردنا ذكر كل ما أورده علماء التغذية بخصوص الفواكه الثلاث و ضمناها ما جاء بصدها من روايات لخرجنا عن طبيعه التفسير، و إنّما كان القصد من هذه

ص: ١٤٤

١-١ - سفينه البحار، ج ١، ص ١٢٤.

٢-٢ - سفينه البحار، ج ١، ص ١٢٤ كذلك.

٣-٣ - أول جامعه و آخر نبى، الجزء السابع.

٤-٤ - الإسلام طيب بلا دواء.

الإطالة بيان السبب العلمى الدقيق وراء ذكر هذه الفواكه فى الآيه المشار إليها، و لعل أكثر ما ذكر من فوائد كان خافيا على أهل زمان نزول الآيه.

### ٣- التفكير و التعقل و التذکر:

رأينا فى الآيات المبحوثة أنّ القرآن دعا الناس بعد ذكر ثلاثه أقسام من النعم الإلهيه إلى التأمل فى ذلك، فقال فى المورد الأول: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**، و فى المورد الثانى: **لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** و فى الثالث: **لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ**.

إن الاختلاف الوارد ليس للتصوير الفنى فى عبارات القرآن، لأن المعروف عن الأسلوب القرآنى إشارته لكل معنى برمز خاص.

و لعل المقصود من ذلك أنّ النعم الإلهيه الموجوده فى الأرض من الوضوح ما يكفى معها التذکر.

أمّا فيما يخص الزراعه و الزيتون و النخيل و الأعناب و الفاكهه فتححتاج إلى تركيز الفكر لمعرفة خواصها الغذائيه و العلاجيه، و لهذا ورد التعبير بالتفكر فيها.

و أمّا تسخير الشمس و القمر و الليل و النهار و النجوم فيحتاج إلى تفكير أشد و أعمق من الحاله الأولى، فورد التعبير بالتعقل.

و على آيه حال، فالقرآن-دوما- يخاطب العلماء و المفكرين و العقلاء، بالرغم من أنّ المحيط الذى نزل فيه كان متخوما بالجهل، و من هنا تتضح لنا عظمه عبارات القرآن بشكل جلى.

و القرآن بما يحمله يمثل ضربه قاصمه لضيقى الأفق من الذين رفضوا الأديان كلها لأنهم اصطدموا بوجود أديان خرافيه، و على أساسها الهش بنوا بنيانهم المهزوز على اعتبار أنّ الدين معطل للعقل و العلم و أنّ الإيمان بالله عزّ و جلّ ناتج عن جهل الإنسان و ضعفه!!

و من هذه النداءات الرّبانية ما نجده فى جميع السور القرآنية تقريباً، التى تتحدث بكل وضوح عن: أنّ الدين الحق هو وليد التعقل و التفكير و ليس وليد الخيال السارح و الجهل الدامس.

و خطاب الإسلام موجه باستمرار إلى علماء و أولى الألباب و ليس إلى الجهله و ذوى الخرافات الباطله أو إلى أذعاء الثقافه.

ص: ١٤٨

اشاره

وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْدِتُمْ خُرُوجًا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَ لِيَبْتَلِيَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَارًا وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَ عَلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)

التفسير

اشاره

نعمة الجبال و البحار و النجوم:

تبيّن هذه الآيات قسما آخر من النعم الإلهيه غير المحدوده التي تفضل بها الله عزّ و جلّ على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوى للحياه، فيقول: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ .

و كما هو معلوم أنّ البحار تشكل القسم الأكبر من سطح الكره الأرضيه، و أن الماء أساس الحياه، و لا زالت البحار باعتبارها المنبع المهم في إدامه الحياه

البشريه و حياه جميع الكائنات الحيه على سطح الكره الأرضيه.

فما أكبرها من نعمه حين جعلت البحار فى خدمه الإنسان...

ثم يشير البارى سبحانه إلى ثلاثه أنواع من منافع البحار: لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا فقد جعل الله فى البحار لحما ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد فى تربيته، بل أوجدته و نمّته يد القدره الإلهيه، و قد خصه بالطراوه، فمع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اللحم غير الطازجه متوفره فى ذلك الزمان و فى هذا الزمان على السواء ندر ك جيدا أهميه هذه النعمه، و فى ذلك إشاره أيضا الى أهميه اللحم الطازجه.

و مع ما شهدته الحياه البشريه من التقدم و التمدن المدنى فى كافه أصعده الحياه لا زال البحر أحد المصادر الرئيسيه للتغذيه، و يصاد سنويا مئات الآلاف من الأطنان من الأسماك الطريه التى أوجدتها و رعتها يد اللطف الإلهيه لأجل الإنسان.

و نجد أنظار العلماء متجهه صوب البحار فى قبال ما سيهدد البشريه من خطر نقص المواد الغذائيه فى المستقبل جراء الزيادة السكانيه الهائله، آملين خيرا بأنّ البحار ستسد مقدارا ملحوظا من ذلك النقص، بواسطه تربيته و تكثير أنواع الأسماك.

و من جهه أخرى وضعوا عدّه مقررات لمنع تلوث مياه البحار للحد من تلف نسل الحيوانات البحريه، و كل ذلك يوضح ما فى الآيه المذكوره من مسائل علميه طرحت على البشريه قبل أربعه عشر قرنا.

و من فوائد البحار أيضا تلك المواد التجميلية المستخرجه من قاعه:

و تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا

الحس الجمالى من الأمور الفطريه التى فطر الإنسان عليها و هو الباعث على إثارة الشعر و الفن الأصيل و ما شاكلها عنده.



و بلا شك، يلعب هذا البعد دورا مهماً في حياة البشر، و ينبغي العمل على إشباعه بشكل صحيح و سالم بعيدا عن أى نوع من الإفراط و التفریط.

فلا- فرق بالنتيجة بين من غرق في عباده التجميل و الزينه، و بين من أهملها و عاش حاله الجفاف الجمالى، لأنّ الأول مارس الإفراط الباعث على تلف رأسماله و بات سببا في إيجاد الفواصل الطبقيه المصاحب لقتل كل ما يمت للمعنويات بصله، و الثانى مارس التفریط الباعث على الخمود و الركود. فالإثنان معا عملا بما لا ينبغي أن يعمله أى إنسان ذو فطره سليمه بكافه أبعادها.

و لهذا أوصى الإسلام كثيرا بالترين المعقول الخالى من أى إسراف مثل: لبس اللباس الجيد، التطيب بالعمور، استعمال الأحجار الكريمه... إلخ.

ثم يتطرق القرآن إلى الفائده الثالثه في البحار: حركه السفن على سطح مياهها، كوسيله مهمه لتنقل الإنسان و نقل ما يحتاجه، فيقول: وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوْأَجْرَ فِيهِ، و ما أجمل ما تقع عليه أنظار راكبي السفينه حين حركتها على سطح البحار و المحيطات.

و أعطاكم الله هذه النعمه لتستفيدوا منها في التجاره أيضا وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (١).

و بعد ذكر هذه النعم التي تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر و اهبها، يأتي في ذيل الآيه: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

«الفلک»: أى السفينه، و تأتي بصيغتي المفرد و الجمع.

«مواخر» جمع «ماخره» (من ماده مخر) على وزن (فخر) بمعنى شق الماء يمينا و شمالا، و تطلق على صوت الرياح الشديد أيضا، و باعتبار السفن عند حركتها تشق الماء بمقدمتها فيطلق عليها اسم (الماخر) أو الماخره.

ص: ١٥١

١- ١) -ابتدأت عبارته وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بِوَائِ الْعُطْفِ بِمَا يَسْتَوْجِبُ تَقْدِيمَ الْمَعْطُوفِ وَ هُوَ هُنَا مَقْدَرًا، تَقْدِيرُهُ «لَتَبْتَغُوا بِهَا وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ».

و تتساءل: من الذى أعطى المواد التى تصنع منها السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟ فالسفينه بما تحمل أثقل من الماء بكثير، و لو لم تكن تلك القوه الدافعه للماء، هل بإمكاننا العوم على سطح المياه؟ و من الذى يحرك الرياح على سطح البحر؟ بل من أعطى البحار القوه لتحريك السفينه فى مسيرها على سطح الماء؟ أو ليس ذلك كله من نعم الله تعالى؟ و ممّا يكشف عن عظم نعمه البحار أنّها: أوسع بكثير من الطرق البريه، أقلّ كلفه، أكثر أهليه للحركه، أعظم وسيله نقله للبشر، و ذلك بملاحظه كبر السفن المستخدمه فى النقل و ضخامه ما تحمله.

ثمّ يأتى الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (١).

كما قلنا سابقا فإنّ الجبال متصله من جذورها و تقوم بتثبيت الأرض ممّا يجعلها مانعا حصينا من الزلازل الأرضيه الشديده الناشئه من الغازات الكامنه فى باطن الأرض و المهدده بالخروج فى أيه لحظه على شكل زلزال.

إضافه لخاصيه الجبال فى مد القشره الأرضيه بالمقاومه اللازمه أمام جاذبيه القمر(التي تسبب ظاهره المد و الجزر) و يقلل من أثرها إلى حد كبير.

و للجبال من جانب ثالث القدره على تقليل شده حركه الرياح و توجيه حركتها، و لو لم تكن الجبال لكن سطح الأرض عرضه للعواصف الشديده المستمره.

ثمّ يتطرق القرآن الكريم مباشره إلى نعمه الأنهار، لما بين الجبال و الأنهار من

ص: ١٥٢

١- ١) - أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ (لثلاثه تميد بكم) أو (كراهه أن تميد بكم).

علاقه وثيقه حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: وَ أَنْظَاراً .

ثمّ يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أن الجبال حاجز بين ارتباط الأراضي فيما بينها بالإضافة لكونها مانعا رهيبا أمام حركه النقل، فيقول وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١) .

و هذه المسأله ملفته للنظر حقا، حيث نجد طرق عبور يستطيع أن يتخذها الإنسان سبيلا لتنقلاته بين أكبر السلاسل الجبلية و عوره فى العالم، و قليلا ما يكون هناك قطع كامل بين المناطق بسبب الجبال.

ثمّ يضيف قائلا: وَ عَلامَاتٍ لِّأَنَّ الطَّرِيقَ لَوْحَدَهَا لَا- يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقه و مميزات شاخصه يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، و لذا ذكر هذه النعمه.

و من تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الارتفاع و الانخفاض، لون الأرض و الجبال و حتى طبيعه حركه الهواء.

و لمعرفة ما لوجود هذه العلامات من أهميه، يكفيننا أن نلقى نظره إلى حال الصحارى الواسعه ذات الصفه الواحده الموجوده فى بعض مناطق العالم، حيث عمليه التنقل فيها أمر صعب مستصعب إلى حد كبير، إضافة لخطورته الكبيره، و كم هناك من مسافر دخل فيها و لم يعد...

فلو كان سطح الأرض كله على شاكله الصحارى، كأن تكون الجبال كلها بشكل و حجم واحد، و حقولها بلون واحد، و أوديتها متشابهه تماما.. فهل كان من اليسير على الإنسان أن يسير عليها؟! و أمّا فى حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمه الليل فى أى من

ص: ١٥٣

---

١- ١) - تعتبر هذه الآيه إحدى المعجزات العلميه للقرآن الكريم، حيث ذكرت هذا الأمر و بما يحمل من ظواهر علميه فى زمن لم يصل الإنسان لاكتشافه بعد. و لأجل مزيد من التوضيح راجع كتابنا (القرآن و آخر نبي) - فصل المعجزات العلميه للقرآن.

سفر البر أو البحر، فقد جعل الله تعالى علامات في السماء تعوض عن علامات الأرض في تلك الحال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

بطبيعته الحال فهذه إحدى الفوائد الجملة للنجوم، و لو لم يكن لها سوى هذه الفائدة لكان كافيا لوجودها، خصوصا في زمن لا أسطرلاب فيه و لا مؤشرات قطبيه تعين السفن في تحديد مسيرها وفق خرائط أعدت لذلك الغرض، و قدما كانت الرحلات تتوقف إذا ما غطيت السماء بالسحب و تلبدت بالغيوم، و من يجرأ على تكمله السفر فسيواجه خطر الموت.

و كما هو معلوم اليوم، فإنّ النجوم التي تبدو لنا متحركة في السماء عبارته عن خمسه كواكب، و يطلق عليها اسم السيارات، و السيارات أكثر من خمسه، إلا أنّ البقيه لا يمكن تشخيصها بالعين المجرّده بسهوله، أمّا بقيه النجوم فإنّها تحتفظ بمكانها النسبي، و كأنّها لآلئ خيطة على قطعه قماش أسود، و هذه القطعه كأنّها تسحب من إحدى جهاتها فتتحرك بكاملها.

و عبارته أخرى: إنّ حركة النجوم الثابتة جميعه، و حركة السيارات انفراديه، حيث تتغير المسافات بينها و بين الثوابت باستمرار.

إضافه لذلك، فالنجوم الثوابت تشكل فيما بينها أشكالا معينه تعرف ب(الصور الفلكيه) و لها الأثر الكبير في معرفه الاتجاهات الأربعة (الشمال، الجنوب، الشرق، و الغرب).

و بعد أن بيّن القرآن كل هذه النعم الجليله و الألفاظ الإلهيه الخفيه، راح يدعو الوجدان الإنساني للحكم في ذلك أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا - يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟! و كما اعتدنا عليه من القرآن في أسلوبه التربوي الهادف المؤثر، فقد طرح مسأله المحاججه بصيغه السؤال يترك الجواب عنه في عهده الوجدان الحي للإنسان، مستعينا بتحريك الإحساس الباطني ليجيب من أعماق روجه، و لينشد عشقا بخالقه.

و الثابت فى الواقع النفسى للإنسان، أن التعليم و التربيه السليمه يستلزمان بذل أقصى سعى ممكن لإقناع المقابل بقبول ما يوجد إليه عن قناعه ذاته، أى ينبغى إشعاره بأن ما يعطى إليه ما هو فى حقيقته إلاّ انبعاث من داخله و ليس فرضا عليه من الخارج ليتقبلها بكل وجوده و يتبناها و يدافع عنها.

و نجد من الضروره إعاده ما قلناه سابقا من أن المشركين الذين كانوا يسجدون للأصنام كانوا يعتقدون أنّ الله عزّ و جلّ هو الخالق، و لهذا يتساءل القرآن الكريم.. من أحقّ بالسجود.. خالق كل شىء أم المخلوق؟! و فى نهايه المطاف، يفند البارى سبحانه مسأله حصر النعم الإلهيه بما ذكر، بقوله: وَ إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .

إنكم غارقون فى النعم الإلهيه و فى كل نفس يصعد و ينزل آلاف النعم (و لكل نعمه شكر واجب).

إنّ كل دقيقه تمر من عمرنا نكون فيها مدينين لفعاليات ملايين الموجودات الحيّه فى داخل بدننا و ملايين الموجودات الحيه و غير الحيه فى خارجه، و التى لا يمكننا أن نحيا و لو للحظه واحده بدونها.

و لكنّ ضباييه الغفله حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمه التى كلّما خطا العلم الحديث خطوه إلى الإمام اتّضحت لنا أبعاد واسعه و انفتحت لنا آفاقا جديده فى معرفه النعم الإلهيه، و كل ما ندركه فى هذا المجال قليل جدّا ممّا قدره البارى لنا، فهل بإمكان المحدود أن يعد ما أعطاه المطلق؟! و نواجه فى هذا المقام سؤالا و استفسارا: كيف إذن تؤدى حق الشكر لله؟..

□  
ألستا مع ما نحن فيه زمّره الجاحدين؟ و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ خير جواب لما واجهنا به.

نعم، فهو سبحانه أرحم و أرف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعه فى أداء أتمّ الشكر على نعمه.

و يكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين فى حال اعتذرنا له و اعترفنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

و لكن هذا لا يمنع من أن نتبع و نحصى النعم الربانية بقدر المستطاع، لأن ذلك يزيدنا معرفه الله، و علما بعالم الخليقه، و آفاق التوحيد الرحبه، كما يزيد من حراره عشقه سبحانه فى أعماق قلوبنا، و كذا يحرك فينا الشعور المتحسس بضروره و وجوب شكر المنعم جل و علا.

و لهذا نجد أن الأئمه عليهم السلام يتطرقون فى أقوالهم و أدعيتهم و مناجاتهم إلى النعم الإلهيه و يعدون جوانب منها، عباده لله و تذكيرا و درسا للآخرين.

(و قد تناولنا مسأله شكر النعمه و عدم قدره الإنسان على إحصاء النعم الإلهيه عند بحث الآيه الرابعه و الثلاثين من سوره إبراهيم).

## بحث

## إشاره

## الطريق، العلامه، القائد:

تحدثت الآيات أعلاه عن الطرق الأرضيه بكونها إحدى النعم الإلهيه باعتبارها من أهم وسائل الارتباط فى طريق التمدن الإنسانى.

و لهذا عند وضع الخطط العمرانيه لا بد معها من رسم و بناء خطوط الطرق المناسبه للمكان المقصود، و إلا لا يمكن أن يقام عمران.

و مع هذا، فلا يمكننا حصر البيان القرآنى بهذا الجانب فحسب، بل يمكننا القول بأنه يشمل حتى جوانب الحياه المعنويه للبشرية أيضا، لأن الوصول إلى هدف مقدس يستلزم سلوك الطريق الصحيح لذلك الهدف.

بالإضافه إلى الأهميه الحيويه الوجود العلامات فى تشخيص السبيل من بين كثره السبل و تشابكها، فإضاعه السبيل الأصلى ممكن فى حال عدم وجود ما يدل

عليه من «علامات».

و خصوصا، وروود تسميه المؤمنين فى الآيات القرآنيه بالمتوسمين للتأكيد على ضروره الانتباه إلى هذه العلامات.

فلكى يستطيعوا تشخيص الحق من الباطل لا بد من معرفه المذاهب و السنن و الدعوات المختلفه، بل حتى الأشخاص، و ذلك من خلال (العلامات).

و أما مسأله وجود القائد فلا تحتاج لتوضيح و بيان (الموضح لا يوضح).

و قد فسرت «النجم» برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و «العلامات» بالأئمه عليهم السلام فى روايات كثيره وردت عن أهل البيت عليهم السلام.. و فى بعضها فسر «النعم» و «العلامات» كلاهما بالأئمه عليهم السلام، و نشير هنا إلى نماذج من الروايات:

١-

فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «النجم رسول الله، و العلامات الأئمه عليهم السلام» (١) و ورد مثله عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام.

٢-

روى عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير الآيه أعلاه أنه قال: «نحن النجم» (٢).

٣-

روى كذلك عن الإمام الرضا عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى عليه السلام: «أنت نجم بنى هاشم» (٣).

٤-

فى روايه أخرى: «أنت أحد العلامات» (٤).

و كل ذلك يشير إلى التفسير المعنوى لهذه الآيات.

ص: ١٥٧

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٥.

٢-٢) - المصدر السابق.

٣-٣) - المصدر السابق.





اشاره

وَٱللَّهُ يَٰعَلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَآ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَآتُ غَيْرِ ٱلْحَيَاءِ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَآ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَآ جَزْمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَٰعَلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَآ يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

التفسير

اشاره

آله لا تشعر!

تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أيه منها على الأصنام و سائر المعبودات الأخرى غير الله تعالى و هما: (خلق الموجودات، إعطاء النعم)، أمّا الآيه الأولى أعلاه فتشير إلى الصفه الثالثه للمعبود الحقيقي (و هي العلم)، فتقول: وَ ٱللَّهُ يَٰعَلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ .

فلما ذا تسجدون للأصنام التي لم تكن هي الخالقه لكم، و لم تمنّ عليكم بأيه

نعمه، و لا- تعرف عن علمكم شيئاً مضافاً إلى سرّكم؟! فهل يصح عباده من لا يمتلك مستلزمات المعبود؟! ثم يعود القرآن إلى مسأله الخالقيه بأفق أوسع من الآيه السابقه: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

و قد بحث لحد الآن فى عدم صلاحيه الأصنام لتكون معبوده لأنها ليست خالقه. بل و الأكثر من ذلك أنها إضافه لكونها مخلوقه فهى فقيره و محتاجه فى وجودها، فكيف يلجأ إليها الإنسان لسد حوائجه؟! أو ليس ذلك السخف بعينه؟ و مع ذلك كله، فإنها أمواتٌ غيرُ أحياءٍ .

أو ليس ينبغى أن يكون المعبود حيا(على أقل التقادير) ليكون مطلعاً على حاجات عباده؟ إذن... يلزم توفر صفة «الحياه» للمعبود الحقيقى، و هذا ما لا يتوفر فى الأصنام.

ثم يضيف قائلاً عنها: وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

فإذا كان الثواب و العقاب بيد الأصنام. فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهن، و مع جهلها بيوم البعث و الحساب كيف تكون لائقه للعباده؟! و هذه هى الصفة الخامسة التى يجب توفرها فى المعبود الحقيقى و تفتقدتها الأصنام.

و قلنا مرارا فيما سبق أن مفهوم الصنم و عباده الأصنام فى المنطق القرآنى أوسع من أن يحدد بالآلهه المصنوعه من الحجر و الخشب و المعادن. فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل الله عزّ و جلّ، و نسلم له أمر مصائرنا، فهو صنم و إن كان بشرا.

و لهذا فكل ما جاء فى الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون الله بألستهم، و لكن فى واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، و قد تبعوه لكونه المخلص لهم

من دون الله، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

أولئك الذين يعتقدون أن القوى العالميه الكبرى يمكن أن تكون ملجأ لهم في حياتهم، وإن كانت كافره بالله و جهنميه فهم من الناحيه العمليه الواقعيه عبده للأصنام و مشركين بالله عزّ و جلّ، و ينبغي محاجبتهم ب:

هل خلقت لكم هذه المعبودات شيئاً؟ هل هي مصدر النعمه؟ أ هي مطلعته على شؤونكم الظاهره و الخفيه؟ و هل تعلم متى ستبعثون؟ هل بيدها الثواب و العقاب؟ و إن كانت الإجابته بالنفي، فلم تعبدونها من دون الله؟! و بعد هذه الاستدلالات الحيه و الواضحه على عدم صلاحيه الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقيه لما ذكر: **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ .**

و بما أنّ العلاقه بين المبدأ و المعاد مترابطه ربطاً لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصله: **فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (١)**.

فأدله التوحيد و المعاد قائمه لمن أراد الحق و طلب الحقيقه، إلا أن سبب عدم قبول الحق و إنكاره يرجع إلى حاله الاستكبار و عدم التسليم له، و يصبح ملكه في وجود المنكرين خصوصاً بعد أن يصل بهم الحال إلى إنكار الحقائق الحسيه المتوفره لديهم، و عندها فلا ينفع معهم كلام حق أو دليل شاخص أو منطق سليم.

فالأدله الحيه التي ذكرتها الآيات السابقه بعدم صلاحيه الأصنام للعباده كافيه لكل ذي لب رشيد، إلا أنّ هناك الكثير ممن لا يقبلها مع مالها من حقيقه

ص: ١٦٠

---

(١ - ١) - إن حرف الفاء في كلمه «الذين» للتفريع كما هو معلوم، فيكون المراد: إن إنكار القيامه فرع لإنكار المبدأ.

و وضوح!!! ثم تتطرق فى الآيه الأخيره إلى علم الله فى الغيب و الشهاده: لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .

و الآيه فى واقعها تهديد للكفار و أعداء الحق، بأنّ الله عزّ و جلّ ليس بغافل عنهم، سرهم و علانيتهم، و كل سينال جزاءه بما  
غرفت يداه.

فهم مستكبرون و إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، و الاستكبار على الحق من علامات الجهل بالله عزّ و جلّ.

إنّ كلمه «لا جرم» متكون من «لا» و «جرم» و تستعمل عاده للتأكيد بمعنى (قطعا)، و أحيانا بمعنى (لا بد)، و فى بعض الأحيان تستعمل  
كقسم مثل: (لا جرم لأفعلن).

أما كيف أمكن استخراج هذه المعانى من كلمه «لا جرم» فذلك لأنّ «جرم» فى الأصل بمعنى القطف و قطع الثمار من الأشجار، و  
عند ما تدخل عليها «لا» يكون مفهومها: أن لا شىء يستطيع قطع هذا الموضوع و منعه من التحقق، و لهذا يستفاد منها معانى: قطعا، و  
لا بد، و أحيانا القسم.

## بحث

## اشاره

### من هم المستكبرون؟

وردت كلمه الاستكبار فى آيات كثيره من القرآن الكريم باعتبارها إحدى الصفات الذميمة الخاصه بالكفار، و لتعطى معنى  
التكبر عن قبول الحق.

ففى الآيه السابقه من سوره نوح: وَ إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا بِبَاهِمٍ وَ أَصْرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا  
اسْتِكْبَارًا .

و فى الآيه الخامسه من سوره المنافقين: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ

رَسُولُ اللَّهِ لَوْوَا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .

و كذلك فى الآيه الثامنه من سوره الجاثيه: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا .

و من أقبح ألوان التكبر ذلك الذى يقف أمام قبول الحق فيرفضه، لأنه يغلق على الإنسان جميع سبل الهدايه و يتركه يتخبط فى متاهات المعاصى و الضلال.

و يصف أمير المؤمنين عليه السلام الشيطان بأنه:

«سلف المستكبرين» (١) لأنه أول من خطا فى طريق مخالفه الحق بعدم تسليمه للحقيقه الربانيه التى تقول: إن آدم أكمل منه.

صحيح أن زهو المال قد يوقع الإنسان فى حاله الاستكبار، إلا أن المسأله أكبر من ذلك و أشمل، فكل رافض لقبول الحق مستكبر و إن كان فقيراً.

و نختم البحث

بروايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «و من ذهب يرى أن له على الآخر فضلاً فهو المستكبرين، فقلت: إنما يرى أن له عليه فضلاً بالعافيه إذا رآه مرتكباً للمعاصى؟ فقال: هيهات هيهات! فلعلة أن يكون قد غفر له ما أتى و أنت موقوف تحاسب، أما تلوت قصه سحره موسى عليهم السلام» (٢).

(حين وقف السحره يوماً فى مقابل موسى عليه السلام إرضاء لفرعون و طمعا فى جوائزه، و لكنهم انقلبوا فجأه لما تبين لهم الحق و اعتنقوه و ما هابوا تهديد فرعون، و بقوا على رفضهم فى عديم التسليم للطاغيه، فكانت النتيجة أن عفا الله عنهم و رحمهم).

ص: ١٦٢

١-١) - نهج البلاغه، الخطبه القاصعه.

٢-٢) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٨ عن (روضه الكافى).

اشاره

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنَ فَوْقِهِمْ وَ أَنَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَ يَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ  
الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا  
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان: يروى أنها نزلت في المقتسمين و هم ستة عشر

رجلا خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس على كل عقبه أربعة منهم ليصدوا الناس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإذا سألهم الناس عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: أحاديث الأولين وأباطيلهم.

## التفسير

## إشاره

## حمل أوزار الآخرين:

دار الحديث في الآيات السابقة حول عناد المستكبرين واستكبارهم أمام الحق، وسعيهم الحثيث في التنصل عن المسؤولية وعدم التسليم للحق.

أمّا في هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم، فيقول القرآن: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ فليس هو وحى الهى، بل أكاذيب القدماء.

و كانوا يرمون بكلامهم المؤدى هذا إلى أمرين:

الأول: الإيحاء بأن مستوى تفكيرهم و علميتهم أرقى ممّا أنزل الله! الثانى: ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن هو إلا أساطير الأولين قد صيغت بعبارات جذابه لتنتطلى على عوام الناس، وهذا ليس بالجديد، و ما محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا معيد لما جاء به الأولون من أساطير.

«الأساطير» (1): جمع أسطوره، و تطلق على الحكايات و القصص الخرافيه و الكاذبه، و قد وردت هذه الكلمه تسع مرات فى القرآن الكريم نقلا عن لسان الكفار ضد الأنبياء تبريرا لمخالفتهم الدعوه إلى الله عزّ و جلّ.

و فى جميع المواطن ذكروا معها كلمه «الأولين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديده و أنّ الأيام ستتجاوزها! حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن

ص: ١٦٤

١- ١) - يعتبرها البعض جمع الجمع، فالأساطير جمع أسطار، و الأساطير جمع سطر.. و يعتبرها البعض الآخر جمعا ليس له مفرد من جنسه.. إلا أنّ المشهور ما ذكرناه أعلاه.

لسانهم فى الآيه (٣١) من سورة الأنفال: قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا .

و الملاحظ على مستكبرى يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطله هروبا من الحق و إضلالا للآخرين، و وصلت بهم حماقه لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشرى، و ما الآراء الدينيه إلا أساطير و خرافات! حتى أنهم اثبتوا ذلك فى كتب (علم الاجتماع و دونوه بصياغه (علميه) كما يدعون).

أما لو نفذنا فى أعماق تفكيرهم لوجدنا صوره أخرى: فهم لم يحاربوا الأديان و المذاهب الخرافيه المجمعوله أبدا، فهم مؤسسوها و الداعون لنشرها، إنما محاربتهم للأصالة و الدين الحق الذى يوقظ الفكر الإنسانى و يحطم الأغلال الاستعماريه و يقطع دابر المنحرفين عن جاده الصواب.

إنهم يرون عدم انسجام دعوه الدين إلى الأخلاق الحميده، لأنها تعارض أهواءهم الطائشه و رغباتهم غير المشروعه.

لذلك يجدون فى دعوه الحق مانعا أمام ما يطمحون الحصول عليه، و نراهم يستعملون مختلف الأساليب لتوهين هذا الدين القيم و إسقاطه من أنظار الآخرين كى تخلو الساحة لهم ليفعلوا ما يشاءون.

و من المؤسف أن طرح بعض الخرافات و الأفكار الخاطئه فى قالب دينى من قبل الجهله، كان بمثابة العامل المساعد فى تجرى هؤلاء و دفعهم للإصاق تهمه الخرافات بالدين. و لا بد للمؤمنين الواعين أمام هذه الحال من الوقوف بكل صلابه أمام الخرافات ليطلوا هذا السلاح فى أيدى أعدائهم و يذكروا هذه الحقيقه فى كل مكان و أن هذه الخرافات لا ترتبط بالدين الحق أبدا و لا ينبغى للداعيه المخلص أن يجعل الخرافات ذريعه لأعداء الدين فى محاربتة و محاربتنا، لأن عمليه انسجام التعليمات الربانيه مع العقل بحد من المتانه و الوضوح لا يفسح أى مجال لأن توجه إليه هكذا أباطيل.

توضح الآيه الأخرى أعمالهم بالقول: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ



وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ

لأن أقوالهم الباطلة لها الأثر السلبي بتضليل أعداد كبيره من الآخرين. فمن أسوأ ممن حمل أوزار آلاف البشر إلى وزره! و الأكثر من ذلك أن أقوالهم ستركد فى مخيله من يأتى بعدهم من الأجيال لتكون منبعاً لإضلالهم، ممّا يزيد فى حمل الأوزار باطراد.

و قد جاءت عبارته «ليحملوا» بصيغه الأمر، أمّا مفهومها فليبان نتيجه و عاقبه أعمال أولئك المظلمين، كما نقول لشخص ما: لكونك قمت بهذا العمل غير المشروع فعليك أن تتحمل عاقبه ما فعلت بتذوقك لمراره عملك القبيح. (و احتمال بعض المفسرين أن لام (ليحملوا، لام نتيجه).

و الأوزار: جمع وزر، بمعنى الحمل الثقيل، و جاءت بمعنى الذنب أيضاً، و يقال للوزير لعظم ما يحمل من مسئوليه.

و يواجهنا السؤال التالى.. لما ذا قال القرآن: يحملون من أوزار الذين يضلونهم و لم يقل كل أوزارهم، فى حين أن الروايات تؤكد.. أن

«من سنّ سيئه سيئه فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة»؟ أجاب بعض المفسرين بوجود نوعين من الذنوب عند المضللين، نوع ناتج من أتباعهم لأئمة الضلال، و النوع الآخر من أنفسهم، فما يحمله أئمتهم، و قادتهم هو من النوع الأول دون الثانى.

و اعتبر البعض الآخر من المفسرين أن «من» فى هذه الجملة ليست تبعيضيّه، بل جاءت لبيان أنّ ذنوب الأتباع على عاتق المتبوعين.

و ثمّه تفسير آخر قد يكون أقرب إلى القبول من غيره، يقول: إنّ الاتباع الضالين لهم حالتان من التبعية...

فتاره يكونون أتباعاً للمنحرفين على علم و بينه منهم، و التارىخ حافل بهكذا صور، فيكون سبب الذنب أوامر القاده من جهه، و تصميم الأتباع من جهه أخرى

فيقع على عاتق القاده قسم من المسؤوليه المترتبه على هذه الذنوب«و لا يقلل من وزر الأتباع شىء».

و تاره أخرى تكون التبعية نتيجة الاستغفال و الوقوع تحت شراك وساوس المنحرفين من دون حصول الرغبه عند المتبوعين فيما لو أدركوا حقيقه الأمر، و هو ما يشاهد فى عوام الناس عند الكثير من المجتمعات البشريه،(و قد يسلك طريق الضلال بعنوان التقرب إلى الله)..و فى هذه الحال يكون وزر ذنوبهم على عاتق مصلّهم بالكامل، و لا وزر عليهم إن لم يقصّروا بالتحقق من الأمر.

و لا- شك أنّ المجموعه الأولى التى سارت فى طريق الضلال عن علم و بينه من أمرها سوف لا يخفف من ذنوبهم شىء مع ما يلحق أئمتهم من ذنوبهم.

و هنا يلزم ملاحظه أنّ التعبير «بغير علم» فى الآيه ليس دليلا على الغفله الدائمه للمضللين، و لا يعبر عن سقوط المسؤوليه- فى جميع الحالات- على غير المطلعين بحال و شأن أئمه السوء و الضلاله بل يشير إلى سقوط عوام الناس لجهلهم بشكل أسرع من علمائهم فى شراك أو شباك المضللين.

و لهذا نرى القرآن فى آيات أخرى لا- يبرئ هؤلاء الأتباع و يحملهم قسطا من المسؤوليه كما فى الآيتين (٤٧ و ٤٨) من سوره غافر: **وَ إِذْ يَبْتَغِ الْجُؤْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا إِذَا كُذِّبْتُمْ بَعْدَ فَيْحٍ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ .**

ثم تذكر الآيه الأخرى أن تهمة وصف الوحي الإلهي بأساطير الأولين ليست بالأمر المستجد: **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .**

مع أنّ بعض المفسرين قد ذهب بالآيه إلى قصه «النمرود» و صرحه الذى أراد من خلاله محاربه رب السماء! و البعض الآخر فسرها بقصه «بخت نصر».. إلا أن الظاهر من مفهوم الآيه شمول جميع مؤامرات و دسائس المستكبرين و أئمه

و من لطيف دقه العباره القرآنيه، أنّ الآيه أشارت إلى أنّ الله عزّ وجلّ لا يدمّر البناء العلوى للمستكبرين فحسب، بل سيدمره من القواعد لينهار بكله عليهم.

و قد يكون تخريب القواعد و إسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهريه، من خلال الزلازل و الصواعق لتنهار على رؤوسهم، و قد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم و أحزابهم بأمر الله عزّ وجلّ، بل لا مانع من شمول الأمرين معا.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن ذكر كلمه «السقف» بعد ذكر «من فوقهم»، ف«السقف» عاده فى الطرف الأعلى من البناء، فما الذى استلزم ذكر «من فوقهم»؟ و يمكن حمله للتأكيد، و كذلك لبيان أنّ السقوط سيتحقق بوجودهم أسفله لهلاكهم، حيث أنّ السقوط قد يحدث بوجود أصحاب الدار أو عدم وجودهم.

و قدم لنا التاريخ قديمه و حديثه بوضوح صوراً شتى للعقاب الإلهى، فأحكام الطغاه و الجبابره لما يعيشون و يتمتعون فى كنفه من حصون و قلاع، إضافة لخطتهم المحبوكه كى يستمر لهم و لنسلهم الحال، و ما قاموا به من تهيئه و إعداد كل مستلزمات بقاء قدره التسلط و دوام نظام الحكم.. كل ذلك لا- يعبر فى الحقيقه إلا- عن ظواهر خاويه من كل معانى القدره و الاقتدار و الدوام، حيث تحكى لنا قصص التاريخ أنّ هؤلاء يأتىهم العذاب الإلهى و هم بذروه ما يتمتعون به، و إذا بالقلع و الحصون تتهاوى على رؤوسهم فيفنون و لا تبقى لهم باقيه.

و عذابهم فى الحياه الدنيا لا يعنى تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر ثمّ يوم القيامة يُخزبهم .

فيسألهم الله تعالى: وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ أَى تَجَادِلُونَ و تعادون فيهم (1)، فلا يتمكنون من الإجابة، و لكن:

قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ

و يظهر من خلال ذلك أنّ المتحدثين يوم القيامة هم العلماء، ولا ينبغي في ذلك المحضر المقدس الحديث بالباطل.

و إذا رأينا في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام التأكيد على أنّ العلماء في ذلك المحضر هم الأئمة المعصومون عليهم السلام لأنهم أفضل و أكمل مصداق لذلك (1).

و نعاود الذكر لنقول: إنّ المقصود من السؤال و الجواب في يوم القيامة ليس لكشف أمر خفي، بل هو نوع من العذاب الروحي، و ذلك إحقاقا للمؤمنين الذين لا قوا اللوم و التوبيخ الشديدين في الحياه الدنيا من المشركين المغرورين.

و يصف ذيل الآيه السابقه حال الكافرين بالقول: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .

لأنّ ممارسه الظلم في حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانيه، و يهتك حرمه الصفات الفطريه الكامنه فيه.

بالإضافه إلى أنّ الظلم متى ما شاع و انتشر في أى مجتمع، فالنتيجه الطبيعيه له أن يعود على الظالمين أنفسهم ليشملهم الحال.

أما حين تحين ساعه الموت و يزول حجاب الغفله عن العيون فَأَلْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .

لما ذا ينكرون عملهم القبيح؟ فهل يكذبون لأنّ الكذب أصبح صفه ذاتيه لهم من كثره تكراره، أم يريدون القول: إننا نعلم سوء أعمالنا، و لكننا أخطأنا و لم تكن لدينا نوايا سيئه فيه؟؟.

يمكن القول بإرادته كلا الأمرين.

و لكن الجواب يأتيهم فوراً: إنكم تكذبون فقد ارتكبتم ذنوبا كثيره:

ص: ١٦٩

١-١) - راجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٠.

بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

حتى بتياتكم.

و ليس المقام محلا للإنكار أو التبرير.. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .

## بحثان

### إشارة

#### ١- السنه ستان.. حسنه و سيئه:

القيام بأى عمل يحتاج بلا شك إلى مقدمات كثيره،و تعتبر السنن السائده فى المجتمع سواء كانت حسنه أم سيئه من ممهديات الأرضيه الفكرية و الاجتماعيه التى تساعد القائد(سواء كان مرشدا أم مضلا)للقيام بدوره بكل فاعليه،و حتى أنه قد يفوق دور الموجهين و واضعى السنن على جميع العاملين فى بضع الأحيان.

و لهذا لا يمكن فصل دور واضعى السنن عن العاملين بتلك السنن،فهم شركاء فى العمل الصالح إذا ما سنوا سنه حسنه،و شركاء فى جرم المنحرفين إذا ما سنوا لهم سنه سيئه.

و قد اهتم القرآن الكريم،و كذا الأحاديث الشريفه كثيرا بمسأله السنه الحسنه و السنه السيئه و واضعيها.

كما طالعنا الآيات أعلاه بأن المستكبرين المضللين يحملون أوزارهم و أوزار الذين يضلونهم(دون أن ينتقص من أوزارهم شىء).

و هذا الأمر من الأهميه بمكان حتى

قال عنه النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «الذال على الخير كفاعله» (١).

و

فى تفسير هذه الآيه روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: «أيمادع دعا إلى الهدى

ص: ١٧٠:

فاتبع، فله مثل أجورهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وأيما داع دعا إلى ضلاله فاتبع عليه، فإن عليه مثل أوزار من اتبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» (١).

و كذلك

روى عن الباقر عليه السلام أنه قال: «من استنَّ بسنَّه عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء، ومن استنَّ سنَّه جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل به، من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء» (٢).

و ثمَّ روايات أخرى تحمل نفس هذا المضمون رويت عن الأئمة الأطهار عليهم السلام وقد جمعها الشيخ الحر العاملي قدس سره، في المجلد الحادي عشر من كتابه الموسوم بالوسائل (كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب السادس عشر).

و

في صحيح مسلم ورد حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حَفَاءَ عِرَاهِ مَجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ وَتَقْلُدِي السِّيُوفِ... فَتَمَعَرَّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِدَلَا فَاذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى وَخَطَبَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دَرَاهِمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بَرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ (حتى قال) ولو بشقِّ تَمْرِهِ، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِبَصْرِهِ كَادَتْ كَفَّهُ تَعَجَّزَ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ:

ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمِينَ مِنْ طَعَامِ ثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مَذْهَبُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَّهُ حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي

ص: ١٧١

١-١) -مجمع البيان، في تفسير الآية مورد البحث.

٢-٢) -وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٣٧.

الإسلام سنّه سيئه كان عليه وزرها و وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (١).

و هنا، يواجهنا سؤال.. كيف تنسجم هذه الروايات مع ما يعارضها من آيات مع الآية (١٦٤) من سورة الأنعام وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ؟ و تتضح الإجابة من خلال ملاحظه أنّ هؤلاء ليسوا عن ذنوب الأخرى بل عن ذنوبهم فقط، و لكنهم من خلال اشتراكهم في تحقق ذنوب الآخرين يشاركوهم فيها، أي ان تلك الذنوب تعتبر من ذنوبهم بهذا اللحاظ.

## ٢- التسليم بعد فوات الأوان:

قليل أولئك الذين ينكرون الحقيقة بعد رؤيتها في مرحلة الشهود، و لهذا نجد المذنبين و الظالمين يظهرن الإيمان فورا بعد أن تزال عن أعينهم حجب الغفلة و الغرور و حصول العين البرزخية في حال ما بعد الموت، كما بينت لنا الآيات السابقة فَأَلْقُوا السَّلْمَ .

و غاية ما في الأمر أنّ الكلّ مستسلم، و لكنّ الحديث يختلف من بعض إلى بعض، فقسم منهم يتبرأ من أعماله القبيحة بقولهم: مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ أَى إْتِهَم مِنْ كَثْرِهِ مِمَّا رَسَمْتُمْ لِلْكَذِبِ فَقَدْ اخْتَلَطَ بِلِحْمِهِمْ وَ دَمِهِمْ وَ التَّبَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ تَمَامًا، فَمَعَ عِلْمِهِمْ بِعَدَمِ فَائِدَةِ الْكَذِبِ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ وَ لَكِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ! وَ يَسْتَفَادُ مِنْ بَعْضِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَكْذِبُ حَتَّى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ وَ الْعَشْرِينَ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: قَالُوا وَ اللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ! وَ قَسَمَ آخِرُ يَظْهَرُ النَّدَامَةَ وَ يَطْلُبُ الْعُودَةَ إِلَى حَيَاةِ الدُّنْيَا لِإِصْلَاحِ أَمْرِهِ، كَمَا

ص: ١٧٢

---

(١- ١) - صحيح مسلم، ج ٢، ص ٧٠٤ (باب الحث على الصدقة و لو بشق تمره).

جاء فى الآيه (١٢) من سورہ السجدہ.

و قسم يكتفى بإظهار الإيمان كفرعون، كما جاء فى الآيه (٩٠) من سورہ يونس.

و على أيه حال..سوف لا تقبل كل تلك الأقوال لأنها قد جاءت فى غير وقتها بعد أن انتهت مدّتها، و لا أثر لهكذا إيمان صادر عن اضطرار.

ص: ١٧٣



اشاره

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِمَنْ دَارَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)  
جَنَّاتٍ عِدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ  
يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

التفسير

اشاره

عاقبه المتقين و المحسنين:

قرأنا في الآيات السابقة أقول المشركين حول القرآن و عاقبه ذلك، و الآن فندخل مع المؤمنين في اعتقادهم و عاقبه.. فيقول القرآن: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .

و روى في تفسير القرطبي: كان يرد الرجل من العرب مكه في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون..

و يسأل المؤمنون فيقولون: أنزل الله عليه الخير و الهدى.

ما أجمل هذا التعبير و أكمله «خيرا» خير مطلق يشمل كل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادي و معنوي، خير للدنيا و الآخرة، خير للإنسان الفرد و المجتمع، و خير في: التربيه و التعليم، السياسه و الإقتصاد، الأمن و الحرية... و الخلاصه: خير في كل شيء (لأنّ حذف المتعلق يوجب عموم المفهوم).

و قد وصفت الآيات القرآنيه القرآن الكريم بأوصاف كثيره مثل: النور، الشفاء، الهدايه، الفرقان (يفرق الحق عن الباطل)، الحق، التذكره، و ما شابه ذلك..

و لكن في هذه الآيه وردت صفه «الخير» التي يمكن أن تكون مفهوما عاما جامعا لكل تلك المفاهيم الخاصه.

و الفرق واضح في نعت القرآن بين المشركين و المؤمنين، فالمؤمنون قالوا:

«خيرا» أي أنزل الله خيرا، و بذلك يظهر اعتقادهم بأنّ القرآن وحي إلهي (١).

بينما نجد المشركين عند ما قيل لهم ما ذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطير الأولين و هذا إنكار واضح لكون القرآن وحي إلهي (٢).

و تبين الآيه مورد البحث نتيجة و عاقبه ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت الآيات السابقه عاقبه ما قاله المشركين من عقاب دنيوي و أخروي، و مادي و معنوي مضاعف: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .

و قد أطلق الجزاء بال «حسنه» كما أطلقوا القول «خيرا»، ليشمل كل أنواع الحسنات و النعم في الحياه الدنيا، بالإضافة إلى: وَ لَعْدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لِنِعْمِ دَارِ الْمُتَّقِينَ .

و تشارك عبارته «نعم دار المتقين» الإطلاق مره أخرى و كلمه «خيرا»، لأنّ الجزاء بمقدار العمل كما و كيفا.

ص: ١٧٥

١-١) -خيرا: مفعول لفعل محذوف تقديره (أنزل الله).

٢-٢) -أساطير الأولين: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره (هذه أساطير الأولين).

فَيُتَّضَحُّ لَنَا مِمَّا قُلْنَا إِنَّ الْآيَةَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا إِلَىٰ آخِرِهَا تَعْبَرُ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَقْوَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ عِنْدَ مَقَابَلَتِهَا مَعَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ.

و احتمال بعض المفسرين أنّ الظاهر من الكلام يتضمّن احتمالين:

الأول: أنه كلام الله.

الثاني: أنه استمرار لقول المتقين.

ثمّ تصف الآيه التاليه-بشكل عام-محل المتقين فى الآخره بالقول: جَنَّاتٌ عَيْدِنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .

فهل ثمه أوسع وصفا من هذا أم أشمل مفهوما لبيان نعم الجنّه.

حتى أنّ التعبير يبدو أوسع ممّا ورد فى الآيه (٧١) من سورة الزخرف وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ ، فالحديث فى الآيه عن مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ، فى حين الحديث فى الآيه مورد البحث عن مطلق الإشاءة مَا يَشَاءُونَ .

و استفاد بعض المفسرين من تقديم لَهُمْ فِيهَا على مَا يَشَاءُونَ الحصر، أى يمكن للإنسان أن يحصل على كل ما يشاء فى الجنّه فقط دون الدنيا.

و قلنا أنّ الآيات مورد البحث توضح كيفية حياه و موت المتقين مقارنة مع ما ورد فى الآيات السابقه حول المشركين و المستكبرين، و قد مرّ علينا هناك أنّ الملائكة عند ما تقبض أرواحهم يكون موتهم بدايه لمرحله جديده من العذاب و المشقه، ثمّ يقال لهم «ادخلوا أبواب جهنم...».

و أمّا عن المتقين: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ طاهرين من كل تلوثات الشرك و الظلم و الاستكبار، و مخلصين من كل ذنب- يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ السَّلَامُ الذى هو رمز الأمن و النجاه.

ثمّ يقال لهم: ادخلوا الجنّه بما كنتم تعملون .

و التعبير عن موتهم ب تَتَوَفَّاهُمْ يحمل بين طياته اللطف، و يشير إلى أن الموت لا يعنى الفناء و العدم أو نهايه كل شىء، بل هو مرحله انتقاليه إلى عالم

آخر.

و فى تفسير الميزان: أنّ فى هذه الآيه ثلاثه مسائل:

١- طهاره المؤمنين من خبث الظلم.

٢- يقولون لهم سلامٌ عَلَيْكُمْ و هو تأمين قولى لهم.

٣- أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و هو هدايه لهم إليها.

و هذه المواهب الثلاث هى التى ذكرت فى الآيه (٨٢) من سوره الأنعام الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ .

ص: ١٧٧

اشاره

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ لِحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْهُنَّ دُونَهُ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبِدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)

التفسير

اشاره

البلاغ المبين..وظيفة الأنبياء:

يعود القرآن الكريم مره أخرى ليعرض لنا واقع و أفكار المشركين

والمستكبرين و يقول بلهجه وعيد و تهديد: ما ذا ينتظرون؟ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَى ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبه أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال! أو هل ينتظرون أن يأتي أمر الله بعذابهم: أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ حيث تغلق أبواب التوبه أيضا و لا سبيل عندها للإصلاح.

فأى فكر يسيرهم، و أى عناد و لجاجه تحكّمهم؟! كلمه «الملائكة» و إن كانت ترمز إلى عنوان عام، إلا أنها فى هذا الموقع يقصد منها ملائكة قبض الأرواح انسجاما مع الآيات السابقه التى كانت تتحدث عنهم.

أمّا عبارته يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ فمع قبولها لاحتمالات كثيره فى تفسيرها، إلا أنّ المعنى الراجح هو نزول العذاب، لورود هذا المعنى بالخصوص فى آيات مختلفه من القرآن.

و مجموع الجملتين يعنى تفرّيع المستكبرين بأنّ المواعظ الإلهيه و تذكير الأنبياء إن كانت لا توقظكم من غفلتكم فإنّ الموت و العذاب الإلهى سيوقظكم، و لكن حينئذ لا ينفعكم ذلك الإيقاظ.

ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء ليس أول من كانوا على هذه الحال و الصفه و إنّما كذلك فعل الذين من قبلهم و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ .

و سوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

و الآيه تؤكد مرّه أخرى على حقيقه عود الظلم و الاستبداد و الشر على الظالم المستبد الشرير فى آخر المطاف، لأنّ الفعل القبيح يترك آثاره السيئه على روح و نفسه فاعله، فيسودّ قبله و يلوّث روحه فيفقدّه الأمان و الاطمئنان.

ثمّ يذكر عاقبه أمرهم بقوله: فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ .

«حاق بهم»: بمعنى أصابهم، إلا أنّ بعض المفسرين كالقرطبى و فريد و جدى

فى تفسير لهذه الآيه اعتبر معناها (أحاط بهم).

و يمكن الجمع بين المعنيين، فيكون المعنى: نزول العذاب عليهم، و كذلك محيطا بهم.

و على أية حال، فتعبير الآيه ب **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا** يؤكد مره أخرى على عوده الأعمال على فاعلها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، و تتجسم له بصور شتى، و تعذبه و تؤلمه و ليس غير ذلك (١).

و تشير الآيه التاليه إلى أحد أقوال المشركين الخاويه، فتقول: **وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا**  
**آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ**.

إن قولهم **وَلَا حَرَمْنَا** إشاره إلى بعض أنواع الحيوانات التى حرّم لحومها المشركون فى عصر الجاهليه، و التى أنكرها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بشده.

و الخلاصه: أنّهم أرادوا الادعاء بأنّ كل ما عملوه من عباده للأصنام إلى تحليل و تحريم الأشياء، إنما كان وفقا لرضا الله تعالى و بإذنه! و لعل قولهم يكشف عن وجود عقيدته (الجبر) ضمن ما كانوا به يعتقدون، معتبرين كل ما يصدر منهم إن هو إلا من القضاء المحتوم عليهم (كما فهم ذلك جمع كثير من المفسرين).

و ثمّ احتمال آخر: إنّهم لم يقولوا ذلك اعتقادا منهم بالجبر، و إنّما أرادوا الإحتجاج على الله سبحانه، و كأنّهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضى الله تعالى فلما ذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عمّا نقوم به، فسكوتهم و عدم منعه ما كنّا نعمل دليل على رضاه.

و هذا الاحتمال ينسجم مع ذيل الآيه و الآيات التاليه.

ص: ١٨٠

(١- ١) - و على هذا، فلا داعى لتقدير كلمه «جزاء» قبل «سيئات» فى الآيه.

و لهذا يقول تعالى مباشرة: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ...يعنى.

أولاً: أن تقولوا أن الله سكت عن أعمالنا! فإن الله قد بعث إليكم الأنبياء، و دعوكم إلى التوحيد و نفى الشرك.

ثانياً: إن وظيفه الله تعالى و النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليس هى هدايتكم بالجبر، بل بإراءتكم السبيل الحق و الطريق المستقيم، و هذا ما حصل فعلاً.

□ أما عبارته كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فمواساه لقلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم، بأن لا يحزن و يثبت فى قبال ما يواجهه من قبل المشركين، و أن الله معه و ناصره.

و بعد ذكر وظيفه الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآيه التاليه باختصار جامع إلى دعوه الأنبياء السابقين، بقولها: □ وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا .

«الأمه»: من الأم بمعنى الوالده، أو بمعنى: كل ما يتضمّن شيئاً آخر فى دخله، (و من هنا يطلق على جماعه تربطها وحده معينه من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «أمه».

و يتأكد هذا المعنى من خلال دراسه جميع موارد استعمال هذه الكلمه فى القرآن و البالغه (٦٤) مورداً.

□ □ و يبين القرآن محتوى دعوه الأنبياء عليهم السلام، بالقول: □ □ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (١).

فأساس دعوه جميع الأنبياء و اللبنة الأولى لتحركهم هى الدعوه إلى التوحيد و محاربه الطاغوت، و ذلك لأنّ أسس التوحيد إذا لم تحكّم و لم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشريه فلا يمكن إجراء أى برنامج إصلاحى.

«الطاغوت»: (كما قلنا سابقاً) صيغه مبالغه للطغيان.. أى التجاوز و التعدى

ص: ١٨١

(١ - ١) - تقدير هذه الجملة: ليقولوا لهم اعبدوا..



و عبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سببا لتجاوز الحد المعقول، و لهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر و على كل مسير يؤدي إلى غير طريق الحق.

و تستعمل الكلمه للمفرد و الجمع أيضا و إن جمعت أحيانا ب(الطاوغيت).

و نعود لنرى ما وصلت إليه دعوه الأنبياء عليهم السّلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ** .

و هنا علت أصوات من يعتقد بالجبر استنادا إلى هذه الآيه باعتبارها المؤيده لعقيدتهم! و لكن قلنا مرارا إن آيات الهدايه و الضلال إذا جمعت و ربط فيما بينها فلن يبقى هناك أى إبهام فيها، و يرتفع الالتباس من أنها تشير إلى الجبر و يتّضح تماما أن الإنسان مختار فى تحكيم إرادته و حرته فى سلوكه أى طريق شاء.

فالهدايه و الإضلال الإلهيين إنّما يكونا بعد توفر مقدمات الأهليه للهدايه أو عدمها فى أفكار و ممارسه الإنسان نفسه، و هو ما تؤكده الكثير من آيات القرآن الكريم.

فإنّ الله عزّ و جلّ (وفق صريح آيات القرآن) لا يهدى الظالمين و المسرفين و الكاذبين و من شابههم، أما الذين يجاهدون فى سبيل الله و يستجيبون للأنبياء عليهم السّلام فمشمولون بألطفه عزّ و جلّ و يهديهم إلى صراطه المستقيم و يوفقهم إلى السير فى طريق التكامل، بينما يوكل القسم الأوّل إلى أنفسهم حتى تصيبهم نتائج أعمالهم بضلالهم عن السبيل.

و حيث أنّ خواص الأفعال و آثارها-الحسنه منها أو القبيحه- من الله عزّ و جلّ، فيمكن نسبه نتائجها إليه سبحانه، فتكون الهدايه و الإضلال إلهيين.

فالسّنة الإلهيه اقتضت فى البدايه جعل الهدايه التشريعيه ببعث الأنبياء ليدعوا الناس إلى التوحيد و رفض الطاغوت تماشيا مع الفطره الإنسانيه، و من ثمّ فمن

يبدى اللياقه و التجاوب مع الدعوه فردا كان أم جماعه يكون جديرا باللطف الإلهي و تدركه الهدايه التكوينيّه.

نعم،فها هي السنّه الإلهيه،لا- كما ذهب إليه الفخر الرازي و أمثاله من أنصار مذهب الجبر من أنّ الله يدعوا الناس بواسطه الأنبياء،و من ثمّ يخلق الإيمان و الكفر جبرا في قلوب الأفراد(من دون أيّ سبب)و العجيب أنّه لإجمال للتساؤل و لا يسمح في الاستفهام عن سبب ذلك من الله عزّ و جلّ.

فما أوحش ما نسبوا اليه سبحانه..إنّما صورته لا- تتفق مع العقل و العاطفه و المنطق؟! و التعبير الموارد في الآيه مورد البحث يختلف في مورد الهدايه و الضلال،ففي مسأله الهدايه،يقول: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ، أمّا بالنسبه للقسم الثّاني،فلا يقول: إنّ الله أضلهم،بل إنّ الضلاله ثبتت عليهم و التصقت بهم: وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .

و هذا الاختلاف في التعبير يمكن أن يكون الإشاره لما في بعض الآيات الأخرى،و المنسجم مع ما ورد من روايات..و خلاصته:

إنّ القسم الأعظم من هدايه الإنسان يتعلق بالمقدمات التي خلقها الله تعالى لذلك،فقد أعطى تعالى:العقل،و فطره التوحيد،و بعث الأنبياء،و إظهار الآيات التشريعيه و التكوينيّه،و يكفي الإنسان أن يتخذ قراره بحريه وصولا للهدف المنشود.

أمّا في حال الضلال فالأمر كلّه يرجع إلى الضالين أنفسهم، لأنّهم اختاروا السير خلاف الوضعين التشريعي و التكويني الذي جعلهم الله عليه،و جعلوا حول الفطره حجابا داكنا و أغفلوا قوانينها،و جعلوا الآيات التشريعيه و التكوينيّه وراء ظهورهم،و أغلقوا أعينهم و صموا أذانهم أمام دعوه الأنبياء عليهم السّلام،فكان أن آل المال بهم إلى وادي التيه و الضلال..أو ليس كل ذلك منهم؟

و الآيه (٧٩) من سوره النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ .

و

روى فى أصول الكافى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام، فى إجابته على سؤال لأحد أصحابه حول مسأله الجبر و الإختيار، أنه قال: «أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم قال على بن الحسين، قال الله عزّ و جلّ: يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذى تشاء، و بقوتى أديت فرائضى، و بنعمتى قويت على معصيتى، جعلتك سميعاً بصيراً، ما أصابك من حسنه فمن الله و ما أصابك من سيئه فمن نفسك، و ذلك أنّى أولى بحسناتك منك، و أنت أولى بسيئاتك منى» (١).

و فى نهايه الآيه يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين و تقويه روحيه المهتدين، بالقول: فَسَيَرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ .

فالآيه دليل ناطق على حريه إرادته الإنسان، فإن كانت الهدايه و الضلال أمرين إجباريين، لم يكن هناك معنى للسير فى الأرض و النظر إلى عاقبه المكذبين، فالأمر بالسير بحد ذاته تأكيد على اختيار الإنسان فى تعيين مصيره بنفسه و ليس هو مجبر على ذلك.

و ثمّه بحوث كثيره و شيقه فى القرآن الكريم بخصوص مسأله السير فى الأرض مع التأمل فى عاقبه الأمور، و قد شرح ذلك مفصلاً فى تفسيرنا للآيه (١٣٧) من سوره آل عمران.

الآيه الأخير من الآيات مورد البحث تؤكد التسليه لقلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم بتبيان ما وصلت إليه حال الضالين: إِنَّ تَحْرِصَ عَلَيْنَا يَا اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

«تحرص» من ماده (حرص)، و هو طلب الشىء بجديّه و سعى شديد.

ص: ١٨٤

بديهي، أن الآيه لا تشمل كل المنحرفين، لأن الشمول يتعارض مع وظيفه النبي (هدايه و تبليغ)، و للتاريخ شواهد كثيره على ما لهدايه الناس و إرشادهم من أثر بالغ، و كم أولئك الذين انتشلوا من و حل الضلال ليصبحوا من خلص أنصار الحق، بل و دعاته.

فعليه.. تكون الجملة المتقدمه خاصه بمجموعه معينه من الضالين الذين وصل بهم العناد و اللجاجه فى الباطل لأقصى درجات الضلال، و أصبحوا غرقى فى بحر الاستكبار و الغرور و الغفله و المعصيه فأغلقت أمامهم أبواب الهدايه، فهؤلاء لا ينفع معهم محاولات النبي صلى الله عليه و آله و سلم لهديهم حتى و إن طالت المدّه لأنهم قد انحرفوا عن الحق بسبب أعمالهم الى درجه أنهم باتوا غير قابلين للهدايه.

و من الطبيعي أن لا يكون لهكذا أناس من ناصرين و أعوان، لأن الناصر لا يتمكن من تقديم نصرته و عونته إلا فى أرضيه مناسبه و مساعده.

و هذا التعبير أيضا دليل على نفى الجبر، لأن الناصر إنما ينفع سعيه فيما لو كان هناك تحرك من داخل الإنسان نحو الصلاح و الهدايه فيعيه و يأخذ بيده-فتأمل.

و لعل استعمال «ناصرين» بصيغه الجمع للإشاره إلى أن المؤمنين على العكس من الضالين، لهم أكثر من ناصر، فالله تعالى ناصرهم و.. الأنبياء، و عباد الله الصالحين، و ملائكه الرحمه كذلك.

و يشير القرآن الكريم إلى هذه النصره فى الآيه (٥١) من سوره المؤمن: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .**

و كذلك فى الآيه (٣٠) من سوره فصلت: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ .**

## ١- ما هو البلاغ المبين؟

رأينا في الآيات مورد البحث أنّ الوظيفة الرئيسيه للأنبياء هي البلاغ المبين فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

أى لا بدّ من الدعوه علنا،و إذا كانت ثمه ظروف موضوعيه تستدعى من الأنبياء أن تكون دعوتهم سرية،فهذا لا يكون إلا لمدّه محدوده،لإنّ الأسلوب السرى فى عصر دعوه الأنبياء عليهم السّلام غير مستساغ من قبل المجتمع،فلا يكون له الأثر المطلوب و الحال هذه.

فلا بدّ للدعوه إذن من الإعلان السليم القاطع المصحوب بالتخطيط و التدبير كشرط أساسى فى إنجاح الدعوه بين المجتمع.

و بمطالعه تاريخ جميع الأنبياء عليهم السّلام نرى أنّهم كانوا يعلنون دعوتهم ببيان صريح معلن،بالرغم من قله الناصر من قومهم بالذات.

و هذا هو خط جميع دعاه الحق(من الأنبياء و غيرهم)..فهم:لا يداهنون فى دعوتهم أبدا و لا يجاملون الباطل و أهله،متحملين كل عواقب هذه الصراحه و القاطعيه.

## ٢- لكل أمة رسول

عند قوله عزّ و جلّ: وَ لَقَدْ بَعَدْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا يَؤَاجِهِنَا السُّؤَالُ التالى:لو كان لكل أمة رسول لظهر الأنبياء فى جميع مناطق العالم،و لكنّ التأريخ لا يحكى لنا ذلك،فيكف التوجيه؟! و تتضح الإجابة من خلال الالتفات إلى أن الهدف من بعث الأنبياء لإيصال الدعوه الإلهيه إلى أسمع كل الأمم،فعلى سبيل المثال..عند ما بعث النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم فى مكّه أو المدينه لم يكن فى بقيه مدن الحجاز الأخرى نبى،و لكنّ رسل النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم

كانوا يصلون إليها و بوصولهم يصل صوت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إليها أسمع الجميع، بالإضافة إلى كتبه و رسائله العديده التي أرسلها إلى الدول المختلفه (إيران، الروم، الحبشه) ليبلغهم الرساله الإلهيه.

و ها نحن اليوم كأمة قد سمعنا دعوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالرغم من بعد الشقه التاريخيه بيننا و بينه صلى الله عليه و آله و سلم، و ذلك بواسطه العلماء الرساليين الذين حملوا رسالته إلينا عبر القرون.. و لا يقصد من بعثه رسول لكل أمة إلا هذا المعنى.

ص: ١٨٧

إشاره

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي  
يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

سبب النزول

ذكر المفسرون في شأن نزول الآية الأولى (الآية ٣٨) أن رجلا من المسلمين كان له دين على مشرك فتقاضاه فكان تتعلل في بتسديده، فتأثر المسلم بذلك، فوقع في كلامه القسم بيوم القيامة و قال: و الذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فقال المشرك: و إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت و أقسم بالله، لا يبعث الله من يموت.

فأنزل الله الآية (١).

فأجاب الله فيها الرجل المشرك و أمثاله، و عرض المعاد بدليل واضح، و كان حديث الرجلين سببا لطرح هذه المسألة من جديد.

ص: ١٨٨

## المعاد و..نهاية الاختلافات:

تعرض الآيات أعلاه جانباً من موضوع «المعاد» تكميلاً لما بحث في الآيات السابقة ضمن موضوع التوحيد و رساله الأنبياء.

فتقول الآية الأولى: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .

و هذا الإنكار الخالي من الدليل و الذي ابتدءوه بالقسم المؤكّد، ليؤكد بكل وضوح على جهلهم، و لهذا يجيبهم القرآن بقوله: بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

إنّ الكلمات الواردة في المقطع القرآني مثل «بلى»، «وعدا»، «حقاً» لتظهر بكل تأكيد حتمية المعاد.

و عموماً-ينبغي مواجهه من ينكر الحقّ بحجم ما أنكر بل و أقوى، كي يمحو الأثر النفسى السيء للنفى القاطع، و لا بدّ من إظهار أن نكران الحق جهل حتى يمحى أثره تماماً و لكنّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

ثمّ يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد و قدره الله عزّ و جلّ على ذلك، ليرد الاشتباه القائل بعدم إعادته الحياه بعد الموت، أو بعيشه المعاد..

فيقول: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُحْتَلَفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ في إنكارهم للمعاد و بأنّ الله لا يبعث من يموت! لأنّ ذلك عالم الشهود، عالم رفع الحجب و كشف الغطاء، عالم تجلى الحقائق، كما نقرأ في الآية (٢٢) من سوره ق: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْ فَبَصُرْتُمْ الْيَوْمَ حديد .

و في الآية (٩) من سوره الطارق: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ أَي تظهر و تعلن.

و كذا الآية (٤٨) من سوره إبراهيم: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

ففي يوم الشهود و كشف السرائر و إظهارها لا معنى فيه لاختلاف العقيدة،



و إن كان من الممكن أن يقوم بعض المنكرين اللجوجين بإطلاق الأكاذيب فى بعض مواقف يوم القيامة لأجل تبرئه أنفسهم، إلا أن ذلك سيكون أمرا استثنائيا عابرا.

و هذا يشبه إلى حد ما إنكار المجرم لجريمته ابتداء عند المحاكمة، و لكنّه سرعان ما ينهار و يرضخ للحقيقه عند ما تعرض عليه مستمسكات جريمته الماديه التى لا- تقبل إدانته غيره أبدا، و هكذا فإنّ ظهور الحقائق فى يوم القيامة يكون أوضح و أجلى من ذلك.

و مع أنّ أهداف حياه ما بعد الموت (عالم الآخرة) عديده و قد ذكرتها الآيات القرآنيه بشكل متفرق مثل: تكامل الإنسان، إجراء العداله الإلهيه، تجسيد هدف الحياه الدنيا، الفيض و اللطف الإلهيين و ما شابه ذلك.. إلا أنّ الآيه مورد البحث أشارت إلى هدف آخر غير الذى ذكر و هو: رفع الاختلافات و عوده الجميع إلى التوحيد.

و نعتقد أنّ أصل التوحيد من أهم الأصول التى تحكم العالم، و هو شامل يصدق على: ذات و صفات و أفعال الله عزّ و جلّ، عالم الخلقه و القوانين التى تحكمه، و كل شىء فى النهايه يجب أن يعود إلى هذا الأصل.

و لهذا فنحن نعتقد بوجود نهايه لكل ما تعانى به البشرى على الأرض- الناشئه من الاختلافات المنتجه للحروب و الصدمات- من خلال قيام حكومه واحده تحت ظلال قياده الإمام المهدي «عجل الله تعالى فرجه الشريف» لأنّه يجب فى نهايه الأمر رفع ما يخالف روح عالم الوجود (التوحيد).

أمّا اختلاف العقيدته فسوف لا يرتفع من هذه الدنيا تماما لوجود عالم الحجب و الأستار، و لا ينتهى إلا يوم البروز و الظهور (يوم القيامة).

فالرجوع إلى الوحده و انتهاء الخلافات العقائديه من أهداف المعاد الذى أشارت إليه الآيه مورد البحث.

و ثمه آيات قرآنيه كثيره كررت مسأله أن الله عزّ و جلّ سيحكم بين الناس يوم القيامه فيما كانوا فيه يختلفون (١).

ثمّ يشير القرآن إلى الفقره الثانيه من بيان حقيقه المعاد، للرد على من يرى عدم إمكان إعاده الإنسان من جديد إلى الحياه من بعد موته: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**.

فمع هذه القدره التامه..هل ثمه شك أو ترديد فى قدرته عزّ و جلّ على إحياء الموتى؟! و لعل لا حاجه لتبيان أن «كن» إنّما ذكرت لضروره اللفظ، و إلا لا حاجه فى أمر الله ل «كن» أيضا، فإن ارادته سبحانه و تعالى كافيه فى تحقق ما يريد.

و لو أردنا أن نضرب مثلا صغيرا ناقصا من حياتنا (و لله المثل الأعلى)، فنستطيع أن نشبهه بانطباع صوره الشئ فى أذهاننا لمجرد إرادته، فإننا لا-نعانى من أيه مشكله فى تصور جبل شامخ أو بحر متلاطم أو روضه غناء، و لا نحتاج فى ذلك لجمله أو كلمه نطلقها حتى نتخيل ما نريد، فبمجرد إرادته التصور تظهر الصوره فى ذهننا.

و نقرأ سويه

الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام.. **إِنَّ صَفْوَانَ بْنَ يَحْيَى سَأَلَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِرَادَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَ مِنَ الْخَلْقِ، فَقَالَ: «الْإِرَادَةُ مِنَ الْمَخْلُوقِ الضَّمِيرُ وَ مَا يَبْدُو لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْفِعْلِ، وَ أَمْرًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ فَإِرَادَتُهُ إِحْدَاثُهُ لَا-غَيْرَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا-يُرَوَى وَ لَا-يَهْمُ وَ لَا يَتَفَكَّرُ، وَ هَذِهِ الصِّفَاتُ مَنْفِيَةٌ عَنْهُ وَ هِيَ مِنَ صِفَاتِ الْخَلْقِ، فَإِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْفِعْلُ لَا غَيْرَ ذَلِكَ، يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، بَلَا لَفْظٍ وَ لَا نَطْقٍ بِلِسَانٍ وَ لَا هَمٍّ وَ لَا تَفَكْرٍ وَ لَا كَيْفٍ كَذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ بَلَا كَيْفٍ» (٢).**

ص: ١٩١

١-١) -راجع الآيات: (٥٥) آل عمران، (٤٨) المائده، (١٦٤) الأنعام، (٩٢) النحل و (٦٩) الحج.

٢-٢) -عيون الأخبار، ج ١، ص ١١٩.

اشاره

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسِيْنَةً وَّ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُوْنَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَّ عَلَي رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ (٤٢)

سبب النزول

ذكر بعض المفسرين في شأن نزول الآيه الأولى (٤١): نزلت في المعذبين بمكّه مثل صهيب و عمار و بلال و خباب و غيرهم مكّتهم الله في المدينة، و ذكر أن صهيبا قال لأهل مكّه: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم و إن كنت عليكم لم أضركم فخذوا مالي و دعوني، فأعطاهم ماله و هاجر إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فقال له أحدهم: ربح البيع يا صهيب.

و يروى أنّ أحد الخلفاء كان إذا أعطى أحدا من المهاجرين عطاء قال له:

خذ هذا ما وعدك الله في الدنيا، و ما أخره لك أفضل. ثمّ تلى هذه الآيه (١).

ص: ١٩٢

## نواب المهاجرين:

قلنا مرارا: إن القرآن الكريم يستخدم أسلوب المقايسه و المقارنه كأهم أسلوب للترييه و التوجيه،فما يريد أن يعرضه للناس يطرح معه ما يقابله لتشخص الفروق و يستوعب الناس معناه بشكل أكثر وضوحا.

فنى فى الآيات السابقه الحديث عن المشركين و منكرى يوم القيامه، و ينقل الحديث فى الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصين،ليقارن بين المجموعتين و يبين طبيعتهما..

فيقول أولًا: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَتَبُوُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسْبَ نَهْ أَمَا فِي الْآخِرَةِ وَاللَّجْرُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

ثم يصف فى الآيه التاليه المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول:

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

## بحوث

١- كما هو معروف فإنَّ للمسلمين هجرتين،الأولى: كانت محدوده نسييا (هجره جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبى طالب إلى الحبشه)،و الثانيه:

الهجره العامه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين من مكه إلى المدينه.

و ظاهر الآيه يشير إلى الهجره الثانيه، كما يؤيد ذلك شأن النزول.

و قد بحثنا أهميه دور الهجره فى حياه المسلمين فى الماضى و الحاضر و استمرار هذا الأمر فى كل عصر و زمان بشكل مفصل ضمن تفسيرنا للآيه (١٠٠) من سوره النساء،و الآيه (٧٥) من سوره الأنفال.

و على أيه حال،فللمهاجرين مقام سام فى الإسلام،و قد اهتم النبي

الأ-كرم صَلَّى اللهُ عليه و آله و سَلَّمَ بهم كثيرا و كذا المسلمون من بعد،و ذلك لأنهم جعلوا حياتهم الماديه و ما يملكون في خدمه الدعوه الإسلاميه المباركه،مما حدا بالبعض أن يعرض حياته للمخاطر،و البعض الآخر ترك كل أمواله(كصهيب)معتبرا نفسه رابحا في هذه الصفقه المباركه.

و لو لم تكن تلك التضحيات لأولئك المهاجرين لما سمح المحيط الفاسد في مكّه و تحكّم الشياطين عليها بأن يخرج صوت الإسلام ليعم أسمع الجميع،و لكتّم الصوت و قبر في صدور المؤمنين إلى الأبد،و لكنّ المهاجرين بتحولهم المدروس الواعى و هجرتهم المباركه لم يفتحوا مكّه فحسب،و إنّما أوصلوا صوت الإسلام إلى أسمع العالم،فأصبحت الهجره سنّه إسلاميه تجرى على مَرّ التاريخ إذا ما واجهت ما يشبه ظروف مكّه قبل الهجره.

٢-التعبير ب هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ دُونِ ذِكْرِ كَلِمَةِ «سَبِيلٍ» إِيَّاهُ إِلَى ذُرْوَةِ الْإِخْلَاصِ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُونَهُ أَوْلَئِكَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُ،فهم هاجروا لله و فى سبيله و طلبا لرضاه و حمايه لدينه و دفاعا عنه،و ليس لنجاتهم من القتل أو طلبا لمكاسب ماديه أخرى.

٣-و تظهر لنا جملة مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا عدم ترك الميدان فورا،بل لا بدّ من الصبر و التحمل قدر الإمكان.

أما عند ما يصبح تحمل العذاب من العدو باعثا على زياده جرأته و جسارته، و إضعاف المؤمنين..فهنا تجب الهجره لأجل كسب القدره اللازمه و تهيئه خنادق المواجهه المحكمه،و يستمر بالجهاد على كافه الأصعده من موقع أفضل،حتى تنتهى الحال إلى نصر أهل الحق فى الساحات العسكريه و العلميه و التبليغيه...

٤-أما قوله تعالى: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» من (بوات له مكانا)أى هياته له و وضعته فيه-فيشير إلى أن المهاجرين فى الله و إن كانوا ابتداء يفتقدون إلى الإمكانيات الماديه المستلزمه للمواجهه،إلا أنّهم فى النهايه-حتى

فلما ذا بعد ذلك يتحمل الإنسان ضربات الأعداء المتواليه و يموت منها ذليلاً؟! لما ذا لا يهاجر و بكل شجاعه ليجاهد عدوه من موضع جديد فيأخذ منه حقه؟! و قد عرض هذا الموضوع بوضوح أكثر فى الآيه (١٠٠) من سوره النساء، حيث تقول: وَ مَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعاً كَثِيراً وَ سَعَةً .

٥- إن سبب انتخاب صفتين للمهاجرين «الصبر» و «التوكل» واضح، لما يواجه من ظروف صعبه و متعبه، تحتاج الثبات و الصبر على مراره تلك الظروف فى الدرجه الأولى، ثم الاعتماد الكامل على الله سبحانه و تعالى. و أساساً فإنّ الإنسان لو افتقد فى الحوادث العصبيه و الشدائد القاسيه المعتمد المطمئن و السند المعنوى المحكم، فإنّ الصبر و الاستقامه و الثبات تكون مستحيله.

و قال البعض: إنّ انتخاب «الصبر» هنا، لأنّ ابتداء السير فى طريق الهجره إلى الله يحتاج إلى المقاومه و الثبات أمام رغبات النفس، أما انتخاب «التوكل» فلاجل أنّ نهايه السير هى الانقطاع عن كل شىء غير الله عزّ و جلّ و الارتباط به.

و على هذا، تكون الصفه الأولى لأوّل الطريق و الثانيه لآخره (٢).

و على آيه حال.. فلا- سبيل الى الهجره الخارجيه دون الهجره الباطنيه، فعلى الإنسان أن يقطع علائقه الماديه الباطنيه أولاً بهجرته نحو الفضائل الأخلاقيه، ليستطيع أن يهاجر و يترك دار الكفر- مع كل ما له فيها- منتقلاً إلى دار الإيمان.

ص: ١٩٥

١- ١) - «لنبوئنهم»: فى الأصل من (بوأ) بمعنى تساوى أجزاء مكان ما.. على عكس «نبوء» على وزن (مبدأ) بمعنى عدم تساوى أجزاء المكان. و على هذا ف «بوأت له مكاناً» أى ساويت له مكاناً، ثم بمعنى هياته له.

٢- ٢) - التفسير الكبير للفخر الرازى، فى تفسير الآيه مورد البحث.

اشاره

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

التفسير

فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ!

بعد أن عرض القرآن في الآيتين السابقتين حال المهاجرين في سياق حديثه عن المشركين، يعود إلى بيان المسائل السابقة فيما يتعلق بأصول الدين من خلال إجابته لأحد الإشكالات المعروفة، حين يتقول المشركون: لماذا لم ينزل الله ملائكته لإبلاغ رسالته؟... أو يقولون: لم لم يجهز النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقدره خارقه ليجبرنا على ترك أعمالنا؟!..

فيجيبهم الله عزّ وجلّ بقوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ .

نعم. فإنّ أنبياء الله عليهم السّلام جميعهم من البشر، و بكل ما يحمل البشر من غرائز و عواطف إنسانيته، حتى يحس بالألم و يدرك الحاجه كما يحس و يدرك الآخرون.

في حين أن الملائكه لا تتمكن من إدراك هذه الأمور جيدا و الاطلاع على ما

يدور في أعماق الإنسان بوضوح.

إنّ وظيفه الأنبياء إبلاغ رساله السماء و الوحي الإلهي، و إيصال دعوه الله إلى الناس و السعى الحثيث و بالوسائل الطبيعيه لتحقيق أهداف الوحي، و ليس باستعمال قوى إلهيه خارقه للسنن الطبيعيه لإجبار الناس بقبول الدعوه و ترك الانحرافات، و إلاّ فما كان هناك فخر للإيمان و لا كان هناك تكامل.

ثمّ يضيف القول (تأكيدا لهذه الحقيقه): فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

«الذكر»: بمعنى العلم و الاطلاع، و «أهل الذكر» له من شموليه المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين و العارفين في كافه المجالات. و إذا فسّر البعض كلمه «أهل الذكر» في هذا المورد بمعنى (أهل الكتاب)، فهو لا يعنى حصر هذا المصطلح بمفهوم معين، و ما تفسيرهم في واقعه إلاّ تطبيق لعنوان كلى على أحد مصاديقه.

لأنّ السؤال عن الأنبياء و المرسلين السابقين و هل أنّهم من جنس البشر و ذوى رسالات و وظائف ربانيه، يجب أن يكون من علماء أهل الكتاب.

و بالرغم من عدم وجود الوفاق التام بين علماء اليهود و النصارى من جهه و المشركين من جهه أخرى، إلاّ أنّهم مشتركون في مخالفتهم للإسلام، و لهذا فيمكن أن يكون علماء أهل الكتاب مصدرا جيدا بالنسبه للمشركين في معرفه أحوال الأنبياء السابقين.

يقول الراغب في مفرداته: إنّ الذكر على معنيين، الأوّل: الحفظ. و الثانى:

التذكر و استحضار الشىء في القلب. و لذلك قيل: الذكر ذكران، ذكر بالقلب و ذكر باللسان.. و لذا رأينا أنّ الذكر يطلق على القرآن لأنّه يعرض الحقائق و يكشفها.

ثمّ تقول الآيه التاليه: بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ (١).

ص: ١٩٧

١-١) - أعطى المفسرون احتمالات متعدده في الفعل الذى تتعلق به عباره بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ... فقال بعضهم: إنّها متعلقه ب«لا



«البيّنات»: جمع بيّنه، بمعنى الدلائل الواضحه. و يمكن أن تكون هنا إشاره إلى معاجز و أدله إثبات صدق الأنبياء عليهم السّلام فى دعوتهم.

«الزبر»: جمع زبور، بمعنى الكتاب.

فالبيّنات تتحدث عن دلائل إثبات النبوه، و الزّبر إشاره إلى الكتب التى جمعت فيها تعليمات الأنبياء.

و من ثمّ يتوجه الخطاب إلى النّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، لبيّن للناس مسئوليتهم تجاه آيات ربّهم الحق.

فدعوتك و رسالتك ليست بجديده من الناحيه الأساسيه، و كما أنزلنا على الذين من قبلك من الرسل كتبنا ليعلموا الناس تكاليفهم الشرعيه، فقد أنزلنا عليك القرآن لتبيّن تعاليمه و مفاهيمه، و توقظ به الفكر الإنسانى ليسيروا فى طريق الحق بعد شعورهم بالمسؤوليه الملقاه على عاتقهم، و ليتجهوا صوب الكمال (و ليس بطريق الجبر و القوه).

## بحث

## إشاره

## من هم أهل الذكر؟

ذكرت الروايات الكثيره المرويّه عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ «أهل الذكر» هم الأئمّه المعصومون عليهم السّلام، و من هذه الروايات:

روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى جوابه عن معنى الآيه أنّه قال:

«نحن أهل الذكر و نحن المسؤولون» (١).

(١)

- تعلمون» كما قلنا و هو ينسجم مع ظاهر الآيات، و بملاحظه أن الفعل (علم) يتعدى بالباء و بدونها، و قال بعض آخر: أنّها متعلقه بجمله تقديرها «أرسلنا» و هى فى الأصل «أرسلناهم بالبيّنات و الزبر». و قال آخرون: إنّها متعلقه بجمله «و ما أرسلنا» فى الآيه السابقيه، و قال غيرهم: إنّها متعلقه بجمله «نوحى إليهم»، و الواضح أنّ جميع الآراء المطروحه كل منها يحدد مفهوم معين للآيه، و لكنّها فى المجموع العام فالتفاوت غير كبير فيما بينها.

ص: ١٩٨

عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أنه قال: «الذكر القرآن و آل الرسول أهل الذكر و هم المسؤولون» (١).

في روايات أخرى: أن «الذكر» هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و «أهل الذكر» هم أهل البيت عليهم السلام (٢).

و ثمه روايات متعددة أخرى تحمل نفس هذا المعنى.

و في تفاسير و كتب أهل السنّة روايات تحمل نفس المعنى أيضا، منها:

ما في التفسير الاثني عشرى: روى عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال:

هو محمد و علي و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السلام هم أهل الذكر و العقل و البيان (٣).

فهذه ليست هي المرّة الأولى في تفسير الروايات للآيات القرآنية بيان أحد مصاديقها دون أن تقيّد مفهوم الآية المطلق.

و كما قلنا ف «الذكر» يعني كل أنواع العلم و المعرفة و الاطلاع، و «أهل الذكر» هم العلماء و العارفون في مختلف المجالات، و باعتبار أن القرآن نموذج كامل و بارز للعلم و المعرفة أطلق عليه اسم «الذكر»، و كذلك شخص النبي صلى الله عليه و آله و سلم فهو مصداق واضح «للذكر» و الأئمّة المعصومون باعتبارهم أهل بيت النبوه و وارثو علمه صلى الله عليه و آله و سلم فهم عليهم السلام أفضل مصداق ل «أهل الذكر».

و هذا لا ينافي عموميه مفهوم الآية، و لا ينافي مورد نزولها أيضا (علماء أهل الكتاب) و لهذا اتجه علماءنا في الفقه و الأصول عند بحثهم موضوع الاجتهاد

ص: ١٩٩

(١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٦.

(٢-٢) - تفسير نور الثقلين، ج ٣ ص ٥٥ و ٥٦.

(٣-٣) - إحقاق الحق، ج ٣، ص ٤٢٨- و المقصود من تفسير الاثني عشر، هو تفاسير كل من: أبي يوسف، ابن حجر، مقاتل بن سليمان، وكيع بن جراح، يوسف بن موسى، قتاده، حرب الطائي، السدي، مجاهد، مقاتل بن حيان، أبي صالح و محمد بن موسى الشيرازي. و روى حديث آخر عن جابر الجعفي في تفسير الآية، في كتاب الثعلبي أنه قال: لما نزلت هذه الآية قال علي عليه السلام: «نحن أهل الذكر» - راجع المصدر أعلاه.

والتقليد إلى ضروره و وجوب أتباع العلماء لمن ليست له القدره على استنباط الأحكام الشرعيه، و يستدلون بهذه الآيه على صحه منحاهم.

و قد يتساءل فيما

ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام في كتاب (عيون أخبار الرضا عليه السّلام): أنّ علماء في مجلس المأمون قالوا في تفسير الآيه: إنما عنى بذلك اليهود و النصارى، فقال الرضا عليه السّلام: «سبحان الله و هل يجوز ذلك، إذا يدعوننا إلى دينهم و يقولون: إنه أفضل من الإسلام...» ثمّ قال: «الذكر رسول الله و نحن أهله» (١).

و تتخلص الإجابة بقولنا: إنّ الإمام قال ذلك لمن كان يعتقد أن تفسير الآيه منحصر بمعنى الرجوع إلى علماء أهل الكتاب في كل عصر و زمان، و بدون شك أنه خلاف الواقع، فليس المقصود بالرجوع إليهم على مر العصور و الأيام، بل لكل مقام مقال، ففي عصر الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام لا بدّ من الرجوع إليه على أساس أنّه مرجع علماء الإسلام و رأسهم.

و بعبارة أخرى: إذا كانت وظيفه المشركين في صدر الإسلام لدى سؤالهم عن الأنبياء السابقين، و هل أنّهم من جنس البشر هي الرجوع إلى علماء أهل الكتاب لا إلى النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم، فهذا لا يعنى أن على جميع الناس في أى عصر و مصر أن يرجعوا إليهم، بل يجب الرجوع إلى علماء كل زمان.

و على أيه حال.. فالآيه مبينه لأصل إسلامي يتعين الأخذ به في كل مجالات الحياه الماديه و المعنويه، و تؤكد على المسلمين ضروره السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، و أن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

و على هذا فإنّ «مسأله التخصص» لم يقرها القرآن الكريم و يحصرها في المسائل الدينيه بل هي شامله لكل المواضيع و العلوم المختلفه، و يجب أن يكون

ص: ٢٠٠

من بين المسلمين علماء في كافة التخصصات للرجوع إليهم.

و ينبغي التنويه هنا إلى ضرورة الرجوع إلى المتخصص الثابت علمه و تمكنه في اختصاصه،بالإضافة إلى توفر عنصر الإخلاص في عمله فهل يصح أن نراجع طبيبا متخصصا-على سبيل المثال-غير مخلص في علمه؟! و لهذا وضع شرط العدالة في مسائل التقليد إلى جانب الاجتهاد و الأ-علميه، أى لا-بدّ لمرجع التقليد من أن يكون تقيا ورعا بالإضافة إلى علميته في المسائل الإسلاميه.

ص: ٢٠١

اشاره

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

التفسير

اشاره

لكل ذنب عقابه:

ثمّه ربط في كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلاليه و المسائل الوجدانيه بشكل مؤثر في نفوس السامعين، و الآيات أعلاه نموذج لهذا الأسلوب.

فالآيات السابقه عباره عن بحث منطقي مع المشركين في شأن النبوه و المعاد، في حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجباريه و الطغاه و المذنبين.

فتبدأ القول: أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ مِنَ الَّذِينَ حَاكُوا الدَّسَائِسَ المتعدده حسباً منهم لإطفاء نور الحق و الإيمان أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ .

فهل ببعيد(بعد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزه شديده فتتنشق القشره الأرضيه لتبتلعهم و ما يملكون، كما حصل مرارا لأقوام سابقه؟!!

«مكروا السيئات»: بمعنى وضعوا الدسائس و الخطط وصولاً لأهدافهم المشؤمه السيئه، كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن و محاوله قتل النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ما مارسوه من إيذاء و تعذيب للمؤمنين المخلصين.

«يخسف»: من ماده «خسف»، بمعنى الاختفاء، و لهذا يطلق على اختفاء نور القمر فى ظل الأرض اسم (الخسوف)، يقال (بئر مخسوف) للذى اختفى ماؤه، و على هذا يسمّى اختفاء الناس و البيوت فى شق الأرض الناتج من الزلزاله خسفاً.

ثم يضيف: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ أَى عند ذهابهم و مجيئهم و حركتهم فى اكتساب الأموال و جمع الثروات. فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ .

و كما قلنا سابقاً، فإن «معجزين» من الإعجاز بمعنى ازاله قدره الطرف الآخر، و هى هنا بمعنى الفرار من العذاب و مقاومته.

أو أنّ العذاب الإلهي لا يأتيهم على حين غفله منهم بل بشكل تدريجي و مقرونا بالإنذار المتكرر: أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ .

فاليوم مثلاً، يصاب جارهم ببلاء، و غدا يصاب أحد أقربائهم، و فى يوم آخر تتلف بعض أموالهم... و الخلاصه، تأتيهم تنبيهات و تذكيرات الواحد تلو الأخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، و إلا فسيصيبهم العقاب الإلهي و يهلكهم.

إنّ العذاب التدريجي فى هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدى هذه المجموعه، و الله عزّ و جلّ لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ .

و من الملفت للنظر فى الآيات مورد البحث، ذكرها لأربعة أنواع من العذاب الإلهي:

الأول: الخسف.

الثاني: العقاب المفاجئ الذى يأتى الإنسان على حين غره من أمره.

الثالث: العذاب الذى يأتى الإنسان و هو غارق فى جمع الأموال و تقلبه فى

ذلك.

الرابع:العذاب و العقاب التدريجي.

و المسلم به أنّ نوع العذاب يتناسب و نوع الذنب المقترف،و إن وردت جميعها بخصوص الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ لعلنا أنّ أفعال الله لا تكون إلاّ بحكمه و عدل.

و هنا..لم نجد رأياً للمفسّرين-فى حدود بحثنا-حول هذا الموضوع، و لكن يبدو أنّ النوع الأوّل من العقاب يختص بأولئك المتآمرين الذين هم فى صف الجبارين و المستكبرين كقارون الذى خسف الله تعالى به الأرض و جعله عبره للناس،مع ما كان يتمتع به من قدره و ثروه.

أمّا النوع الثانى فيخص المتآمرين الغارقين بملذات معاشهم و أهوائهم، فيأتيهم العذاب الإلهى بغته و هم لا يشعرون.

و النوع الثالث يخص عبده الدنيا المشغولين فى دنياهم ليل نهار ليضيفوا ثروه إلى ثروتهم مهما كانت الوسيله،حتى و إن كانت بارتكاب الجرائم و الجنایات وصولاً لما يطمحون له!فيعذبهم الله تعالى و هم على تلك الحال (1).

و أمّا النوع الرابع من العذاب فيخص الذين لم يصلوا فى طغيانهم و مكرهم و ذنوبهم إلى حيث اللارجعه،فيعذبهم الله بالتخويف.أى يحذرهم بإنزال العذاب الأليم فى أطرافهم فإن استيقظوا فهو المطلوب،و إلاّ فسينزل العذاب عليهم و يهلكهم.

و على هذا،فإنّ ذكر الرأفة و الرحمه الإلهيه ترتبط بالنوع الرابع من الذين مكررو السيئات،الذين لم يقطعوا كل علائقهم مع الله و لم يخربوا جميع جسور العوده.

ص: ٢٠٤

---

١ - ١) -مع أنّ «التقلب»لغه،بمعنى التردد و الذهاب و المجيء،مطلقاً و لكن فى هكذا موارد-كما قال أكثر المفسّرين و تأييد الروايات لذلك-بمعنى التردد فى طريق التجاره و كسب المال-فتأمل.

اشاره

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

التفسير

اشاره

سجود الكائنات لله عزّ وجلّ:

تعود هذه الآيات مرّه أخرى إلى التوحيد بادئ ب: أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (١).

أى: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات الله يمينا و شمالا لتعبر عن خضوعها و سجودها له سبحانه؟! و يقول البعض: إنّ العرب تطلق على الظلال صباحا اسم (الظل) و عصرا

ص: ٢٠٥



(الفىء)، و إذا ما نظرنا إلى تسميه (الفىء) لقسم من الأموال و الغنائم لوجدنا إشاره لطيفه لحقيقه.. إنَّ أفضل غنائم و أموال الدنيا لا تلبث أن تزول و لا يعدو كونها كالظل عند العصر.

و مع ملاحظه ما اقترن بذكر الظلال فى هذه الآيه من يمين و شمال، و إنَّ كلمه الفىء استعملت للجميع.. فيستفاد من ذلك: أن الفىء هنا ذو معنى واسع يشمل كل أنواع الظلال.

فعند ما يقف الإنسان وقت طلوع الشمس متجها نحو الجنوب فإنَّه سيرى شروق قرص الشمس من الجهه اليسرى لأفق الشرق، فتقع ظلال جميع الأشياء المجسمه على يمينه (جهه الغرب)، و يستمر هذا الأمر حتى تقترب الظلال نحو الجهه اليمنى لحين وقت الظهر، و عندها ستتحوّل الظلال إلى الجهه المعاكسه (اليسرى) و تستمر فى ذلك حتى وقت الغروب فتصبح طويله و ممتده نحو الشرق، ثمّ تغيب و تنعدم عند غروب الشمس.

و هنا.. يعرض البارى سبحانه حركه ظلال الأجسام يمينا و شمالا بعنوانها مظهرا لعظمته جل و علا واصفا حركتها بالسجود و الخضوع.

### أثر الظلال فى حياتنا:

مما لا شك فيه أنّ لظلال الأجسام دور مؤثر فى حياتنا، و لعل الكثير منا غير ملتفت إلى هذه الحقيقه، فوضع القرآن الكريم إصبعه على هذه المسأله ليسترعى الانتباه لها.

للظلال (التي هى ليست سوى عدم النور) فوائد جمّه:

١- كما أنّ لأشعه الشمس دور أساسى فى حياتنا، فكذلك الظلال، لأنّها تقوم بعملية تعديل شدّه الحراره لأشعه الشمس.

إنّ الحركه المتناوبه للظلال تحفظ حراره الشمس لحد متعادل و مؤثر، و بدون

الظلال فسيحترق كل شيء أمام حراره الشمس الثابته و بدرجه واحده و لمدّه طويله.

٢- و ثمّه موضوع مهم آخر و ربّما على خلاف تصور معظم الناس، ألا و هو:

إنّ التّور ليس هو السبب الوحيد فى رؤيه الأشياء، بل لا بدّ من اقتران الظل بالتّور لتحقيق الرؤيه بشكل طبيعى.

و بعباره أخرى: إنّ التّور لو كان يحيط بجسم ما و يشع عليه باستمرار بما لا يكون هناك مجالاً للظل أو نصف الظل، فإنّه و الحال هذه لا- يمكن رؤيه ذلك الجسم و هو غارق بالتّور، أى: كما أنّه لا يمكن رؤيه الأشياء فى الظلمه القائمّه، فكذا الحال بالنسبه للنور التام، و يمكن رؤيه الأشياء بوجود التّور و الظلمه (التّور و الظلال).

و على هذا يكون للظلال دور مؤثر جدّاً فى مشاهدته و تشخيصه و معرفه الأشياء و تمييزها- فتأمل.

و ثمّه ملاحظه أخرى فى الآيه: و هى: ورود «اليمين» بصيغه المفرد فى حين جاءت الشمال بصيغه الجمع «شمائل».

فالاختلاف فى التعبير يمكن أن يكون لوقوع الظل فى الصباح على يمين الذى يقف مواجهاً للجنوب ثمّ يتحرك باستمرار نحو الشمال حتى وقت الغروب حين يخفى فى أفق الشرق (١).

و احتمال المفسّرون أيضاً: مع أن كلمه (اليمين) مفرداً إلاّ أنّه يمكن أن يراد بها الجمع فى بعض الحالات، و هى فى هذه الآيه تدل على الجمع (٢).

و جاء فى الآيه أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أما فى الآيه التاليه فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجاً عاماً شاملاً لكل الموجودات الماديه و غير

ص: ٢٠٧

١- ١) - تفسير القرطبي، ضمن تفسير الآيه.

٢- ٢) - تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ٧، ص ١١٠.

الماديه، و في أى مكان، فيقول: **وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**، مسلمين لله و لأوامره تسليما كاملا.

و حقيقه السجود نهايه الخضوع و التواضع و العباده، و ما تؤديه من سجود على الأعضاء السبعه ما هو إلا مصداق لهذا المفهوم العام و لا ينحصر به.

و بما أنّ جميع مخلوقات الله في عالم التكوين و الخلق مسلمه للقوانين العامه لعالم الوجود، التي أفاضتها الإراده الإلهيه فإنّ جميع المخلوقات في حاله سجود له جلّ و علا، و لا ينبغي لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، و كلها مظهره لعظمه و علم و قدره البارى عزّ و جلّ، و لتدلّل على أنّها آيه على غناه و جلاله.. و الخلاصه:  
كلها دليل على ذاته المقدسه.

«الدابه»: بمعنى الموجودات الحيه، و يستفاد من ذكر الآيه لسجود الكائنات الحيه في السماوات و الأرض على وجود كائنات حيه في الأجرام السماويه المختلفه علاوه على ما موجود على الأرض.

و قد احتمل البعض: عباره «من دابه» قيد ل «ما في الأرض» فقط، أى: إنّ الحديث يختص بالكائنات الحيه الموجوده على الأرض.

و يبدو ذلك بعيدا بناء على ما جاء في الآيه (٢٩) من سوره الشورى و مِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ .

صحيح أنّ السجود و الخضوع التكويني لا- ينحصر بالكائنات الحيه، و لكنّ تخصيص الإشاره بها لما تحمله من أسرار و عظمه الخلق أكثر من غيرها.

و بما أنّ مفهوم الآيه يشمل كلا من: الإنسان العاقل المؤمن، و الملائكه، و الحيوانات الأخرى، فقد استعمل لفظ السجود بمعناه العام الذى يشمل السجود الاختيارى و التشريعى و كذا التكويني الاضطرارى.

أمّا الإشاره إلى الملائكه بشكل منفصل في الآيه فلأنّ الدابه تطلق على الكائنات الحيه ذات الجسم المادى فقط، بينما للملائكه حركه و حضور و غياب،

و لكن ليس بالمعنى المادى الجسمانى كى تدخل ضمن مفهوم «الدابه».

و

روى فى حديث النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «إنَّ لله تعالى ملائكة فى السماء السابعة سجودا منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ترعد فرائصهم من مخافه الله تعالى، لا تقطر من دموعهم قطره إلاَّ صارت ملكا، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم و قالوا: ما عبدناك حق عبادتك» (١).

أما جملة وَ هُمْ لَا يَشْتَكِبُونَ فإشاره لحال و شأن الملائكة التى لا يداخلها أى استكبار عند سجودها و خضوعها لله عزَّ و جلَّ. و لهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآيه مباشره و تأكيداً لنفى حاله الاستكبار عنهم: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

كما جاء فى الآيه (٦) من سوره التحريم فى وصف جمع من الملائكة: لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

و يستفاد من هذه الآيه بوضوح.. أنَّ علامه نفى الاستكبار شيان:

أ- الشعور بالمسؤوليه و إطاعه الأوامر الإلهيه من دون أى اعتراض، و هو وصف للحاله النفسيه لغير المستكبرين.

ب- ممارسه الأوامر الإلهيه بما ينبغى و العمل وفق القوانين المعده لذلك..

و هذا انعكاس للأول، و هو التحقيق العينى له.

و مِمَّا لا ريب فيه أنَّ عبارته مِنْ فَوْقِهِمْ ليست إشاره إلى العلو الحسى و المكانى، بل المراد منها العلو المقامى، لأنَّ الله عزَّ و جلَّ فوق كل شى مقاما.

كما نقرأ فى الآيه (٦١) من سوره الأنعام: وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، و كذلك فى الآيه (١٢٧) من سوره الأعراف: وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ حينما أراد فرعون أن يظهر قدرته و قوته!

ص: ٢٠٩

(١- ١) - مجمع ذيل البيان، ذيل الآيه المبحوثه.

اشاره

وَ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ (٥١) وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

التفسير

اشاره

دين حق و معبود واحد:

تتناول هذه الآيات موضوع نفى الشرك تعقيباً لبحث التوحيد و معرفه الله عن طريق نظام الخلق الذى ورد فى الآيات السابقة، لتتضح الحقيقه من خلال المقارنه بين الموضوع، و يتبدأ ب: وَ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ .

و تقديم كلمه «إيأى» يراد بها الحصر كما فى «إيأك نعبد» أى: يجب الخوف

من عقابى لا غير.

و من الملفت للنظر أنّ الآيه أشارت إلى نفى وجود معبودين فى حين أن المشركين كانوا يعبدون أصناما متعدده.

و يمكن أن يكون ذلك إشاره إلى إحدى النقاط التاليه أو إلى جميعها:

١- إنّ الآيه نفت عباده اثنين، فكيف بالأكثر؟! و بعباره أخرى: إنّها بيّنت الحد الأدنى للمسأله ليتأكد نفى الأ-كثرو أى عدد تنتخبه (أكثر من واحد) لا بدّ له أن يمر بالإثنين.

٢- كل ما يعبد من دون الله جمع فى واحد، فتقول الآيه: أن لا تعبدوها مع الله، و لا تعبدوا إلهين (الحق و الباطل).

٣- كان العرب فى الجاهليه قد انتخبوا معبودين:

الأول: خالق العالم، أى الله عزّ و جلّ و كانوا يؤمنون به.

و الثانى: الأصنام، و اعتبروها واسطه بينهم و بين الله، و اعتبروها كذلك منبعا للخير و البركه و النعمه.

٤- يمكن أن تكون الآيه ناظره إلى نفى عقيده (الثنوين) القائلين بوجود إله للخير و آخر للشر، و مع انتخابهم لأنفسهم هذا المنطق الضعيف الخاطى، إلاّ إنّ عبده الأصنام قد غالوا حتى فى هذا المنطق و تجاوزوه لمجموعه من الآلهه! و ينقل المفسّر الكبير العلامه الطبرسى فى تفسير هذه الآيه عباره لطيفه نقلها عن بعض الحكماء: (نهاك ربك أن تتخذ إلهين فاتخذت آلهه، عبدت: نفسك و هواك، و طبعك و مرادك، و عبدت الخلق فأنتى تكون موحدا).

ثمّ يوضح القرآن أدله توحيد العباده بأربعه بيانات ضمن ثلاث آيات...

فيقول أولاً وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فهل ينبغى السجود للأصنام التى لا تملك شيئا، أم لمن له ما فى السموات و الأرض؟  
ثمّ يضيف: وَ لَهُ الدِّينُ وَ أَصْبَأ .

ص: ٢١١

فَعِنْدَ مَا يَثْبِتُ أَنَّ عَالَمَ الْوُجُودِ مِنْهُ، وَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَ جَمِيعَ قَوَانِينِ التَّكْوِينِيَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْقَوَانِينُ التَّشْرِيعِيَّةُ مِنْ وَضْعِهِ أَيْضًا، وَ لَا تَكُونُ طَاعَهُ إِلَّا لَهُ سَبْحَانَهُ.

«وَاصِبٌ»: مِنْ «الْوَصُوبِ»، بِمَعْنَى الدَّوَامِ. وَ فَسَّرَهَا الْبَعْضُ بِمَعْنَى (الْخَالِصِ) (وَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ مَا لَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَكُنْ لَهُ الدَّوَامُ). أَمَّا الَّذِينَ اعْتَبَرُوا «الِدِينَ» هُنَا بِمَعْنَى الطَّاعَةِ، فَقَدْ فَسَّرُوا «وَاصِبًا» بِمَعْنَى الْوَاجِبِ، أَيْ: يَجِبُ إِطَاعَةُ اللَّهِ فَقَطْ.

وَ نَقَرَأُ

فِي رِوَايَةٍ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ شَخْصًا سَأَلَهُ عَنِ قَوْلِ اللَّهِ وَ لَهُ الدِّينُ <sup>□</sup> وَاصِبًا قَالَ: «وَاجِبًا» (١).

وَ الْوَاضِحُ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُتَلَازِمَةٌ جَمِيعُهَا.

ثُمَّ يَقُولُ فِي نَهَايَةِ الْآيَةِ: أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ <sup>□</sup>.

فَهَلْ يُمْكِنُ لِلْأَصْنَامِ أَنْ تَصَدَّ عَنْكُمْ الْمَكْرُوهَ أَوْ أَنْ تَفِيضَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً حَتَّى تَتَّقَوْهَا وَ تَوَاضَبُوا عَلَى عِبَادَتِهَا؟! هَذَا.. وَ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ .

فَهَذِهِ الْآيَةُ تَحْمِلُ لِبَيَانِ الثَّلَاثِ بِخُصُوصٍ لِرُزُومِ عِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ جَلٍّ وَ عِلًّا، وَ أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ إِنْ كَانَتْ شُكْرًا عَلَى نِعْمَةٍ فَهِيَ لَيْسَتْ بِمَنْعَمَةٍ، بَلِ الْكُلُّ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ مُنْعَمُونَ فِي نِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ هُوَ الْأَحَقُّ بِالْعِبَادَةِ لَا غَيْرَهُ.

وَ عِلَاوَهُ عَلَى ذَلِكَ... ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَتَّرُونَ .

فَإِنْ كَانَتْ عِبَادَتُكُمْ لِلْأَصْنَامِ دَفْعًا لِلضَّرِّ وَ حَلًّا لِلْمَعْضَلَاتِ، فَهَذَا مِنَ اللَّهِ وَ لَيْسَ مِنْ غَيْرِهِ، وَ هُوَ مَا تَظْهَرُهُ مِمَّا مَارَسْتُمْ عَمَلِيًّا حِينَ إِصَابَتِكُمْ بِالضَّرِّ، فَلَمَنْ تَلْتَجُّونَ؟ إِنَّكُمْ تَتْرَكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَ تَتَّجِهُونَ إِلَى اللَّهِ.

وَ هَذَا الْبَيَانُ الرَّابِعُ حَوْلَ مَسْأَلَةِ التَّوْحِيدِ بِالْعِبَادَةِ.

ص: ٢١٢

«تَجْرُونَ»: من مادّه (الجوّار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات و الوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثم استعملت كناية في كل الآهات غير الاختياريه الناتجه عن ضيق أو ألم.

إنّ اختيار هذه العبارة هنا إشاره إلى أنّه عند ما تتراكم عليكم الويلات و يحل بكم البلاء الشديد تطلقون حينها صرخات الإستغاثة اللااختياريه.. و أنتم بهذه الحال، أ توجهون النداء لغيره سبحانه و تعالى؟! فلما ذا إذن في حياتكم الاعتياديه و عند ما تواجهون المشاكل اليسيره تلتجئون إلى الأصنام؟! نعم. فالله سبحانه يسمع نداءكم في كل الحالات و يغيثكم و يرفع عنكم البلاء **ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** بالعود إلى الأصنام! و في الحقيقه... فالقرآن في الآيه يشير إلى فطره التوحيد في جميع الناس، إلا أنّ حجب الغفله و الغرور و الجهل و التعصب و الخرافات تغطيها في الأحوال الاعتياديه.

و لكن، عند ما تهب عواصف البلاء تنقلع تلك الحجب فيظهر نور الفطره براقا من جديد ليرى الناس لمن يتوجهون، فيدعون الله مخلصين بكامل وجودهم، فيرفع عنهم أغطيه البلاء المتأتية من تلك الحجب، (لاحظوا أنّ الآيه قالت:

**كَشَفَ الضُّرَّ**

أى: رفع أغطيه البلاء).

و لكن.. عند ما تهدأ العاصفه و يرتفع البلاء و تعودون إلى شاطئ الأمان، تعاودون من جديد على الغفله و الغرور، و تظهرون الشرك بعبادتكم للأصنام مجددا! و في آخر آيه (من الآيات مورد البحث) يأتي التهديد بعد إيضاح الحقيقه بالأدله المنطقيه: **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**.

و يشبه ذلك بتوجيه النصائح و الإرشادات لمنحرف متخلف لا يفيد معه هذا الأسلوب المنطقي فيقطع معه الحديث باللين ليواجه بالتهديد عسى أن يرعوى



فيقال له: مع كل ما قلنا لك...افعل ما شئت و لكن سترى نتيجة عملك عاجلا أم آجلا.

و على هذا فتكون اللام في «ليكفروا» يراد به التهديد، و كذا «تمتعوا» أمر يراد به التهديد أيضا، أمّا مجيء الفعل الأوّل بصيغته الغائب «ليكفروا» و الثاني بصيغته المخاطب «تمتعوا»، فكأنه افترض غيابهم أولا فقال: ليذهبوا و يكفروا بهذه النعم، و عند تهديدهم يلتفت إليهم و يقول: تمتعوا بهذه النعم الدنيوية قليلا فسيأتي اليوم الذي تدركون فيه عظم خطئكم و سترون عاقبه أعمالكم.

و الآية (٣٠) من سورة إبراهيم تشابه الآية المذكوره من حيث الغرض: قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (١)

ص: ٢١٤

---

١-١) -احتمل جمع من المفسرين: أن «ليكفروا» غايه و نتیجه للشرك و الكفر الذي نسب إليهم في الآية التي قبلها، فيكون المعنى أنهم بعد إنجائهم من الضر تركوا طريق التوحيد و ساروا في طريق الشرك ليكفروا بنعم الله و ينكرونها.

اشاره

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَيْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

التفسير

اشاره

عند ما كانت ولاده البنت عارا!

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثا استدلالية في نفى الشرك وعبادة الأصنام، تأتي هذه الآيات لتتناول قسما من بدع المشركين وصورا من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلا آخر على بطلان الشرك وعبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع و عادات المشركين:

و تقول أولاً: وَ يَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ (١).

و كان النصيب عباره عن قسم من الإبل بقيه من المواشى بالإضافه إلى قسم من المحاصيل الزراعيه، و هو ما تشير إليه الآيه (١٣٦) من سوره الأنعام:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيْبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ .

و سيكون بعد السؤال اعتراف لا مفر منه ثم الجزاء و العقاب، و عليه فما تقومون به له ضرر مادي من خلال ما تعملونه بلا فائده، و له عقاب أخروي لأنكم أسأتم الظن بالله و اتجهتم إلى غيره.

أما البدعه الثانيه فكانت: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ مِنَ التَّجْسُمِ وَ مِنْ هَذِهِ النَّسَبِ . وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ أَي: إنهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوا إلى الله، و يعتبرون البنات عارا و سببا للشقاء! و إكمالاً للموضوع تشير الآيه التاليه إلى العاده القبيحه الثالثه: وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٍ . (٢)

و لا ينتهى الأمر إلى هذا الحد بل يتوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .

و لم ينته المطاف بعد، و يغوص فى فكر عميق: أ يُمَسِّكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .

ص: ٢١٦

١ - ١) - ذكر المفسرون رأيين فى تفسير «ما لا يعلمون» و ضميرها: الأول: أن ضمير «لا يعلمون» يعود إلى المشركين أى أن المشركين يجعلون للأصنام نصيباً و هم لا يعلمون لها خيراً و شراً (و هذا ما انتخابناه من تفسير). و الثانى: إن الضمير يعود إلى نفس الأصنام، أى يجعلون للأصنام نصيباً فى حين أنها لا تدرك، لا تعقل، لا تعلم! و التفسير الثانى يظهر نوعاً من التضاد بين عبارات الآيه، لأن «ما» تستعمل عادة لغير العاقل و «يعلمون» تستعمل للعاقل عادة. أما فى التفسير الأول ف«ما» تعود على الأصنام و «يعلمون» على عبدتها.

٢ - ٢) - الكظيم: تطلق على الإنسان الممتلى غضباً.

و فى ذيل الآيه، يستنكر البارى حكمهم الظالم الشقى بقوله: أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

و أخيرا يشير تعالى إلى السبب الحقيقى وراء تلك التلوثات، ألا هو عدم الإيمان بالآخره: لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فكلما اقترب الإنسان من العزيز الحكيم انعكس فى روحه نور صفاته العليا من العلم و القدره و الحكمه و ابتعد عن الخرافات و البدع و الأفعال القبيحه.

و كلما ابتعد عنه تعالى غرق بقدر ذلك البعد فى ظلمات الجهل و الضعف و الذله و القبائح.

فالسبب الرئيسى لكل انحراف و قبح و خرافه هو الغفله عن ذكر الله و عن محكمته العادله فى الآخره، أمّا ذكر الله و الآخره فدافع أصيل للإحساس بالمسئوليه و محاربه الجهل و الخرافه، و عامل قدره و قوه و علم للإنسان.

## بحوث

## إشاره

### ١- لماذا اعتبروا الملائكه بناتا لله؟

تطالعنا الكثير من آيات القرآن الكريم بأنّ المشركين كانوا يقولون بأنّ الملائكه بنات الله جلّ و علا، أو أنّهم كانوا يعتبرون الملائكه إناثا دون نسبتها إلى الله..

كما فى الآيه (١٩) من سوره الزخرف: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إناثاً، و فى الآيه (٤٠) من سوره الإسراء: أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إناثاً .

يمكن أن تكون هذه الإعتقادات بقايا خرافات الأقسام السابقة التي وصلت عرب الجاهليه، أو ربما يحصل هذا الوهم بسبب ستر الملائكه عنهم و حال الاستتار أكثر ما يختص بحال النساء، و لهذا تعتبر العرب الشمس مؤنثا مجازيا و القمر مذكرا مجازيا أيضا، على اعتبار أن قرص الشمس لا- يمكن للناظر إليه أن يديم النظر لأنه يستر نفسه بقوه نوره، أما قرص القمر فظاهر للعين و يسمح للنظر إليه مهما طالت المدّه.

و ثمّه احتمال آخر يذهب إلى الكنايه عن لطافه الملائكه، و الإناث أكثر من الذكور لطافه.

و على أيه حال..فهذه إحدى ترسبات الخرافات القديمه التي تكلست في مخيله البشريه حتى وصلت للبعض ممن يعيش في يومنا هذا، و لا تختص هذه الخرافه بقوم دون آخر لأننا نلاحظ وجودها في أدبيات عدد من لغات العالم! فنرى الأديب مثلا حينما يريد وصف جمال امرأه ينعتها بالملائكه، و ذاك الفنان الذى يريد أن يعبر عن الملائكه فيجعلها بهيئه النساء، فى حين أن الملائكه لا تملك جسما ماديا حتى يمكننا أن نصفه بالمذكر أو المؤنث.

## ٢- لما ذا شاع وأد البنات فى الجاهليه؟

الواد فى واقعه أمر رهيب، لأنّ الفاعل يقوم بسحق كل ما بين جوانحه من عطف و رحمه، ليتمكن من قتل إنسان برىء ربّما هو من أقرب الأشياء إليه من نفسه! و الأقبح من ذلك افتخاره بعمله الشنيع هذا! فأين الفخر من قتل إنسان ضعيف لا يقوى حتى للدفاع عن نفسه؟ بل كيف يدفن الإنسان فلذه كبده و هى حيه؟! و هذا ليس بالأمر الهين، فأى إنسان و مهما بلغت به الوحشيه لا يقدم على

هكذا جريمه بشعه من غير أن تكون لها مقدمات اجتماعيه و نفسيه و اقتصاديه عميقه الأثر و التأثير تدعوه لذلك..

يقول المؤرخون: إنَّ بدايه وقوع هذا العمل القبيح كانت على أثر حرب جرت بين فريقين منهم فى ذلك الوقت، فأسر الغالب منهم نساء و بنات المغلوب، و بعد مضى فتره من الزمن تمَّ الصلح بينهم فأراد المغلوبون استرجاع أسراهم إلاّ- أنّ بعضا من الأسيرات ممن تزوجن من رجال القبيله الغالبه اخترن البقاء مع الأعداء و رفضن الرجوع إلى قبيلتهن، فصعب الأمر على آبائهن بعد أن أصبحوا محلا للوم و الشماتة، حتى أقسم بعضهم أن يقتل كل بنت تولد له كى لا تقع مستقبلا أسيره بيد الأعداء! و يلاحظ بوضوح ارتكاب أفظع جنايه ترتكب تحت ذريعه الدفاع عن الشرف و الناموس و حيثيه العائله الكاذبه.. فكانت النتيجة: ظهور بدعه و أد البنات القبيحه و انتشارها بين جمع منهم حتى أصبحت سنّه جاهليه، و لفظاعتها فقد أنكرها القرآن الكريم بشده بقوله: وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (١).

و ثمه احتمال آخر يذهب إلى دور الطبيعه الإنتاجيه للأولاد الذكور، و النزوع إلى الطبيعه الاستهلاكيه عند الإناث، و ما له من أثر على الحياه الاجتماعيه و الاقتصاديه، فالولد الذكر بالنسبه لهم ذخر مهم ينفعهم فى القتال و الغارات و فى حفظ الماشيه و ما شابه ذلك من الفوائد، فى حين أنّ البنات لسن كذلك.

و من جانب آخر.. فقد سببت الحروب و النزاعات القبليه قتل الكثير من الرجال و الأولاد ممّا أدى لاختلال التوازن فى نسبه الإناث إلى الذكور، حتى وصل وجود الولد الذكر عزيزا و دفع الرجل لأن يتباهى بين قومه حين يولد له مولود ذكرا، و ينزعج و يتألم عند ولاده البنت.. و وصل حالهم لحد (كما يقول عنه

ص: ٢١٩

بعض المفسّرون) أنّ الرجل فى الجاهليه يعيّب نفسه عن داره عند قرب وضع زوجته لثلا تأتيه بنت و هو فى الدار! و إذا ما أخبروه بأنّ المولود ذكر فيرجع إلى بيته و بشائر الفرح تتعالى و جنتيه، و لكنّ الويل كل الويل و الثبور فيما لو أخبروه بأنّ المولود بنتا و يمتلى غيظا و غضبا (١).

و قصّه «الوَاد» ملأى بالحوادث المؤلمه...

منها: ما

روى أنّ رجلا جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فأعلن إسلامه، و جاءه يوما فسأله: إنّي أذنبت ذنبا عظيما فهل لى من توبه؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إنّ الله تواب رحيم». قال: يا رسول الله إنّ ذنبى عظيم قال: «ويلك مهما كان ذنبك عظيما فعفو الله أعظم منه»، قال: لقد سافرت فى الجاهليه سفرا بعيدا و كانت زوجتى حبلى و عند ما عدت بعد أربع سنوات استقبلتنى زوجتى فرأيت بنتا فى الدار، فقلت لها: ابنه من هذه؟ قالت: ابنه جازنا. فظننت أنّها سترحل عن دارنا بعد ساعه، فلم تفعل، ثمّ قلت لزوجتى: أصدقينى من هذه البنت؟ قالت: ألا- تذكر أنّى كنت حامله عند ما سافرت، إنّها ابنتك. فنمت تلك الليله مغتما، أنام و استيقظ، حتى اقترب وقت الصباح نهضت من فراشى و ذهبت إلى فراش ابنتى فأخرجتها و أيقظتها و طلبت منها أن تصحبنى إلى حائط النخل، فتبعتنى حتى اقتربنا من الحائط فأخذت بحفر حفيره و هى تعيننى على ذلك، و عند ما انتهيت من ذلك وضعتها فى وسط الحفره.. و هنا فاضت عينا رسول الله بالدمع.. ثمّ وضعت يدى اليسرى على كتفها و أخذت أهيل التراب عليها بيدي اليمنى، فأخذت تصرخ و تدافع بيديها و رجليها و تقول: أبى ما تصنع بى؟! ثمّ أصاب لحيتى بعض التراب فرفعت يدها تمسحه عنها، و أدمت ذلك حتى دفنتها.

ص: ٢٢٠

فقال رسول الله و هو يمسح دموعه: «لو لا أن سبقت رحمه الله غضبه لعجل الله لك العذاب» (١).

و كذلك ما

روى فى (قيس بن عاصم) أحد أشرف و رؤساء قبيله بنى تميم فى الجاهليه، و قد أسلم عند ظهور النبى صلى الله عليه و آله و سلم، جاء يوما إلى النبى و قال له: أنّ آباءنا كانوا يدفنون بناتهم أحياء، و قد دفنت أنا (١٢) بنتا، و عند ما ولدت لى زوجتى البنت الثالثه عشر أخفت أمرها و ادّعت أنّها ماتت عند الولاده، ثمّ أودعتها آخرين، و عند ما علمت بذلك بعد مدّه، أخذتها إلى مكان بعيد و دفنتها حيّه دون أن أعتنى ببيكائها و تضرعها.

فتأذى النبى صلى الله عليه و آله و سلم من ذلك فقال و دموعه جاريه: «من لا يرحم لا يرحم» ثمّ التفت إلى قيس و قال: «إنّ لك يوما سيئا»، فقال قيس: ما أفعل لتكفير ذنبى؟ فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «حرر من العبيد بعدد ما و أدت» (٢).

و روى أيضا أن (صعصعه بن ناجيه) جد الفرزدق الشاعر المعروف، و كان رجلا شريفا حرا فقيلا: إنه كان فى الجاهليه يحارب الكثير من العادات القبيحه حتى أنه اشترى (٣٦٠) بنتا من آبائهن كى ينقذهن من القتل، و قد أعطى يوما دابته مع بعيرين لأب كان يريد قتل ابنته.

و

قال له الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ذات مرّه (فى ما معناه): ما أحسن ما صنعت و أجرك عند الله.

و قال الفرزدق فخرا بعمل جده:

و منّا الذى منع الوائدات

فأحيا الوئيد فلم توءد (٣)

و سنرى كيف أنّ الإسلام قد أصم تلك الفواجع العظام، و اعتبر للمرأة مكانه ما كانت تحظى بها من قبل على مر العصور.

ص: ٢٢١

١-١) - القرآن يواكب الدهر، ج ٢، ص ٣١٤ (مضمونا).

٢-٢) - الجاهليه و الإسلام، ص ٦٣٢.

٣-٣) - قاموس الرجال، ج ٥، ص ١٢٥ (مضمونا).



لم يكن احتقار المرأة مختصاً بعرب الجاهلية، فلم تلق المرأة أدنى درجات الاحترام و التقدير حتى في أكثر الأمم تمدنا في ذلك الزمان، و كانت المرأة غالباً ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة و ليست إنساناً محترماً، و لكنّ عرب الجاهلية جسّدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحه و وحشيه من غيرهم، حتى أنّهم ما كانوا يدخلونهن في الأنساب كما نقرأ ذلك في الشعر الجاهلي المعروف:

بنونا بنو ءابائنا و بناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأبعاد

و كانوا أيضاً لا يورثون النساء، و لم يجعلوا لتعدد الزوجات حدّاً، و عملية الزواج أو الطلاق أسهل من شربه الماء عندهم.

و عند ما ظهر الإسلام حارب بشدّه هذه المهانه من كافة أبعادها، و بالخصوص مسأله اعتبار ولاده البنت عاراً، حتى وردت الروايات الكثيره التي تؤكّد على أنّ البنت باب من أبواب رحمه الله للعائله.

و أولى النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم ابنته فاطمه الزهراء عليها السّلام من الاحترام ما جعل الناس في عجب من أمره، حيث كان صلّى الله عليه و آله و سلّم مع ما يحظى به من شرف و مقام، كان يقبل يد الزهراء عليها السّلام، و عند ما يعود من السفر يذهب إليها قبل أي أحد. و عند ما يريد السفر كان بيت فاطمه الزهراء عليها السّلام آخر بيت يودّعه.

و حينما أخبر بولاده الزهراء عليها السّلام، رأى الانقباض في وجوه أصحابه

فقال على الفور: «ما لكم! ريحانه أشمها، و رزقها على الله عزّ و جل» (١).

و

في حديث أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: «نعم الولد البنات ملطفات، مجهزات، مؤنسات، مقلبات» (٢).

و

في حديث آخر: «من دخل السوق فاشترى تحفه فحملها إلى عياله كان كحامل الصدقه إلى قوم محاويج، و ليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإنّه من فرح ابنته

ص: ٢٢٢

١-١) - وسائل الشيعه، ج ١٥ ص ١٠٢.

٢-٢) - وسائل الشيعه، ج ١٥، ص ١٠٠.

فكأنما أعتق رقبه من ولد إسماعيل» (١).

فالإحترام الذى أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصيتها الضائعة بين حولك الجاهليه، وحررها من العادات الباليه، و أنهى عصر تحقيرها.

و إن كان غور هذا الموضوع يستلزم التفصيل فستنطرق إلى ذلك فى تفسيرنا للآيات المناسبه له، و لكنّ ما يحز فى النفوس و لا يمكن السكوت عنه ما يشاهد فى كثير من مجتمعاتنا الإسلاميه من آثار لنفس ذلك التوجه الجاهلى الموبوء، فإلى الآن نرى الكثير من العوائل تفرح و تسر عند ما يأتيها مولود ذكر، و تتأسف و تتأفف عند ما تكون المولوده بنتا! و على أقل التقادير ترجح ولاده الولد على البنت!.

من الممكن أن تكون الظروف الخاصه اقتصاديا و اجتماعيا، المرتبطه بوضع المرأة فى مجتمعاتنا، عاملا- على وجود عادات و حالات خاطئه، إلا- أنه ينبغى على المؤمنين المخلصين مكافحه هذا النمط من التفكير و اقتلاع جذوره الاجتماعيه و الاقتصاديه، فالإسلام لا يقبل من أتباعه بعد (١٤) قرن العود إلى أفكار الجاهليه المقيته.. فهذا السلوك فى واقعه نوع من الجاهليه الثانيه.

و لا- ينبغى أن تأخذنا التصورات السارحه فنرى عن بعد أن المرأة قد نالت مناها فى عالم الغرب و أنها تحظى من الاحترام و التحرر ما تحسد عليه! فالحياه العمليه فى الغرب تؤكد بما لا يقبل الشك أنّ المرأة هناك محترمه، و قد جعلت لعبه مبتدله و وسيله رخيصه لإشباع الشهوات أو وسيله إعلان للبضائع و المنتوجات (٢).

ص: ٢٢٣

١-١) -مكارم الأخلاق، ص ٥٤.

٢-٢) -و من جميل الصدف أن كتب هذا البحث فى اليوم العشرين من جمادى الثانيه سنه ١٤٠١، و هو يوم ولاده فاطمه الزهراء عليها السلام.

اشاره

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَّ عَلَيْهَا مِنْ ذَابِّهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّمٍ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسَيْنِي لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَرَثَتُهُمْ يَوْمَئِذٍ لَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

التفسير

اشاره

وسعت رحمته غضبه:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن جرائم المشركين البشعة في وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالي: لما ذا لم يعذب الله المذنبين بسرعته نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح و ظلم فجيح؟!

و الآيه الأولى (٦١) تجيب بالقول: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ (١).

«الدابة»: يراد بها كل كائن حي، ويمكن أن يراد بها هنا (الإنسان) خاصه بقريته (بظلمهم).

أى: إن الله لو يؤاخذ الناس على ما ارتكبوه من ظلم لما بقى إنسان على سطح البسيطة.

و يحتمل أيضا إرادته جميع الكائنات الحيه، لعلمنا بأن هذه الكائنات إنما خلقت و سخرت للإنسان كما يقول القرآن فى الآيه (٢٩) من سوره البقره: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، فعند ما يذهب الإنسان فسينتفى سبب وجود الكائنات الأخرى و ينقطع نسلها.

و هنا يواجهنا السؤال التالى: لو نظرنا إلى سعه مفهوم الآيه و عموميتها فإنها تدل فى النتيجة على أنه لا يوجد على الأرض إنسان غير ظالم، فالكل ظالم كل حسب قدره و شأنه، و لو نزل العذاب الفورى السريع و الحال هذه لما بقى إنسان على سطح الأرض... مع إننا نعلم أن هناك من لا يصدق عليه هذا المعنى، فالأنبياء و الأئمه المعصومون عليهم السلام خارجون عن شموليه هذا المعنى، بل فى كل زمان و مكان ثمة من تزيد حسناته على سيئاته من الصالحين المخلصين و المجاهدين ممن لا يستحقون العذاب المهلك أبدا..

و الجواب على ذلك أن الآيه تبين حكما نوعيا و ليس حكما عاما شاملا للجميع و نظير ذلك كثير فى الأدب العربى.

و من الشواهد على ذلك: الآيه (٣٢) من سوره فاطر حيث تقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنِ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ

ص: ٢٢٥

١ - ١) - إن ضمير «عليها» يعود إلى «الأرض» و إن لم يرد لها ذكر فى الآيات المتقدمه لوضوح الأمر، و نظائر ذلك كثيره فى لغه العرب.

فترى الآيه تتطرق إلى ثلاثه أقسام: ظالم، صاحب ذنوب خفيفه، و سابق بالخيرات.. و من المسلم به أنّ القسم الأول هو المقصود فى الآيه مورد البحث دون القسمين الآخرين، و لا عجب من تعميم الآيه، لأنّ هذا القسم يشكل القسم الأكبر من المجتمعات البشريه. و يتّضح من خلال ما ذكر أنّ الآيه لا تنفى عصمه الأنبياء، أمّا من يعتقد بخلاف ذلك فقد غفل عن القرائن الموجوده فى العبارة من جهه، و لم يلتفت إلى ما توحى إليه بقيه الآيات القرآنيه بهذا الخصوص.

و يضيف القرآن الكريم قائلاً: **وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** .

بل يدركهم الموت فى نفس اللحظه المقرره.

## بحث

## اشاره

## ما هو الأجل المسمى؟

للمفسرين بيانات كثيره بشأن المراد من «الأجل المسمى» و لكن بملاحظه سائر الآيات القرآنيه، و من جملة الآيه (٢) من سوره الأنعام، و الآيه (٣٤) من سوره الأعراف، يبدو أنّ المراد منه وقت حلول الموت، أى: إنّ الله عزّ و جلّ يمهل الناس إلى آخر عمرهم المقرر لهم إتماماً للحجه عليهم، و لعل من ظلم يعود إلى رشده و يصلح شأنه فيكون ذلك العود سبباً لرجوعه إلى بارئه الحق و إلى العداله.

و يصدر أمر الموت بمجرد انتهاء المهله المقرره، فيبدأ بعقابهم من بدايه اللحظات الأولى لما بعد الموت.

و لأجل المزيد من الإيضاح حول مسأله (الأجل المسمى) راجع ذيل الآيه

رقم (٢) من سورة الأنعام و كذا ذيل الآيه (٣٤) من سورة الأعراف.

و يعود القرآن الكريم لـيستنكر بدع المشركين و خرافاتهم فى الجاهليه (حول كراهيه المولود الأنثى و الاعتقاد بأن الملائكه إناثا، فيقول: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .

فهذا تناقض عجيب-و كما جاء فى الآيه (٢٢) من سورة النجم تَلْحَكُ إِذَا قَسِيْمَةٌ ضِيَّزِي ۚ فَإِن كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ تَعَالَى فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْبَنَاتُ أَمْرًا حَسَنًا، فلما ذا تكرهون ولادتها؟! و إن كانت شيئا سيئا فلما ذا تنسبونها إلى الله؟! و مع كل ذلك.. وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى .

فبأى عمل تنتظرون حسنى الثواب؟! أ بوأدكم بناتكم؟! أم بافترائكم على الله؟!..

و جاءت «الحسنى» (و هى مؤنث أحسن) هنا بمعنى أفضل الثواب أو أفضل العواقب، و ذلك ما يدعيه أولئك المغرورون الضالون لأنفسهم مع كل ما جاؤوا به من جرائم! و هنا يطرح السؤال التالى نفسه: كيف يقول عرب الجاهليه بذلك و هم لا يؤمنون بالمعاد؟ و الجواب: أنهم لم ينكروا المعاد مطلقا، و إنما كانوا ينكرون المعاد الجسمانى، و يستوعبون مسأله عوده الإنسان إلى حياته الماديه مزه أخرى.

إضافه إلى إمكان اعتبار قولهم قضيه شرطيه، أى: إن كان هناك معاد حقًا فسيكون لنا فى عالمه أفضل الجزاء! و هكذا هو تصور كثير من الجبابره و المنحرفين فبالرغم من بعدهم عن الله تعالى يعتبرون أنفسهم أقرب الناس إليه، و يتشدقون بادعاءه هزيله مدعاه للسخرية!

و احتمال بعض المفسرين أيضا أن «الحسنى» تعنى نعمه الأولاد الذكور، لأنهم يعتبرون البنات سوءا و شرًا، و البنين نعمه و حسنى.

إلا أن التفسير الأول يبدو أكثر صوابا، و لهذا يقول القرآن، و بلا فاصله:

□ لا جرم أن لهم النار □

،أى: أنهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبه فقط، بل و «لهم النار» و أنهم مُفْرَطُونَ أى: من المتقدمين فى دخول النار.

و المفراط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

و ربّما يراود البعض من الاستغراب عند سماعه لقصه عرب الجاهليه فى وأدهم للبنات، و يسأل: كيف يصدّق أن نسمع عن إنسان ما يدفن فلذه كبده بيده و هى على قيد الحياه؟!..

□ و كأن الآيه التاليه تجيب على ذلك: □ تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .

نعم، فللشيطان و ساوس يتمكن من خلالها أن يصور أقبح الأعمال و أشنعها جميله فى نظر البعض بحيث يعتبرها مجالا للتفاخر! كما كانوا يعتبرون وأد البنات شرفا و فخرا و حفظا لنا موسى و كرامه القبيله! ممّا يحدو ببعض المغفلين لأن يتفاخر بالقول: لقد دفنت ابنتى اليوم بيدي كى لا تقع غدا أسيره فى يد الأعداء! فإنّ كان الشيطان يزىّن أقبح الأعمال مثل وأد البنات بنظر بعض الناس بهذه الحال، فحال بقيه الأعمال معلوم.

و نرى فى يومنا الكثير من أعمال الناس التى سيطر عليها زخرف الشيطان، فراحوا ينعنون سرقاتهم و جرائمهم بعبارات تبدو مقبوله فيخفون حقيقتها فى طى زخرف القول.

ثم يضيف القرآن: إن مشركى اليوم على سنّه من سبقهم من الماضين من الذين زينوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشيطان فهو و ليهم اليوم ، يستفيدون ممّا يعطيهم إيّاه.

ولهذا.. وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

و للمفسرين بيانات كثيره فى تفسير فَهُوَ وَ لِيَهُمُ الْيَوْمَ و لعل أوضحها ما قلناه أعلاه، أى: إنها إشاره إلى أنّ المشركين فى عصر الجاهليه إنما هم على خطى الأمم المنحرفه السابقه، و الشيطان رائد مسيرتهم و الموجه لهم كما كان للماضين (1).

و يحتمل تفسيرها أيضا بأن المقصود من فَهُوَ وَ لِيَهُمُ الْيَوْمَ أنه لا- تزال بقايا الأمم المنحرفه السابقه موجوده إلى اليوم، و لا زالوا يعملون بطريقتهم المنحرفه، و الشيطان وليهم كما كان سابقا.

و تبين آخر آيه من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، و لتؤكد حقيقه:

أَنَّ الْأَقْوَامَ وَ الْأُمَمَ لَوْ اتَّبَعَتِ الْأَنْبِيَاءَ وَ تَخَلَّتْ عَنْ أَهْوَائِهَا وَ رَغْبَاتِهَا الشَّخْصِيَّةِ لَمَا بَقِيَ أَثَرٌ لِأَيِّ خِرَافَةٍ وَ انْحِرَافٍ، وَ لَزَالَتْ تَنَاقُضَاتِ الْأَعْمَالِ، فَتَقُولُ: وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ليخرج وساوس الشيطان من قلوبهم، و يزيل حجاب النفس الأماره بالسوء عن الحقائق لتظهر ناصعه براقه، و يفضح الجنايات و الجرائم المختفيه تحت زخرف القول، و يمحو أى أثر للاختلافات الناشئه من الأهواء، فيقضى على القساوه بنشر نور الرحمه و الهدايه ليعم الجميع فى كل مكان.

ص: ٢٢٩

١- ١) - و لكن لازم هذا التفسير وجود اختلاف فى ضمير أَعْمَالَهُمْ و ضمير وَ لِيَهُمُ، فالأول يعود إلى الأمم السالفه، و الثانى إلى المشركين فى صدر الإسلام. و يمكن حل هذا المشكل بتقدير جمله، و هى ان تقول: هؤلاء يتبعون الأمم الماضيه. (فتأمل).



إشاره

وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَوْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسِينًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

التفسير

إشاره

المياه، الثمار، الأنعام:

مره أخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم و العطايا الإلهيه الكثيره، تأكيداً لمسأله التوحيد و معرفه الله، و إشاره إلى مسأله المعاد، و تحريكا لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، و من خلال هذا التوجيه الرباني تتضح علاقته الربط بين هذه الآيات و ما سبقها من آيات.

فالآيه الأخيره من الآيات السابقه تناولت مسأله نزول القرآن و ما فيه من حياه لروح الإنسان، و بنفس السياق تأتي الآيه الأولى من الآيات مورد البحث لتتناول نزول الأمطار و ما فيها من حياه لجسم الإنسان: وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْلَبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

لقد تناولت آيات قرآنيه كثيره مسأله إحياء الأرض بواسطة نزول الأمطار من السماء، فكم من أرض يابسه أو ميتة أحيانا أو أصابها الجفاف فأخرجها عن مجال الاستفادة من قبل الإنسان، و نتيجة لما وصلت إليه من وضع قد يخيل للإنسان أنها أرض غير منبته أصلا، و لا- يصدق بأنها ستكون أرض معطاء مستقبلا -و لكن، بتوالى سقوط المطر عليها و ما يثبت عليها من أشعه الشمس، ترى و كأنها ميت قد تحرك حينما تدب فيه الروح من جديد، فتسرى في عروقها دماء المطر و تعادلها الحياه، فتعمل بحيويه و نشاط و تقدم أنواع الورد و النباتات، و من ثم تتجه إليها الحشرات و الطيور و أنواع الحيوانات الأخرى من كل جانب، و بذلك... تبدأ عجله الحياه على ظهرها بالدوران من جديد.

و خلاصه المقال أنه سيقى الإنسان مبهورا أمام تحول الأرض الميتة إلى مسرح جديد للحياه، و هذا بحق من أعظم عجائب الخلقه.

و هذا المظهر من مظاهر قدره و عظمه الخالق عزّ و جلّ يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد، و ما ارتداء الأموات لباس الحياه الجديد إلا أمر خاضع لقدرته سبحانه.

و إنّ نعمه الأمطار (التي لا يتحمل الإنسان أى قسط من أمر إيجادها) دليل آخر على قدره و عظمه الخالق سبحانه.

و بعد ذكر نعمه الماء (الذى يعتبر الخطوه الأولى على طريق الحياه) يشير القرآن الكريم إلى نعمه وجود الأنعام، و بخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كماده غذائيه كثيره الفائده، فيقول: **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً .**

و أیه عبره أكثر من أن: **نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ .**

«الفرث» لغه: بمعنى الأغذيه المهضومه فى المعده و التى بمجرّد وصولها إلى

الأمعاء تزود البدن بمادتها الحيائية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج..فما يهضم من غذاء داخل المعده يسمّى «فرثاً» و ما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

و نعلم بأنّ جدار المعده لا يمتص إلا مقداراً قليلاً من الغذاء (كـبعض المواد السكرية) و القسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كي يمتص الدم ما يحتاجه منه.

و كما نعلم أيضاً بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصّه داخل ثدى الإناث، و مادته الأصليه تؤخذ من الدم و الغدد الدهنيه.

فهذه ماده الناصعه البياض ذات القوّه الغذائيه العاليه تنتج من الأغذيه المهضومه المخلوطه بالفضلات، و من الدم.

و العجب يمكن فى استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوثه! و بعد حديثه عن الأنعام و ألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتيه، فيقول:

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

«السكر» لغه، له معانى مختلفه، إلا أنّه هنا بمعنى: المسكرات و المشروبات الكحوليه (و هو المعنى المشهور من تلك المعانى).

و ممّا لا يقبل الشك أنّ القرآن لا يجيز فى هذه الآيه صنع المسكرات من التمر و العنب أبداً، و إنّما جاء ذكر المسكرات هنا لمقابلته ب رِزْقًا حَسَنًا و كإشاره صغير لتحريم الخمر و نبذه. و على هذا.. فلا حاجه للقول بأنّ هذه الآيه نزلت قبل تحريم الخمر أو أنّها تشير إلى تحليله، بل حقيقه التعبير القرآنى يشير إلى التحريم، و لعل الآيه كانت تمثل الإنذار الأوّل للتحريم.

و قد تبدو العبارة و كأنّها جملة اعتراضيه بين قوسين داخل الآيه القرآنيه.

## ١- كيف يتكوّن اللبن؟

يقول القرآن الكريم في ذلك كما في الآيات أعلاه: إنه يخرج من بين «فرث»-الأغذية المهضومه داخل المعده-«دم».

وقد أثبت ذلك فيزيولوجيا: حيث أنه عند ما يتم هضم الغذاء داخل المعده و يكون جاهزا للامتصاص ينتشر داخل المعده و الأمعاء بشكل واسع و أمام الملايين من العروق الشعيريه،فتمتص منه العناصر المفيده المطلوبه لتوصلها إلى تلك الشجره ذات الجذور التي تنتهي عروقها عند عروق الثدي.

عند ما تتناول المرأة الحامل الغذاء تنتقل عصارته إلى الدم الذى يجرى فى عروقها حتى يصل نهايه العروق المجاوره لعروق الجنين ليتغذى الجنين بهذه الطريقه ما دام فى بطن أمه،و عند ما ينفصل عن أمه يتحول طريق تغذيته إلى الثدي..و هنا لا تستطيع الأم أن تصل دمها إلى دم ولدها،و لذلك ينبغى تصفيه الغذاء و تغيير حالته بما ينسجم و الوضع الجديد للطفل،و هنا...يتكون اللبن من بين فرث و دم،أى:من بين ما تتناوله الأم الذى يتحول إلى فرث و ما ينتقل من مواده إلى الدم ليتكون منه اللبن.

فاللبن فى حقيقه..شئ وسط بين الفرث و الدم،فلا هو دم مصفى و لا هو غذاء مهضوم،و هو أعلى من الثانى و دون الأول! علما بأن الثدي يستفيد من الحوامض الأمينيّه المخزونه فى البدن فقط فى صناعه المواد البروتينيه للبن.

و ثمه مكونات أخرى للبن لا توجد فى الدم و إنما تنتجها غدد خاصه فى الثدي(الكازوئين).

و البعض الآخر من المكونات يأتى من ترشح بلازما الدم مباشره:و يدخل فى تكوين اللبن من دون أى تغيير(كالفيتامينات و ملح الطعام و الفوسفات).

أما سكر اللاكتوز الموجود في اللبن فيؤخذ من السكر الموجود في الدم بعد أن تجرى عليه الغدد الخاصه في الثدي التغييرات اللازمه لتحويله إلى نوع جديد من السكر.

و مع أنّ إنتاج اللبن يكون عن طريق جذب المواد الغذائيه بواسطه الدم،و من خلال الارتباط المباشر بين الدم و غدد الثدي،إلا أنّنا لا نلاحظ أيّ أثر لرائحه الفرث أو لون الدم فيه،بل يبدأ اللبن بالترشح من ثدى الأم بلون جديد و رائحه خاصه به.

و من لطيف ما ينقل عن العلماء المتخصصين أنّ إنتاج لتر واحد من اللبن في الثدي يحتاج بما لا يقل عن عبور(٥٠٠)لتر من الدم خلال الثدي ليستطيع من امتصاص المواد اللازمه لإنتاج اللبن،كما يلزم لإنتاج لتر واحد من الدم عبور مواد غذائيه كثيره من الأمعاء...و بهذا يتّضح لنا معنى مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ كاملا (١).

## ٢- أهم ما في اللبن من مواد غذائيه

اللبن مليء بالمواد الغذائيه المختلفه التي تشكل مع بعضها مجموعه غذائيه كامله.

فالمواد المعدنيه في اللبن،عباره عن:الصوديوم،البوتاسيوم،الكالسيوم،المغنيسيوم،النحاس،قليل من الحديد بالإضافة إلى الفسفور و الكلور و غيرها.

و يوجد في اللبن كذلك غاز الأوكسجين و حامض الكاربونيك.

أما المواد السكريه فموجوده بكميه كافيه على شكل (لاكتوز).

و الفيتامينات المحلوله في اللبن عباره عن:فيتامين ب،ب،آ،د.

ص: ٢٣٤

وقد أثبت العلم الحديث أنّ الحيوان الذى يتغذى بشكل جيد يكون لبنه حاويا لكافه أنواع الفيتامينات، و أصبح بديهيا أنّ اللبن الطازج يعتبر غذاء كاملا.

و لا يمكن لنا تفصيل ذلك فى هذا البحث المختصر.

و لعل ما

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم من قوله: «ليس يجزى مكان الطعام و الشراب إلا اللبن» إشاره لهذا السبب.

و نقرأ فى روايات أخرى عن اللبن أنّه يزيد فى عقل الإنسان، و يحد النظر، و يرفع النسيان، و يقوى القلب و الظهر (كما أصبح معلوما أنّ هذه الآثار لها ارتباط وثيق بما فى اللبن من مواد حياتيه) (١).

### ٣- اللبن.. غذاء خالص و سهل الهضم

لقد أكدت الآيات أعلاه على ميزتين مهمتين للبن - كونه «خالصا»، و «سائغا» أى لذيذا و سريع الهضم - و كما هو المعروف عن اللبن من كونه غذاء كثير الفائدة على الرغم من قلّه حجمه. و «خالص» أى خال من المواد الزائده و بذات الوقت فهو سهل الهضم بالشكل الذى جعل ملائما لأى إنسان و على مختلف الأعمار - منذ الطفوله حتى الشيخوخه - و لهذا يعتمده المرضى كغذاء ملائم و مفيد و مقبول، و بالخصوص ما له من أثر فعال بالنسبه لنمو العظام، و لهذا يوصى بالإكثار من تناوله فى حالات كسور العظام و ما شابهها.

و من جمله معانى الخلوص هو (الربط)، و لعل البعض اعتمد على هذا المعنى فيما جاء فى التعبير القرآنى «خالصا»، و اعتبارهم من كون «خالصا» إشاره إلى تأثير اللبن الخالص فى بناء و ربط العظام.

و كذا نجد فى الأحكام الإسلاميه الوارده حول الرضاعه ما يشير إلى هذا

ص: ٢٣٥

---

(١-١) -لزياده التفصيل، يراجع كتاب أول جامعه و آخر نبى -الجزء السادس.

المعنى بوضوح.

و يقول الفقهاء: إنَّ الطفل لو رضع من غير أمّه حتى اشتدت عظامه و زاد لحمه فإنَّ مرضعته ستحرم عليه (و ما يتبع ذلك في من يعود إليه النسب).

و يقولون أيضا: إن (١٥) رضاعه متواليه، أو رضاعه يوم و ليله متصله، يؤدي إلى هذه الحرمة أيضا.

و لو جمعنا القولين، ألا- ينتج أن التغذية باللبن يوم و ليله لها أثر في تقوية العظام و زياده اللحم؟! و ينبغي الالتفات إلى أن التوجيهات الإسلاميه أكّدت كثيرا على لبن «اللباء» هو أو ما ينزل من اللبن بعد الولاده، حتى لتقول بعض كتب الفقه إنَّ حياه الطفل مرهونه به، و لهذا اعتبر إعطاء الطفل من حليب اللباء واجبا (١).

و لعل ما في الآيه (٧) من سوره القصص حول موسى عليه السّلام يتعلق بهذا الموضوع أيضا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أُمَّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .

ص: ٢٣٦

---

١-١) -شرح اللمعه، كتاب النكاح، أحكام الأولاد و منها الرضاع.

اشاره

وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّجِدِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

التفسير

اشاره

وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ

!

انتقل الأسلوب القرآني بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهيه المختلفه و بيان أسرار الخليقه إلى الحديث عن «النحل» و ما يدره من منتوج (العسل) و رمز إلى ذلك الإلهام الخفي بالوحي الإلهي إلى النحل: أَنْ اتَّجِدِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ .

و في الآيه المباركه جمله تعبيرات تستدعي التوقف و الدقه:

١- ما هو «الوحي»

«الوحي» في الأصل (كما يقول الراغب في مفرداته) بمعنى الإشاره السريعه،



ثم بمعنى الإلقاء الخفى.

وقد جاءت كلمه «الوحي» فى القرآن الكريم لترمز إلى عدّه أشياء، ولكنّها بالنتيجه تعود لذلك المعنى، منها:

وحي النبوه: حيث نلاحظ وروده فى القرآن بهذا المعنى كثيرا. كما فى الآيه (٥١) من سوره الشورى: **وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...**

ومنها: الوحي بمعنى «الإلهام» سواء كان الملهم منتبها لذلك (كما فى الإنسان وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ (١))، أو مع عدم انتباه الملهم كالإلهام الغريزى (كما فى النحل) وهو ما ورد فى الآيه مورد البحث.

و من المعروف أنّ الوحي فى هذا المورد يعنى الأمر الغريزى و الباعث الباطنى الذى أودعه الله فى الكائنات الحيّه.

ومنها: أنّ الوحي بمعنى الإشاره، كما ورد فى قصّه زكريا فى الآيه (١١) من سوره مريم فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

ومنها أيضا: إيصال الرساله بشكل خفى، كما فى الآيه (١١٢) من سوره الأنعام يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا.

## ٢- هل يختص الإلهام الغريزى بالنحل؟

و إذا كان وجود الغرائز (الإلهام الغريزى) غير منحصر بالنحل دون جميع الحيوانات، فلما ذا ورد ذكره فى الآيه فى النحل خاصّه؟ و الإجابة على السؤال تتضح من خلال المقدمه التاليه: إنّ الدراسه الدقيقه التى قام بها العلماء بخصوص حياه النحل، قد أثبتت أنّ هذه الحشره العجيبه لها من التمدن و الحياه الاجتماعيه المدهشه ما يشبه لحد كبير الجانب التمدنى عند

ص: ٢٣٨

الإنسان و حياته الاجتماعيه، من عدّه جهات.

و قد توصل العلماء اليوم لاكتشاف الكثير من أسرار حياه هذه الحشره و التي أوصلتهم بقناعه تامه إلى توحيد الخالق و الإذعان لربوبيته سبحانه و تعالى.

و أشار القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز بكلمه «الوحي» ليبيّن أنّ حياه النحل لا تقاس بحياه الأنعام، و ليدفعنا للتعمق فى عالم أسرار هذه الحشره العجيبه، و لتعرف من خلالها على عظمه و قدره خالقها، و لعل «الوحي» هو التعبير الرمزي الذى اختصت به هذه الآيه نسبة إلى الآيات السابقه.

### ٣- المهمّه الأولى فى حياه النحل:

و أوّل مهمّه أمر بها النحل فى هذه الآيه هى: بناء البيت، و لعل ذلك إشاره إلى أن اتّخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأوّل للحياه، و من ثم القيام ببقية الفعاليات، أو لعله إشاره إلى ما فى بيوت النحل من دقه و متانه، حيث أن بناء البيوت الشمعيه و السداسيه الأضلاع، و التي كانت منذ ملايين السنين و فى أماكن متعدده و مختلفه، قد يكون أعجب حتى من عمليه صنع العسل (١).

فكيف تضع هذه ماده الشمعيه الخاصه؟ و كيف تبني الخلايا السداسيه بتلك الهندسه الدقيقه؟ و بيوت النحل ذات هيئه و أبعاد محسوبه بدقه فائقه و ذات زوايا متساويه تماما، و مواصفاتها تخلو من أيه زياده أو نقصان..

فقد اقتضت الحكمة الربانيه من جعل بيوت النحل فى أفضل صورته و أحسن اختيار و أحكم طبيعه، و سبحان الله خالق كل شىء.

ص: ٢٣٩

١- ١) - عرف لحد الآن (٤٥٠٠) نوعا من النحل الوحشى، و العجيب أنّها فى حال واحده من حيث: الهجره، بناء الخلايا، المكان، تناول رحيق الأزهار، أوّل جامعته، الجزء الخامس.

## ٤- ابن مكان النحل:

و قد عيّنت الآيه المباركه مكان بناء الخلايا فى الجبال، و بين الصخور و انعطافاتها المناسبه، و بين أغصان الأشجار، و أحيانا فى البيوت التى يصنعها لها الإنسان.

و يستفاد من تعبير الآيه أن خلايا النحل يجب أن تكون فى نقطه مرتفعه من الجبل أو الشجره أو البيوت الصناعيه ليستفاد منها بشكل أحسن.

و يذكر القرآن الكريم فى الآيه التاليه المهمه الثانيه للنحل: **ثُمَّ كَلَىٰ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْأَلُكُم بِسُبُلِ رَبِّكُمْ ذُلًّا**.

«الذلل»: (جمع ذلول) بمعنى التسليم و الانقياد.

و وصف الطرق بالذلل لأنها قد عينت بدقه لتكون مسلمه و منقاده للنحل فى تنقله، و سنشير إلى كيفيه ذلك قريبا.

و أخيرا يعرض القرآن المهمه الأخيره للنحل (كنتيجته لما قامت به من مهام سابقه): **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** فى طبيعه حياتها و ما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء)، و هو دليل على عظمه و قدره البارى عزّ و جلّ.

## بحوث

## إشاره

و فى الآيه جمله بحوث قيمه أخرى:

## ١- مم يتكون العسل؟

يمتص النحل بعض المواد السكريه الخاصه الموجوده فى مياسم الأوراد، و يقول خبراء النحل: إن عمل النحل فى واقعه لا ينحصر بأخذ ماده السكريه فقط، بل يتعدى ذلك فى بعض الأحيان للاستفاده من بعض أجزاء الورود

الأخرى، وكذا الحال مع الأثمار، وهو ما يشير إليه القرآن بقوله: مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .

و قد نقل قول عالم البيئه (مترلينك) بما يوضح التعبير القرآنى بشكل أوضح:

(لو قَدَّر أن تبنى أنواع النحل-الوحشى و الأهلى-فإنّ مائه ألف نوع من النباتات و الثمار و الأوراد ستبنى، أى أنّ تمدننا سيفنى أيضا) (١). ذلك لأنّ دور النحل فى نقل حبوب اللقاح من ذكر الأشجار إلى مياسم إنائها من الأهميه بحيث يجعل بعض العلماء يعتقدون أن ذلك أهم من إنتاج العسل نفسه.

و الحقيقه أنّ ما يتناوله النحل من أنواع الثمار إنّما هو بالقوّه لا بالفعل، و لهذا فهو يساهم فى عمليه تكوينها، فما أشمل و أدق التعبير القرآنى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ !

## ٢- السبل المذلّه!

لقد توصل العلماء المتخصصون بدراسه حياه النحل إلى ما يلى: تخرج فى كل صباح مجموعه من النحل لمعرفه أماكن وجود الأوراد و تعيينها، ثمّ تعود إلى الخليه لتخبر بقيه النحل عن أماكن الورود و الجهات التى ينبغى التوجه إليها، و مقدار الفاصله بين الورود و الخليه.

و يستعمل النحل أحيانا لأجل تعيين طرق وصوله إلى الأوراد علامات خاصّه كأن يشخص طبيعه الروائح المنتشره على طول الطريق أو ما شابه ذلك، و ذلك لضمان عدم إضاعه الطريق ذهابا و إيابا.

و لعل عبارته فأسلّكى سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا إشاره لهذه الحركه.

ص: ٢٤١

### ٣- أين يصنع العسل؟

ربّما، إلى الآن يوجد من يتصور بأنّ النحل يمتص رحيق الأوراد و يجمعه في فمه ثمّ يخزّنه في الخلية، وهذا خلاف الواقع، فالنحلة تجمع الرحيق في حفر خاصّه داخل بدنّها يطلق عليها علميا اسم (الحوصلة) و هي بمثابة معامل مختبرات كيميائيه خاصّه تقوم بعمليات تحويل و تغيير مختلفه لرحيق الأزهار، حتى يصل إلى إنتاج العسل، الذي تقوم النحلة بإخراجه و جمعه في الخلية.

و المدهش أن سوره النحل مكّيه، و كما هو معلوم بأنّ مكّه منطقه جافه ليس فيها نحل لعدم توفر النباتات و الأوراد التي يحتاجها و مع ذلك فالقرآن الكريم يتحدّث بكل دقه عن النحل و يشير إلى أدق أعماله (إنتاج العسل): **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**.

### ٤- ألوان العسل المختلفه

تتفاوت ألوان العسل وفقا لتنوع الأوراد التي يؤخذ رحيقها منها.. فيبدو أحيانا بلون اللبن القاتم، و أحيانا أخرى يكون أصفر اللون، أو أبيض فضي، أو ليس له لون، و تاره تراه شفافا، و تاره أخرى ذهبى أو تمرى و قد تراه مائلا إلى السواد! و لهذا التفاوت في اللون حكمه بالغه قد تبينّت أخيرا مفادها: إنّ للون الغذاء أثر بالغ في تحريك رغبه الإنسان إليه.

و هذه الحقيقه ما كانت خافيه على القدماء أيضا، فكانوا يعتنون بإظهار لون الغذاء المشهى لدرجه كانوا يضيفون إليه بعض المواد تحصيلًا لما يريدون كإضافه الزعفران و ما شابهه.

و لهذا الموضوع بحوث مفصله في كتب التغذية لا يسمح لنا المجال بعرضها كامله خوفا من الابتعاد عن مجال التفسير.

## ٥-العسل..و الشفاء من الأمراض:

كما نعلم بأنّ للنباتات و الأوراد استعمالات علاجيه فعاله لكثير من الأمراض،و لا زلنا نجهل الكثير من فوائدها على الرغم من كثره ما عرفناه، و الشيء المهم فى موضوعنا ما توصل إليه العلماء من خلال تجاربهم التى أكدّت على أنّ للنحل من المهاره بحيث أنّه فى علميه صنعه للعسل لم يبذر فيما تحويه النباتات و الأوراد من خواص علاجيه،فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل و يجعلها فى العسل! و قد صرّح العلماء بكثير من تلك الخواص الوقائيه و العلاجيه و المقويه.

فالعسل:سريع الامتصاص من قبل الدم،و لهذا فهو غذاء مقوّ و مؤثر جدّا فى تكوين الدم.

و العسل:ينقى المعده و الأمعاء من العفونه.

و العسل:رافع لليبوسه.

و هو علاج ضد الأرق(على أن لا يتناول الكثير منه،لأن الإكثار منه يقلل النوم).

و للعسل:رافع لليبوسه.

و هو علاج ضد الأرق(على أن لا يتناول الكثير منه،لأن الإكثار منه يقلل النوم).

و للعسل:أثر مهم فى رفع التعب و تشنج العضلات.

و العسل:يقوى الشبكيه العصبيه للأطفال(إذا ما أطعمت الأم أثناء الحمل).

و يرفع نسبه الكالسيوم فى الدم.

و نافع لتقويه الجهاز الهضمى(و بالخصوص لمن أبتلى بنفخ البطن).

و بما أنّه سريع الاحتراق فهو يعمل على توليد الطاقه بسرعه فائقه بالإضافة لترميمه للقوى.

و العسل أيضا:مقوّ للقلب،مساعد فى علاج أمراض الرئه،نافع للإسهال لخاصيته فى قتل المكروبات.

و يعتبر العسل عاملا مهما من عوامل معالجه قرحة المعده و الاثنى عشرى.

و هو دواء نافع لعلاج الروماتيزم، و نقصان قوّه نمو العضلات، و رفع الآلام العصبية.

و بالإضافة إلى ذلك فهو نافع في رفع السعال و عامل مهم لتصفيه الصوت.

و الخلاصه: إنّ خواص العسل العلاجية أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر.

و مع ذلك كله فإنّه يدخل في صناعه الأدوية لتلطيف الجلد و للتجميل، و يستعمل لطول العمر، و لعلاج و رم الفم و اللسان و العين، و يستعمل أيضا لمعالجة الإرهاق، و تشقق الجلد، و ما شابه ذلك.

أمّا المواد و الفيتامينات الموجودة في العسل فكثيره جدّا. و فيه من المواد المعدنية: الحديد، الفسفور، البوتاسيوم، اليود، المغنيسيوم، الرصاص، النحاس، السلفور، النيكل، الصوديوم و غيرها.

و من المواد الآليه فيه: الصمغ، حامض اللاكتيك، حامض الفورميك، حامض الستريك و التاتاريك و الدهون العطرية.

أمّا ما يحويه من الفيتامينات، ففيه، فيتامينات (أ، ب، ث، د، ك) (A, B, C, D, K).

و يعتقد البعض باحتوائه على فيتامين (ب) (PB) أيضا.

و أخيرا: فالعسل علاج لصحة و جمال الإنسان.

و صرحت الروايات كذلك بخواص العسل العلاجية، و

ورد الكثير عن أمير المؤمنين عليه السلام و الإمام الصادق عليه السلام و بعض الأئمّه المعصومين عليهم السلام من أنّهم قالوا: «ما استشفى الناس بمثل العسل» (١).

و

بروايه أخرى: «لم يستشف مريض بمثل شربه عسل» (٢).

و

روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «من شرب العسل في كل شهر مرّه يريد ما

ص: ٢٤٤

١-١) - وسائل الشيعه، ج ١٧، ص ٧٣، إلى ٧٥.

٢-٢) - المصدر السابق.

جاء به القرآن، عوفى من سبعة و سبعين داء» (١).

و ثمّة أحاديث أخرى حول أهمية العسل فى علاج آلام البطن.

و نذكر أنّ لكل حكم عام أو قاعده كليّه استثناء، و لهذا فقد ورد النهى عن تناول العسل فى بعض الحالات النادره.

## ٦- للنّاس :

و ممّا يجذب النظر أنّ خبراء النحل يرون كفايه امتصاص وردتين أو ثلاث لسد جوع النحلة، إلاّ أنّها تحط على (٢٥٠) ورده فى كل ساعه (كمعدل) و لأجل ذلك تقطع مسافه كيلومترات، و على الرغم من قصر عمر النحلة، إلاّ أنّها تنتج كميه لا بأس بها من العسل، و قد لا يصدق كثره ما تنتجه قياسا لما تعيشه من عمر، و لكنّ ما تقوم به من مثابره و عمل دؤوب لا يعرف الكلل و الملل قد هيأها لأن تقوم بهذا العمل الكبير العجيب.

و كل ذلك السعى و تلك المثابره ليس فى واقعه لملء بطنها بقدر ما عبّر عنه القرآن الكريم ب للنّاس .

## ٧- ملاحظات مهمّه بخصوص العسل :

أثبت العلم الحديث أنّ العسل من المواد الغذائية التى تبقى على الدوام طازجه و سالمه و محافظه على كل ما تحويه فى فيتامينات مهما طالت المدّه لأنّه من المواد غير القابله للفساد.

و يعزو العلماء سبب ذلك لوجود نسبة البوتاسيوم الوافيه فيه المانع من نمو الجراثيم، بالإضافة لاحتوائه على بعض المواد المقاومه للعفونه كحامض الفورميك فمضافا لكون العسل مانع من نمو الجراثيم، فهو قاتل لها أيضا و لهذا السبب فقد استعمله المصريون القدماء فى عمليه التحنيط.

ص: ٢٤٥



و يقول العلماء: لا ينبغي حفظ العسل فى أوانى فلزيه.

و يقول القرآن فى هذا الجانب: ... مِنَ الْجِبَالِ يُّوتَأُ وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ، أى: إنّ بيوت النحل لا ينبغي أن تكون إلا بين الأحجار و الأخشاب.

و ملاحظه مهمه أخرى: للاستفاده من خواصه الصّحيحة و العلاجيه ينبغي عدم تعريضه لحراره الطبخ. يعتقد البعض أنّ تعبير القرآن بكلمه «شراب» إشاره لهذه المسأله، فهو من المشروبات و ليس من المأكولات كى يعرض لحراره الطبخ.

و ثمة ملاحظه أخرى: على الرغم ممّا تسببه لسعه النحل من الألم، إلا أن لهذا أثر علاجى أيضا، و مع ذلك و نتيجة لطبع النحل اللطيف فإنّه لا يلسع أحدا بلا سبب، بل نحن ندفعه إلى ذلك و نضطره ليلسنا عن علم أو جهل.

و من الأسباب التى تدفع النحل لللسع الإنسان: عدم ارتياحه للروائح الكريهه، و عند ما يقترب الإنسان من الخليه لجنى نتاج النحل فهى لا تلسعه إلا إذا كانت يده ملوّثه أو أن فى لباسه رائحه كريهه، أو عند ما يمدّ الإنسان يده إلى خليه ما و بدون أن يغسل يده يمدّها إلى خليه أخرى، فإن نحل الثّانيه ستسرع فى لسعه لأنّه قد نقل إليها رائحه خليه أجنبيه! و على الرغم من أنّ اللسع يحمل أهدافا دفاعيه، إلا أنّه بالنسبه للنحل يعنى الانتحار لأنّه بمجرد أن تقوم النحلّه باللسع فإنّها قد كتبت على نفسها مصير الموت! و قد وضع العلماء المتخصصون برنامجا معينا لمعالجه الأمراض كالروماتيزم و المالاريا و الآلام العصبية و غيرها عن طريق لسعات النحل، و إلا فإنّ لسع النحل قد يؤدى إلى آلام مؤذيه تصل فى بعض حالاتها إلى مخاطر كبيره.

و قد يتحمل الإنسان لسعه أو عدّه لسعات، و لكنّ الأمر حينما يصل إلى (٢٠٠ - ٣٠٠) لسعه فإنّ ذلك سيؤدى إلى التسمم و اضطرابات فى القلب، و إذا ما وصل العدد إلى (٥٠٠) لسعه فسوف يؤدى إلى شلل الجهاز التنفسى، و ربّما يؤدى إلى الموت.

كان القدماء يعرفون القدر اليسير عن حياة النحل، أما اليوم و نتيجة لدراسات العلماء الواسعة فقد تبين أن للنحل حياة منظمه جدًا و يتخللها: تقسيم أعمال، توزيع مسؤوليات و برنامج عمل دقيق جدًا.

و مدينه النحل: أكثر المدن نظافه، و أكثرها نظاما، كلّها عمل.. إنّها مدينه على خلاف كل مدن البشر، فليس فيها بطاله و لا فقر، و الكل يعيش حياه تمدن جميل...

و كل أفراد المدينه يخضعون لقوانينها و لا ترى مخالفا للضوابط القانونيه و لا مقصرا في عمله إلا ما ندر، و إذا ما حدث ذلك كأن تذهب إحدى النحلات إلى ورده كريهه الرائحه و تمتص رحيقها، فإنّها ستخضع للتفتيش عند أعتاب المدينه ثم تحاكم في محكمه صحراويه، و الإعدام بالموت هو المعروف عن ارتكاب مثل هذه الأخطاء! يقول (مترلينك) عالم البيئه البلجيكي الذي أجرى العديد من الدراسات حول حياه النحل و النظام العجيب الذي يحكم مدينها: إنّ ملكه النحل (أو على الأصح أم الخليه) لا تعيش في مدينتها، كما نتصور من سلطتها و إصدارها الأوامر، بل هي كسائر أفراد هذه المدينه في إطاعتها للقواعد و الأنظمه الكليه السائده إنّنا لا- نعلم كيف وضعت هذه القوانين و الأنظمه، و ننتظر أن نفهم هذا الأمر يوما ما، و نعرف واضح هذه المقررات، إلا أنّنا نسميه مؤقتا (روح الخليه)!! إنّ الملكه تطيع روح الخليه شأنها شأن بقية الأفراد.

إنّنا لا نعلم أين توجد روح هذه الخليه؟ و في أي فرد من سكنه مدينه النحل قد حلت؟ إلا أنّنا نعلم أن روح الخليه ليست شبيهه بغريزه الطيور، و نعلم أيضا أنّ روح الخليه ليست عاده و إراده عمياء تحكم عنصر و نوع النحل، إنّ روح الخليه تقوم بتحديد وظيفه كل فرد من أفراد الخليه وفق استعداده، و توجه كل واحد منها نحو عمل معين.

إنَّ روح الخلية تأمر النحل المهندس و البناء و العامل ببناء البيوت، و هى التى تأمر سكنه المدينه جميعا بالهجره منها فى يوم معين و ساعه معينه، و تتجه نحو حوادث و مشاق غير معلومه من أجل تحصيل مسكن و مأوى جديد! إننا لا نستطيع أن نفهم فى أى مجمع شورى قد طرحت قوانين مدينه النحل التى وضعتها روح الخليه و اتخذ قرارها بتنفيذها، من يصدر الأمر بالحركه فى اليوم المعين؟ نعم، إنَّ فى الخليه مقدمات هجره من أجل إطاعه الإله الذى بيده مصير النحل (١).

إنَّ العالم المذكور قد واجه الإبهام فى فهم هذه المسأله، لما علقت فى ذهنه من ترسبات الفكر المادى! و لكننا نفهم بيسر من أين جاءت تلك القوانين و البرامج؟ و من الأمر بها؟ و ذلك من خلال الاستهداء بنور القرآن.

ما أجمل ما عبّر عنه القرآن حين قوله: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ! أَوْ هَلْ ثَمَّةَ تَعْبِيرٍ أَوْسَعُ وَأَشْمَلُ وَأَنْطَقُ مِنْ هَذَا؟! لَمْ نَذْكُرْ فِيمَا قَلَنَاهُ عَنِ النَّحْلِ إِلَّا النَّزْرَ الْيَسِيرَ لِأَنَّ مِنْهُجَ التَّفْسِيرِ لَا يَسْمَعُ لَذَا بِمَوَاصِلِهِ هَذَا الْمَوْضُوعَ (٢).**

و نظن كفايه هذا القدر للمتفكر السائر نحو معرفه عظمه الله: **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.**

ص: ٢٤٨

١- ١) -تلخيص من كتاب (النحل)، تأليف مترلينك.

٢- ٢) -اعتمدنا فى بحثنا عن النحل و خواص العسل على جملة كتب منها: أوّل جامعه و آخر نبى، و النحل، تأليف مترلينك، و عجائب عالم الحيوانات.

اشاره

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنِينَ وَخَصَمَدًا وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِمَّتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

التفسير

اشاره

سبب اختلاف الأزواج:

بيّنت الآيات السابقة قسما من النعم الإلهية المَجْعُوله في عالمي النبات و الحيوان، لتكون دليلا حسييا لمعرفة جل شأنه، و تواصل هذه الآيات مسأله إثبات الخالق جل و علا بأسلوب آخر، و ذلك بأن تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، و ذلك كاشف بقليل من الدقه و التأمل على وجود المقدر لذلك.

فبيدأ القول ب وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ .

فمنه الممات كما كانت الحياه منه، و لتعلموا بأنكم لستم خالقين لأى من الطرفين (الحياه و الموت).

و مقدار عمركم ليس باختياركم أيضا، فمنكم من يموت فى شبابه أو فى كهولته وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ (١).

و نتيجة هذا العمر الموغل فى سنى الحياه لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا (٢).

فيكون كما كان فى مرحله الطفوله من الغفله و النسيان و عدم الفهم.. نعم ف إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ فكل القدرات بيده جل و علا، و عطاؤه بما يوافق الحكمه و المصلحه، و كذا أخذه لا يكون إلا عند ما يلزم ذلك.

و يواصل القرآن الكريم استدلاله فى الآيه التاليه من خلال بيان أَنَّ مسأله الرزق ليست بيد الإنسان و إنما.. وَ اللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَأصحاب الثروه و الطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها و مشاركتهم فيها خوفا أن يكونوا معهم على قدم المساواه: فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ .

و احتمال بعض المفسرين أَنَّ الآيه تشير إلى بعض أعمال المشركين الناتجه عن حماقتهم، حينما كانوا يجعلون لآلهتهم من الأصنام سهما من مواشيهم و محاصيلهم الزراعيه، بالرغم من عدم وجود أى أثر لتلك الأحجار و الأخشاب

ص : ٢٥٠

١ - ١) - «أرذل»: من (رذل) بمعنى الحقاره و عدم المرغوبيه، و المقصود من «أرذل العمر»: السنين المتقدمه جدّا من عمر الإنسان حيث الضعف و النسيان، و لا يستطيع تأمين احتياجاته الأوليه، و لهذا سماها القرآن بأرذل العمر، و قد اعتبر بعض المفسرين أنّها تبدأ من عمر (٧٥) عامًا، و بعض آخر من (٩٠) و آخرون اعتبروها من (٩٥).. و الحق أنّها لا تحدد بعمر، و إنّما تختلف من شخص لآخر.

٢ - ٢) - عبارته لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا يمكن أن تكون غايه و نتيجة للسنين المتقدمه من حياه الإنسان، فيكون مفهومها أنّ دماغ الإنسان و أعصابه فى هذه السنين تفقد قدره على التركيز و الحفظ فيسيطر على الإنسان النسيان و الغفله. و يمكن أن يكون معناها العله، أى أَنَّ اللّٰهَ تعالى يوصل الإنسان إلى هذا العمر لِكَيْ يصاب بالنسيان، فيفهم الناس بأنهم لا يملكون شيئا من أنفسهم.

على حياتهم! بل كان الأولى بهم لو التفتوا إلى خدمهم و عبيدهم ليعطوهم شيئاً جزاء ما يقدمونه لهم من خدمات ليل نهار!...

## هل التفاضل فى الرزق من العدالة؟!...

و هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل أنّ إيجاد التفاوت و الاختلاف فى الأرزاق بين الناس، ينسجم مع عداله الله عزّ و جلّ و مساواته بين خلقه، التى ينبغى أن تحكم نظام المجتمع البشرى؟ لأجل الإجابة، ينبغى الالتفات إلى الملاحظتين التاليتين:

١- إنّ الاختلاف الموجود بين البشر فى جانب الموارد الماديه يرتبط بالتباين الناشئ بين الناس جزاء اختلاف استعداداتهم و قابليتهم من واحد لآخر.

و التفاوت فى الاستعدادين الجسمى و الروحى يستلزم الاختلاف فى مقدار و نوعيه الفعاليه الاقتصاديه للأفراد، ممّا يؤدى إلى زياده وارد بعض و قلّه وارد البعض الآخر.

و لا شك أنّ بعض الحوادث و الاتفاقات لها دخل فى اشراء بعض الناس، إلاّ أنّه لا يمكن أن نعول عليها عند البحث لأنّها ليست أكثر من استثناء، أمّا الضابط فى أكثر الحالات فهو التفاوت الموجود فى كميّه و كيفيه السعى (و من الطبيعى أن بحثنا يتناول المجتمع السليم و البعيد عن الظلم و الاستغلال، و لا- نقصد به تلك المجتمعات المنحرفه التى تركت قوانين التكوين و النظام الإنسانى جانبا و انزلت فى طرق الظلم و الاستغلال).

و قد يساورنا التعجب حينما نجد بعض الفاقدين لأى مؤهل أو استعداد يتمتعون برزق وافر و جيد، و لكننا عند ما نتجرّد عن الحكم من خلال الظواهر و نتوغل فى أعماق مميزات ذلك البعض جسميا و نفسيا و أخلاقيا، نجد أنّهم يتمتعون بنقاط قوه أوصلتهم إلى ذلك (و نكرر القول بأنّ بحثنا ضمن إطار مجتمع

و على أية حال..فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالاستعدادات،و هو من المواهب و النعم الإلهيه أيضا،و إن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابيا،فالبعض الآخر غير اكتسابى قطعاً.فإذن وجود التفاوت فى الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحيه الاقتصاديه،و يتّم ذلك حتى داخل المجتمعات السليمه..إلا إذا افترضنا وجود مجموعه أفراد كلهم فى هيئه واحده من حيث:الشكل،اللون،الاستعداد و لا يعترىهم أى اختلاف!و إذا ما افترضنا حدوث ذلك فإنّه بدايه المشاكل و الويلات! ٢-لو نظرنا إلى بدن إنسان ماء،أو إلى هيكل شجره أو باقه ورد،فهل سنجد التساوى بين أجزاء كل منها و من جميع الجهات؟ و هل أنّ قدره و مقاومه و استعداد جذور الشجره مساويه لقدره و مقاومه و استعداد أوراق الورده الظريفه؟و هل أن عظم قدم الإنسان لا يختلف عن شبكيه عينه؟ و هل من الصواب أن نعبر كل ذلك شيئا واحدا؟! و لو تركنا الشعارات الكاذبه و الفارغه من أى معنى،و افترضنا تساوى الناس من جميع النواحي،فتملاً-الأرض بخمسه مليارات من الأفراد ذوى:الشكل الواحد،الذوق الواحد،الفكر الواحد،بل و المتحدين فى كل شىء كعبله السجائر..

فهل نستطيع أن نضمن أنّ حياه هؤلاء ستكون جيده؟ستكون الإجابه بالنفى قطعاً، و سيحرق الجميع بنار التشابه المفرط و الرتيب الكئيب،لأنّ الكل يتحرك فى جهه واحده،و الكل يريد شيئا واحداً،و يحبون غذاء واحداً،و لا يرغبون إلاّ بعمل واحد! و بديها ستكون حياه كهذه سريعه الانقراض،و لو افترض لها الدوام،فإنّها ستكون متعبه و رتيبه و فاقده لكل روح.و بعباره أشمل سوف لا يبعدها عن الموت

و على هذا فحكمه وجود التفاوت فى الاستعدادات المستتبعه لهذا التفاوت قد أزمته ضروره حفظ النظام الاجتماعى، و ليكون التفاوت فى الاستعدادات دافعا لتربيته و إنماء الاستعدادات المختلفه للأفراد. و لا يمكن للشعارات الكاذبه أن تقف فى وجه هذه الحقيقه التى يفرضها الواقع الموضوعى أبدا.

و لا- ينبغى أن نفهم من هذا الكلام أننا نريد منه إيجاد مجتمع طبقى أو نظام استغلالي و استعمارى، لا أبدا.. و إنما نقصد بالاختلافات التفاوت الطبيعى بين الأفراد (و ليس المصطنع) الذى يعاضد بعضه الآخر و يكمله (و ليس الذى يكون حجر عثره فى طريق تقدم الأفراد و يدعو إلى التجاوز و التعدى على الحقوق).

إنّ الاختلاف الطبقي (و المقصود من الطبقات هنا: ذلك المفهوم الاصطلاحي الذى يعنى وجود طبقه مستغله و أخرى مستغله) لا ينسجم مع نظام الخليقه أبدا، و لكنّ الموافق لنظام الخليقه هو ذلك التفاوت فى الاستعدادات و السعى و بذل الجهد، و الفرق بين الأمرين كالفرق بين السماء و الأرض -فتأمل.

و بعبارة أخرى، إن الاختلاف فى الاستعدادات ينبغى أن يوظف لخدمه مسيره البناء، كما فى اختلاف طبيعه أعضاء بدن الإنسان أو أجزاء الورده، فمع تفاوتها إلا أنّها ليست متراحمه، بل إنّ البعض يعاضد البعض الآخر وصولا للعمل التام على أكمل وجه.

و خلاصه القول: ينبغى أن لا يكون وجود التفاوت و الاختلاف فى الاستعدادات و فى الدخل اليومى للأفراد دافعا لسوء الاستفاده و ذلك بتشكيل مجتمع طبي (1).

و لهذا يقول القرآن الكريم فى ذيل الآيه مورد البحث:

ص: ٢٥٣

---

١ - ١) - لقد بحثنا بشكل مفصل موضوع فلسفه الاختلاف فى الاستعدادات و الفوائد الناتجه عن ذلك فى ذيل الآيه (٣٢) من سوره النساء - فراجع.



و ذلك إشارة إلى أن هذه الاختلافات في حالتها الطبيعية (و ليس الظالمه المصطنعه) إنما هي من النعم الإلهيه التي أوجدها لحفظ النظام الاجتماعى البشرى.

و تبدأ الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث بلفظ الجلاله «الله» كما كان فى الآيتين السابقتين، و لتحدث عن النعم الإلهيه فى إيجاد القوى البشریه، و لتحدث عن الأرزاق الطيبه أيضا تكميلا للحلقات الثلاثه من النعم المذكوره فى آخر ثلاث آيات، حيث استهلت البحث بنظام الحياه و الموت، ثم التفاوت فى الأرزاق و الاستعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياه) لتنتهى بالآيه مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشرى و.. الأرزاق الطيبه.

و تقول الآيه: <sup>□</sup> وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَتَكُونَ سَكَنًا لِأَرْوَاحِكُمْ وَ أَجْسَادِكُمْ وَ سببًا لِبَقَاءِ النَّسْلِ الْبَشَرِيِّ.

و لهذا تقول و بلا فاصله: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنِينَ وَ حَفَدَةً .

«الحفده» بمعنى (حافد) و هى فى الأصل بمعنى الإنسان الذى يعمل بسرعه و نشاط دون انتظار أجر و جزاء، أمّا فى هذه الآيه - كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين - فالمقصود منها أولاد الأولاد، و اعتبرها بعض المفسرين بأنها خاصه بالإناث دون الذكور من الأولاد.

و يعتقد قسم آخر من المفسرين: أن «بنون» تطلق على الأولاد الصغار، و «الحفده» تطلق على الأولاد الكبار الذين يستطيعون إعانه و مساعده آبائهم.

و اعتبر بعض المفسرين أنها شامله لكل معين و مساعد، من الأبناء كان أم من غيرهم (1).

ص: ٢٥٤

١ - ١) - و فى هذه الحال يجب أن لا تكون «حفده» معطوفه على «بنين» بل على «أزواج»، و لكنّ هذا العطف خلاف الظاهر الذى يشير إلى عطفها على «بنين» - فتأمل.

و يبدو أن المعنى الأوّل (أولاد الأولاد) أقرب من غيره، بالرغم ممّا تقدم من سعه مفهوم «حفده» فى الأصل.

و على أية حال فوجود القوى الإنسانيه من الأبناء و الأحفاد و الأزواج للإنسان من النعم الإلهيه الكبيره التى أنعمها جل اسمه على الإنسان، لأنهم يعينون ماديا و معنويا فى حياته الدنيا.

ثم يقول القرآن الكريم: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ .

«الطيبات» هنا لها من سعه المفهوم بحيث تشمل كل رزق طاهر نظيف، سواء كان ماديا أو معنويا، فرديا أو اجتماعيا.

و بعد كل العرض القرآنى لآثار و عظمه قدره الله، و مع كل ما أفاض على البشره من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام و يتركون السبيل التى توصلهم إلى جاده الحق أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ .

فما أعجب هذا الزيف! و أية حال باتوا عليها! عجباً لهم و تعسا لنسيانهم مسبب الأسباب، و ذهابهم لما لا ينفع و لا يضر ليقدموه معبوداً!!!

**بحثان**

**إشارة**

**١- أسباب الرزق:**

**إشارة**

على الرغم ممّا ذكر بخصوص التفاوت من حيث الاستعداد و المواهب عند الناس، إلاّ أنّ أساس النجاح يمكن فى السعى و المثابره و الجد، فالأكثر سعياً أكثر نجاحاً فى الحياه و العكس صحيح.

و لهذا جعل القرآن الكريم ارتباطاً بين ما يحصل عليه الإنسان و بين سعيه،

ص: ٢٥٥

فقال بوضوح: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (١).

و من الأمور المهمّة و المؤثره في مسأله استحصال الرزق بالامتزام بالمبادئ من قبيل: التقوى، الأمانه، إطاعه القوانين الإلهيه و الامتزام بأصول العدل، كما أشارت إلى ذلك الآيه (٩٦) من سوره الأعراف: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ .

و كما في الآيتين (٢ و ٣) من سوره الطلاق: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .

و كما أشارت الآيه (١٧) من سوره التغابن بخصوص أثر الإنفاق في سعه الرزق-: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم .

و لعلنا لا حاجه لنا بالتذكير أن فقدان فرد أو جمع من الناس يضر بالمجتمع و لهذا فحفظ سلامه الأفراد و إعانتهم يعود بالنفع على كل الناس (بغض النظر عن الجوانب الإنسانيه و الروحيه لذلك).

و خلاصه القول إن اقتصاد المجتمع إن بنى على أسس التقوى و الصلاح و التعاون و الإنفاق فالنتيجه أن ذلك المجتمع سيكون قويا مرفوع الرأس، أما لو بنى على الاستغلال و الظلم و الاعتداء و عدم الاهتمام بالآخرين، فسيكون المجتمع متخلفا اقتصاديا و تتلاش فيه أواصر الحياه و الاجتماعيه.

و لذلك فقد أعطت الأحاديث و الزوايات أهميه استثنائيه للسعى في طلب الرزق المصحوب بالتقوى، و حتى

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا تكسلوا في طلب معاشكم، فإن أباءنا كانوا يركضون فيها و يطلبونها» (٢).

و

روى عنه أيضا: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله» (٣).

ص: ٢٥٦

١-١ - سوره النجم، ٣٩.

٢-٢ - الوسائل، ج ١٢، ص ٤٨.

٣-٣ - الوسائل ج ١٢، ص ٤٣.

وحتى أنّ الأمر قد وُجّه إلى المسلمين بالتبكير في الخروج لطلب الرزق (١) و ذكر أنّ من جمله من لا- يستجاب لهم الدعاء أولئك الذين تركوا طلب الرزق على ما لهم من استطاعه، انزروا في زوايا بيوتهم يدعون الله أن يرزقهم! و هنا يتبادر الى الذهن تساؤل عن الآيات القرآنيه و الروايات التي تؤكد على أنّ الرزق بيد الله، و ذم السعي فيه، فكيف يتم تفسير ذلك؟!!

### و للاجابة نذكر الملاحظتين التاليين:

١-دقه النظر و التحقق في المصادر الإسلاميه يوضح أنّ الآيات أو الروايات التي يبدو التضاد في ظاهر ألفاظها-سواء في هذا الموضوع أو غيره- إنّما ينتج من النظرة البسيطة السطحيه، لأنّ حقيقه تناولها لموضوع ما إنّما يشمل جوانب متعدده من الموضوع، فكل آيه أو روايه إنّما تنظر إلى بعد معين من أبعاد الموضوع، فتوهم غير المتابع بوجود التضاد.

فحيث يسعى الناس بولع و حرص نحو الدنيا و زخرف الحياه الماديّه، و يقومون بارتكاب كل منكر للوصول إلى ما يريدونه، تأتي الآيات و الروايات لتوضح لهم تفاهه الدنيا و عدم أهميه المال.

و إذا ما ترك الناس السعي في طلب الرزق بحجه الزهد، تأتيهم الآيات و الروايات لتبين لهم أهميه السعي و ضرورته.

فالقائد الناجح و المرشد الرشيد هو الذي يتمكن من منع انتشار حالتى الإفراط و التفريط في مجتمعه.

فغايه الآيات و الروايات التي تؤكد على أنّ الرزق بيد الله هي غلق أبواب الحرص و الشر و حبّ الدنيا و السعي بلا ضوابط شرعيه، و ليس هدفها إطفاء شعله

ص: ٢٥٧

الحيويه و النشاط فى الإعمال و الاكتساب و وصولا لحياه كريمه و مستقله.

و بهذا يتضح تفسير الروايات التى تقول: إن كثيرا من الأرزاق إن لم تطلبوها تطلبكم.

٢- إن كل شىء من الناحيه العقائديه تنتهى نسبته إلى الله عزّ و جلّ، و كل موحد يعتقد أن منبع و أصل كل شىء منه سبحانه و تعالى، و يردد ما تقوله الآيه (٢٦) من سوره آل عمران: بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و ينبغى عدم الغفله عن هذه الحقيقه و هى أن كل شىء من سعى و نشاط و فكر و خلاقية الإنسان إنما هى فى حقيقتها من الله عزّ و جلّ.

و لو توقف لطف الله (فرضا) عن الإنسان- و لو للحظه واحده- لما كان ثمه شىء اسمه الإنسان.

و يقول الإنسان الموحد حينما يركب و سيله: «سبحان الذى سخر لنا هذا».

و عند ما يحصل على نعمه ما، يقول:

«و ما بنا من نعمه فممنك» (١).

و يقول عند ما يخطو فى سبيل الإصلاح- كما هو حال الأنبياء فى طريق هدايتهم للناس-: «مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (٢).

و إلى جانب كل ما ذكر فالسعى و العمل الصحيح البعيد عن أى إفراط أو تفريط، هو أساس كسب الرزق، و ما يوصل إلى الإنسان من رزق بغير سعى و عمل إنما هو ثانوى فرعى و ليس أساسى، و لعل هذا الأمر هو الذى دفع أمير المؤمنين عليه السلام فى كلماته القصار فى تقديم ذكر الرزق الذى يطلبه الإنسان على الرزق الذى يطلب الإنسان، حيث

قال: «يا ابن آدم، الرزق رزقان: رزق تطلبه، و رزق يطلبك» (٣).

ص: ٢٥٨

١- ١) - من أذعيه التعقيبات لصلاه العصر، كما فى كتب الدعاء.

٢- ٢) - سوره هود، ٨٨.

٣- ٣) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ٣٧٩.

أشارت الآيات إلى بخل كثير من الناس ممن لم يتبعوا سلوكك و هدى الأنبياء و الأئمة عليهم السلام، و قد أكدت الروايات فى تفسيرها لهذه الآيات على المساواه و المواساة و منها: ما جاء فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل الآية: «لا يجوز الرجل أن يخص نفسه بشيء من المأكل دون عياله» (١).

و

روى أيضا عن أبى ذر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول عن العبيد: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم ممّا تكسون و أطعموهم ممّا تطعمون» فما رأى عبده بعد ذلك إلا و رداؤه و إزاره من غير تفاوت (٢).

و الذى نستفيدة من الروايات المذكوره و الآية المبحوثه حين تقول: فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَنَّ الإسلام يوصى بمراعاة المساواه كبرنامج أخلاقى بين أفراد العائله الواحده و من يكون تحت التكفل قدر الإمكان، و أن لا يجعلوا لأنفسهم فضلا عليهم.

ص: ٢٥٩

---

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٨.

٢-٢) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٨

اشاره

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ  
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)

التفسير

اشاره

لا تجعلوا لله شبيها:

تواصل هاتان الآيتان بحوث التوحيد السابقه، و تشير إلى موضوع الشرك، و تقول بلهجه شديده ملؤها اللوم و التوبيخ: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا.

و ليس لا يملك شيئا فقط، بل وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْلُقُوا شَيْئًا.

و هذه إشاره إلى المشركين بأن لا- أمل لكم في عبادتكم للأصنام، لأنها لا- تضرّكم و لا- تنفعكم و ليس لها أى أثر على مصيركم، فالرزق مثلا و الذى به تدور عجله الحياه سواء كان من السماء (كقطرات المطر و أشعه الشمس و غير ذلك) أو ما يستخرج من الأرض، إنما هو خارج عن اختيار الأصنام، لأنها موجودات فاقده لأيه قيمه و لا تملك الإراده، و إن هى إلا خرافات صنعتها العصبية الجاهليه

ليس إلا.

و جملة لا يَشِيءُ تَطِيعُونَ سبب لجملة «لا يملكون» أى: إنها لا تملك شيئاً من الأرزاق لعدم استطاعتها الملك، فكيف بالخلق! ثم تقول الآيه التاليه كنتيجة لما قبلها: فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ وَ ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

قال بعض المفسرين: إنَّ عبارته فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ تشير إلى منطق المشركين فى عصر الجاهليه (و لا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه أولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إنَّما نعبد الأصنام لأننا لا نملك الأهلبيه لعباده الله، فنعبدها لتقربنا إلى الله! وإنَّ الله مثل ملك عظيم لا- يصل إليه إلا الوزراء و الخواص، و ما على عوام الناس إلا أن تتقرب للحاشيه و الخواص لتصل إلى خدمه الله!! هذا الانحراف فى التوجه و التفكير، و الذى قد يتجسم أحيانا على هيئه أمثال منحرفه، إنَّما هو من الخطوره بمكان بحيث يطغى على كل الانحرافات الفكرية.

و لذا يجيبهم القرآن الكريم قائلا: فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ التى هى من صنع أفكاركم المحدوده و من صنع موجودات (ممكته الوجود) و مليئه بالنواقص.

و إنَّكم لو أحطتم علما بعظمه وجوده الكريم و بلطفه و رحمته المطلقه، لعرفتم أنه أقرب إليكم من أنفسكم و لما جعلتم بينكم و بينه سبحانه من واسطه أبدا.

فالله الذى دعاكم لأن تدعوه و تناجوه، و فتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لا ينبغى أن تشبهوه بجبار مستكبر لا يتمكن أى أحد من الوصول إليه و دخول قصره إلا بعض الخواص فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ .

لقد أكدنا فى بحوثنا السابقه حول صفات الله عزَّ و جلَّ: أنَّ منزلق التشبيه يعتبر من أخطر المزلقات فى طريق معرفه صفاته سبحانه و تعالى، و لا ينبغى مقايسه صفاته سبحانه بصفات العباد، لأنَّ البارى جلت عظمته وجود مطلق، و كل



الموجودات بما فيها الإنسان محدوده، فهل يمكن تشبيه المطلق بالمحدود؟! و إذا ما اضطررنا إلى تشبيه ذاته المقدسه بالنور و ما شابه ذلك فينبغي أن لا- يغيب عن علمنا بأن هذا التشبيه ناقص على أيه حال، و أنه لا- يصدق إلا من جهه واحده دون بقية الجهات-فتأمل.

و بما أن أكثر الناس قد غفلوا عن هذه الحقيقه، و كثيرا ما يقعون في وادى التشبيه الباطل و القياس المرفوض فيبتعدون عن حقيقه التوحيد، فلذا نجد القرآن الكريم كثيرا ما يؤكد على هذه المسأله، فمره يقول كما في الآيه (٤) من سوره التوحيد، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، و أخرى كما في الآيه (١١) من سوره الشورى:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، و ثالته كما في الآيه مورد البحث: فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ .

و لعل عبارته إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، في ذيل الآيه مورد البحث، تشير إلى أن أغلب الناس في غفله عن أسرار صفات الله.

إشاره

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَ مَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسِينًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

التفسير

إشاره

مثالان للمؤمن و الكافر!

ضمن التعقيب على الآيات السابقة التي تحدثت عن: الإيمان، الفكر، المؤمنين، الكافرين و المشركين، تشخص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين و الكافرين) بضرب مثلين حيين و واضحين.

يشبه المثال الأول المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأية خدمة لمولاه، ويشبه المؤمنين بإنسان غنى، يستفيد الجميع من إمكانياته.. **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ** .

و العبد ليس له قدره تكوينيه لأنه أسير بين قبضه مولاه و محدود الحال فى كل شىء، و ليس له قدره تشريعيه أيضا لأن حق التصرف بأمواله (إن كان له مال) و كل ما يتعلق به هو بيد مولاه، و بعبارة أخرى إنه:عبد للمخلوق، و لا يعنى ذلك إلا الأسر و المحدوديه فى كل شىء.

أما ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذى يتمتع بأنواع المواهب و الرزق الحسن: **وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسِينًا** و الإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة **فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا فَاحْكُمُوا: هَلْ يَسْتَوُونَ** .

قطعا، لا... فإذن: **الْحَمْدُ لِلَّهِ** .

الله الذى يكون عبده حرّ و قادر و منفق، و ليس الأصنام التى عبادها أسرى و عديمو القدره و محدودون بل **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (١) .

ثم يضرب مثلا آخر لعبده الأصنام و المؤمنين و الصادقين، فيشبه الأول بالعبد الأبكم الذى لا يقدر على شىء، و يشبه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل و هو على صراط مستقيم: **وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ** (٢) و لهذا... **أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ** .

و على هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

أبكم (لا ينطق و لا يسمع و لا يبصر منذ الولادة).

ص: ٢٦٤

- ١ - ١) - المثال المذكور عبارته عن تشبيه للمؤمن و الكافر (على ضوء تفسيرنا)، إلا أن جمعا من المفسرين ذهب إلى أن العبد المملوك يرمز إلى الأصنام، و أن المؤمن الحر المنفق إشارة إلى الله سبحانه و تعالى (و يبدو لنا أن هذا التشبيه بعيد).
- ٢ - ٢) - يقول الراغب فى مفرداته: الأبكم هو الذى يولد أخرس، فكل أبكم أخرس و ليس كل أخرس أبكم، و يقال: بكم عن الكلام، إذا أضعف عنه لضعف عقله فصار كالأبكم.

و عاجز لا يقدر على شىء.

و كلّ على مولاه.

و أينما يوجهه لا يأت بخير.

مع أنّ الصفات المذكوره عله و معلول لبعضها الآخر و لكنّها ترسم صورته إنسان سلبى مائه فى المائه حيث أنّ وجوده لا ينم عن أى خير أو بركه إضافه لكونه «كلّ» على أهله و مجتمعه.

ف هلّ يَشْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟! و أمّا الرجل الآخر فى مثل الآيه فهو صاحب دعوه مستمرّه إلى العدل و سائر على الصراط المستقيم، و ما هاتان الصفتان إلاّ مفتاح لصفات أخرى متضمنه لها، فصاحب هاتين الصفتين: لسانه ناطق، منطقته محكم، إرادته قويه، شجاع و شهيم، لأنّه لا يمكن أن يتصور لداعيه العدل أن يكون: أبكم، جباناً و ضعيفاً! لا يمكن أن يكون من هو على صراط مستقيم إنساناً عاجزاً أبله و ضعيف العقل، بل ينبغي أن يكون ذكياً، نبياً، حكيماً و ثابتاً.

و تظهر المقاييسه بين هذين الرجلين ذلك البون الشاسع بين الاتجاهين الفكرين المختلفين لعبده الأصنام من جهة، و عباد الله عزّ و جلّ من جهة أخرى، و ما بينهم من تفاوت تربوى و عقائدى.

كما رأينا من ربط القرآن فى بحوثه المتعلقه بالتوحيد و محاربه الشرك مع بحث المعاد و محكمه القيامه الكبرى، نراه هنا يتناول الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: **لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .**

و كأن الآيه جواب على الإشكال العالق فى أذهان و ألسنه منكرى المعاد الجسمانى بقولهم: إنّنا إذا متنا و تبعثرت ذرات أجسامنا بين التراب، فمن يقدر على جمعها؟! أو إذا ما افترضنا أنّ هذه الذرات قد جمعت و عدنا إلى الحياه، فمن سيعلم بأعمالنا التى طوتها يد النسيان فنحاسب عليها؟!!

و بعبارة مختصره تجيب الآيه على كل أبعاد السؤال، فالله عزّ وجلّ «يعلم غيب السماوات و الأرض» فهو حاضر في كل زمان و مكان، و عليه فلا يخفى عليه شيء أبداً، و لا مفهوم لقولهم إطلاقاً، و كل شيء يعلمه تعالى شهوداً، و أمّا تلك العبارات و الأحوال فإنّما تناسب وجودنا الناقص لا غير.

ثمّ يضيف قائلاً: وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (١).

و هذا المقطع القرآنى يشير إلى رد إشكال آخر كان يطرحه منكر و المعاد بقولهم: من له القدره على المعاد و من يتمكن من انجاز هذا الأمر العسير؟! فيجيبهم القرآن، بأن هذا الأمر يبدو لكم صعباً لأنكم ضعفاء، أمّا لصاحب القدره المطلقه فهو من السهوله و السرعه بحيث يكون أسرع ممّا تتصورون، و إن هو إلاّ كَلَمَحٍ الْبَصْرِ منكم.

و بعد أن شبه قيام الساعه بلمح البصر، قال: أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، أى: إنّ التشبيه بلمح البصر جاء لضيق العبارة و اللغه، و إنّما هو من السرعه بما لا يلحظ فيه الزمان أساساً، و ما ذلك الوصف إلاّ لتقريبه لأذهانكم من حيث أنّ لمح البصر هو أقصر زمان فى منطقكم.

و على أيّه حال، فالعبارتان إشاره حيه لقدره الله عزّ وجلّ المطلقه، و بخصوص مسألتى المعاد و القيامة، و لهذا يقول البارى فى ذيل الآيه: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

**بحوث**

**إشاره**

**١- الإنسان بين الحريه و الأسر**

ص: ٢٦٦

(١- ١) -لمح: (على وزن مسح) بمعنى ظهور البرق، ثمّ جاءت بمعنى النظر السريع، و ينبغى الانتباه إلى أنّ «أو» هنا بمعنى (بل).

إنّ مسأله التوحيد و الشرك ليست مسأله عقائديه ذهنيه صرفه كما يتوهم البعض و ذلك لما لها من آثار بالغه على كافته أصدده الحياه، بل و أنّ بصماتها لتراها شاخصه على كافته مرافق و مناحى الحياه-فالتوحيد إذا دخل قلبا أحياء و غرس فيه عوامل الرشد و الكمال، لأنه بتوسيع أفق نظر و تفكير الإنسان بشكل يجعله مرتبطا بالمطلق.

و الشرك على العكس من ذلك تماما، حيث يجعل الإنسان يعيش فى دوامه عالم محدود، و تتقاذف كيانه تلك الأصنام الحجرية و الخشبيه، أو ميول و شهوات الأصنام البشريه الضعيفه، فيختزل فكر و إدراك و قدره و سعى الإنسان فى دائره تلك الأبعاد الضيقه التقاذف.

و قد صورت الآيات تصويرا دقيقا لهذا الواقع، و جمعته فى مثال تقريبا للأذهان و قالت: إنّ المشرك فى حقيقه أبكم و ممارساته تنم عن خطل تفكيره و فقدانه للمنطق السليم، و قد قيد الشرك إمكانياته فجعله خواء لا يقوى على القيام بأى شىء فانسخت منه حربته بعد أن أسلم نفسه أسيرا فى يد الخرافات و الأوهام.

و بسبب هذه الصفات المذمومه فهو كلّ على المجتمع، لأنه يستهين بكرامه و عزّه المجتمع من خلال تسليم مقدراته بيد الأصنام أو المستعمرين.

و هو تابع أبدا ما دام لم يتحرر من ربه الشرك، و لن يذوق طعم الحريه و الاستقلال الحق إلا- بعد أن يتوجه إلى التوحيد بصدق.

و نتيجة لمتبنياته الفكرية الضالّه فلن يخترق طريقا إلا ضاع به، و لن يجد الخير أينما حط أيّما يُوجّههُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ .

فكم هى الفاصله بين ذلك الخرافى، ضيق الأفق، الأسير، العاجز.. و بين هذا الحر، الشجاع، الذى لا يكتفى بنهج خط العدل، بل يدعو إليه ليعم كل الناس؟! الشخص الذى يمتلك الفكر المنطقى المنسجم مع نظام التوحيد الحاكم على

الخليقه يسير دوما على صراط مستقيم، وهذا السير سيوصله بأقرب و أسرع طريق إلى الهدف المنشود دون أن يفنى ذخائر وجوده فى طرق الضلال و الانحراف.

و خلاصه القول:التوحيد و الشرك ليسا أمرا عقائديا ذهنيا بحتا، بل نظام كامل لكل الحياه، و برنامج واسع يشمل:فكر، أخلاق و عواطف الإنسان و يتناول كذلك حياته الفرديه، الاجتماعيه، السياسيه،الاقتصاديه و الثقافيه.

لو وضعنا مقياسه بين عرب الجاهليه المشركين و المسلمين فى صدر الإسلام لوجدنا الفرق الواضح بين المسيرين...

الأشخاص الذين كانوا فى:جهل، تفرقه، انحطاط، و لا- يعرفون إلا- محيطا محدودا مملوءا بالفقر و الفساد، نراهم قد أصبحوا و كلهم:وحده، علم، قدره...حتى أصبح العالم المتمدن فى ذلك الزمان تحت تأثيرهم و قدرتهم.. كل ذلك بسبب تغيير سير خطواتهم من الشرك إلى التوحيد.

## ٢- دور العدل و الاستقامه فى حياه الإنسان

من الملفت للنظر اشاره الآيات إلى الدعوه للعدل و السير على الصراط المستقيم من بين صفات و شؤون الموحدين، لتبيان ما لهذين الأمرين من أهميه فى خصوص الوصول إلى المجتمع الإنسانى السعيد، و هو ما يتم من خلال امتلاك برنامج صحيح بعيد عن أى انحراف يمينا أو شمالا(لا شرقى و لا غربى)، و من ثم الدعوه لتنفيذ ذلك البرنامج المبني على أصول العدل، كما و ينبغى أن لا- يكون البرنامج وقتيا ينتهى بانقضاء المدّه، بل كما يقول القرآن: يَاأَمْرُ بِالْعَدْلِ (حيث يعطى الفعل المضارع معنى الاستمرار)برنامج مستمر و دائمى.

### ٣-أما الزوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام

الزوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بخصوص تفسير هذه الآية تذكر أنّ:

«الذى يأمر بعدل أمير المؤمنين و الأئمة صلوات الله عليهم».

و ذكر بعض المفسرين: أنّ جملة مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ نزلت في: حمزه و عثمان بن مظعون أو في عمار.

و«أبكم» في: أبي بن مخلف و أبي جهل و من شابههم.

و كل ذلك إنّما هو من جهة بيان مصاديق مهمّة و واضحة للآية، و لا يمكن بأية حال أن يكون سبباً للحصر، مع ملاحظه أنّ التفاسير التي تناولت الآيات المبحوثة مبيّنة على أساس بيان الفرق بين المشركين و المؤمنين، و ليس بين الأصنام و بين الله عزّ و جلّ.

ص: ٢٦٩



اشاره

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ رِيبِ السَّيِّئِ تَقِيكُمْ وَأَسْرَابًا مِّنَ الْجِبَالِ تَجْرُ أَلْوَابًا وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ جِبَالٌ صَابِقَةٌ ذَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

التفسير

اشاره

أنواع النعم الماديه و المعنويه:

يعود القرآن الكريم مره أخرى بعرض جمله أخرى من النعم الإلهيه كدرس

فى التوحيد و معرفه الله، و أول ما يشير فى هذه الآيات المباركات إلى نعمه العلم و المعرفة و وسائل تحصيله.. و يقول: وَ اللَّهُ  
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا .

فمن الطبيعى أنكم فى ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شىء، و لكن عند ما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من  
الحكمه أن تستمروا على حاله الجهل، و لهذا فقد زودكم البارى سبحانه بوسائل إدراك الحقائق و معرفه الموجودات وَ جَعَلَ  
لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ .لكى يتحرك حس الشكر للمنعم فى أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانيه الجليله  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

## ملاحظات

### أشاره

و هنا نطرح الملاحظات التاليه:

### ١-بدايه الإدراك عند الإنسان

تصرّح الآيه بوضوح بأنّ الإنسان حين يولد فإنّه لا يدرك من الأشياء شيئا، و كل ما يدركه إنّما هو بعد الولاده و بواسطه  
الحواس التى منحه الله إياه.

و يواجهنا الإشكال التالي: إنّ الإنسان مزود بجمله من العلوم الفطريه كالتوحيد و معرفه الله،بالإضافه إلى بعض البديهيّات  
مثل (عدم اجتماع النقيضين، الكل أكبر من الجزء،حسن العدل،قبح الظلم...إلخ)و كل هذه العلوم قد أودعت فى قلوبنا و تولدت  
معنا..فكيف يقول القرآن إنّ الإنسان حين يخرج من محيط الجنين ليس له من العلم شيئا؟ و هل علمنا بوجودنا(و الذى هو علم  
حضورى)لم يكن فينا و إنّما نكتسبه عن طريق السمع و البصر و الفؤاد؟ و للإجابة على هذا الإشكال،نقول: إنّ العلوم البديهيّه و  
الضروريه و الفطريه

ص: ٢٧١

لم تكن فى الإنسان بصورة فعلية حين ولادته، وإنما على شكل استعداد ووجود بالقوة.

و بعبارة أخرى: إننا عند الولادة نكون فى غفلة عن كل شىء حتى عن أنفسنا التى بين جنيننا، إلا أن مسأله إدراك الحقائق تكمن فىنا بصورة القوة لا- الفعل، و بالتدرىح تحصل لأعيننا قوه النظر و لأذاننا قوه السمع و لعقولنا القدره على الإدراك و التجزيه و التحليل، فنعم بهذه العطايا الإلهيه الثلاث التى بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيرا من التصورات و نودعها فى العقل لكى ننشئ منها مفاهيم كليه، و من ثم نصل إلى الحقائق العقلية بطريق (التعميم) و (التجريد).

و تصل قدرتنا الفكرية إلى إدراك أنفسنا (باعتبارها علما حضوريا) و من ثم تتحرر العلوم التى أودعت فىنا قوه لتصبح علوما بالفعل، و نجعل بعد ذلك من العلوم البديهيه و الضرورية سلما للوصول إلى العلوم النظرية و غير البديهيه.

و على هذا.. فالعموم و الكليه التى نطقت بها الآيه (من أننا لا نعلم شيئا عند الولادة) ليس لها استثناء و لا تخصيص.

## ٢- نعمه وسائل المعرفة

مميا لا شك فيه عدم امكانيه استيعاب و دخول العالم الخارجى فى وجودنا، و الحاصل الفعلى هو رسم صورته الشىء الخارجى المراد فى الذهن و بواسطه الوسائل المعينه لذلك، و عليه.. فمعرفةنا بالعالم الخارجى تكون عن طريق أجهزه خاصه منها السمع و البصر.

و تنقل هذه الآلات و الأجهزه كل ما تلتقطه من الخارج لتودعه فى أذهاننا و عقولنا، و نقوم بواسطه العقل و الفكر بعملية التجزئه و التحليل..

و لذلك بينت الآيه مسأله عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لِكَيْ تَحْصُلُوا عَلَى حَقَائِقِ الْوُجُودِ وَ تَدْرِكُوهَا.

و نشاهد تقديم ذكر السمع على البصر فى الآيه مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، و لعل ذلك لسبق الأذن فى العمل على العين بعد الولاده، حيث أنّ العين كانت فى ظلام دامس (فى رحم الأم) و نتيجة لشده أشعه النور (بعد الولاده) فإنها لا تستطيع العمل مباشره بسبب حساسيتها، و إنما تتدرج فى اعتيادها على مواجهه النور حتى تصل للحاله الطبيعیه المعتاده، و لذا نجد الوليد فى بدايه أيامه الأولى مغلق العين. أما بخصوص الأذن.. فتمه من يعتقد بأن لها القدره على السماع (قليلا أو كثيرا) و هى فى عالم الأجنه و أنها تسمع دقات قلب الأم و تعتاد عليها! أضف إلى ذلك أنّ الإنسان إنما يرى بعينه الأشياء الحسيه فقط، فى حين أنّ الأذن تعتبر وسيله للتربيه و التعليم فى جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطه سماع الكلمات إلى معرفه جميع الحقائق سواء ما كان منها فى دائره الحس أو ما كان خارجها، و ليس للعين هذه السعه، و صحيح أنّ الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطه القراءه، إلا أنّ القراءه ليست عامه لكل الناس و سماع الكلمات أمر عام.

أما سبب ورود «السمع» بصيغه المفرد و «الأبصار» بصيغه الجمع، فقد بيناه عند تفسيرنا للآيه (٧) من سوره البقره.

و تمه ملاحظه أخرى ينبغى ذكرها تتعلق بكلمه «الفؤاد»، فقد جاءت هنا بمعنى القلب (العقل) الذى يعيش حاله التوقد، و بعبارة أخرى: يعيش حاله التفسير و التحليل و الابتكار.

يقول الراغب فى مفرداته: (الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى الفؤاد أى التوقد). و من المسلم به أن هذا الموضوع يحصل للإنسان بعد حصوله على تجارب كافيه.

و على آيه حال، فآلات المعرفه و إن لم تنحصر بهذه الأجهزة الثلاث، إلا أنّها أفضل الأجهزة جميعا، لأنّ علم الإنسان إمّا أن يكون عن طريق التجربه أو عند

طريق الاستدلالات العقلية، ولا تجربه بدون السمع والبصر، ولا استدلالات عقلية من غير الفؤاد (العقل).

### ٣- لعلكم تشكرون

تعتبر نعمه أجهزه تحصيل العلم من أفضل النعم التي وهبها الله للإنسان، فلا يقتصر دور العين والأذن (مثلا) على النظر إلى آثار الله في خلقه، والاستماع إلى أحاديث أنبياء الله وأوليائه، وتفهم ذلك وتدركه بالتحليل والاستنتاج، بل إن كل خطوه نحو التكامل والتقدم مرتبطة ارتباطا وثيقا بهذه الوسائل الثلاثة.

و غايه إعطاء هذه الوسائل إنما تستوجب شكر الواهب، لأنه من خلالها يمكن الحصول على العلم والمعرفه اللذين بهما امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات.

و مما لا شك فيه أن الإنسان ليقف عاجزا أمام حق شكر المولى و ليس له إلا الاعتذار.

و تستمر الآيه التاليه فى بيان أسرار عظمه الله عزّ و جلّ فى علم الوجود، و تقول: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ .

«الجو» لغه: هو الهواء (كما ذكره الراغب فى مفرداته)، أو ذلك الجزء من الهواء البعيد عن الأرض (كما ورد فى تفسير مجمع البيان و تفسير الميزان و كذلك تفسير الألوسى).

و بما أن الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعيا فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور فى الهواء بالتسخير، أى: أن البارى سبحانه قد جعل فى أجنحه الطيور قوه، و فى الهواء خاصيه، تمكنان الطيور من الطيران فى الجو على رغم قانون الجاذبيه.

و يضيف قائلا: مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ .

صحيح أن ثمة أمور مجتمعه تعطى للطيور إمكانيه التحليق و الطيران، مثل:

الخاصيه الطبيعيه للأجنحه، قدره عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمه.. و لكن، من الذى خلق هذه الهيئه و تلك الخواص؟ و من الذى أقرّ هذا النظام الدقيق؟ فهل هى الطبيعه العمياء، أم من يعلم بجميع الخواص الفيزيائيه للأجسام و أحاط علمه المطلق بكل هذه الأمور؟؟ فإذا ما رأينا نسبة هذه الأمور إلى الله، لأنّ منبع وجودها منه تعالى، و أمثال هذا التعبير فى نسبة الأسباب و العلل إلى الله كثيره فى القرآن الكريم.

و فى نهايه الآيه، يأتى قوله عزّ من قائل: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** أى إنّهم ينظرون إلى هذه الأمور بعين باصره و أذن سميعه و يتفكرون فيما يرون و يسمعون، و بذلك يقوى إيمانهم و يرسخ أكثر فأكثر.

## بحوث

## اشاره

### ١- أسرار تحليق الطيور فى السماء

إنّنا لا- نشعر بأهميه الكثير من عجائب عالم الوجود لاعتيادنا على كثره مشاهدتها، و لعدم انشغالنا بالتدقيق العلمى عند المشاهده، حتى باتت هذه العاده كحجاب يغطى تلك العظمه، و لو استطاع أى منّا رفع ذلك الحجاب عن ذهنه لرأى العجائب الكثيره من حوله.

و تحليق الطيور فى السماء لا- تتعد عن هذه الحقيقه، فحرکه جسم ثقيل بخلاف قانون الجاذبيه من دون أية صعوبه، و ارتفاعه بسرعه حتى ليغيب عن أعيننا فى لحظات لأمر يدعو إلى التأمل و الدراسه.

و لو دققنا النظر فى بناء جسم الطائر لوجدنا ذلك الترابط الدقيق بين كل صفاته و حالاته التى تساعده على الطيران، فهيكله العام مدبب ليقلل من مقاومه

الهواء على بدنه لأقصى حد ممكن، و ريشه خفيف مجوف، و صدره مسطح يمكنه من ركوب أمواج الهواء، و طبيعته أجنحته الخاصه تمنحه القوه الرافعه (1) التي تساعده على الارتفاع، و كذلك الطبيعه الخاصه لذيل الطائر التي تعينه على تغيير اتجاه طيرانه و سرعه التحول يمينا و شمالا و أعلى و أسفل (كذيل الطائره)، و ذلك التناسق الموجود بين النظر و بقيه الحواس التي تشترك جميعا فى عمله الطيران... و كل ذلك يعطى للطائر إمكانيه الطيران السريع.

ثم إنَّ طريقه تناسل الطير(وضع البيض)، و عمله تربيه الجنين و نموه تجرى خارج رحم الأم مِمَّا يرفع عنها حاله الحمل و التي تعيق (بلا شك) عمله الطيران..

و ثمه أمور كثيره تعتبر من العوامل المؤثره فيزيائيا فى عمله الطيران.

و كل ما ذكر يكشف عن وجود علم و قدره فائقين لخالق و منظم بناء و حركه هذه الكائنات الحيه، و كما يقول القرآن: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .**

إنَّ عجائب الطيور لأكثر من أن تسطر فى كتاب أو عدّه كتب، فهناك مثلا الطيور المهاجره و ما يكتنف رحلاتها من عجائب، و حياه هذه الطيور مبنيه على التنقل بين أرجاء المعموره المختلفه حتى أنَّها لتقطع المسافه ما بين القطبين الشمالى و الجنوبى على طولها، و تعتمد فى تعيين اتجاهات رحلاتها على إشارات رمزيه تمكنها من عبور الجبال و الأوديه و البحار، و لا يعيق تحركها رداءه الجو أو حلكه الظلام فى الليالى التي يتيه فيها حتى الإنسان و بما يملك.

و من غريب ما يحدث فى رحلاتها أنَّها: قد تنام أحيانا بين عباب السماء

ص: ٢٧٤

١- ١) - «القوه الرافعه»: اصطلاح فيزيائى حديث يستعمل فى حقل الطائرات، و خلاصته: أنَّ الجسم إذا كان له سطحين متفاوتين بالاستواء (كجناح الطائره حيث سطحه الأسفل مستويا و الأعلى محدبا) و تحرك أفقيا فستولد فيه قوه خاصه ترفعه إلى الأعلى، تنشأ من ضغط الهواء على سطحه الأسفل و الذى يكون أكثر منه على السطح الأعلى، لأنَّ الأسفل مساحته أصغر، و السطح العلوى أوسع مساحه، و هذا ما تعتمد عليه حركه الطائرات.. و إذا ما دققنا النظر فى اجنحه الطيور فسنرى هذه الظاهره بوضوح- فتأمل. و عموما، ينبغى القول: ما بناء الطائرات إلا تقليد لأجسام الطيور فى جوانب مختلفه!

و هي طائره! وقد تستغرق بعض رحلاتها عدّه أسابيع دون توقف ليل نهار و بدون أن يتخلل تلك المدّه أيه فتره لتناول الطعام! حيث أنها تناولت الطعام الكافي قبل بدءها حركة الرحيل (بالهام داخلي) و يتحول ذلك الطعام إلى دهون تدخرها في أطراف بدنها! و ثمّيه أسرار كثيره تتعلق في: بناء الطير لعشه، تربيته أفراخه، كيفية التحصن من الأعداء، كيفية تحصيل الغذاء اللازم، تعاون الطيور فيما بينها بل و مع غير جنسها أيضا... إلخ، و لكل ممّا ذكر قصّه طويله.

نعم، و كما تقول الآيه المباركه: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

## ٢- ترابط الآيات:

لا شك أنّ هناك ترابطا بين الآيه أعلاه و التي تتحدث عن كيفية طيران الطيور و ما قبلها من الآيات يتمثل في الحديث عن نعم الله عزّ و جلّ في عالم الخليقه، و عن أبعاد عظمته و قدرته سبحانه و تعالى، و لكن لا يبعد أن يكون ذكر تحليق الطيور بعد ذكر آيات المعرفة يحمل بين طياته إشاره لطيفه في تشبيه تحليق هذه الطيور في العالم المحسوس بتحليق الأفكار في العالم غير المحسوس، فكلّ منها يحلق في فضاءه الخاص و بما لديه من آلات.

يقول الإمام علي عليه السلام في خطبته الشقشقيه: «ينحدر عنّي السيل و لا يرقى إلّي الطير».

و كذا

في كلماته عليه السلام القصار في بيان فضيله مالك الأشر رحمة الله، ذلك القائد الشجاع: «لا يرتقيه الحافر، و لا يوفى عليه الطائر» (١).

و عدّ في هذه السوره خمسين نعمه كلها تدعو إلى معرفه الله جل و علا و تدفع

ص: ٢٧٧



إلى شكره، ولذلك ذهب البعض لتسميتها ب(سوره النعم).

و تستمر الآيات فى الإشاره إلى النعم الإلهيه حتى نصل إلى الآيه الثالثه (مورد البحث) لتقول: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا.

و حقًا إن هذه النعمه المباركه من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من (البيتوته): و هى فى الأصل بمعنى التوقف ليلا، و أطلقت كلمه (بيت) على الحجره أو الدار لحصول الاستفاده منهما للسكن ليلا.

و يلزمنا هنا التنويه بالملاحظه التاليه: إن القرآن الكريم لم يقل: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ بُيُوتَكُمْ سَكَنًا لَكُمْ، و إنما ذكر كلمه (من) التبعيضيه أولاً و قال: مِنْ بُيُوتِكُمْ و ذلك لدقه كلام الله التامه فى التعبير، حيث أن الدار أو الحجره الواحده تلحقها مرافق أخرى كالمخزن و الحمام و غيرها.

و بعد أن تطرق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابته عرّج على ذكر البيوت المتنقله فقال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا (١).

و هى من الخفه بحيث تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ - أى رحيلكم - وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .

بل و جعل لكم: وَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ .

و كما هو معلوم فإن الشعر الذى يحمله بدن الحيوان بعضه خشن تماما كشعر الماعز و يطلق عليه (شعر)، و جمعه (أشعار)، و بعضه الآخر أقل خشونه بقليل و هو (الصوف) و جمعه (أصواف)، (و الوبر) أقل نعومه من الصوف و جمعه (أوبار)، و بديهى أن الاختلاف الحاصل فى طبيعته و خشونته يؤدى إلى تنوع الاستفاده

ص: ٢٧٨

١- ١) - إن صناعه الخيام من الجلود قليله فى عصرنا المعاش، و لكن الآيه المباركه أرادت أن تظهر أن هذا النوع من الخيام كان من أفضل الأنواع فى تلك الأزمان، و اختص بالذكر دون بقيه الأنواع ربما لكونها أكثر مأمنا أمام عواصف الصحراء الحارقه فى الحجاز.

منها، فمن بعضها تصنع الخيام، و من البعض الآخر يصنع اللباس، و من الثالث الفرش و هكذا..

أمّا عن المقصود بـ«الأثاث» و«المتاع» في الآيه فقد ذكر المفسّرون لذلك جملة احتمالات.

قال بعضهم: «الأثاث» بمعنى الوسائل المنزليه، و هي في الأصل من (أثّ) بمعنى الكثره و التجمع، و أطلقت على الوسائل و الأدوات المنزليه لكثرتها عادة.

و يطلق «المتاع» على كل ما يتمتع به الإنسان و يستفيد منه (فالمصطلحان إشاره إلى شيء واحد من جهتين مختلفتين).

و مع ملاحظه ما ذكر فاستعمال المصطلحين على التوالى يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها و أوبارها و أشعارها وسائل بيتيه كثيره تتمتعون بها.

و احتمال البعض و منهم «الفخر الرازى»: «الأثاث» بمعنى الأغطية و الملابس، و«المتاع» بمعنى الفرش، إلاّ أنه لم يذكر أى دليل لتفسيره.

و احتمال «الآلوسى» في (روح المعانى): «الأثاث» إشاره إلى الوسائل المنزليه، و«المتاع» إشاره إلى الوسائل المستخدمه في التجاره.

و يبدو أنّ ما قلناه أولاً أقرب من الجميع.

و ذكرت وجوه عديده في تفسير إلى حين و لكنّ الظاهر من مقصودها هو:

استفيدوا من هذه الوسائل في هذا العالم حتى نهايه الحياه فيه، و هو إشاره إلى عدم خلود الحياه في هذا العالم و ما فيه من وسائل و لوازم و أنّ كل ما فيه محدود.

### ٣- الظلال، المساكن، الأغطية:

و يشير القرآن الكريم إلى نعمه أخرى بقوله: **وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا.**

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية و الحفظ، و لهذا فقد أطلقت على المغارات و أماكن الاختفاء و فى الجبال.

و نرى إطلاق كلمه «الظلال» فى الآيه لتشمل كل الظلال، سواء كانت ظلال الأشجار أو المغارات الجبلية أو ظل أى شىء آخر، باعتبارها إحدى نعم الإلهيه (و حقيقه الأمر كذلك)، فكما يحتاج الإنسان إلى الثور فى حياته فكثيرا ما يحتاج إلى الظلل كذلك، لأن الثور إذا ما استمر فى اشراقه فسوف تكون الحياه مستحيله، و يكفينا أن نلمس ما لظل الكره الأرضيه (و المسمى بالليل) على حياتنا، و كذلك دور الظلال الأخرى خلال النهار فى مختلف الأمكنه و الحالات.

و كأن ذكر نعمه «الظلال» و «أكنان الجبال» بعد ذكر نعمه «المسكن» و «الخيام» فى الآيه السابقه، للإشاره إلى: أن طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثه.. واحدته تعيش فى المدن و القرى و تستفيد من بناء البيوت لسكناها، و أخرى تعيش الترحال و التنقل فتحمل معها الخيام، و ثالثه أولئك الذين يسافرون و ليس معهم مستلزمات المأوى.. و لم يترك البارى جل شأنه المجموعه الثالثه تعيش حاله الحيره من أمرها، بل فى طريقهم الظلال و المغارات لتقيهم.

و قد لا يدرك سكنه المدن ما لوجود المغارات الجبلية من أهميه، و لكنّ عابرى الصحارى و المسافرين العزل و الرعاه و كل من حرم من نعمه البيوت الثابته أو السياره (مؤقتا أو دائما) عند ما يكونون تحت سطوه حراره الصيف اللاهبه أو تحت وطأه زمهرير الشتاء القارص، سيعرفون عندها أهميه تلك المغارات، و خصوصا كونها بارده فى الصيف و دافئه فى الشتاء، و هى ملاذ ينجى من موت قريب فى بعض الأحيان - للإنسان أو الحيوانات.

و بعد ذكر القرآن الكريم لنعمه الظلال الطبيعیه و الصناعيه، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ، وَ ثَمَّ أَلْبَسَهُ أُخْرَى تَسْتَعْمَلُ لِحَفْظِ أَبْدَانِكُمْ فِي الْحُرُوبِ وَ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ .

«السراويل»: جمع «سربال» (على وزن مثنى)، بمعنى الثوب من أى جنس كان (على ما يقول الراغب في مفرداته)، و يؤيده فى ذلك أكثر المفسرين، و لكنّ البعض منهم قد اعتبر معنى السربال هو: لباس و غطاء لبدن الإنسان، إلا أنّ المشهور هو المعنى الأول.

و كما هو معلوم، فإنّ فائده الألبسه لا تنحصر فى حفظ الإنسان من الحر و البرد، بل تلبس الإنسان ثوب الكرامه و تقى بدنه من الأخطار الموجهه إليه، فلو تعرى الإنسان لكان أكثر عرضه للجراحات و ما شابها، و استناد الآيه المباركه على الخاصيه الأولى دون غيرها لأهميتها المميزه.

و لعل ذكر خصوص الحر فى الآيه جاء تماشياً مع ما شاع فى لغة العرب من ذكر أحد المتضادين اختصاراً، فيكون الثانى واضحاً بقربنه وجود الأول، أو لأنّ المنطقه التى نزل فيها القرآن الكريم كان دفع الحرّ فيها ذا أهميه بالغه عند أهلها.

و ثمّه احتمال آخر: أن يكون ذلك بلحاظ خطوره الإصابه بمرض ضربه الشمس المعروفه، و بتعبير آخر: إنّ تحمل الإنسان لحر أشعه الشمس الشديده أقل من تحمله و مقاومته للبرد، لأنّ حراره البدن الداخليه يمكن لها أن تعين الإنسان على تحمل البروده لحد ما.

و فى ذيل الآيه.. يقول القرآن مذكراً: كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ أى تطيعون أمره.

و طبيعى جداً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تنبّهه للنعم المختلفه التى تحيط بوجوده، و أنّ ضميره سيستيقظ و يتجه نحو المنعم قاصداً زياده معرفته به إذا ما امتلك أدنى درجات حسن الشكر.

و مع أنّ بعض المفسرين قد حصروا لكلمه «النعمه» فى الآيه ببعض النعم:

كنعمه الخلق، و تكامل العقل، أو التوحيد، أو نعمه وجود النّبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم إلاّ أنّ معنى الكلمه أوسع من ذلك، ليشمل كل النعم (المذكور منها أو غير المذكور)، و ما

التخصيص في حقيقته إلا من قبيل التفسير بالمصداق الواضح.

و بعد ذكر هذه النعم الجليله..يقول عزّ و جلّ أنّهم لو اعرضوا و لم يسلموا للحق فلا تحزن و لا تقلق، لأنّ وظيفتك إبلاغهم: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

و مع كل ما يمتلكه المتكلم من منطق سليم و مدعّم بالاستدلال الحق و الجاذبيه، إلا أنّه لا يؤثر في المخاطب ما لم يكن مستعدا لاستماع و قبول كلام المتكلم، و بعبارة أخرى: إنّ (قابليه المحل) شرط في حصول التأثير.

و على هذا، فإن لم يسلم لك أصحاب القلوب العمياء و من امتاز بالتعصب و العناد، فذلك ليس بالأمر الجديد، و ما عليك إلا أن تصدع ببلاغ مبين و أن لا تقصر في ذلك و المراد من هذا المقطع القرآني هو مواساه النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و تسليته. و تكميلا للحديث.. يضيف القرآن الكريم القول: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا .

فعلّه كفرهم ليست في عدم معرفتهم بالنعم الإلهيه و إنّما بحملهم تلك الصفات القبيحه التي تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى و العناد في معاداه الحق، و تقديم منافعهم الماديه على كل شىء، و تلوّثهم بمختلف الشهوات، بالإضافة إلى مرض التكبر الغرور.

و لعل ما جاء في آخر الآيه وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ إشارة لهذه الأسباب المذكوره.

و قد جذبت كلمه «أكثرهم» انتباه و اهتمام المفسرين و راحوا يبحثون في سبب ذكرها...حتى توصل المفسرون إلى أسباب كثيره كلّ حسب زاويه اهتمامه في البحث، و لكنّ ما ذكرناه يبدو أقرب من كلّ ما ذكروه، و خلاصته: إنّ أكثرية الكفار هم من أهل التعصب و العناد، و الذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم فهم القلّه قياسا إلى أولئك.

و يشاهد في القرآن الكريم مقاطع قرآنيه تطلق الكفر على ذلك النوع الناشئ من التكبر و العناد، و منها ما يتحدث عن الشيطان كما جاء في الآيه (٣٤) من سوره البقره أَبِي وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ .

و احتمال البعض: أنّ المقصودين ب«أكثرهم» من تمت عليهم الحجّه في قبال أقليه لم تتم عليهم الحجّه بعد، و هذا المعنى يمكن أن يعود إلى المعنى الأول.

## بحثان

## اشاره

### ١- كلمات المفسرين

ما نطالعه في كلمات المفسرين المتعدده بخصوص تفسير نِعَمَتَ اللَّهِ فِي الْآيَةِ لَا يَعدو غالبا من قبيل التفسير بالمصداق، في حين أنّ مفهوم «نعمه الله» من السعه بحيث يشمل جميع النعم الماديه و المعنويه، حتى أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم يعتبر أحد المصاديق الحيّه لنعمه سبحانه و تعالى.

و روايات أهل البيت عليهم السلام تؤكد على أنّ المقصود ب«نعمه الله» هو وجود الأئمه المعصومين عليهم السلام.

و

في روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «نحن و الله نعمه الله التي أنعم بها على عباده، و بنا فاز من فاز» (١).

فواضح أنّ السعاده و النجاح لا يمكن إدراكهما إلاّ عن طريق قاده الحق و هم الأئمه عليهم السلام فوجودهم إذن من أوضح و أفضل النعم الإلهيه (و قد ذكر هنا لأنّه أحد المصاديق الجليه لنعم الله سبحانه).

ص: ٢٨٣

لقد توقف بعض المفسرين عند كلمه «ثم» من قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا، لأن استعمالها عادة كأداة عطف مع وجود فاصله بين أمرين، و لذلك فتمه فاصله بين معرفتهم لنعم الله و بين إنكارهم للنعم، فقالوا: إن الهدف من هذا التعبير تبيان ما ينبغى عليهم من الاعتراف بالتوحيد بعد معرفتهم بنعمه الله، و كان عليهم أن يذعنوا لذلك الاعتراف، إلا أنهم ساروا فى طريق الباطل فاستبعد القرآن عملهم و عبر عن ذلك بكلمه «ثم».

و نحتمل أن «ثم» هنا إشاره إلى معنى خفى، خلاصته: أن دعوه الحق عند ما تتوغل إلى دواخل الروح الإنسانيه عن طريق أصولها المنطقيه السليمه، فإنها ستصطدم مع عوامل السلب و الإنكار الموجود فيه أحيانا، فيستغرق ذلك الجدل أو الصراع الداخلى مدّه تتناسب مع حجم قوّه و ضعف تلك العوامل، فإن كانت عوامل النهى و الإنكار أقوى فإنها ستغلبها بعد مدّه.. و عبر القرآن عن تلك الحاله بكلمه «ثم».

و الآيتان (٦٤ و ٦٥)، من سوره الأنبياء ضمن عرضهما لقصه إبراهيم عليه السلام تتحدثان عن قوّه احتجاج نبي الله إبراهيم عليه السلام بعد أن حطم أصنامهم جميعها إلا كبيرها ممّا تركهم فى الوهله الأولى يغوصون فى تفكير عميق، ممّا حدا بهم لأن يلوّموا أنفسهم و كادوا أن يهتدوا إلى الحقّ لو لا وجود تلك الرواسب من العوامل السلبيه فى نفوسهم (التعصب، الكبر، العناد) التى أمالت كفه انحرافهم على قبول دعوه الحق، فعادوا من جديد إلى ما كانوا عليه، و لوصف تلك الحاله نرى القرآن قد استعمل كلمه «ثم» أيضا: فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ .

و على هذا فمعنى «الكافرون» يتوضح بشكل أدق عند وجود كلمه «ثم».

اشاره

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

التفسير

اشاره

عند ما تغلق الأبواب أمام المجرمين:

بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة وجود منكرى الحق و عدم



اعترافهم بالنعم الإلهية، يتطرق في هذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهي الشديد الذى ينتظر أولئك فى عالم الآخرة، لينبه الغافل من سباته، فعسى أن يعيد النظر فى مواقفه المنحرفه قبل فوات الأوان، فيقول أولاً: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (١).

و هل ثمه حاجه إلى شاهد مع وجود علم الله المطلق؟ قد يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال عند قراءه الآيه، و تتضح الإجابة على ذلك من خلال التدقيق فى الملاحظه التاليه: إنَّ الأمور غالباً ما يقصد فيها الجانب النفسى و الروحى، و الإنسان كلما أيقن بوجود الشهود و المراقبين عليه من قبل الله سبحانه ازداد فى محاسبه نفسه، و أقل ما يمكن أن يذكر بهذا الصدد ما سيصيبه من خجل يوم مواجهتهم مع ما اقترفت يداه.

و بخصوص تلك المحكمه، تأتى الآيه لتقول: ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .

و هل من الممكن أن لا يأذن الله للمجرمين فى الدفاع عن أنفسهم؟ نعم، و ذلك لعدم الحاجه للسان فى ذلك اليوم العظيم، لأنَّ الجوارح من رجل و أذن و عين و كذلك الجلد، بل و حتى الأرض التى أطاع الإنسان عليها أو عصى، كلها ستشهد عليه، و يمكن استفاده هذا المعنى من آيات قرآنيه أخرى كآييه (٦٥) من سوره يس و الآيه (٣٦) من سوره المرسلات.

بل و يزداد على عدم السماح لهم بالكلام ب و لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٢) .

لأنَّ هناك محل مواجهه نتائج الأعمال و ليس يوم العمل و الإصلاح، و هم حينها كالثمره المقطوفه التى انتهى زمن نموها.

ص: ٢٨٦

١- ١) - أَل «يوم» هنا ظرف متعلق بفعل مقدّر، و أصل العبارة: (و ليذكروا) أو (و اذكروا).

٢- ٢) - يستعتبون: من الاستعتاب، و هى فى الأصل من (العتاب) و هو التحدث بلهجه شديده و لوم، فيكون مفهوم الاستعتاب: أن يطلب المذنب من صاحب الحق عقابه فيصيح سبياً لسكون غضبه و حصول رضاه، و لهذا اعتبر البعض، أن الاستعتاب بمعنى الاسترضاء.. فى حين أن حقيقه مفهومه ليس الاسترضاء، و إنما هو لازم له.

و تشرح الآيه التاليه حال الظالمين بعد انتهاء مرحله حسابهم و دخولهم فى العذاب، و كيف أنهم يطلبون تخفيف شده العذاب تاره، و يطلبون إمهالهم مده تاره أخرى، فتقول: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

و الآيتان أشارتا إلى أربع مراحل لأهوال المجرمين (و هو ما نشاهد شبيهه فى حياتنا الدنيا):

المرحلة الأولى: سعى المجرم للتوصل و التزوير لتبرئه نفسه، و إن لم يحصل على هدفه يسعى إلى المرحلة التاليه.

المرحلة الثانيه: يستعذب صاحب الحق و يمتص غضبه وصولا لرضاه، و إذا لم ينفعه ذلك ينتقل إلى المرحلة الثالثه.

المرحلة الثالثه: يطلب تخفيف العذاب، فيقول: عاقبنى و لكن خفف العذاب! و إن لم يستجاب له لعظم ذنبه فإنه سيطلب الطلب الأخير...

المرحلة الرابعه: يطلب الإمهال و التأجيل، و هو المحاوله الأخيره للنجاه من العقاب...

إلا أن القرآن الكريم يجب عن طلبات المجرمين بعدم حصول إذن الدفاع عنهم، و لا يمكنهم تحصيل رضا المولى جل و علا، و لا يخفف عنهم العذاب، و لا هم ينظرون، لأن أعمالهم من القباحه و ذنوبهم من العظمه تسد كل أبواب الاستجابه.

و فى الآيه التاليه.. يستمر الحديث عن عاقبه المشركين، و كيف أنهم سيحشرون فى جهنم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية و البشريه، فتقول الآيه المباركه واصفه حالهم: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ، فهذه المعبودات هى التى وسوست لنا للوقوع فى درك العمل القبيح، و هى شريكنا فى الجرم أيضا، فارفع عنا بعض العذاب و اجعله لها!

و عندها... تبدأ تلك الأصنام بالتكلم (ياذن الله): فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ، فلم تكن شركاء لله، و مهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

### و هنا ينبغى التذكير ببعض الملاحظات:

١- إن استعمال كلمه «شركاءهم» بدلا من «شركاء الله» للدلاله على أنّ الأصنام ما كانت فى حقيقتها شريكه لله عزّ و جلّ، بل إنّ عبده الأصنام و المشركين هم الذين نسبوها بهذا النسب خيالا و كذبا، فمن الحرى أن تنسب لهم و ليس إلى الله سبحانه.

و يؤيد ذلك ما مرّ علينا فيما سبق من تخصيص عبده الأصنام بعض مواشيهم و محصولاتهم الزراعيه مشاركه بينهم و بين الأصنام أى أنّهم جعلوا الأصنام شريكه لهم فى هذه الأنعام.

٢- يستفاد من الآيه أنّ الأصنام تحضر عرصه يوم القيامه أيضا، و ليس المعبودات البشريه فقط كفرعون و النمرود.

و الآيه (٩٨) من سوره الأنبياء: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ تَوْيِدُ ذَلِكَ.

٣- و تظهر الآيه قول المشركين يوم القيامه من أنّهم كانوا يعبدون هذه الأصنام: هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ و هذا القول يتضمن صدقهم فى قولهم فلا معنى لتكذيب الأصنام لهم فى هذه المقوله.

و لكن من الممكن أن يكون التكذيب بمعنى عدم لياقه الأصنام لأن تكون معبوده من دون الله. أو أنّ المشركين قد أضافوا جملة أخرى مفادها أنّ هذه المعبودات قد دعتنا و وسوست لنا لعبدها، فتكذبهم الأصنام بأنّها لا تملك القدره أصلا على الوسوسه و الإيحاء.

٤- لعل ورود جمله فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ بدل «قالوا لهم» لعدم قدره الأصنام على التكلم بنفسها، فيكون قولها عباره عن إلقاء من قبل الله فيها، أى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَلْقَى إِلَيْهَا، وهى بدورها تلقيه إلى المشركين.

و تأتى الآيه التاليه لتبين أَنَّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، و يسمعون جواب قولهم، سيتوجهون إلى حاله أخرى... وَ أَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ (١) مسلمين لله، مدعين لعظمته جل و علا، لأنَّ غرور و تعصب الجاهلين قد أزيل برؤيه الحق الذى لا مفر من تصديقه و الإذعان إليه.

و فى هذه الأثناء، و حيث كل شىء جلى كوضوح الشمس.. وَ صَلَّى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ. فتبطل كذبتهم بوجود شريك لله، و كذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعه الأصنام لهم عند الله، عند ما يلمسون عدم قدره الأصنام للقيام بأى عمل، بل و يرونها محشوره معهم فى نار جهنم!.

و بهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبا حول انحراف المشركين الضالين و غرقهم فى درك الشرك، دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه.. و بعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، و إنما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! يقول: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ .

فهم شركاء فى جرم الآخرين إضافه لما عليهم من تبعات أعمالهم، لأنهم كانوا عاملا مؤثرا للفساد على الأرض و إضلال خلق الله بالصد عن سبيله.

و ذكرنا مرارا و انطلاقا من منطق الاجتماع الإسلامى أَنَّ من يسن سنَّه (حسنه أم سيئه) فهو شريك العاملين بها ثوابا أو عقابا، و الحديث المشهور يبين لنا هذا المعنى بوضوح:

«من استن بسنَّه عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن

ص: ٢٨٩

١ - ١) - احتمال بعض المفسرين كصاحب الميزان: أَنَّ إظهار التسليم هنا كان من جانب عبده الأصنام فقط دون الأصنام، و يؤيد ذلك ما ورد فى ذيل الآيه.

ينتقص من أجورهم شيء و من استن سنه جور فاتح كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

و على آيه حال، فالآيات القرآنية و الأحاديث الشريفه توضح مسئوليه الرؤساء و الموجهين أمام الله و أمام الناس.

و تتناول الآيه أيضا مسأله وجود الشهيد فى كل أمه (و الذى ذكر قبل آيات معدوده)، و لمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم:  
وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

و وجود هؤلاء الشهود، و على الخصوص من الأشخاص الذين ينهضون لهذه المهمه من وسط نفس الأمم، لا يتعارض مع علم الله تعالى و إحاطته بكل شيء، بل هو للتأكيد على مراقبه أعمال الناس، و للتنبيه على وجود المراقبه الدائمه بشكل قطعى.

و مع أن عموم الحكم فى هذه الآيه يشمل المجتمع الإسلامى و النبى صلى الله عليه و آله و سلم، إلا أن القرآن الكريم فى مقام التأكيد قال: وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ .

و قيل إن المقصود ب«هؤلاء» المسلمون الذين يعيشون فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو الرقيب و الناظر و الشاهد على أعمالهم، و من الطبيعى أن يكون ثمه شخص آخر يأتى بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليكمل طريقه فيكون شهيدا على الأمة (و هو من وسطها)، و ينبغى أن يكون طاهرا من كل ذنب و خطيئه، ليتمكن من إعطاء الشهاده حقها.

و لهذا.. اعتمد بعض المفسرين (من علماء الشيعة و السنه) على كون الآيه بمثابة الدليل على وجود شاهد، حججه، عادل، فى كل عصر و زمان. و ضروره وجود الإمام المعصوم فى كل زمان، و هذا المنطق يتفق مع مذهب أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم من المذاهب الإسلاميه.

و لعل لهذا السبب عرض الفخر الرازى فى تفسيره عند مواجهته لهذا الإشكال

توجيهها لا يخلو من إشكال أيضا حيث قال: (فحصل من هذا أن عصرا من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس، و ذلك الشهيد لا بد أن يكون غير جائر الخطاء و إلا لافتقر إلى شهيد آخر، و يمتد ذلك إلى غير النهايه، و ذلك باطل، فيثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجّه بقولهم، و ذلك يقتضى أن يكون إجماع الأئمه حجّه) (١).

لو أنّ الفخر الرازى تجاوز قليلا حدود عقائده لم يكن ليسقط في هكذا تناقض و عناد فاحش. لأنّ القرآن يقول: يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ و ليس مجموع الأئمه شاهدا على كل فرد من أفراد الأئمه.

و كما ذكرنا عند تفسيرنا للآيه (٤١) من سوره النساء أنّ هناك احتمالين آخرين في تفسير «هؤلاء»:

الأول: أنّ «هؤلاء» إشاره إلى شهداء الأمم السابقيه من الأنبياء عليهم السّلام و الأوصياء، فيكون النّبي شاهدا على هذه الأئمه و شاهدا على الأنبياء السابقين أيضا.

الثاني: المقصود من الشاهد هنا هو الشاهد العملى، أى: شخص يكون وجوده قدوه و ميزانا لتمييز الحق من الباطل.

(و المزيد من الإيضاح، راجع ذيل الآيه (٤١) من سوره النساء).

و بما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل و جامع للناس بما تتم فيه الحجّه عليهم، و يصح فيه مفهوم النظاره و المراقبه، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

ص: ٢٩١

## ١- القرآن تبيان لكل شيء:

من أهم ما تطرقت له الآيات المباركات هو أنّ القرآن مبین لكل شيء.

«تبيان» (بكسر التاء أو فتحها) له معنى مصدرى (١)، ويمكن الاستدلال بوضوح على كون القرآن بياناً لكل شيء من خلال ملاحظته سعة مفهوم «كل شيء»، ولكن بملاحظته أن القرآن كتاب تربيته وهدايته للإنسان وقد نزل للوصول بالفرد والمجتمع - على كفاه الأبعده الماديه والمعنويه - إلى حال التكامل والرقى، يتّضح لنا أنّ المقصود من كل «شيء» هو كل الأمور اللّازمه للوصول إلى طريق التكامل، والقرآن ليس بدائره معارف كبيره وحاويه لكل جزئيات العلوم الرياضيه والجغرافيه والكيميائيه والفيزيائيه... إلخ، وإنّما القرآن دعوه حق لبناء الإنسان، وصحيح أنّه وجه دعوته للناس لتحصيل كل ما يحتاجونه من العلوم، و صحيح أيضاً أنّه قد كشف الستار عن الكثير من الأجزاء الحساسه فى جوانب علميه مختلفه ضمن بحوثه التوحيديه والتربيّه، ولكن ليس ذلك الكشف هو المراد، وإنّما توجيه الناس نحو التوحيد والتربيّه الربانيه التى توصل الإنسان إلى شاطئ السعاده الحقه من خلال الوصول لرضوانه سبحانه.

و يشير القرآن الكريم تاره إلى جزئيات الأمور والمسائل، كما فى بيانه لأحكام كتابه العقود التجاريه وسندات القرض، حيث ذكر (١٨) حكماً فى أطول آيه قرآنيه وهى الآيه (٢٨٢) من سوره البقره (٢).

و تاره أخرى يعرض القرآن المسائل الحياتيه للإنسان بصورها الكليه، كما فى الآيه التى ستأتى قريباً، حيث يقول:

ص: ٢٩٢

١ - ١) - نقل «الآلوسى» فى (روح المعانى) عن بعض الأدباء: أن جميع المصادر على وزن (تفعال) تفتح تأوها إلا - مصدرين «تبيان» و «تلقاء». و يعتبرها بعض مصدرًا، و بعض آخر يعتبرها اسم مصدر.

٢ - ٢) - راجع ذيل تفسير الآيه (٢٨٢) من سوره البقره.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ

و كذلك عموم مفهوم الوفاء بالعهد في الآية (٣٤) من سورة الإسراء: إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا، و عموم مفهوم الوفاء بالعقد في الآية الأولى من سورة المائدة: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، و لزوم أداء حق الجهاد كما جاء في الآية (٧٨) من سورة الحج: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ و كمفهوم إقامه القسط و العدل كما جاء في الآية (٤٥) من سورة الحديد: لِيُقِيمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، و عموم مفهوم رعايه النظم في كل الأمور في الآيات (٧،٨،٩) من سورة الرحمن: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ و عموم الميزان أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ و عموم مفهوم الامتناع عن فعل الفساد في الأرض كما في الآية (٨٥) من سورة الأعراف: وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، بالإضافة إلى الدعوه للتدبر و التفكير و التعقل التي وردت في آيات كثيرة في القرآن الكريم، و أمثال هذه التوجيهات العامه كثيره في القرآن، لتكون للإنسان نبراسا وهاجا في كفه مجالات الفكر و الحياه و الإنسان.. و كل ذلك يدلل بما لا يقبل التردد أو الشك على أن القرآن الكريم «فيه تبيان لكل شيء».

بل و حتى فروع هذه الأوامر الكليه لم يهملها البارى سبحانه، و إنما عيّن لها من يؤخذ منه التفاصيل، كما تبين لنا ذلك الآية (٧) من سورة الحشر: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا.

و الإنسان كلما سبح في بحر القرآن الكريم و توغل في أعماقه، و استخراج برامجا و توجيهات توصله إلى السعاده، اتضح له عظمه هذا الكتاب السماوى و شموله.

و لهذا، فمن استجدى القوانين من ذا و ذاك و ترك القرآن، فهو لم يعرف القرآن، و طلب من الغير ما هو موجود عنده.

و إضافة لتشخيص الآية المباركه مسأله أصاله و استقلال تعاليم الإسلام في



كل الأمور، فقد حملت المسلمين مسئولية البحث و الدراسة في القرآن الكريم باستمرار ليتوصلوا لاستخراج كل ما يحتاجونه.

و قد أكدت الروايات الكثيره على مسأله شمول القرآن ضمن طرقها لهذه الآيه و ما شابهها من آيات.

منها: ما

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ الله تبارك و تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى و الله ما ترك شيئا تحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن، إلا و قد أنزله الله فيه» (١).

و

في روايه أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إنَّ الله تبارك و تعالى لم يدع شيئا تحتاج إليه الأئمه إلا أنزله في كتابه و بينه لرسوله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و جعل لكل شيء حدا، و جعل عليه دليلا يدل عليه، و جعل على من تعدى ذلك الحد حدا» (٢).

و جاء في الروايات الشريفه الإشاره الى هذه المسأله أيضا. و هي أنه مضافا الى ظواهر القرآن و ما يفهمه منها العلماء و سائر الناس، فإنَّ باطن القرآن بمثابة البحر الذي لا يدرك غوره، و فيه من المسائل و العلوم ما لا يدركها إلا النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و أوصياؤه بالحق، و من هذه الروايات ما

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا و له أصل في كتاب الله عزَّ و جلّ، و لكن لا تبلغه عقول الرجال» (٣).

إنَّ عدم إدراك العامه لهذا القسم من العلوم القرآنيه الذي يمكننا تشبيهه ب(عالم اللاشعور) لا يمنع من التحرك في ضوء(عالم الشعور) و على ضوء ظاهره و الاستفادة منه.

ص: ٢٩٤

١-١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٧٤.

٢-٢) - المصدر السابق.

٣-٣) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٧٥.

## ٢- مراحل الهدايه الأربع

إن الآيه أعلاه ذكرت أربعة تعابير متلازمه حسب تسلسلها لتوضيح الهدف من نزول القرآن:

١- تبياننا لكل شىء.

٢- هدى.

٣- رحمه.

٤- بشرى للمسلمين.

و لو أمعنا النظر لوجدنا ثمة ارتباطا منطقيا واضحا بين هذه التعابير، فكلّ منها يرمز إلى مرحله معينه، المرحله الأولى فى مسير الهدايه تستلزم البيان و التعليم، و بعدها تأتي مرحله الهدايه، و من ثم تأتي العمل الموجب للرحمه، و أخيرا البشرى بثواب الله لمن آمن و عمل صالحا و سرور جميع السائرين على طريق الحق.

ص: ٢٩٥

اشاره

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

التفسير

اشاره

أكمل برنامج اجتماعي:

بعد أن ذكرت الآيات السابقه أن القرآن فيه تبيان لكل شيء، جاءت هذه الآيه المباركه لتقدم نموذجا من التعليمات الإسلاميه فى شأن المسائل الاجتماعيه و الإنسانيه و الأخلاقيه، و قد تضمنت الآيه ستة أصول مهمه، الثلاث الأول منها ذات طبيعه إيجابيه و مأمور بالعمل بها، و البقيه ذات صفه سلبيه منهى عن ارتكابها.

فتقول فى البدء: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .

و هل يمكن تصور وجود قانون أوسع و أشمل من «العدل»؟! فالعدل هو القانون الذى تدور حول محوره جميع أنظمه الوجود، و حتى السماوات و الأرض فهى قائمه على أساس العدل «بالعدل قامت السماوات

و المجتمع الإنسانى الذى هو جزء صغير فى كيان هذا الوجود الكبير، لا- يقوى أن يخرج عن قانون العدل، و لا- يمكن تصور مجتمع ينشد السلام يحظى بذلك دون أن تستند أركان حياته على أسس العدل فى جميع المجالات.

و لما كان المعنى الواقعى للعدل يتجسد فى جعل كل شىء فى مكانه المناسب، فالانحراف و الإفراط و التفريط و تجاوز الحد و التعدى على حقوق الآخرين، ما هى إلا صور لخلاف أصل العدل.

فالإنسان السليم هو ذلك الذى تعمل جميع أعضاء جسمه بالشكل الصحيح (بدون أية زياده أو نقصان). و يحل المرض فيه و تتبين عليه علائم الضعف و الخوار بمجرد تعطيل أحد الأعضاء، أو تقصيره فى أداء وظيفته.

و يمكن تشبيه المجتمع ببدن إنسان واحد، فإنه سيمرض و يعتل إن لم يراع فيه العدل.

و مع ما للعدالة من قدره و جلال و تأثير عميق فى كل الأوقات- الطبيعى و الاستثنائى- فى عمله بناء المجتمع السليم، إلا أنها، ليست العامل الوحيد الذى يقوم بهذه المهمه، و لذلك جاء الأمر ب«الإحسان» بعد «العدل» مباشرة و من غير فاصله.

و بعبارة أوضح: قد تحصل فى حياه البشرى حالات حساسه لا يمكن معها حل المشكلات بالاستعانه بأصل العدالة فقط، و إنما تحتاج إلى إيثار و عفو و تضحيه، و ذلك ما يتحقق برعايه أصل «الإحسان».

و على سبيل المثال: لو أن عدوا غدارا هجم على مجتمع ما، أو وقعت زلزه أو فيضان أو عواصف فى بعض مناطق البلاد، فهل من الممكن معالجه ذلك بالتقسيم العادل لجميع الطاقات و الأموال، و تنفيذ سائر القوانين العاديه؟! هنا لا بدّ من تقديم التضحيه و البذل و الإيثار لكل من يملك القدره المالىه، الجسميه،

الفكرية، لمواجهة الخطر و إزالته، وإلا- فالطريق مهياً أمام العدو لإهلاك المجتمع كله، أو أن الحوادث الطبيعية ستدمر أكبر قدر من الناس و الممتلكات.

و الأصلان يحكمان نظام بدن الإنسان أيضا بشكل طبيعي، ففي الأحوال العادية تقوم جميع الأعضاء بالتعاقد فيما بينها، و كلّ منها يؤدي ما عليه من وظائف بالاستعانة بما تقوم به بقية الأعضاء (و هذا هو أصل العدالة).

و لكن.. عند ما يصاب أحد الأعضاء بجرح أو عطل يسبب في فقدانه القدره على أداء وظيفته، فإنّ بقية الأعضاء سوف لن تنساه، لأنّه توقف عن عمله، بل تستمر في تغذيته و دعمه... إلخ، (و هذا هو الإحسان).

و في المجتمع كذلك، حيث ينبغي للمجتمع السليم أن يحكمه هذان الأصلان.

و ما جاء في الروايات و في أقوال المفسرين، من بيانات مختلفه في الفرق بين العدل و الإحسان، لعل أغلبها يشير إلى ما قلناه أعلاه.

فمن علي عليه السلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، و الإحسان: التفضل» (1) و هذا ما أشرنا إليه.

و قال البعض: إنّ العدل: أداء الواجبات، و الإحسان: أداء المستحبات.

و قال آخرون: إنّ العدل: هو التوحيد، و الإحسان: هو أداء الواجبات.

(و على هذا التفسير يكون العدل إشاره إلى الاعتقاد، و الإحسان إشاره إلى العمل).

و قال بعض: العدالة: هي التوافق بين الظاهر و الباطن، و الإحسان: هو أن يكون باطن الإنسان أفضل من ظاهره.

و اعتبر آخرون: أنّ العدالة ترتبط بالأمر العمليّ، و الإحسان بالأمر، الكلاميه.

ص: ٢٩٨

و كما قلنا فإنَّ بعض هذه التفاسير ينسجم تماما مع التفسير الذي قدّمناه أعلاه، و بما أنّ البعض الآخر لا ينافيه فيمكن و الحال هذه الجمع بينهما.

أمّا مسأله إيتاء ذى القربى فتندرج ضمن مسأله «الإحسان» حيث أن الإحسان يشمل جميع المجتمع، بينما يخص هذا الأمر جماعه صغيره من المجتمع الكبير و هم ذوو القربى، و بلحاظ أنّ المجتمع الكبير يتألف من مجموعات، فكلما حصل فى هذه المجموعات انسجام أكثر، فإنَّ أثره سيظهر على كل المجتمع، و المسأله تعتبر تقسيما صحيحا للوظائف و المسؤوليات بين الناس، لأنّ ذلك يستلزم من كل مجموعه أن تمديد العون إلى أقربائها (بالدرجه الأولى) ممّا سيؤدى لشمول جميع الضعفاء و المعوزين برعايه و اهتمام المتمكنين من أقربائهم.

و على ما نجده فى بعض الأحاديث من أنّ المقصود ب«ذى القربى» هم أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و ذريته من الأئمه عليهم السلام، و المقصود ب إيتاء ذى القربى هو أداء الخمس، فإنّه لا يقصد منه تحديد مفهوم الآيه أبدا، بل هو أحد مصاديق المفهوم الواضح، و لا يمنع إطلاقا من شمول مفهوم الآيه الواسع.

لو اعتبرنا مفهوم «ذى القربى» بمعنى مطلق الأقرباء، سواء كانوا أقرباء العائله و النسب، أو أقرباء من وجوه أخرى، فسيكون للآيه مفهوم أوسع ليشمل حتى الجار و الأصدقاء و ما شابه ذلك (و لكنّ المعروف فى ذلك قربى النسب).

و لإعانه المجموعات الصغيره (الأقرباء) بناء محكم من الناحيه العاطفيه، إضافة لما لها من ضمانه تنفيذيه.

و بعد ذكر القرآن الكريم للأصول الإيجابيه الثلاثه يتطرق للأصول المقابله لها (السلبيه) فيقول: وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ .

و تحدث المفسّرون كثيرا حول المصطلحات الثلاثه «الفحشاء»، «المنكر»، «البغى»، إلّا أنّ ما يناسب معانيها اللغويه بقريته مقابله الصفات مع بعضها الآخر يظهر أنّ «الفحشاء»: إشاره إلى الذنوب الخفيه، و «المنكر»: إشاره إلى الذنوب

العنفيه، و«البغى»: إشاره إلى كل تجاوز عن حق الإنسان، و ظلم الآخرين و الاستعلاء عليهم.

قال بعض المفسرون (1): إن منشأ الانحرافات الأخلاقية ثلاث قوى: القوه الشهوانيه، القوه الغضبيه، و القوه الوهميه الشيطانيه.

أمّا القوه الشهوانيه فإنما ترغّب في تحصيل اللذائذ الشهوانيه و الغرق في الفحشاء، و القوه الغضبيه تدفع الإنسان إلى فعل المنكرات و إيذاء سائر الناس، و أمّا القوه الوهميه الشيطانيه فتوجد في الإنسان الاستعلاء على الناس و الترفع و حبّ الرياسه و التقدم و التعدى على حقوق الآخرين.

و أشار البارى سبحانه في المصطلحات الثلاثه أعلاه إلى طغيان غرائز الإنسان، و دعا إلى طريق الحق و الهدايه ببيان جامع لكل الانحرافات الأخلاقية.

و في آخر الآيه المباركه يأتي التأكيد مجددا على أهميه هذه الأصول الستة:

يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

### أشمل آيات الخير و الشر:

إنّ محتوى هذه الآيه المباركه له من قوه التأثير ما جعل كثيرا من الناس يصبحون مسلمين على بينه من أمرهم، و ها هو «عثمان بن مظعون» أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حيث قال: (كنت أسلمت استحياء من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لكثرة ما كان يعرض على الإسلام، و لم يقر الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئا، فلما سرى عنه سأته عن حاله فقال: نعم، بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآيه إنّ الله يأمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ قرأها علىّ إلى آخرها، فقر الإسلام في قلبي. و أتيت

ص: ٣٠٠

عمه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش، اتبعوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ترشدوا، فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق، و أتيت الوليد بن المغيرة و قرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال، وإن قاله ربه فنعم ما قال (١).

و نقرأ

في حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة فقال: (يا ابن أخي (٢) أعد، فأعاد صلى الله عليه وآله وسلم فقال الوليد: إن له الحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو قول البشر) (٣).

و

روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «جماع التقوى في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ (٤).

و نستفيد من هذه الأحاديث -و أحاديث أخرى أن الآية تعتبر دستور عمل إسلامي عام، و تمثل أحد مواد القانون الأساسي للإسلام في كل زمان و مكان، حتى

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه كان يقرأ الآية المباركة قبل الانتهاء من خطبه الجمعة ثم يقول بعدها: «اللهم اجعلنا ممن يذكر فتنته الذكري» (٥) ثم ينزل من على المنبر.

فإحياء الأصول الثلاثة «العدل، والإحسان، و إيتاء ذى القربى»، و مكافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء و المنكر، و البغى» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامره بالخير، و هادئه من كل اضطراب، و خاليه من أى سوء و فساد، و إذا روى عن ابن مسعود (الصحابي المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية في كتاب الله للخير و الشر) فهو للسبب الذى ذكرناه.

و يذكرنا محتوى الآية المباركة بالحديث

المروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

ص: ٣٠١

١-١) -مجمع البيان، ذيل تفسير الآية مورد البحث.

٢-٢) -قال هذا لأنه عم أبى جهل و كلاهما من قريش.

٣-٣) -مجمع البيان: ذيل تفسير الآية مورد البحث.

٤-٤) -نور الثقلين، ج ٣، ص ٧٨.

٥-٥) -الكافي على ما نقل عنه تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٧٧.



«صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي، فقيل: يا رسول الله، من هما؟ قال: الفقهاء و الأمراء».

و

ذكر المحدث القمى فى (سفينه البحار) حديثا بعد نقله لهذا الحديث مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تكلم النار يوم القيامة ثلاثه: أميراً، و قارئاً، و ذا ثروه من المال، فتقول للأمير: يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل، فتزدرده كما تزدر الطير حبّ السمسم، و تقول للقارئ: يا من تزين للناس و بارز الله بالمعاصي، فتزدرده، و تقول للغنى: يا من وهب الله له دنيا كثيره واسعها فيضا و سأله الحقير اليسير قرضاً، فأبى إلا بخلاً، فتزدرده؟ و قد بحثنا موضوع العدله باعتبارها ركناً إسلامياً مهماً جداً ضمن تفسيرنا للآيه (٨) من سوره المائده.

ص: ٣٠٢

إشارة

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُهْدِ اللَّهُ فَمَا لِيَتَّبِعَهُ لَيْسَ بِكُمْ خَافِيًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ أَدْبَارُكُمْ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

سبب النزول

يقول المفسر الكبير العلامة الطبرسي في (مجمع البيان) في شأن نزول أول

آيه من هذه الآيات أنها نزلت في الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الإسلام (وكان من المحتمل أن ينقض بعضهم البيعه لقله المسلمين و كثره الأعداء)، فقال سبحانه مخاطبا لهم لا يحملنكم قله المسلمين و كثره المشركين على نقض البيعه.

## التفسير

### إشارة

### الوفاء بالعهد دليل الإيمان:

بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيه السابقة بعض أصول الإسلام الأساسية (العدل، والإحسان، و ما شابههما)، يتناول في هذه الآيات قسما آخر من تعاليم الإسلام المهمه (الوفاء بالعهد و الإيمان).

يقول أولا: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ**، ثم يضيف: **وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**.

إنّ ظاهر معنى «عهد الله»-مع كثره ما قال المفسّرون فيه- هو: العهود التي يبرمها الناس مع الله تعالى (و بديهي أنّ العهد مع النبي عهد مع الله أيضا)، و عليه فهو يشمل كل عهد إلهي و بيعه في طريق الإيمان و الجهاد و غير ذلك.

بل إنّ التكليف الشرعيه التي يعلنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي من نوع من العهد الإلهي الضمني، و كذا الحال بالنسبه للتكليف العقليه، لأنّ إعطاء العقل و الإدراك من الله عزّ و جلّ للإنسان إنّما يرافقه عهد ضمني، و هكذا يدخل الجميع في المفهوم الواسع لعهد الله.

أمّا مسأله «الإيمان» (جمع يمين، أي: القسم) التي وردت في الآيه-و التي عرض فيها المفسّرون آراء كثيره- فلها معنى واسع، و يتّضح ذلك عند ملاحظه مفهوم الجمله حيث أنّه يشمل العهود التي يعقدها الإنسان مع الله عزّ و جلّ، بالإضافة إلى ما يستعمله من إيمان في تعامله مع خلق الله.

و بعبارة أخرى: يدخل بين إطار هذه الجمله كل عهد يبرم تحت اسم الله

و باستعمال صيغه القسم، و ما يؤكد ذلك ما تبعها من عباره تفسيريه تأكيديه وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا .

و نتيجة القول: أَنْ جملته أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ خَاصَّةً، و جملته لَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ عَامَّةً.

و حيث أَنَّ الوفاء بالعهد أهم الأسس في ثبات أيّ مجتمع كان، تواصل الآيه التاليه ذكره بأسلوب يتسم بنوع من اللوم و التوبيخ، فتقول: وَأَنْ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا (١).

و الآيه تشير إلى (رابطه) تلك المرأه التي عاشت في قريش زمن الجاهليه، و كانت هي و عاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار في غزل ما عندهن من الصوف و الشعر، و بعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن، و لهذا عرفت بين قومها ب (الحمقاء).

فما كانت تقوم به (رابطه) لا- يمثل عملا- بالا ثمر- فحسب- بل هو الحماقه بعينها، و كذا الحال بالنسبه لمن يبرم عهدا مع الله و باسمه، ثم يعمل على نقضه، فهو ليس بعابث فقط، و إنما هو دليل على انحطاطه و سقوط شخصيته.

ثم يضيف القرآن الكريم قائلا: تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ (٢)، أي لا- تنقضوا عهدكم مع الله بسبب أن تلك المجموعه أكبر من هذه فتقعوا في الخيانه الفساد.

و هذا دليل على ضعف شخصيه الفرد، أو نفاقه و خيانته حينما يرى كثره أتباع

ص: ٣٠٥

١- ١) - «أنكاث»: جمع (نكث) على وزن (قسط) بمعنى حل خيوطه الصوف و الشعر بعد برمها، و تطلق أيضا على اللباس الذي يصنع من الصوف و الشعر، و أمّا محل إعرابها في الآيه فهو (حال) للتأكيد على قول البعض، فيما اعتبرها آخرون (مفعولا- ثانيا) لفعل «نقضت» أي (جعلت غزلها أنكاثا).

٢- ٢) - «الدخل»: (على وزن الدغل)، بمعنى الفساد و التقلب و منها أخذ معنى (الداخل)، و ينبغي الالتفات إلى أنّ جملته تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ - على ما قلناه من تفسير- جملته حاله، إلا أنّ بعض المفسرين اعتبرها جملته استفهاميه، و التفسير الأوّل يوافق ظاهر الآيه.

المخالفين فيترك دينه القويم و ينخرط فى المسالك الباطله التى يتبعها الأكثرية.

و اعلموا إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ .

و اليوم الذى تكونون فيه كثره و أعداءكم قله ليس بيوم اختبار و امتحان، بل امتحانكم فى ذلك اليوم الذى يقف فيه عدوكم أمامكم و هو يزيدكم عددا بأضعاف مضاعفه و أنتم قله.

و على أية حال..ستتضح النتيجة فى الآخرة ليلاقى كل فرد جزاءه العادل:

وَ لَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

من هذا الأمر و غيره.

و الآيه التاليه تجيب على توهم غالبا ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهى و التأكيد على الالتزام بالعهود و الوظائف، و خلاصته: هل أن الله لا يقدر على إجبار الناس جميعا على قبول الحق؟ فتقول: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .

«أمة واحده» من حيث الإيمان و العمل على الحق بشكل إجبارى، و لكن ذلك سوف لا يكون خطوه نحو التكامل و التسامى و لا فيه أفضلية للإنسان فى قبوله الحق، و عليه فقد جرت سنه الله بترك الناس أحرارا ليسيروا على طريق الحق مختارين.

و لا تعنى هذه الحريه بأن الله سترك عباده و لا يعينهم فى سيرهم، و إنما بقدر ما يقدمون على السير و المجاهده سيحصلون على التوفيق و الهدايه و السداد منه جل شأنه، حتى يصلوا لهدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هذه النعمه الربانيه، فتراهم كلما طال المقام بهم ازدادوا ضلالا.

و لهذا يواصل القرآن الكريم القول ب: وَ لَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

و لكن الهدايه الإلهيه أو الإضلال لا تسلب المسؤوليه عنكم، حيث أن الخطوات الأولى على عواتقكم، و لهذا يأتى النداء الربانى: وَ كَتَسَلُّنَّ عَمَّا كُنْتُمْ

و تشير هذه العبارة إلى نسبة أعمال البشر إلى أنفسهم، و تؤكد على تحميلهم مسئولية تلك الأعمال، و تعتبر من القرائن الواضحة في تفسير مفهوم الهدايه و الإضلال الإلهيين و أن أيًا منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبدا.

و قد بحثنا هذا الموضوع سابقا(راجع تفسير الآيه (٢٤) من سوره البقره).

و تأكيدا على مسأله الوفاء بالعهد و الثبات فى الإيمان(باعتبار ذلك من العوامل المهمه فى ثبات المجتمع)يقول القرآن: وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَى وَسِيلَةً لِلْخِدَاعِ وَ النِّفَاقِ، لَأَنَّ فى ذلك خطرین كبيرین:

الأول: فَتَرَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا، لَأَنَّ من يبرم عهدا أو يطلق قسما و نيته أن لا يفى بذلك فسوف لا يعول عليه الناس و لا يثقون به، و مثله كمن وضع قدمه على أرض قد بدت له أنها صلبه و محكمه، إلا أنها زلته فى الواقع، و ستكون سببا فى انزلاقه و سقوطه.

الثانى: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فى هذه الدنيا وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فى الآخرة.

من الآثار السلبيه لنقض العهود و الأيمان شياع سوء ظن الناس و تنفرهم من الدين الحق، و تشتت الصفوف و فقدان الثقة حتى لا يرغب الناس فى الإسلام، و إن عقدوا معكم عهدا فسوف لا يجدون أنفسهم ملزمين بالوفاء به، و هذا ما يؤدي لمساوى، و مفسد كثيره و بروز حاله التخلف فى الحياه الدنيا.

و أما على صعيد الحياه الأخرى فإنه سيكون سببا للعقاب بالعذاب الإلهى.

## ١- فلسفه احترام العهد

كما هو معلوم فإنّ الثقة المتبادله بين أفراد المجتمع تمثل أهم دعائم رسوخ المجتمع، بل من دعائم تشكيل المجتمع وإخراجه من حالة الآحاد المتفرقه وإعطائه صفه التجمع، وبالإضافه لكون أصل الثقة المتبادله يعتبر السند القويم للقيام بالفعاليات الاجتماعيه والتعاون على مستوى واسع.

و العهد و القسم من مؤكادات حفظ هذا الارتباط و هذه الثقة، وإذا تصورنا مجتمعا كان نقض العهد فيه هو السائد، فمعنى ذلك انعدام الثقة بشكل عام فى ذلك المجتمع، و عندها سوف يتحول المجتمع الى آحاد متناثره تفتقد الارتباط و القدره و الفاعليه الاجتماعيه.

و لهذا نجد أنّ الآيات القرآنيه و الأحاديث الشريفه تؤكد باهتمام بالغ على مسأله الوفاء بالعهد و الأيمان، و تعتبر نقضها من كبائر الذنوب.

و قد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهميه هذا الموضوع فى الإسلام و الجاهليه و اعتبره من أهم المواضيع فى

قوله عند عهده لمالك الأشتر «فإنّه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعا من تفرق أهوائهم و تشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهد، و قد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استولوا من عواقب الغدر» (١).

و نجد فى أحكام الحرب الإسلاميه أنّ إعطاه الأمان من قبل فرد واحد من جيش المسلمين لشخص أو كتيبه من كتائب العدو يوجب مراعاة ذلك على كل المسلمين! يقول المؤرخون و المفسرون: من جمله الأمور التى جعلت الكثير من الناس

ص: ٣٠٨

فى صدر الإسلام يعتنقون هذا الدين الإلهى العظىم هو التزام المسلمىن الراسخ بالعهود و المواثىق و رعائىتهم لأىمانهم.

و ما لهذا الأمر من أهمىة بحتى دفع سلمان الفارسى لأن يقول: (تهلك هذه الأمة بنقض مواثىقها) (١).

أى أنّ الوفاء بالعهد و الميثاق كما أنّه يوجب القدره و النعمه و التقدم، فنقضهما يؤدى إلى الضعف و العجز و الهلاك.

و نجد فى التأرىخ الإسلامى أنّ المسلمىن عند ما غلبوا جيش الساسانىىن فى عهد الخلفه الثانى و أسروا الهرمزان قائد جيش فارس، و جاؤوا به إلى عمر، قال له عمر: ما حجتك و ما عذرک فى انتقاضك مرّه بعد أخرى؟ فقال: أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك.

قال: لا تخف ذلك، و استسقى ماء فأتى به فى قدح غلىظ.

فقال: لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا! فأتى به فى إناء ىرضاه..

فقال: إتنى أخاف أن أقتل و أنا أشرب.

فقال عمر: لا بأس علىک حتى تشربه، فأكفأه...

فقال عمر: أعىدوا علیه و لا تجمعوا علیه بىن القتل و العطش..

فقال: لا حاجه لى فى الماء، إنّما أردت أن أستأمن به.

فقال عمر له: إتنى قاتلك.

فقال: قد أمنتنى.

فقال: كذبت.

قال أنس: صدق یا أمىر المؤمنىن قد أمنته.

فقال عمر: یا أنس، أنا أو من قالت مجزأه بن ثور، و البراء بن مالک! و لله لتأتىن

ص: ٣٠٩



بمخرج أو لأعاقبتك.

قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني، و لا بأس عليك حتى تشربه..

و قال له من حوله مثل ذلك...

فأقبل على الهرمزان و قال: خدعتني، و الله لا أنخدع إلا أن تسلم فأسلم (١).

## ٢- ما لا يقبل في نقض العهود:

إنَّ قبح نقض العهد الشناعه بحيث لا أحدا على استعداد لأن يتحمل مسئوليته بصراحه إلا النادر من الناس حتى أن ناقض العهد يلتمس لذلك اعدارا و تبريرات مهما كانت واهيه لتبرير فعلته. و قد ذكرت لنا الآيات أعلاه نموذجا لذلك.. فبعض المسلمين يتذرعون بحجج واهيه ككثرة الأعداء و قله المؤمنين للتوصل من عهودهم مع الله و النبي صلى الله عليه و آله و سلم فتكون مواقفهم متزلزله، في حين أن الأ-كثريه من حيث العدد لا- تمثل القدره و القوه في واقع الحال، و انتصار القله المؤمنه على الكثره غير المؤمنه من الشواهد المعروفه في تأريخ البشريه، ثم إنَّ حصول القدره و القوه للأعداء-على فرض حصولها- لا تسوغ لأن تكون مبررا مقبولا لنقض العهد، و لو دققنا النظر في الأمر لرأينا في واقعه أنه نوع من الشرك و الجهل بالله عز و جلّ.

و قد تجسّد هذا الموضوع بعينه في عصرنا الحاضر و لكن بصوره أخرى..

فقسم من الدول الإسلاميه الصغيره في الظاهر قد تنصلت عن أداء وظائفها في نصره المؤمنين لخوفها من الدول الاستعماريه الكبرى، فتقدم في حساباتها قدره البشر الهزيله على قدره الله المطلقه، و تلتجئ إلى غير الله و تخشى غيره، و تنقض عهدها مع بارئها، و كل ذلك من بقايا الشرك و عباده الأصنام.

ص: ٣١٠

إشارة

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

سبب النزول

نقل المفسر الكبير العلامة الطبرسي عن ابن عباس قوله: إن رجلا من حضر موت يقال له عيدان الأشرع قال: يا رسول الله، إن امرأ القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي فذهب بها مني، والقوم يعلمون إنني لصادق، ولكنه أكرم عليهم مني، فسأل رسول الله أمرا القيس عنه فقال: لا أدري ما يقول، فأمره أن يحلف. فقال عيدان: إنه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه، فلما ذا قال ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله:

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ...

الآيتان فلما قرأهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال امرؤ القيس: أما ما عندي فينفد وهو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه ولم أدركم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء ومثلها معها بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه من عمِلَ صَالِحًا... الآية.

## ثمن الحياه الطيبه:

جاءت الآيه الأولى من هذه الآيات لتؤكد على قبح نقض العهد مره أخرى و لتبين عذرا آخر من أعدار نقض العهد الواهيه،فحيث تطرقت الآيات السابقه إلى عذر الخوف من كثره الأعداء تأتي هذه الآيه لتطرح ما للمصلحه الشخصيه (الماديه)من أثر سلبي على حياه الإنسان.

و لهذا تقول: **وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .**

أى إن قيمه الوفاء بعهد الله لا تدانيتها قيمه،و لو استلتمت زمام ملك الدنيا بأسرها فإنه لا يساوى قيمه لحظه واحده من الوفاء بعهد الله.

و تضيف الآيه المباركه للدلاله على هذا الأمر: **إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .**

و يبين القرآن فى الآيه التاليه سبب الأفضليه بقوله: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** لأن المنافع الماديه و إن بدت كبيره فى الظاهره،إلا أنها لا تعدو أن تكون فقاعات على سطح ماء،فى حين أن الجزاء و الثواب الإلهى النابع من ذات الله المطلقه المقدسه أعلى و أفضل من كل شىء.

ثم يضيف قائلاً: **وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ -و على الأخص فى الثبات على العهد و الأيمان- بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .**

إنّ التعبير ب«أحسن» دليل على أنّ أعمالهم الحسنه ليست بدرجه واحده، فبعضها حسن و البعض الآخر أحسن،و لكنّ الله تعالى يجزى الجميع بأحسن ما كانوا يعملون،و هو ذروه اللطف و الرحمه الربانيه،كما لو مثلنا لذلك فى مثل من حياتنا كأن يعرض بائع أنواعا من البضائع المتفاوته فى النوعيه،فقسم منها بضائع جيده،و قسم آخر بضائع رديئه،و البقيه بين الإثنين،فيأتى مشترى ليأخذ الجميع بسعر النوعيه الجيده!

و لا تخلو جملة وَ لَنْجَزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا... من الإشاره إلى أن الصبر و الثبات فى السير على طريق الطاعه، و خصوصا حفظ العهود و الإيمان هى من أفضل أعمال الإنسان.

و

قد روى عن على عليه السلام قوله: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، و لا خير فى جسد لا رأس معه، و لا فى إيمان لا صبر معه» (١).

ثم بيّن القرآن الكريم بعد ذلك -على صورته قانون عام- نتائج الأعمال الصالحه المرافقه للإيمان التى يؤديها الإنسان و بأيه صورته كانت فى هذه الدنيا و فى الآخرة، فيقول: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَ لَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

و عليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحه الناتجه عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانه الاجتماعيه أو ما شابه ذلك فى هذا الأمر.

و«الحياه الطيبه» فى هذه الدنيا هى النتاج الطبيعى للعمل الصالح النابع من الإيمان، أى أن المجتمع البشرى سيعيش حينها حياه هادئه مطمئنه ملؤها الرفاه و السلم و المحبّه و التعاون، بل و كل ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانيه، و فى أمان من الآلام الناتجه عن الاستكبار و الظلم و الطغيان و عباده الأهواء و الأنانيه التى تملأ الدنيا ظلما و ظلامات.

و علاوه على كل ما تقدم فإن الله سيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون (كما تقدم تفسيره).

ص: ٣١٣

## ١- منابع الخلود

إنَّ طبيعه الحياه فى هذا العالم المادى هى الفناء و الهلاك، فأقوى الأبنيه و أكثر الحكومات دواما و أشد البشر قدره لا يعدون أن يصيروا فى نهايه أمرهم إلى الضعف فالفناء، و كل شىء معرض للتلف بلا استثناء فى هذا الأمر.

أما لو تمكنت الكائنات من أن توجد لها ارتباطا على نحو ما مع الذات الإلهيه المقدسه، و تبقى تعمل لأجلها و فى سبيلها، فإنها و الحال هذه ستصطبغ بصبغه الخلود، لأنَّ ذات الله المقدسه أبديه و أزليه و كل من ينتسب اليه يحصل على صبغه الأبديه.

فالأعمال الصالحه أبديه، الشهداء لهم حياه أبديه، و الأنبياء و العلماء المخلصون و المجاهدون فى سبيل الله يبقى ذكرهم خالدا فى ذاكره التاريخ..

لأنهم يحملون الصبغه الإلهيه.

و لهذا، تذكرنا الآيات أعلاه و تدعوننا لأن ننفذ ذخائر وجودنا من الفناء، و نودعها فى صندوق لا تطاله يد الزمان و لا تفنيه الليالى و الأيام.

فهللما ليدل الطاقات فى سبيل الله و فى خدمه خلق الله، و كسب رضا البارى، لتصبح من مصاديق «عند الله» و لتكون باقيه بمقتضى مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ .

و

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث:

صدقه جاريه، علم ينتفع به، و ولد صالح يدعو له» (١).

و

عن على عليه السلام أنه قال: «شئان ما بين عمليين: عمل تذهب لذته و تبقى تبعته، و عمل تذهب مؤنته و يبقى أجره» (٢).

ص: ٣١٤

١- ١) - إرشاد الديلمى.

٢- ٢) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ١٢١.

## ٢-التساوى بين الرجل و المرأة

مما لا شك فيه أنّ بين الرجل و المرأة تفاوت و اختلاف من الناحيتين الجسميه و الروحيه، و هذا الفرق هو الذى جعلهما مختلفين فى وظائفها و شؤونهما الاجتماعيه، إلاّ- أنّ طبيعه الاختلاف الموجود لا- تنعكس على الشخصيه الإنسانيه، و لا- توجد اختلافًا فى مقامهما عند الله عزّ و جل، فهما فى هذا الجانب متساويان و متكافئان، و يحكم شخصيه أى منهما مقياس واحد ألا و هو الإيمان و العمل الصالح و التقوى، و إمكانيه تحصيل ذلك لأى منهما متساويه.

إنّ الآيات أعلاه قد بينت هذه الحقيقه بكل وضوح لتخرس الأفواه المشككه فى طبيعه الإنسانيه للمرأة فى الماضى و الحاضر، و لترد بقوّه أولئك الذين يعطون للمرأة مقاما أقل و رتبه أنزل من الناحيه الإنسانيه نسبه إلى الرجل، و قد أعلنت الآيات المنطق الإسلامى فى هذه المسأله الاجتماعيه المهمّه، فقالت: إنّ الإسلام خلافا لقاصرى الفكر ليس دين الرجال، فهو يخص المرأة بنفس القدر الذى يخص الرجل.

فمن عمل صالحا و هو مؤمن رجلا كان أو امرأة، فله الحياه الطيبه: و سينال ثواب الله تعالى من غير تمايز فى الجنس، و لا تفاضل بينهما إلاّ من خلال ما يتفوق أى منهما على الآخر من حيث الإيمان و العمل الصالح.

## ٣- جذور العمل الصالح ترتوى من الإيمان

العمل الصالح: مصطلح له من سعه المفهوم ما يضم بين طياته جميع الأعمال الإيجابيه و المفيده و البناءه على كفه أصعبه الحياه العلميه و الثقافيه و الاقتصاديه و السياسيه و العسكريه... الخ.

و يشمل: الاختراع الذى يبذل فيه العالم جهده سنوات طويله من أجل خدمه الإنسانيه.. جهاد الشهيد الذى حمل روحه على كفه و خاض ساحه الصراع بين

الحق و الباطل فبذل دمه الشريف فى سبيل الله..الآلام التى تتحملها الأمّ المؤمنه عند الولاده و ما تواجه من صعاب فى تربيته أبنائها..و تشمل ما يعانیه العلماء فى تحرير كتبهم الثمينه.

و تشمل أيضا:أعظم الأعمال، كحمل رساله النبوه..و أقل و أصغر الأعمال، كرفع حجر صغير من طريق الماره،نعم،فكل ما ذكره يدخل ضمن مفهوم العمل الصالح.

و الحال هذه..يواجهنا«السؤال»الآتى:لما ذا قيّد العمل الصالح بشرط الإيمان،فى حين يمكن أدائه بدون هذا الشرط،و الساحة البشريه فيها كثير من الشواهد التى تحكى ذلك؟ و«الجواب»ينصب على تبيان مسأله واحده،ألا و هى(الباعث الإيماني)، فإن لم يحرز هذا الباعث فغالبا ما تكون الأعمال المنجزه ملوّثه(و قد تشد عن هذه القاعده العامه بعض المتفرقات هنا و هناك)،و أمّا إذا ارتوت جذور شجره العمل الصالح من ماء التوحيد و الإيمان بالله،فنادرا ما يصيب هذا العمل آفات مثل:العجب،و الرياء،الغرور،التقلب،المثّه..إلخ،و لذلك نرى القرآن الكريم غالبا ما يربط بين هذين الأمرين،لما لارتباطهما من واقعيه.

و نوضح المسأله فى مثال:لو افترضنا أنّ شخصين أرادا بناء مستشفى، أحدهما يدفعه الباعث الإلهي لخدمه خلق الله،و الآخر هدفه التظاهر بالعمل الصالح و الحصول على السمعه و المكانه الاجتماعيه المرموقه.

و فى النظره الأولى و بتفكير سطحى يمكننا أن نقول-إنّ المستشفى ستقام، و سيستفيد الناس من عملهما على السواء،و صحيح أن أحدهما سيحصل على الثواب،الإلهي و الآخر لا يحصل عليه،و لكنّ ظاهر عمليهما لا اختلاف فيه.

و كما قلنا فإنّ هذا القول ناتج عن رؤيه سطحيه للموضوع،أمّا لو أمعنا النظر لرأينا أنّهما مختلفان من جهات متعدده،فعلى سبيل المثال:إنّ الشخص الأوّل

سينتخب مكانا لمستشفاه يكون قريبا من أكثر طبقات المنطقه فقرا و حرمانا، و لربّما تكون في محله غير معروفه و منزويه، أمّا الشخص الثّاني فإنّه سيبحث عن منطقته أكثر شهره حتى و إن كانت حاجتها للمستشفى قليله جدًا.

و سيسعى الشخص الأوّل في انتخاب مواد البناء و طريقتيه بما يلحظ فيه المستقبل البعيد، و يحكم أساس البناء ليصمد البناء لسنين طويله، أمّا الشخص الآخر فإنّه سيحاول أن يسرع في البناء و تعجيل افتتاح المستشفى و يكثر الضجيج و الإعلام لينال مراده. و سيجدّ الأوّل في إحكام باطن العمل في حين أنّ الثّاني سيهتم بمظهره و رونقه. و عند انتخاب الأقسام الطبيه، الأطباء، الممرضين و سائر احتياجات المستشفى، فثمّه اختلاف كبير بين الشخصين، فاختلاف التّيه يترك أثره على جميع مراحل و شؤون العمل و بعبارة أخرى: إنّ العمل يصطبغ بصبغه التّيه.

#### ٤- ما هي الحياه الطيبه؟

لقد ذكر المفسّرون في معنى الحياه الطيبه تفاسير عديده:

فبعض فسرها ب: الرزق الحلال.

و بعض ب: القناعه و الرضا بالنصيب.

و بعض ب: الرزق اليومي.

و بعض ب: العباده مع الرزق الحلال.

و بعض ب: التوفيق لطاعه أوامر الله... و ما شابه ذلك.

و لعله لا- حاجه بنا للتذكير بأن مفهوم الحياه الطيبه من السعه بحيث يشمل كل ما ذكره و غيره، فالحياه الطيبه بجميع جهاتها، و خاليه من التلوثات و الظلم و الخيانه و العداوه و الذل و كل ألوان الآلام و الهموم، و فيها ما يجعل حياه الإنسان صافيه كماء زلال.

ص: ٣١٧



و بملاحظه تعبير الآيه عن الجزاء الإلهي وفق أحسن الأعمال، ليفهم من ذلك أنّ الحياه الطيبه ترتبط بعالم الدنيا بينما يرتبط الجزاء بالأحسن بعالم الآخره.

و

عند ما سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى: **فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيًٰٓٔا طَيِّبَةً**، قال:

«هي القناعه» (١).

و لا شك أنّ هذا التفسير لا يعنى حصر معنى الحياه الطيبه بالقناعه، بل هو بيان لأحد مصاديقها الواضحه جدّا، حيث أنّ الإنسان لو أعطيت له الدنيا بكاملها و سلبت منه روح القناعه فإنّه -و الحال هذه- سيعيش دائما فى عذاب و ألم و حسره، و بعكس ذلك، فإذا امتلك الإنسان القناعه و ترك الحرص و الطمع، فإنّه سيعيش مطمئنا راضيا على الدوام.

و قد ورد فى روايات أخرى تفسير الحياه الطيبه بمعنى الرضا بقسم الله، و هذا المعنى قريب الأفق مع القناعه.

و ينبغى أن لا نعطى لهذه المفاهيم صفه تخديرية أبدا، و إنّما الهدف الواقعى من بيان الرضا و القناعه هو القضاء على الحرص و الطمع و اتباع الهوى فى نفس الإنسان، التى تعتبر من العوامل المؤثره فى إيجاد الاعتداءات و الاستغلال و الحروب و إراقه الدماء، و المسببه للذل و الأسر.

ص: ٣١٨

اشاره

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

التفسير

اشاره

اقرأ القرآن هكذا:

لم يفت ذاكرتنا ما ورد قبل عدّه آيات أنّ القرآن بَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ تَمَّ البَحْثُ عن قسم من أهم الأوامر الإلهية في القرآن. و تبيّن الآيات مورد البحث طريقه الاستفاده من القرآن و تتطرق إلى كيفية تلاوته، فكشافه المحتوى القرآني لا- تكفى وحدها لتوجيهنا، ولا بد من رفع الحجب المخيمه على وجودنا و إزالتها عن محيط فكرنا و روحنا، كي نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثر الغني.

و لهذا يقول القرآن: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

و لا يقصد من الاستعاذه الاكتفاء بذكر بل ينبغي لها أن تكون مقدمه لتحقيق و إيجاد الحاله الروحيه المطلوبه..حاله:التوجه إلى الله عزّ و جلّ، الانفصال عن

هوى النفس و العناد المانع للفهم و الإدراك الصحيح للإنسان، البعد عن التعصبات و الغرور و حبّ الذات و محوريه الذات التي تضغط على الإنسان ليسخر كل شيء (حتى كلام الله) في تحقيق رغباته المنحرفه.

و إن لم تتحقق للإنسان هذه الحاله فسيتعذر عليه إدراك الحقائق القرآنيه، و ربّما سيجعل القرآن وسيله لتبرير آرائه و رغباته الملوّثه بالشرك بواسطه «تفسير بالرأى».

و تأتي الآيه التاليه لتكون دليلا على ما جاء في الآيه التي قبلها: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

، لأنهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعه دون أمر الله!\*\*\*

**بحوث**

**اشاره**

**١- موانع المعرفة**

مع كل ما للحقيقه من ظهور و وضوح فإنّها لا تلاحظ إلا بعين باصره، و بعباره أخرى، ثمه شرطان لمعرفة الحقائق:

الأول: وضوح الحقيقه.

الثاني: وجود وسيله للنظر إليها و إدراكها.

فهل يمكن للأعمى أن يرى قرص الشمس يوما ما مع البقاء على حاله العمى؟ و هل يمكن للأصم أن يسمع نغمات هذا العالم الجميله؟ فكذا الحال بالنسبه لفاقد البصيره الثاقبه و الأذن السميعة، فإنه محروم من رؤيه جلال الحق، و محروم من سماع آياته الرائعه.

و لكن، لما ذا يفقد الإنسان قدرته على المعرفة؟!

ص: ٣٢٠

لأنه قد أوجد الأحكام المسبقة الخاطئه عنده، وسمح للأهواء النفسيه.

والتعصبات العمياء المتطرفه أن تتغلب على توجهه، ووقع فى أسر الذات و الغرور، و لوث صفاء قلبه و طهاره روحه بأمر قد جعلها موانع أمام فهم و إدراك الحقائق.

و

جاء فى الحديث الشريف: «لو لا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات».

فأول شرط ينبغى تحقيقه لمن رام السير على طريق الحق هو تهذيب النفس و امتلاك التقوى، و بدون ذلك يقع الإنسان فى ظلمات الوهم فيضل الطريق.

و يشير القرآن الكريم لهذه الحقيقه ب هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

و كم من أناس طلبوا آيات القرآن بتعصب و عناد و أحكام مسبقه (فرديه أو اجتماعيه) و حملوا القرآن بما يريدون لا بما يريد به القرآن، فزادوا ضلالا بدلا من أن يكون القرآن هاديا لهم (و طبيعى أن القرآن بآياته و حقائقه الناصحه لا- يكون وسيله للإضلال، و لكن أهواءهم و عنادهم هو الذى جرهم لذلك) و الآيتان (١٢٤ و ١٢٥) من سوره التوبه تبين لنا هذه الحاله بكل وضوح: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ أَفْرُونَ .

فالمقصود بالآيه عدم الاكتفاء بذكر (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) بل ينبغى أن نجعل من هذا الذكر فكرا، و من الفكر حاله داخلية، و عند ما نقرأ آيه نستعيد بالله من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا، أو أن تحول بيننا و بين كلام الله جل و علا.

## ٢- لما ذا يكون التعوذ «من الشيطان الرجيم»؟

«الرجيم»: من (رجم)، بمعنى الطرد، و هو فى الأصل بمعنى الرمى بالحجر ثم استعمل فى الطرد.

ص: ٣٢١

و نلاحظ ذكر صفه طرد الشيطان من دون جميع صفاته، للتذكير بتكبره على أمر الله حين أمره بالسجود والخضوع لآدم، وإن ذلك التكبر الذى دخل الشيطان بات بمثابة حجاب بينه وبين إدراك الحقائق، حتى سولت له نفسه أن يعتقد بأفضليته على آدم وقال: **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** .

فكان ذلك العناد و الغرور سببا لتمرده على أمر الله عزّ و جلّ ممّا أدى لكفره و من ثمّ طرده من الجنّه.

و كأنّ القرآن الكريم يريد أن يفهمنا باستخدامه كلمه «الرجيم» بضروره الاحتياط و الحذر من الوقوع فى حاله التكبر و الغرور و التعصب عند تلاوه آيات الله الحكيم، لكى لا- نقع بما وقع به الشيطان من قبل، فنهوى فى وحل الكفر بدلا من إدراك و فهم الحقائق القرآنيه.

### ٣- بين لوائى الحقّ و الباطل

قسمت الآيات أعلاه الناس إلى قسمين: قسم يرزح تحت سلطه الشيطان و قسم خارج عن هذه السلطه، و بينت صفتين لكلّ من هذين القسمين:

فالذين هم خارج سلطه الشيطان: مؤمنون و متوكلون على الله عزّ و جلّ، أى أنّهم من الناحيه الاعتقاديّه عباد لله، و من الناحيه العمليه يعيشون مستقلين عن كل شىء سوى الله، و يتوكلون عليه لا على البشر أو على الأهواء و التعصبات.

أمّا الذين يرزحون تحت سلطه الشيطان، فقائدهم الشيطان يتولّونه و هو مشركون، لأنّ أعمالهم تشير إلى تبعيتهم للشيطان و أوامره كشريك لله جل و علا.

و ثمه من يسعى لأن يكون من القسم الأوّل، و لكنّ ابتعاده عن المرّبين الإلهيين، أو الضياع فى محيط فاسد، أو أى أسباب أخرى، تؤدى الى سقوطه فى وحل القسم الثانى.

و على أيّه حال، فالآيه تؤكّد حقيقه أنّ سلطه الشيطان ليست إجباريه على

الإنسان، و لا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أن يمهد الإنسان السبيل لدخول الشيطان في نفسه، و يعطيه إجازة المرور من بوابه قلبه.

#### ٤- آداب تلاوه القرآن:

كل شيء يحتاج الى برنامج معين و لا يستثنى كتاب عظيم- كالقرآن الكريم- من هذه القاعدة، لذلك فقد ذكر في القرآن بعض الآداب و الشروط لتلاوه كلام الله و الاستفادة من آياته:

١- يقول تعالى أولًا: لا- يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، و يمكن أن يشير هذا التعبير إلى الطهارة الظاهرية، كأن يكون مس كتابه القرآن مشروط بالطهارة و الوضوء، و كذا الإشارة إلى إمكان تيسر الوصول لفهم محتوى آيات القرآن من خلال تطهير النفس من الرذائل الأخلاقية، لأن الصفات القبيحة تمنع من مشاهدته جمال الحق باعتبارها حجابا مظلما بين الإنسان و الحقائق.

٢- يجب الاستعاذه بالله من الشيطان الرجيم قبل الشروع بتلاوه آيات الله فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

و عند ما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن طريقه العمل بهذا القول،

يروى أنه قال:

«قل أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم».

و

في روايه أخرى، عند تلاوته عليه السلام لسوره الحمد قال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم و أعوذ بالله أن يحضرون».

و كما قلنا، فإن التلطف- فقط- في الاستعاذه لا يغنى من الحق شيئا، ما لم تنفذ الاستعاذه إلى أعماق الروح بشكل ينفصل فيه الإنسان عند التلاوه عن إرادته الشيطان، و يقترب من الصفات الإلهية، لترتفع عن فكره موانع فهم كلام الحق، و ليرى جمال الحقيقة بوضوح تام.

فالاستعاذه بالله من الشيطان- إذن- لازمه قبل الشروع بالتلاوه، و مستمره

مع التلاوه إلى آخرها و إن لم يكن ذلك باللسان.

٣- تجب القراءة ترتيلاً، أى مع التفكير و التأمل و رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (١).

و

فى تفسير هذه الآيه روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَقْرَأُ هَزْرَمَهُ وَ لَكِنْ يَرْتَلُ تَرْتِيلاً، إِذَا مَرَّتْ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ وَقَفَتْ عِنْدَهَا وَ تَعَوَّذَتْ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ» (٢).

٤- و قد ورد الأمر بالتدبّر و التفكير فى القرآن إضافه إلى الترتيل. حيث جاء فى الآيه (٨٢) من سوره النساء: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .

و عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: حدثنا من كان يقرئنا من الصحابه أنّهم كانوا يأخذون من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم عشر آيات، فلا يأخذون فى العشر الأخر حتى يعلموا ما فى هذه من العلم و العمل.

و

فى حديث عن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «أعربوا القرآن و التمسوا غرائبه» (٣).

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لقد تجلّى الله لخلقه فى كلامه و لكنّهم لا يبصرون» (٤). (و لكنّ ذوى الضمائر الحيه و العلماء المؤمنين، يستطيعون رؤيه جماله المتجلّى فى كلامه جل و علا).

٥- على الذين يستمعون إلى تلاوه القرآن أن ينصتوا إليه بتفكّر و تأمل و إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥).

و ثمه أحاديث شريفه تحث على قراءة القرآن بصوت حسن، لما له من فعل مؤثر فى تحسّس مفاهيمه، و لكنّ المجال لا يسمح لنا بتفصيل ذلك (٦).

ص: ٣٢٤

١- ١) - سوره المزمّل، ٤.

٢- ٢) - بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٦.

٣- ٣) - المصدر السابق.

٤- ٤) - بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٠٧.

٥- ٥) - الأعراف، ٢٠٤.

٦-٦) - مزید من الاطلاع.. راجع بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٩٠ و ما بعدها.



اشاره

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَ هَذَا لِّسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٠٥)

سبب النزول

يقول ابن عباس: (كانوا يقولون: يسخر محمد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر و غدا يأمرهم بأمر، وإنه لكاذب، يأتيهم بما يقول من عند نفسه).

التفسير

اشاره

الافتراء

تحدثت الآيات السابقة أسلوب الاستفادة من القرآن الكريم، و تناول

الآيات مورد البحث جوانب أخرى من المسائل المرتبطة بالقرآن، وتتبدى ببعض الشبهات التي كانت عالقه في أذهان المشركين حول الآيات القرآنيه المباركه، فتقول: وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ فهذا التغيير و التبدیل يخضع لحكمه الله، فهو أعلم بما ينزل، وكيف ينزل، ولكن المشركين لجهلهم قالوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

و حقيقه الأمر أنّ المشركين لم يتوصلوا بعد لإدراك وظيفه القرآن و ما يحمل من رساله، و لم يدخل في تصوراتهم و أذهانهم أنّ القرآن في صدد بناء مجتمع إنساني جديد يسوده التطور و التقدم و الحريه و المعنويه العاليه... نعم، فأكثرهم لا يعلمون.

فبديهي و الحال هذه أن يطرأ على و صفه الدواء الإلهي لنجاه هؤلاء المرضى التغيير و التبدیل تدرجا مع ما يعيشونه، فما يعطون اليوم يكمله الغد.. و هكذا حتى تتمّ الوصفه الشامله.

فغفله المشركين عن هذه الحقائق و ابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للاعتقاد بأنّ أقوال النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ تحمل بين ثناياها التناقض أو الافتراء على الله عزّ و جلّ! و إلاّ لعلموا أنّ النسخ في الأحكام جزء من أوامر و آيات القرآن المنظمه على شكل برنامج تربوي دقيق لا يمكن الوصول للهدف النهائي لنيل التكامل إلاّ به.

فالنسخ في أحكام مجتمع يعيش حاله انتقاليه بين مرحلتين يعتبر من الضروريات العمليه و الواقعيه، فالتحول و الانتقال بالناس من مرحله إلى أخرى لا يتم دفعه واحده، بل ينبغي أنّ يمر بمراحل انتقاليه دقيقه.

أ يمكن معالجه مريض مزمن في يوم واحد؟ أو شفاء رجل مدمن على المخدرات لسنوات عديده في يوم واحد؟ أو ليس التدرج في المعالجه من أسلم الأساليب؟

و بعد الإجابة على هذه الأسئلة لا يبقى لنا إلا أن نقول: ليس النسخ سوى برنامج مؤقت فى مراحل انتقاله.

(لقد بحثنا موضوع النسخ فى تفسير الآية (٣٦) من سورة البقره-فراجع).

و تستمر الآيه التاليه بنفس الموضوع، و للتأكيد عليه تأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .

«روح القدس» أو (الروح المقدسه) هو أمين الوحي الإلهى «جبرائيل الأمين»، و بواسطته كانت الآيات القرآنيه تنزل بأمر الله تعالى على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم سواء النسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق، و هدفها واحد يتركز فى توجيه الإنسان ضمن التربيه الربانيه له، و ظروف و تركيبه الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخه و المنسوخه فى العمليه التربويه.

و لهذا، جاء فى تكمله الآيه المباركه: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بَشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ .

يقول صاحب تفسير الميزان: إن تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين و الهدى و البشرى للمسلمين إنما هو لما بين الإيمان و الإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب و نصيبه التثبيت فى العلم و الإذعان، و الإسلام فى ظاهر العمل و مرحله الجوارح و نصيبها الاهتداء إلى واجب العمل و البشرى بأن الغايه هى الجنه و السعاده.

و على أيه حال، فلأجل تقويه الروح الإيمانيه و السير فى طريق الهدى و البشرى لا بد من برامج قصيره الأمد و مؤقتة، و بالتدرج يحل البرنامج النهائى الثابت محلها، و هو سبب وجود النسخ و المنسوخ فى الآيات الإلهيه.

و بعد أن قند القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهه أخرى، أو على الأصح لذكر افتراء آخر لمخالفى نبى الرحمه صلى الله عليه و آله و سلم فيقول: وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ

اختلف المفسرون في ذكر اسم الشخص الذي ادعى المشركون أنه كان يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم...

فعن ابن عباس: أنه رجل يدعى (بلعام) كان يصنع السيوف في مكّه: وهو من أصل رومى و كان نصرانيا.

و اعتبره بعضهم: غلاما روميا لدى بنى حضرم و اسمه (يعيش) أو (عائش) و قد أسلم و أصبح من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و قال آخرون: إن معلّمه غلامين نصرانيين أحدهما اسمه (يسار) و الآخر (جبر) و كان لهما كتاب بلغتهما يقرءانه بين مدّه و أخرى بصوت عال.

و احتمال بعضهم: أنه (سلمان الفارسى)، فى حين أن سلمان الفارسى التحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فى المدينة و أسلم على يديه هناك، و أنّ هذه التهم التى أطلقها المشركون كانت فى مكّه، أضف إلى ذلك كون القسم الأعظم من سوره النحل مكى و ليس مدنيا.

و على أيّه حال، فالقرآن أجابهم بقوه و أبطل كل ما كانوا يفترون، بقوله:

لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ (١) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ (٢) وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ

فإن كان مقصودهم فى تهمتهم و افتراءهم أنّ معلّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لألفاظ القرآن هو شخص أجنبى لا يفقه من العرييه و بلاغتها شيئا فهذا فى منتهى السفه، إذ كيف يمكن لفاقد ملكه البيان العربى أن يعلم هذه البلاغه و الفصاحه التى عجز أمامها أصحاب اللغه أنفسهم، حتى أنّ القرآن تحداهم بإتيان سوره من مثله فما

ص: ٣٢٨

١-١) -يلحدون: من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، و قد يطلق على أى انحراف، و المراد هنا: إنّ الكاذبين يريدون نسبة القرآن إلى إنسان و يدعون بأنه معلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم!

٢-٢) -الإعجام و العجمه لغه: بمعنى الإبهام، و يطلق الأ-عجمى على الذى فى بيانه لحن (نقص) سواء كان من العرب أو من غيرهم، و باعتبار أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغه غيرهم فقد استعملوا اسم (العجم) على غير العرب.

استطاعوا ناهيك عن عدد الآيات؟! وإن كانوا يقصدون أنّ المحتوى القرآني هو من معلّم أجنبي.. فردّ ذلك أهون من الأوّل و أيسر، إذ أنّ المحتوى القرآني قد صبّ في قالب كل عباراته و ألفاظه من القوه بحيث خضع لبلاغته و إعجازه جميع فطاحل فصحاء العرب، و هذا ما يرشدنا لكون الواضع يملك من قدره على البيان ما تعلق و قدره و ملكه أيّ إنسان، و ليس لذلك أهلا سوى الله عزّ و جلّ و سبحانه عمّا يشركون.

و بنظره تأمّليه فاحصه نجد في محتوى القرآن أنّه يمتلك المنطق الفلسفي العميق في إثبات عقائده، و كذا الحال بالنسبه لتعاليمه الأخلاقية في تربيته روح الإنسان و قوانينه الاجتماعيه المتكامله، و أنّ كلّ ما في القرآن هو فرق طاقه المستوى الفكرى البشرى حقًا.. و يبدو لنا أنّ مطلقى الافتراءات المذكوره هم أنفسهم لا يعتقدون بما يقولون، و لكنّها شيطنه و وسوسه يدخلونها في نفوس البسطاء من الناس ليس إلّا.

و الحقيقه أنّ المشركين لم يجدوا من بينهم من ينسبون إليه القرآن، و لهذا حاولوا اختلاق شخص مجهول لا يعرف الناس عنه شيئًا و نسبوا إليه القرآن، عسى بفعلهم هذا أن يتمكنوا من استغفال أكبر قدر ممكن من البسطاء.

أضف إلى ذلك كله أنّ تاريخ حياه النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لا يسجل له اتصالات دائمه مع هذه النوعيات من البشر، و إن كان (على سبيل الفرض) صاحب القرآن موجودا ألا يستلزم ذلك اتصال النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم به و باستمرار؟ إنهم حاولوا التشبث لا أكثر، و كما قيل: (الغريق يتشبّث بكل حشيش).

إنّ نزول القرآن في البيئه الجاهليه و تفوقه الإعجازى أمر واضح، و لم يتوقف تفوقه حتى في عصرنا الحاضر حيث التقدم الذى حصل في مختلف مجالات التمدّن الإنساني، و التأليفات المتعمقه التى عكست مدى قوه الفكر البشرى المعاصر.

نعم، فمع كل ما وصلت إليه البشريه من قوانين و أنظمه ما زال القرآن هو المتفوق و سيبقى.

و ذكر سيد قطب فى تفسيره: أنّ جمعا من الماديين فى روسيا عند ما أرادوا الانتفاض من القرآن فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى سنه (١٩٥٤ م) قالوا: إنّ هذا الكتاب لا يمكن أن ينتج من ذهن إنسان واحد «محمّد» بل يجب أن يكون حاصل سعى جمع كثير من الناس بما لا يصدق كونهم جميعا من جزيره العرب، و إنّما يقطع باشتراك جمع منهم من خارج الجزيره (١).

و لقد كانوا يبحثون-وفقا لمنطقهم الإلحادى-عن تفسير ماذى لهذا الأمر من جهه، و ما كانوا يعقلون أن القرآن نتاج إشراقه عقليه لإنسان يعيش فى شبه الجزيره العربيه من جهه أخرى، ممّا اضطرّهم لأن يطرحوا تفسيراً مضحكا و هو:

اشتراك جمع كثير من الناس فى تأليف القرآن-من داخل شبه الجزيره العربيه و خارجها!! على أنّ التاريخ ينفى ما ذهبوا إليه جملة و تفصيلا.

و على أيّه حال، فالآيه المباركه دليل الإعجاز القرآنى من حيث اللفظ و المضمون، فحلّاه القرآن و بلاغته و جاذبيته و التناسق الخاص فى ألفاظه و عباراته ما يفوق قدره أىّ إنسان. (قد كان لنا بحث مفصل فى الإعجاز القرآنى تناولناه فى تفسير الآيه (٢٣) من سوره البقره-فراجع).

و بلهجه المهده المتوعّد بيّن القرآن الكريم أنّ حقيقه هذه الاتهامات و الانحرافات ناشئه من عدم انطباع الإيمان فى نفوس هؤلاء، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لأنهم غير لائقين للهدايه و لا يناسبهم إلاّ العذاب الإلهى، لما باتوا عليه من التعصب و العناد و العداة للحق.

ص : ٣٣٠

و في آخر الآيه يقول: إِنَّ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ، فهم الكاذبون و ليس أنت يا محمّد، لأنهم مع ما جاءهم من آيات بينات و أدله قاطعه واضحه و لكنهم يستمرون في إطلاق الافتراءات و الأكاذيب.

فأيه أكاذيب أكبر من تلك التي تطلق على رجال الحق لتحول بينهم و بين المتعطشين للحقائق! \*\*\*

**بحوث**

**إشاره**

### ١- قبح الكذب في المنظور الإسلامي

الآيه الأخيره بحثت مسأله قبح الكذب بشكل عنيف، و قد جعلت الكاذبين بدرجة الكافرين و المنكرين للآيات الإلهيه.

و مع أنّ موضوع الآيه هو الكذب و الافتراء على الله و النبي صلى الله عليه و آله و سلم، إلا أنّ الآيه تناولت قبح الكذب بصوره إجماليه.

و لأهميه هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلاميه إفاضات خاصّه لمسأله الصدق و النهي عن الكذب، و إليكم نماذج مختصره و مفهرسه لجوانب الموضوع:

الصدق و الأمانه من علائم الإيمان و كمال الإنسان، حتى أنّ دلالتهما على الإيمان أرقى من دلاله الصلاه.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإنّ ذلك شيء قد اعتاده و لو تركه استوحش لذلك، و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته» (١).

ص: ٣٣١

فذكر الصدق مع الأمانة لاشتراكهما في جذر واحد، و ما الصدق إلا الأمانة في الحديث، و ما الأمانة إلا الصدق في العمل.

## ٢- الكذب منشأ جميع الذنوب:

و قد اعتبرت الأحاديث الشريفه الكذب مفتاح الذنوب..

فعن علي عليه السلام أنه قال: «الصدق يهdy إلى البر و البر يهdy إلى الجنه» (١).

و

عن الباقر عليه السلام أنه قال: «إن الله عزّ و جلّ جعل للبشر أقبالا، و جعل مفاتيح تلك الأقبال الشراب، و الكذب شر من الشراب» (٢).

و

عن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال: «جعلت الخبائث كلها في بيت و جعل مفتاحها الكذب» (٣).

فالعلاقة بين الكذب و بقيه الذنوب تتلخص في كون الكاذب لا يتمكن من الصدق، لأنه سيكون موجبا لفضحه، فتراه يتوسل بالكذب عادة لتغطيه آثار ذنوبه.

و بعبارة أخرى: إن الكذب يطلق العنان للإنسان للوقوع في الذنوب، و الصدق يحده.

و

قد جسد النبي صلى الله عليه و آله و سلم هذه الحقيقه بكل وضوح عند ما جاءه رجل و قال له: يا رسول الله، إنني لا أصلي و أرتكب القبائح و أكذب، فأيتها أترك أولا؟.

فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «الكذب»، فتعهد الرجل للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يكذب أبدا.

فلما خرج عرضت له نيه منكر فقال في نفسه: إن سألتني رسول الله غدا عن أمرى، ما ذا أقول له! فإن أنكرت كان كاذبا، و إن صدقت جرى علي الحد. و هكذا

ص: ٣٣٢

١-١) -مشكاة الأنوار للطبرسي، ص ١٥٧.

٢-٢) -أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٥٤.

٣-٣) -جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٣٣.



ترك الكذب فى جميع أفعاله القبيحه حتى توزع عنها جميعا.

و لذا..فترك الكذب طريق لترك الذنوب.

### ٣-الكذب منشأ للنفاق:

لأن الصدق يعنى تطابق اللسان مع القلب،فى حين أن الكذب يعنى عدم تطابق اللسان مع القلب،و ما النفاق إلا الاختلاف بين الظاهر و الباطن.

و الآيه (٧٧)من سوره التوبه تبين لنا ذلك بوضوح: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

### ٤-لا انسجام بين الكذب و الإيمان:

و إضافه إلى الآيه المباركه فثمه أحاديث كثيره تعكس لنا هذه الحقيقه الجليته...

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سئل: يكون المؤمن جباناً؟قال:«نعم»،قيل:

و يكون بخيلاً؟قال:«نعم»،قيل: يكون كذاباً؟قال:«لا» (١) .

ذلك لأن الكذب من علائم النفاق،و هو لا يتفق مع الإيمان.

و بهذا المعنى نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أشار لهذا المعنى و استدل عليه بالآيه مورد البحث.

### ٥-الكذب يرفع الاطمئنان:

إن وجود الثقه و الاطمئنان المتبادل من أهم ما يربط الناس فيما بينهم، و الكذب من الأمور المؤثره فى تفكيك هذه الرابطه لما يشبعه من خيانه و تقلب،

ص: ٣٣٣

و لذلك كان تأكيد الإسلام على أهميه الالتزام بالصدق و ترك الكذب.

و من خلال الأحاديث الشريفه نلمس بكل جلاء نهى الأئمه عليهم السّلام عن مصاحبه مجموعه معينه من الناس، منهم الكذّابون لعدم الثقه بهم.

فعن علي عليه السّلام أنّه قال: «إيّاك و مصادقه الكذّاب، فإنّه كالسرّاب يقربّ عليك البعيد و يبعد عليك القريب» (١).

و الحديث عن قبح الكذب و فلسفته، و الأسباب الداعيه إليه من الناحيه النفسيه، و طرق مكافحته، كل ذلك يحتاج إلى تفصيل طويل لا يمكن لبحثنا استيعابه، و لمزيد من الاطلاع راجع كتب الأخلاق (٢).

ص: ٣٣٤

---

١-١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، قم ٣٧.

٢-٢) - راجع كتابنا (الحياه على ضوء الأخلاق).

اشاره

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ إِسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَزْمَ لَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

سبب النزول

ذكر بعض المفسِّرون في شأن نزول الآيه الأولى من هذه الآيات أنها: نزلت في جماعه أكرهوا-و هو: عمار و أبوه ياسر و أمه سميه و صهيب و بلال و خباب- عذبوا و قتل أبو عمار و أمه و أعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثم أخبر سبحانه

بذلك رسوله صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم، فقال قوم: كفر عمار.

فقال صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم كلا: «إنَّ عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه و اختلط الإيمان بلحمه دمه».. و

جاء عمار إلى رسول الله و هو يبكي، فقال النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم: «ما وراءك؟» فقال: شرَّ يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك و ذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم يمسح عينيه و يقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»، فنزلت الآية.

## التفسير

## إشارة

## المرتدون عن الإسلام:

تكمل هذه الآيات ما شرعت به الآيات السابقة من الحديث عن المشركين و الكفار و ما كانوا يقومون به، فتناول الآيات فئه أخرى من الكفرة و هم المرتدون.

حيث تقول الآية الأولى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَيْدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

و تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

النوع الأول: هم الذين يقعون فى قبضه العدو الغاشم و يتحملون أذاه و تعذيبه، و لكنهم لا يصبرون تحت ضغط ما يلاقوه من أعداء الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام و ولاءهم للكفر، على أن ما يعلنوه لا يتعدى حركة اللسان، و أمّا قلوبهم فتبقى ممتلئة بالإيمان.

فهذا النوع يكون مشمولاً بالعفو الإلهى بلا- ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنهم قد ما رسوا التقيه التى أحلها الإسلام لحفظ النفس و حفظ الطاقات للاستفاده منها فى طريق خدمه دين الله عزّ و جلّ.

النوع الثانى: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقه، و يغيرون

مسيرتهم و يتخلون عن إيمانهم،فهؤلاء يشملهم غضب الله عزّ و جلّ و عذابه العظيم.

و يمكن أن يكون«غضب الله»إشاره إلى حرمانهم من الرحمة الإلهيه و الهدايه فى الحياه الدنيا،و«العذاب العظيم»إشاره إلى عقابهم فى الحياه الأخرى..و على أية حال،فما جاء فى الآيه من وعيد للمرتدين هو فى غايه الشده.

و تتطرق الآيه التاليه إلى أسباب ارتداد هؤلاء،فتقول: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** الذين يصرون على كفرهم و عنادهم.

و خلاصه المقال:حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم الماديه و تعرضت للخطر المؤقت،فندموا على إسلامهم لشده حبههم لدنياهم،و عادوا خاسئين إلى كفرهم.

و بديهى أن من لا يرغب فى الإيمان و لا يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهدايه الإلهيه،لأنّ الهدايه تحتاج إلى مقدمات كالسعى للحصول على رضوانه سبحانه و الجهاد فى سبيله،و هذا مصداق لقوله عزّ و جلّ فى آخر سوره العنكبوت: **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**.

و تأتى الآيه الأخرى لتبين سبب عدم هدايتهم،فتقول: **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ** بحيث أنّهم حرموا من نعمه الرؤيه و السمع و ادراك الحقائق: **وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**.

و كما قلنا سابقا فإنّ ارتكاب الذنوب و فعل القبائح يترك أثره السلبي على إدراك الإنسان للحقائق و على عقله و رؤيته السليمه،و تدريجيا يسلب منه سلامه الفكر،و كلما ازداد فى غيه كلما اشتدت حجب الغفله على قلبه و سمعه و بصره، حتى يؤول به المآل إلى أن يصبح ذا عين و لكن لا يرى بها،و ذا أذن و كأنه لا يسمع

بها، وتغلق أبواب روحه من تقبل أيه حقيقه، فيخسر الحس التشخيصي و القدره على التمييز، و التي تعتبر من النعم الإلهي العالیه.

«الطبع» هنا: بمعنى «الختم»، و هو إشاره إلى حاله الإحكام المطلق، فلو أراد شخص مثلا أن يغلق صندوقا معيناً بشكل محكم كي لا تصل إليه الأيدي فإنه يقوم بربطه بالحبال و غيرها، و من ثم يقوم بوضع ختم من الشمع على باب الصندوق للاطمئنان من عبث العابثين.

ثم تعرض الآيه التاليه عاقبه أمرهم، فتقول: **لَا جَزْمَ لَنَا فِيهِمْ** **فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ**.

و هل هناك من هو أتعس حالاً من هذا الإنسان الذي خسر جميع طاقاته و امكانياته لنيل السعاده الدائمه بإتباعه هوى النفس.

و بعد ذكر الفتنتين السابقتين، أي الذين يتلفظون بكلمات الكفر و قلوبهم مملأه بالإيمان، و الذين ينقلبون إلى الكفر مره أخرى بكامل اختيارهم و رغبتهم، فبعد ذلك تتطرق الآيه التاليه إلى فئه ثالثه و هم البسطاء المخدعون في دينهم، فتقول:

**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**

(١)

فالآيه دليل واضح على قبول توبه المرتد، و لكن الآيه تشير إلى من كان مشركاً في البدايه ثم أسلم، فعليه يكون المقصود به هو (المرتد الملى) و ليس (المرتد الفطرى). (٢)

و تأتي الآيه الأخيره لتقدم تذكيراً عاماً بقولها:

ص: ٣٣٨

١ - ١) - ضمير «بعدها» - و كما يقول كثير من المفسرين - يعود إلى «الفتنه»، في حين ذهب البعض من المفسرين إلى أنه يعود إلى الهجره و الجهاد و الصبر المذكوره سابقاً.

٢ - ٢) - المرتد الفطرى: هو الذى يولد من أبوين مسلمين ثم يرتد عن الإسلام بعد قبوله إياه، و المرتد الملى: يطلق على من انعقدت نطفته من أبوين غير مسلمين ثم قبل الإسلام، و ارتد عنه بعد ذلك.

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا

(١)

لتنقذها من العقاب و العذاب.

فالمذنبون أحيانا ينكرون ما ارتكبه من ذنوب إنكارا تاما فرارا من الجزاء و العقاب، و الآية (٢٣) من سوره الأنعام تنقل لنا قولهم: وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، و عند ما لا يلمسون أيه فائده لإنكارهم يتجهون بإلقاء اللوم على أئمتهم و قادتهم، و يقولون: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ (٢).

و لكن.. لا فائده من كل ذلك.. وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

بحثان

اشاره

١- التقيه و فلسفتها:

امتاز المسلمون الأوائل الذين تربوا على يد النبي صلى الله عليه و آله و سلم بروح مقاومه عظيمه أمام أعدائهم، و سجل لنا التاريخ صورا فريده للصمود و التحدى، و ها هو «ياسر» لم يلن و لم يدخل حتى الغبطه الكاذبه على شفاه الأعداء، و ما تلفظ حتى بعبارته خاليه من أى أثر على قلبه مما يطمخ الأعداء أن يسمعوها منه، مع أن قلبه مملوء و لاء و إيماننا بالله تعالى و حبا و إخلاصا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و صبر على حاله رغم مرارتها فنال شرف الشهاده، و رحلت روحه الطاهره إلى بارئها صابره محتسبه تشكو إليه ظلم و جور أعداء دين الله.

و ها هو ولده «عمار» الذى خرجت منه كلمه بين صفير الأسواط و شدّه الآلام تتم عن حاله الضعيف ظاهرا، و بالرغم من اطمئنانه بإيمانه و تصديقه لنبية صلى الله عليه و آله و سلم، إلا

ص: ٣٣٩

١ - ١) - اختلاف القول بخصوص متعلق «يوم» جار بين المفسرين.. فبعضهم يذهب إلى أنه متعلق بفاعل مستتر و التقدير هو «ذكرهم يوم القيامة»، و اعتبره آخرون متعلقا بفعل الغفران و الرحمه المأخوذان من «الغفور الرحيم» فى الآية السابقه، (و لكننا نرجح التفسير الاحتمال الأول لشموله).

٢ - ٢) - الأعراف، ٣٨.

أنه اغتم كثيرا وارتعدت فرائضه حتى طمأنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحلته ما فعل به حفظا للنفس، فهذا.

و يطالعنا تأريخ (بلال) عند ما اعتنق الإسلام راح يدعو له و يدافع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فشد عليه المشركون حتى أنهم طرحوه أرضا تحت لهيب الشمس الحارقة، و ما اكتفوا بذلك حتى وضعوا صخره كبيره على صدره و هو بتلك الحال، و طلبوا منه أن يكفر بالله و لكنّه أبى أن يستجيب لطلبهم و بقى يردد: أحد أحد، ثم قال: أقسم بالله لو علمت قولا أشد عليكم من هذا لقلته.

و نقرأ فى تاريخ (حبيب بن زيد) أنه لما أسره مسيلمه الكذاب فقد سأله: هل تشهد أنّ محمدا رسول الله؟ قال: نعم.

ثم سأله: أتشهد أنّى رسول الله؟ فأجابته ساخرا: إننى لا أسمع ما تقول! فقطعوه إربا إربا (١).

و التأريخ الإسلامى حافل بصور كهذه، خصوصا تأريخ المسلمين الأوائل و تأريخ أصحاب الأئمة عليهم السلام.

و لهذا قال المحققون: إنّ ترك التقيه و عدم التسليم للأعداء فى حالات كهذه، عمل جائز حتى لو أدى الأمر إلى الشهاده، فالهدف سام و هو رفع لواء التوحيد و إعلاء كمله الإسلام، و خاصه فى بدايه دعوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كان لهذا الأمر أهميه خاصه.

و مع هذا، فالتقيه جائزه فى موارد، و واجبه فى موارد أخرى، و خلافا لما يعتقد البعض فإنّ التقيه (فى مكانها المناسب) ليست علامه للضعف، و لا هى مؤشر للخوف من تسلط الأعداء، و لا هى تسليم لهم بقدر ما هى نوع من

ص: ٣٤٠



المراوغه المحسوبه لحفظ الطاقات الإنسانيه و عدم التفريط بالأفراد المؤمنين مقابل موضوعات صغيره و قليله الأهميه.

و ممّا تعارف عليه عند كل الشعوب أن تلجأ الأقليات المجاهده و المحاربه إلى أسلوب العمل السرى غالباً، و ذلك لحفظ حياه الأفراد و تهيئه الظروف لإكثارهم، فتشكّل مجموعات سرّيه و تضع لأنفسها برامج غير معلنه على غيرهم، حتى أنّ البعض من أفرادهم يحاول أن يتنكر حتى في زيه، و إذا ما تمّ اعتقالهم من قبل السلطه المعاديه لمبادئهم فيحاولون جهد الإمكان إخفاء حقيقه أمرهم كي لا تخسر المجموعه كل طاقاتها، و لتكون قادره على مواصله الطريق بالبقيه المتبقيه منهم.

و العقل لا يجيز في ظروف كهذه أن تعلن المجموعه المجاهده قليله العدد عن نفسها، لكي لا يعرفها العدو بسهولة و هو القادر على القضاء عليها بما يملك من بطش و تسلط.

فالتقيه قبل أن تكون برنامجاً إسلامياً هي أسلوب عقلائي و منطقي، ينفذه و يعمل به من يعيش صراعاً مع عدو قوياً متمكن منه.

و لذا فقد ورد تعبير (الترس) عن التقيه في الأحاديث الشريفه،

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التقيه ترس المؤمن، و التقيه حرز المؤمن» (١).

(لاحظوا أنّ التقيه هنا شبّهت بالترس، و الترس إنّما يستعمل في ميادين الحرب و القتال مع الأعداء لحفظ القوى النائره.

و إذا رأينا أنّ الأحاديث الشريفه تعتبر التقيه علامه للدين و الإيمان و تقدرها بتسعه أعشار الدين، فإنّما هو للسبب المذكور.

و المجال في هذا الكتاب -لا يسع للخوض في تفصيل موضوع التقيه، و كل

ص: ٣٤١

ما أردنا هو أنّ من يستنكر التقيه و يذمها إنّما هو جاهل بشروطها و فلسفتها.

و ثمة حالات تحرم فيها التقيه، حينما يكون حفظ النفس فيها سببا لزوال الدين نفسه، أو قد تؤدي التقيه لحدوث فساد عظيم، فيجب و الحال هذه كسر طوق التقيه و استقبال كل خطر يترتب على ذلك (1).

## ٢- المرتد الفطري و الملى و..المخدوعين:

لا يواجه الإسلام الذين لا يعتنقون الإسلام من (أهل الكتاب) بالشده و القسوه و إنّما يدعوهم باستمرار و يتحدث معهم بالمنطق السليم، فإذا لم يقتنعوا و راموا البقاء على ديانتهم فيعطون الأمان و التعهد بحفظ أموالهم و أرواحهم و مصالحهم المشروعه بعد أن يعلنوا قبول شرط أهل الذمه في عهدهم مع المسلمين.

أمّا الذين يقبلون الإسلام و من ثم يرتدون عنه فيواجهون بشده و عنف، لأنّ عملا كهذا يؤدي إلى أضرار فادحة تصيب المجتمع الإسلامي، و هو بمثابة نوع من الحرب ضد الحكومه الإسلاميه، و غالبا ما يصدر مثل هذا العمل مستبظنا النيه السيئه بإيصال أسرار المجتمع الإسلامي (و نقاط القوه و الضعف) ليد الأعداء المتربصين للمسلمين الدوائر.

فلهذا، من انعقدت نطفته و كان أبواه مسلمين عند انعقاد النطفه (مسلم الولاده) تمّ تثبيت المحكمه الإسلاميه بأنّه قد ارتد عن الإسلام يباح دمه، تقسّم أمواله على وراثته، تبين عنه زوجته، و ظاهرا لا تقبل توبته، أى أنّ هذه الأحكام الثلاثه تجرى فى حقه على كل حال، و لكن إذا ندم و تاب صادقا، فإنّ توبته ستقبل عند الله تعالى (و توبه المرأه تقبل على الإطلاق).

ص: ٣٤٢

---

(١-١) - لأجل المزيد من الإيضاح فى مسأله التقيه و أحكامها و فلسفتها و أدلتها، راجعوا كتابنا (القواعد الفقهيه)، الجزء الثالث.

و إذا ارتدّ إنسان ما عن الإسلام و لم يكن مسلماً بالولاده، يتعيّن عليه التوبه، فإن تاب قبلت توبته و ينجو من العقاب.

و قد ينظر للحكم السياسى الصادر بحق المرتدّ الفطرى على أنّ فيه نوعاً من الخشونه و القسوه و فرضاً للعقيده و سلماً لحرية الفكر، و لكنّ حقيقه هذه الأحكام تختص بمن يظهر عقائده المخالفه أو يدعو لها و لا تطال من يعتقد باعتقادات مخالفه و لكنّه لم يظهرها للناس، لأنّ الدعوه للعقائد المخالفه تمثل فى واقعها حرباً للنظام الاجتماعى الموجود، و عليه فلا تكون الخشونه و الحال هذه عبثاً، و لا تتنافى و حرية الفكر و الاعتقاد، و كما قلنا فإنّ شبيه هذا القانون موجود فى كثير من دول الغرب و الشرق مع بعض الاختلافات.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ قبول الإسلام يجب أن يكون طبقاً للمنطق، و الذى يولد من أبوين مسلمين و ينشأ بين أحضان بيئه إسلاميه، فمن البعيد عدم إدراكه محتوى الإسلام، و لهذا يكون ارتداده و عدوله عن الإسلام أشبه بالخيايه منه من عدم إدراك الحقيقه، و لذلك فهو يستحق ما خطّ فى حقه من عقاب.

على أنّ الأحكام عاده لا تخصص لشخص أو شخصين و إنّما يلحظ فيها المجموع العام (1).

ص: ٣٤٣

١ - ١) - اختلف المفسّرون بخصوص جمله «من كفر بالله...»، فاعتبرها بعضهم: شرحاً و توضيحاً للجمله السابقه لها و أنّها بدل لعباره «الذين لا يؤمنون بآيات الله»، فيما اعتبرها آخرون: بدلاً لكلمه «كاذبون»، و قال بعضهم: أنّها مبتدأ محذوف الخبر و يقدرها بـ «من كفر بالله من بعد إيمانه فعليهم غضب من الله و لهم عذاب أليم»، فجزء الشرط محذوف لدلاله الجمله التاليه على ذلك. و ثمّه احتمال رابع (و يبدو أفضل الاحتمالات) و هو: أنّها مبتدأ، و خبرها فى نفس الآيه و غير محذوف، أمّا عبارته «لكن من شرح للكفر صدراً» فهى توضيح جديد للمبتدأ لوقوع جمله استثنائيه بينها و بين خبرها، و هذا النوع من التعبير كثير الاستعمال حتى فى غير اللغه العربيه - فتأمل.

اشاره

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَهُ مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَ أَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)

التفسير

اشاره

الذين كفروا فأصابهم العذاب

قلنا مرارا: إن هذه السوره هي سوره النعم، النعم الماديه و المعنويه و على كافه الأصعده، و قد مرّ ذكر في آيات متعدده من هذه السوره المباركه.

و تصور لنا الآيات أعلاه عاقبه الكفر بالنعم الإلهيه على شكل مثل واقعي.

و يتبدأ التصوير القرآني بضرب مثل لمن لم يشكر نعمه الله عليه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَهُ لَا تَضْطَرُّ إِلَى هِجْرِهِ إجباريه، بل تعيش في أمن و أمان

(مطمئنه) و مضافا الى ذلك يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

و لكنَّ حالها قد تبدل في النهايه فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

و إضافه لاستكمال نعم الله الماديه عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنويه ما يستقر به حالهم في الدنيا، و يدام لهم ذلك في الآخره، فبعث بين ظهرانيهم رسل و أنبياء و أرسلت إليهم التعاليم السماويه و لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ .

فكانت النتيجة أن: فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ .

و إنكم حين تطلعون على هذه النماذج الواقعيه من الأمم السابقه، فاعتبروا بها و لا- تنهجوا طريق أولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم الله فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

## بحوث

## اشاره

### ١- أهو مثال أم حدث تاريخي؟

لقد عبّرت الآيات أعلاه عند حديثها عن تلك المنطقه العامره بكثره النعم، و التي أصاب أهلها بلاء الجوع و الخوف نتيجة كفرهم بأنعم الله، عبّرت عن ذلك بكلمه «مثلا» و بذات الوقت فإنّ الآيه استخدمت الأفعال بصيغه الماضى، ممّا يشير إلى وقوع ما حدث فعلا- فى زمن ماض، و هنا حصل اختلاف بين المفسّرين فى الهدف من البيان القرآنى، فقسم قد احتمل أنّ الهدف هو ضرب مثال عام، و ذهب القسم الثانى إلى أنه لبيان واقعه تاريخيه معينه.

و تطرّق مؤيد و الاحتمال الثانى إلى تحديد المنطقه التى حدثت فيها هذه الوقعه. فذهب بعضهم أنّها أرض مكّه، و لعل يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ تدعو إلى تقويه هذا الاحتمال، لأنّه دليل على أنّ هذه المنطقه مجدبه، و ما تحتاج

إليه يأتيها من خارجها، وما جاء في الآية (٥٧) من سورة القصص يُجيبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ يعضد هذا المعنى، خصوصا وأنّ المفسرين قد قطعوا بأنّها إشارة إلى مكّة المكرمه.

و يردّ هذا الزعم بعدم معرفه حادثه كهذه فى تاريخ مكّه على ما للحادثه من وضوح، فغير معروف عن مكّه أنّها عاشت أيّاماً رغيده و من ثمّ جاءها القحط و الجوع! و قال بعض آخر: حدثت هذه القصّه لجمع من بنى إسرائيل فى منطقه ما، و أنّهم ابتلوا بالقحط و الخوف على أثر كفرانهم بنعم الله.

و ما يؤيد ذلك ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ قوما فى بنى إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت فى بلادهم يستنجون بها فلم يزل الله بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها و يأكلونها و هو قول الله «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا... (١)» .

و رويت روايات أخرى قريبه من هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السّلام و تفسير على بن إبراهيم ممّا لا يمكن الاعتماد الكامل على أسانيدها، و إلاّ لكانت المسأله واضحه (٢) .

و ثمّه احتمال آخر و هو أنّ الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا فى اليمن، و قد ذكر القرآن الكريم قصتهم فى الآيات (١٥) - (١٩) من سورة سبأ، و كيف أنّهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار و الخيرات فى أمن و سلام، حتى أصابهم الغرور و الطغيان و الاستكبار و كفران النعم الإلهيه، فأهلكهم الله و شتّت جمعهم و جعلهم عبره للآخرين.

و جمله يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ليست دليلا قاطعا على أنّها لم

ص: ٣٤٦

١- ١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٩١ (لا حظ بأنّ الزوايه عن تفسير العياشى، و أحاديثه مرسله).

٢- ٢) - المصدر السابق.

تكن عامرّه بذاتها، لأنه من الممكن أن يقصد ب«كل مكان» أطرافها و ضواحيها، و كما هو معروف فإن المحاصيل الزراعيه لإقليم كبير تنتقل إلى المدينه أو القرية المركزيه في تلك المنطقه.

و ينبغي التذكير مرّه أخرى بعدم وجود المانع من شموله إشاره الآيه إلى كل ما ذكر من احتمالات.

و على أيه حال، فليس ثمّه مشكله مهمّه في تفسير هذه الآيه و ذلك لكثرة المناطق التي أصابها مثل هذه العاقبه عبر التاريخ.

و إذا كان عدم الاطمئنان الكافي في تعيين محل المنطقه قد دفع بعض المفسّرين إلى اعتبار الموضوع مثالا عامّا مجردا و ليس منطقته معينه، فظاهر الآيات مورد البحث لا يناسب ذلك التفسير، بل يشير إلى وجود منطقته معينه و حادثه تأريخيه.

## ٢- الرابطة ما بين الأمن و الرزق الكثير

ذكرت الآيات ثلاث خصائص لهذه المنطقه العامرّه المباركه:

الخاصيه الأولى: الأمن.

الخاصيه الثانيه: الاطمئنان في إدامه الحياه.

الخاصيه الثالثه: جلب الأرزاق و المواد الغذائيه الكثيره إليها.

و ترتبط هذه الخواص فيما بينها ترابطا عليّا و حسب تسلسلها، فكل خاصيه ترتبط بما قبلها ارتباط عله و معلول، فلو فقد الأمن لما اطمأن الإنسان على إدامه حياهه في مكانه المعين، و إذا فقد الاثنان فلا- رغبه حقيقه لأحد على الإنتاج و تحسين الوضع الاقتصادي هناك.

فالآيه تقدم درسا عمليا لمن يرغب في بلاد عامرّه و حرّه و مستقله، فقبل كل شيء لا بدّ من توفير حاله الأمن، و من ثمّ بعث الاطمئنان في قلوب الناس

بخصوص مستقبل وجودهم في تلك المنطقه، و من بعد ذلك يأتي دور تحريك عجله الإقتصاد.

فبهذه النعم الماديه الثلاثه تصل المجتمعات إلى درجه تكامل حياتها الماديه فقط، و وصولا- للحياه المتكامله من كافه الجوانب(ماديا و معنويا)تحتاج المجتمعات إلى نعمه الإيمان و التوحيد، و لهذا فقد جاء بعد ذكر هذه النعم: **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ .**

### ٣- لباس الجوع و الخوف

ذكرت الآيات في بيان عاقبه الكافرين بنعم الله،قائله: **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** فمن جهه:شَبَّهت الجوع و الخوف باللباس، و من جهه أخرى:

عَبَّرَتْ بـ«أَذَاقَهَا»بدلا من(أَلْبَسَهَا).

و حمل هذا التفاوت في التعبير المفسرين إلى التوقف و التأمل في الآية...

فالتعبير يحمل بين طياته إشاره لطيفه،فمثلا:

قال ابن الراوندى لابن الأعرابي الأديب:هل يذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابي:لا بأس و لا لباس يا أيها النسناس،هب أنك تشك أن محمدا ما كان نبيا أما كان عربيا!! (١) .

و على أيه حال،فالتعبير إشاره إلى أن القحط و الخوف كانا من الشده و كأنهما لباس قد أحاط بأبدانهم من كل الجهات،و أبدانهم في تماس معه،و من جهه أخرى فقد وصلت حاله لمسهم للخوف و القحط كأنهم يتذوقونه بألسنتهم.

و هو تعبير عن أشد حالات الخوف و منتهى حالات الفقر و الذي يمكن أن يصيب جميع وجود الإنسان.

ص: ٣٤٨



فكما أنّ نعمه الأمن و الرفاه قد غطت كامل وجودهم في البدايه،فها هم و قد حال بهم الأمر لأن يحل الفقر و الخوف محلها في آخر مطافهم نتيجة لكفرانهم بنعم الله سبحانه.

#### ٤- أثر كفران النعمه في تضييع المواهب الإلهيه

رأينا في الزوايه المتقدمه كيف راح أولئك المرفهون بتطهير أجسادهم بواسطه المواد الغذائيه بعد أن تسلطت عليهم الغفله و ساورهم الغرور،حتى ابتلاهم الله بالقحط و الخوف.

و عرض الحادثه ما هو إلا تنبيه للناس و لكل الأمم الغارقه بالنعم الإلهيه، على أنّ الإسراف و التبذير و تضييع النعم لا ينجو من عقوبه و غرامه ثقيله الوقع.

و هو تنبيه أيضا للذين يرمون نصف غذائهم(الزائد عن الحاجه)في أكياس الأوساخ دائما.

و هو تنبيه كذلك لأولئك الذين يهيئون غذاء يكفى لعشرين شخصا،و ليس لهم من الضيوف إلا أربعة،و لا يصل الزائد منه إلى بطون الجياع من الناس.

و هو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائيه في بيوتهم لاستعمالهم الخاص، و يملؤون مخازنهم انتظارا لارتفاع سعرها في الأسواق حتى يفسد و يذهب هباء من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم،فلا يخلو أي عمل ممّا ذكر من عقوبه إلهيه،و أقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

و تتضح أهميه المسأله إذا علمنا أنّ المواد الغذائيه على سطح الكره الأرضيه محدده بنسبه،فأيّ إفراط في أيّ نوع من المواد يؤدي إلى حرمان نسبه من البشر من تلك المواد.

و لذلك جاء التأكيد الشديد حول هذه المسأله في الأحاديث الشريفه،حتى

روى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «كان أبى يكره أن يمسح يده فى المنديل و فيه شىء من الطعام تعظيماً له، إلا أن يمصها، أو يكون إلى جانبه صبى فيمصها، قال:

فإتى أجد اليسير يقع من الخوان فأفقده فيضحك الخادم، ثم قال: إن أهل قريه ممن كان قبلكم كان الله قد وسع عليهم حتى طغوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلى شىء من هذا النقى فجعلناه نستنجى به كان أئين علينا من الحجاره، قال عليه السلام: فلما فعلوا ذلك بعث الله على أرضهم دواباً أصغر من الجراد فلم تدع لهم شيئاً خلقه الله إلا أكلته من شجر أو غيره، فبلغ بهم الجهد إلى أن أقبلوا على الذى كانوا يستنجون به، فأكلوه، و هى القريه التى قال الله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً إِلَى قَوْلِهِ: بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١).

ص: ٣٥٠

---

١- ١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٩١ و ٩٢.

اشاره

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أُضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

التفسير

اشاره

لا يفلح الكاذبون:

بعد أن تحدثت الآيات السابقه عن النعم الإلهيه و مسأله شكر النعمه، تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع و تطرح مسأله المحرمات

الواقعيه و غير الواقعيه لتفصل بين الدين الحق و بين البدع التي أحدثت في دين الله، و تشرع بالقول: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ (١)**.

و قد بحثنا موضوع تحريم الميتة و الدم و لحم الخنزير بالتفصيل في تفسيرنا للآية (١٧٣) من سورة البقره.

إنَّ تَلَوْتُ هذه المواد الثلاث بات اليوم ليس خافيا على أحد، فالميتة مصدر لأنواع الجراثيم، و الدم من أكثر مكونات البدن تقبلا للتلوث بالجراثيم، و أميا لحم الخنزير فيعتبر سببا للإصابة بالكثير من الأمراض الخطره، و فوق كل ذلك (و كما قلنا في تفسيرنا لسوره البقره) فتناول لحم الخنزير و الدم له الأثر الخطير على حاله النفسيه و الأخلاقيه للإنسان، بسبب التأثير الحاصل منهما على هرمونات البدن، (و الميتة بسبب عدم ذبحها و خروج دمها فإنَّ أضرار التلوث تتضاعف فيها).

أميا فلسفه تحريم ما يذبح لغير الله (حيث كانوا بدلا من ذكر اسم الله عند الذبح يذكرون أسماء أصنامهم أو لا- يتلفظون بشيء) فليست صحيحه، بل هي أخلاقيه و معنويه، حيث نعلم بعدم كفايه علّه التحليل و التحريم في الإسلام بملاحظه الجانب الصحى للموضوع، بل من المحرمات ذات جانب معنوى صرف، و حرمت بلحاظ تهذيب الروح و النظر إلى جنبه الأخلاقيه، و قد يأتي التحريم في بعض الحالات حفظا للنظام الاجتماعى.

فتحريم أكل لحم ما لم يذكر عليه اسم الله إنما كان بلحاظ أخلاقى. فمن جهه يكون التحريم حربا على الشرك و عباده الأصنام، و من جهه أخرى يكون دعوه إلى خالق هذه النعم.

ص: ٣٥٢

١ - ١) - أهل: من الإهلال، مأخوذ من الهلال، بمعنى إعلاء الصوت عند رؤيه الهلال، و باعتبار أن المشركين كانوا إذا ذبحوا حيواناتهم للأصنام صرخوا عاليا بأسماء أصنامهم، فقد عبر عنه ب«أهل».

و يستفاد من المحتوى العام للآيه و الآيات التاليه أنّ الإسلام يوصى بالاعتدال فى تناول اللحوم، فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم و اكتفوا بالأغذيه النباتيه، و لا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحوم أيّا كانت كأهل الجاهليه و البعض ممن يدعى التمدّن فى عصرنا الحاضر، ممن يجيزون أكل كل لحم (كالسحالى و السرطان و أنواع الديدان).

### جواب على سؤال:

و هنا يأتى السؤال التالى.. ذكرت الآيه المباركه أربعه أقسام من الحيوانات المحرمه الأكل أو أجزائها، و الذى نعلمه أنّ المحرم من اللحوم أكثر ممّا ذكر، حتى أنّ بعض السور القرآنيه ذكرت من المحرمات أكثر من أربعه أقسام (كما فى الآيه (٣) من سوره المائده).

فلما ذا حددت الآيه أربعه أشياء فقط؟ و جواب السؤال - كما قلنا فى تفسير الآيه (١٤٥) من سوره الأنعام -: أنّ الحصر الموجود فى الآيه هو حصر إضافي، أى أنّ المقصود من استعمال «إنّما» فى هذه الآيات لنفى و إبطال البدع التى كان يقول بها المشركون فى تحريم بعض الحيوانات، و كأنّ القرآن يقول لهم: هذه الأشياء حرام، لا - ما تقولون! و ثمّه احتمال آخر، و هو أن تكون هذه المحرمات الأربعه هى المحرمات الأصلية أو الأساسيه، حيث أنّ «المنخنقه» المذكوره فى آيه (٣) من سوره المائده داخله فى إحدى الأقسام الأربعه (الميته).

أمّا المحرمات الأخرى من أجزاء الحيوانات أو أنواعها - كالوحوش - فتأتى فى الدرجه الثانيه، و لذا أتى حكم تحريمها بطريق سنّه النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم، و عليه فيمكن أن يكون الحصر فى الآيه حصرا حقيقيا - فتأمل.

و فى نهايه الآيه سياقاً مع الأسلوب القرآنى عند تناوله ذكرت الحالات

و الموارد الاستثنائية، يقول: فَمَنْ اضْطُرَّ كَأَنْ يَكُونَ فِي صَحْرَاءٍ وَ لَا يَمْلِكُ غِذَاءَ غَيْرِ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

«باغ» أو الباغى: (من البغى) بمعنى «الطلب»، و يأتي هنا بمعنى طلب اللذة أو تحليل ما حرم الله.

«عاد» أو العادى، (من العدو) أى «التجاوز»، و يأتي هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حد الضروره.

و ورد تفسير (الباغى) فى أحاديث أهل البيت عليهم السلام بأنه (الظالم)، و (العادى) بمعنى (الغاصب)، و جاء -أيضا- الباغى: هو الذى يخرج على إمام زمانه، و العادى، هو السارق.

و إشارة الزوايات المذكوره يمكن حملها على الاضطراب الحاصل عند السفر، فإذا سافر شخص ما طلبا للظلم و الغصب و السرقة ثم اضطر إلى أكل هذه اللحوم المحرمة فسوف لا يغفر له ذنبه، حتى و إن كان لحفظ حياته من الهلاك المحتم.

و على أيه حال، فلا تنافى بين ما ذهب إليه التفاسير و بين المفهوم العام للآيه، حيث يمكن جمعها.

و تأتى الآيه التاليه لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، و الذى تطرق القرآن إليه سابقا بشكل غير مباشر، فتأتى الآيه لتطرحه صراحه حيث تقول: **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لَتَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ (١)**.

أى إن ما جئتم به ليس إلا -كذبه صريحه أطلقتها ألسنتكم فى تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، و تحريمكم لأخرى! (أشاره إلى الأنعام التى حرمها

ص: ٣٥٤

١ - ١) - و هكذا أصل تركيب جملة «و لا - تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب»: اللام...: لام التعليل، «ما» فى «لما تصف».. مصدرية، و «الكذب».. مفعول ل «تصف».. فتكون العبارة: (لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام لتوصيف ألسنتكم الكذب).

البعض على نفسه، و البعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسما منها لأصنامها).

فهل أعطاكم الله حق سنن القوانين؟ أم أن أفكاركم المنحرفة و تقاليدكم العمياء هي التي دفعتكم لإحداث هذه البدع؟.. أو ليس هذا كذبا و افتراء على الله؟! و جاء في الآية (١٣٦) من سورة الأنعام بوضوح: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .**

و يستفاد كذلك من الآية (١٤٨) من سورة الأنعام: **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لَأَنْفُسِهِمْ حَقَّ التَّشْرِيعِ فِي التَّحْلِيلِ وَ التَّحْرِيمِ، وَ يظنون أن الله يؤيد بدعهم!** (و على هذا فكانوا يضعون البدع أولا و يحللون و يحرمون ثم ينسبون ذلك إلى الله فيكون افتراء آخر) (١).

و يحذر القرآن في آخر الآية بقوله: **إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** لأن من مسيبات الشقاء الأساسي الكذب و الافتراء على أى إنسان، فكيف به إذا كان على الله عزّ و جلّ! فلا أقلّ و الحال هذه من مضاعفه آثاره السيئه.

و توضح الآية التاليه ذلك الخسران، فتقول: **مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .**

و يمكن أن تكون متاع قليل إشارة إلى أجنه الحيوانات الميتة التي كانوا يحللونها لأنفسهم و يأكلون لحومها، أو إشارة إلى إشباعهم حب الذات و عبادتها بواسطة جعل البدع، أو أنهم بتثيبت الشرك و عباده الأصنام فى مجتمعهم يتمكنون أن يحكموا على الناس مدّه من الزمن، و كل ذلك متاع قليل سيعقبه

ص: ٣٥٥

(١ - ١) - و لذا جاء ذكر افتراءهم فى الآية مسبقا باللام ليكون نتيجةه و غايه لبدعهم فتأمل.

و يطرح السؤال التالي: لما ذا حرّمت على اليهود محرّمات إضافيه؟ الآيه التاليه كأنها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّضْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ .

و هو إشاره إلى ما ذكر من الآيه (١٤٦) من سوره الأنعام: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ .

ذِي ظُفْرٍ: هي الحيوانات ذات الظفر الواحد كالخيل.

مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا: الشحوم التي في منطقه الظهر منها.

الْحَوَايَا: الشحوم التي على أطراف الأمعاء و الخاصرتين.

و حقيقه هذه المحرمات الإضافيه العقاب و الجزاء لليهود جراء ظلمهم، و لذلك يقول القرآن الكريم في آخر الآيات مورد البحث: وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

و كذلك ما جاء في الآيتين (١٦٠ و ١٦١) من سوره النساء: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بَصِيَّةٍ مِنْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَ أَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَ قَدْ نُهِوا عَنْهُ وَ أَكَلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .

فكان تحريما قسما من اللحوم على اليهود ذا جنبه عقابيه دون أن يكون للمشركين القدره على الإحتجاج في ذلك.

و ما حرّمه المشركون إن هو إلا- بدعه نشأت من خرافاتهم و أباطيلهم، لأنّ ما فعلوه ما كان جاريا لا- عند اليهود و لا عند المسلمين (و يمكن أن تكون إشاره الآيه تؤدي إلى هذا المعنى و هو إنكم فعلتم ما لا يتفق مع أيّ كتاب سماوى).

و في آخر آيه من الآيات مورد البحث، و تمشيا مع الأسلوب القرآني، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبه أمام المخدوعين من الناس و النادمين من ضلالهم،



يقول: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَسْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

و يلاحظ فى هذه الآيه جمله أمور:

أولاً: اعتبرت عله ارتكاب الذنب «الجهالة»، و الجاهل المذنب يعود إلى طريق الحق بعد ارتفاع حاله الجهل، و هؤلاء غير الذين ينهجون جاده الضلال على علم و استكبار و غرور و تعصب و عناد منهم.

ثانياً: إن الآيه لا- تحدّد موضوع بالتوبه القلبيه و الندم، بل تؤكد على أثر التوبه من الناحيه العمليه و تعتبر الإصلاح مكملًا للتوبه، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر الله»، و تؤكد على وجوب إصلاح الأمور عملياً، و ترميم ما أفسد من روح الإنسان أو المجتمع بارتكاب تلك الذنوب، للدلاله إلى التوبه الحقيقيه لا توبه لقلقه اللسان.

ثالثاً: التأكيد على شمول الرحمه الإلهيه و المغفره لهم، و لكن بعد التوبه و الإصلاح: إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

و بعباره أخرى إن مسأله قبول التوبه لا يكون إلا بعد الندم و الإصلاح، و قد ذكر ذلك فى ثلاثه تعابير:

أولاً: باستعمال الحرف «ثم».

ثانياً: «من بعد ذلك».

ثالثاً: «من بعدها».

لكى يلتفت المذنبون إلى أنفسهم و يتركوا ذلك التفكير الخاطئ بأن يقولوا:

نرجو لطف الله و غفرانه و رحمته، و هم على ارتكاب الذنوب دائمون.

ص: ٣٥٧

اشاره

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ إِجْتِبَاءً وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

التفسير

اشاره

كان إبراهيم لوحده أمه!

كما قلنا مرارا بأن هذه السوره هي سوره النعم، وهدفها تحريك حس الشكر لدى الإنسان بشكل يدفعه لمعرفة خالق و واهب هذه النعم.

و الآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور لله، ألا و هو «إبراهيم» بطل التوحيد، و أول قدوة للمسلمين عامه و للعرب خاصة.

و الآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميده التي كان يتحلى بها

إبراهيم عليه السّلام.

## ١- إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .

وقد ذكر المفسّرون أسبابا كثيرة للتعبير عن إبراهيم عليه السّلام بأنه «أمّة» وأهمها أربع:

الأوّل: كان لإبراهيم شخصيه متكامله جعلته أن يكون أمّه بذاته، وشعاع شخصيه الإنسان في بعض الأحيان يزداد حتى ليتعدى الفرد و الفردين و المجموعه فتصبح شخصيته تعادل شخصيه أمّه بكاملها.

الثاني: كان إبراهيم عليه السّلام قائدا و قدوه حسنه و معلما كبيرا للإنسانيه، و لذلك أطلق عليه أمّه لأنّ «أمّه» اسم مفعول يطلق على الذي تقتدى به الناس و تنصاع له.

و ثمه ارتباط معنوى خاص بين المعنيين الأوّل و الثاني، حيث أنّ الذي يكون بمرتبته إمام صدق و استقامه لأُمَّه ما، يكون شريكا لهم في أعمالهم و كأنّه نفس تلك الأمّه.

الثالث: كان إبراهيم عليه السّلام موحدا في محيط خال من أيّ موحدا، فالجميع كانوا يخوضون في وحل الشرك و عباده الأصنام، فهو و الحال هذه «أمّه» في قبال أمّه المشركين (الذين حوله).

الرّابع: كان إبراهيم عليه السّلام منبعا لوجود أمّه، و لهذا أطلق القرآن عليه كلمه «أمّه».

و لا مانع من أن تحمل هذه الكلمه القصيره الموجهه كل ما ذكر ما معان كبيره.

نعم فقد كان إبراهيم أمّه و كان إماما عظيما، و كان رجلا- صانع أمّه، و كان مناديا بالتوحيد وسط بيئه اجتماعيه خاليه من أيّ موحدا (١).

ص: ٣٥٩

---

١- ١) - و في الرّوايات عنه صلّى الله عليه و آله و سلّم أن عبد المطلب: «يبعث يوم القيامه أمّه وحده، عليه بهاء الملوك و سيماء الأنبياء» لأنّه كان مدافعا عن التوحيد في بيئه الشرك و عباده الأصنام. (سفينة البحار، ج ٢، ص ١٣٩).

و قال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم فى واحد

٢-صفته الثانيه فى هذه الآيات: أنه كان قانتاً لله .

٣-و كان دائماً على الصراط المستقيم سائراً على طريق الله، طريق الحق حنيفاً .

٤- وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بل كان نور الله يملأ كل حياته و فكره، و يشغل كل زوايا قلبه.

٥-و بعد كل هذه الصفات، فقد كان شاكراً لِنِعْمِهِ .

و بعد عرض الصفات الخمسه يبين القرآن الكريم النتائج المهمه لها، فيقول:

١- اجْتَبَاهُ لِلنَّبُوهِ و ابلاغ دعوته.

٢- وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ و حفظه من كل انحراف، لأن الهدايه لا تأتي لأحد عبثاً، بل لا بد من توفر الاستعداد و الأهليه لذلك.

٣- وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .

«الحسنه» فى معناها العام كل خير و إحسان، من قبيل منح مقام النبوه مروراً بالنعم الماديه حتى نعمه الأولاد و ما شابهها.

٤- وَ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

و مع أن إبراهيم كان على رأس الصالحين فى الدنيا، فإنه سيكون منهم فى الآخره كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، و هذه دلالة على عظمه مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السلام على ما له من مقام سام كأحدهم فى دار الآخره، و لم لا يكون ذلك و قد طلب إبراهيم عليه السلام ذلك من ربه حين قال: رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١).

ص: ٣٦٠

٥- و ختمت عطايا الله عزّ و جلّ لإبراهيم عليه السّلام لما ظهر منه من صفات متكامله بأن جعل دينه عاما و شاملا لكل ما سيأتي بعده من زمان- و خصوصا للمسلمين- و لم يجعل دينه مختصا بعض أهل زمانه، فقال الله عزّ و جلّ: **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (١)**.

و يأتي التأكيد مرّه أخرى: **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**.

و بملاحظه الآيات السابقه يبدو لنا هذا السؤال: إن كان دين الإسلام هو نفس دين إبراهيم و أنّ المسلمين يتبعون سنن إبراهيم عليه السّلام فى كثير من المسائل و منها احترام يوم الجمعة، فلما ذا اتّخذ اليهود يوم السبت عيدا لهم بدلا من الجمعة و يعطلون فيه أعمالهم؟ إنّ آخر آيه من الآيات مورد البحث تجيب على السؤال المذكور حين تقول:

**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ**

أى أنّ السبت و ما حرم فى السبت كان عقوبه لليهود، و قد اختلفوا فيه أيضا، فمنهم من قبله و منهم من أهمله.

و تقول بعض الروايات: أنّ موسى عليه السّلام دعا قومه بنى إسرائيل لاحترام يوم الجمعة و تعطيل أعمالهم فيه، و هو دين إبراهيم عليه السّلام، إلّا إنّهم تعلّوا، و اختاروا يوم السبت، فجعله الله عطلة لهم و لكن بضيق و شدّه، و لهذا لا ينبغى الاعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنّه إنّما كان استثنائيا و ذا طابع جزائى، و أفضل دليل على هذا الأمر أنّ اليهود أنفسهم اختلفوا فى يومهم المنتخب هذا، فبعض احترمه و بعض آخر خالف ذلك و أدام العمل و الكسب فيه حتى أصابهم عذاب الله.

و ثمّه احتمال آخر أن تكون إشاره الآيه مرتبطه ببدع المشركين فى موضوع الأغذيه الحيوانيه، لأنّ الآيات السابقه تطرقت لذلك من خلال إجابتها على

ص: ٣٦١

١ - (١) - «الحنيف»: بمعنى الذى يترك الانحراف و يتجه إلى الاستقامه و الصلاح، و بعبارة أخرى، يغض نظره عن الأديان و الأوضاع المنحرفه و يتوجه نحو صراط الله المستقيم، الدين الموافق للفظه، و لهذا يسمى الصراط المستقيم، فالتعبير بالحنيف يحمل بين طياته إشاره خفيه إلى أنّ التوحيد هو دين الفطره.

تساؤل:لما ذا لم يحرم فى الإسلام ما كان محرما فى دين اليهود؟فجاء الجواب أنّ ذلك كان عقابا لهم،فيطرح السؤال مرّة أخرى حول عدم حرمة صيد الأسماك يوم السبت فى الأحكام الإسلاميه فى حين أنّه محرّم على اليهود..فيكون الجواب بأنّه كان عقابا لليهود أيضا.

و على أيّيه حال،فتمّيه ارتباط بين هذه الآيات و الآيات(١٦٣-١٦٦)من سوره الأعراف التى تتحدث الحديث عن«أصحاب السبت»،حيث عرضت قصتهم،و كيف أنّ صيد السمك قد حرّم عليهم فى يوم السبت،و مخالفه قسم منهم لهذا الأمر،و العقاب الشديد الذى نزل عليهم بعد ذلك الامتحان الإلهى.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ«السبت»فى الأصل بمعنى تعطيل الأعمال للاستراحه،و لذلك سمي يوم السبت،لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم فيه،و بقى هذا الاسم مستعملا حتى بعد مجيء الإسلام،إلاّ أنّه لا عطله فيه.

و يقول القرآن الكريم فى آخر الآية: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

و كما أشرنا سابقا فإنّ إحدى خصائص يوم القيامة إنهاء الاختلافات على كاهه الأصعبه،و العوده إلى التوحيد المطلق،لأنّ يوم القيامة هو يوم:البروز، الظهور،كشف السرائر و البواطن،و كشف الغطاء و يوم رفع الحجب.

اشاره

أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَإِصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا  
تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

التفسير

اشاره

عشره قواعد أخلاقيه.. سلاح داعيه الحق:

حملت آيات السوره بين طياتها أحاديث كثيره و متنوعه، فقد تناولت المشركين و اليهود و أصناف المخالفين بشكل عام، تاره بلهجه لينه و أخرى بأسلوب تفریع شده، و خصوصا الآيات السابقه لما لها من عمق و شده أكثر ممّا سبقها من الآيات المباركات.

أمّا الآيات أعلاه و التي تمثل خاتمه بحوث و أحاديث سوره النحل، فتبين

أهم الأوامر الأخلاقية الأساسية التي ينبغي التحصن بها عند مواجهه المخالفين على أساس منطقي، كما و تبيّن كيفية العقاب و العفو و أسلوب الصمود أمام مؤامرتهم و ما شابه ذلك.

و يمكن تسميه ذلك بالأصول التكتيكية و منهج المواجهه في الإسلام ضد المخالفين، كما و ينبغي العمل به كقانون كلي شامل لكل زمان و مكان.

و يتلخص هذا البرنامج الزباني بعشره أصول، تم ترتيبها وفقا لتسلسل الآيات مورد البحث:

١- اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ

:

«الحكمه»: بمعنى العلم و المنطق و الاستدلال، و هي في الأصل بمعنى (المنع) و قد أطلقت على العلم و المنطق و الاستدلال لقدرتها على منع الإنسان من الفساد و الانحراف...

فأول خطوه على طريق الدعوه إلى الحقّ هي التمكن من الاستدلال وفق المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس و محاوله تحريك و إيقاظ عقولهم، كخطوه أولى في هذا الطريق.

٢- وَ الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ :

و هي الخطوه الثانيه في طريق الدعوه إلى الله، بالاستفاده من عمليه تحريك الوجدان الإنساني، و ذلك لما للموعظه الحسنه من أثر دقيق و فاعل على عاطفه الإنسان و أحاسيسه، و توجيه مختلف طبقات الناس نحو الحقّ.

و في الحقيقه فإنّ «الحكمه» تستثمر البعد العقلي للإنسان، و «الموعظه الحسنه» تتعامل مع البعد العاطفي له (١).

ص: ٣٦٤

١- ١) - قال بعض المفسرين في الفرق ما بين الحكمه، و الموعظه الحسنه، المجادله بالتي هي أحسن: أنّ الحكمه إشاره إلى الأدله القطعيه.. الموعظه الحسنه إشاره إلى الأدله الظنيه.. و المجادله بالتي هي أحسن إشاره إلى الأدله التي تهدف إلى إفحام المخالفين من خلال إلزامهم بما به يقبلون. (إلا أنّ ما أوردناه أعلاه يبدو أكثر مناسبة للمقصود).



إن تقييد «الموعظه» ب«بقيد» «الحسنه» لعله إشاره إلى أن النصيحة و الموعظه إنما تؤدي فعلها على الطرف المقابل إذا خليت من أيه خشونه أو استعلاء و تحقير التي تثير فيه حس العناد و اللجاجه و ما شابه ذلك.

فكم من موعظه أعطت عكس ما كان يؤمل بها بسبب أسلوب طرحها الذي يشعر الطرف المقابل بالحقاره و الإهانه كأن تكون الموعظه امام الآخرين و مقرونه بالتحقير، أو يستشَم منها رائحه الاستعلاء في الواعظ، فتأخذ الطرف المقابل العزه بالإثم و لا يتجاوب مع تلك الموعظه.

و هكذا يترتب الأثر الإيجابي العميق للموعظه إذا كانت «حسنه».

٣- وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

الخطوه الثالثه تختص بتخليه أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقه فيه و الأفكار المغلوطة ليكون مستعدا لتلقى الحق عند المناظره.

و بديهى أن تكون المجادله و المناظره ذات جدوى إذا كانت بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، أى أن يحكمها الحق و العدل و الصحه و الأمانه و الصدق، و تكون خاليه من أيه إهانه أو تحقير أو تكبير أو مغالطه، و بعبارة شامله: أن تحافظ على كل الأبعاد الإنسانيه السليمه عند المناظره.

و فى ذيل الآيه الأولى، يقول القرآن: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

فالآيه تشير إلى أن وظيفتكم هى الدعوه إلى طريق الحق بالطرق الثلاثه المتقدمه، أما مسأله من الذى سيهتدى و من سيبقى على ضلاله، فعلم ذلك عند الله وحده سبحانه.

و ثمة احتمال آخر فى مقصود هذه الجمله و هو بيان دليل للتوجيهات الثلاث المتقدمه، أى: إنما أمر سبحانه بهذه الأوامر الثلاثه لأنه يعلم الكيفيه التي تؤثر بالضالين لأجل توجيههم و هدايتهم.

٤- انصب الحديث فى الأصول الثلاثة حول البحث المنطقى و الأسلوب العاطفى و المناقشه المعقوله مع المخالفين، و إذا حصلت المواجهه معهم و لم يتقبلوا الحق و راحوا يعتدون، فهنا يأتى الأصل الرابع: **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ** .

٥- **وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** :

و تقول الروايات: إن الآيه نزلت فى معركة (أحد) عند ما شاهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم شهادة عمه حمزه بن عبد المطلب المؤلمه (حيث لم يكتف العدو بقتله بل شق صدره بوحشيه و قساوه فظيعة و أخرج كبده أو قلبه و قطع أذنه و أنفه) و تأذى النبى لذلك كثيرا و

قال: «اللهم لك الحمد و إليك و أنت المستعان على ما أرى» ثم

قال: «لئن ظفرت لأمثلن و لأمثلن و لأمثلن» و

على روايه أخرى أنه قال: «لأمثلن بسبعين منهم» فنزلت الآيه: **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «أصبر أصبر» (١).

ربما كانت تلك اللحظه من أشد لحظات حياه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لكنّه تمالك زمام أمور نفسه و اختار الطريق الثانى، طريق العفو و الصبر.

ربما كانت تلك اللحظه من أشد لحظات حياه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لكنّه تمالك زمام أمور نفسه و اختار الطريق الثانى، طريق العفو و الصبر.

و يحكى لنا التاريخ ما قام به الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حين فتح مكّه، فما أن وطأت أقدام المسلمين المنتصره أرض مكّه حتى أصدر نبى الرحمه صلى الله عليه و آله و سلم العفو العام عن أولئك الجفاه، فوفى بوعده الذى قطعه على نفسه فى معركة أحد (٢).

و حرى بالإنسان إذا أراد أن ينظر إلى أعلى نموذج حى فى العواطف الإنسانيه، أن يضع قصتى أحد و فتح مكّه نصب عينيه ليقارن و يربط بينهما.

و لعل التاريخ لا يشهد لأيه أمّه منتصره عوملت بمثل ما عمل به النبى صلى الله عليه و آله و سلم

ص: ٣٦٦

(١-١) - تفسير العياشى، و تفسير الدرر المنثور فى تفسير الآيه (على ما ذكره تفسير الميزان).

(٢-٢) - يلاحظ فى بعض الروايات إن القول بالمثل بأكثر من واحد عند الظفر كان من بعض المسلمين (راجع تفسير التبيان، ج ٦، ص ٤٤٠).

و المسلمون مشركي مَّكَّهُ عند انتصارهم عليهم، على الرغم من أن المسلمين كانوا من أبناء تلك البيئه التي نفذ شعور الانتقام و الحقد فيها ليتوغل و يركد في أعماق المجتمع، بل و كانت الأحقاد تتوارث جيلا بعد جيل إلى حدّ كان عدم الانتقام يعدّ عيبا كبيرا لا- يمكن ستره! و من ثمار عفو و سماحه الإسلام أن اهتزت تلك الأُمَّه الجاهله العنيدَه من أعماقها و استيقظت من نوم غفلتها، و راح أفرادها كما يقول عنهم القرآن الكريم:

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا .

٦- وَ اصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ :

و الصبر إنّما يكون مؤثرا و فاعلا إذا قصد به رضوانه تعالى و لا يلحظ فيه أى شىء دون ذلك.

و هل يتمكن أى إنسان من الصبر على الكوارث المقطعه للقلب من غير هدف معنوى و بدون قوه إلهيه و يتحمل الآلام دون فقدان الاتزان؟!.. نعم، ففي سبيل رضوان الله كل شىء يهون و ما التوفيق إلا منه عزّ و جلّ.

٧- و إذا لم ينفع الصبر في التبليغ و الدعوه إلى الله، و لا- العفو و التسامح، فلا- ينبغى أن يحل اليأس في قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار في التبليغ بسعه صدر و هدوء أعصاب أكثر، و لهذا يقول القرآن الكريم في الأصل السابع:

وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

لأنّ الحزن و التأسف على عدم إيمان المعاندين يترك أحد أثرين على الإنسان، فإمّا أن يصيبه اليأس الدائم، أو يدفعه إلى الجزع و الغضب و ضعف التحمل، فالنهى عن الحزن عليهم يحمل في واقعه نهيا للأمرين معا، فينبغى للعاملين في طريق الدعوه إلى الله.. عدم الجزع و عدم اليأس.

٨- وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ .

فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسع و دقيقه و خطره فلا ينبغى لك ترك

الميدان، لظنك أن قد وقعت في زاويه ضيقه و حصار محكم، بل لا بدّ من التوكل على الله، و سوف تفشل كل الدسائس و تبطل مفعولها بقوه الإيمان و الثبات و المثابره و العقل و الحكمة.

و آخر آيه من سوره النحل تعرض الأمرين التاسع و العاشر، حيث تقول:

□  
٩- إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا :

التقوى فى جميع أبعادها و بمفهومها الواسع، و منها: التقوى فى مواجهه المخالفين بمراعاة أصول الأخلاق الإسلاميه عند المواجهه، فمع الأسير لا- بدّ من مراعاة أصول المعامله الإسلاميه، و مع المنحرف ينبغى مراعاة الإنصاف و الأدب و التورع عن الكذب و الاتهام، و فى ميدان القتال لا- بدّ من التعامل على ضوء التعليمات العسكريه وفق الموازين و الضوابط الإسلاميه، فمثلا: ينبغى عدم الهجوم على العزل من الأعداء، عدم التعرض للأطفال و النساء و العجزه، و لا التعرض للمواشى و المزارع لأجل إتلافها، و لا يقطع الماء على العدو... و خلاصه القول: تجب مراعاة أصول العدل مع العدو و الصديق (و طبيعى أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم استثناء و ليس قاعده).

١٠- وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

أكد القرآن الكريم فى كثير من آياته اليّنات بأن يقابل المؤمن إساءه الجاهل بالإحسان، عسى أن يخجل الطرف المقابل أو يستحى من موقفه المتشنج، و بهذه السلوكيه الرائعه قد ينتقل ذلك الجاهل من أَلَدُ الْخِصَامِ إِلَى أَحْسَنِ الْأَصْدِقَاءِ وَلِيَّ حَمِيمٍ ! و إذا عمل بالإحسان فى محله المناسب، فإنه أفضل أسلوب للمواجهه، و التأريخ الإسلامى يرفدنا بعينيات رائعه فى هذا المجال.. و منها: موقف معاملة النّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع مشركى مكّه بعد الفتح، معاملة النّبى الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ل(وحشى)قاتل حمزّه، معاملته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لأسرى معركة بدر الكبرى، معاملته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع من كان يؤذيه

ص: ٣٦٨

بمختلف السبل من يهود زمانه.. و نجد شبيهه معاملته النبي صلى الله عليه وآله و سلم مع الآخرين قد تجسدت عمليا في حياه على عليه السلام و سائر الأئمه عليهم السلام، و كل ذلك يكشف لنا بوضوح أهميه الإحسان في حياه الإنسان من وجهه نظر الإسلام.

و من دقيق عبارته في هذا المجال ما نجده في نهج البلاغه ضمن الخطبه المعروفه بخطبه همام، ذلك الرجل الزاهد العابد الذي طلب من أمير المؤمنين عليه السلام أن يصف له المتقين، حيث اكتفى أمير المؤمنين عليه السلام بذكر الآيه المباركه من مجموع القرآن و قال: اتق الله و أحسن إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون (١).

و لكنّ السائل العاشق للحق لم يرو عطشه بهذا البيان المختصر، ممّا اضطر الإمام عليه السلام أن يعرض له بيانا أكثر تفصيلا حتى استخرجت من فمه الشريف أكمل خطبه في وصف المتقين، حوت على أكثر من مائه صفه لهم، إلا أن جوابه المختصر يبيّن أن الآيه المباركه مختصر جامع لكل صفات المتقين.

و بنظره تأملتيه ممعنه إلى الأصول العشره المذكوره، تتبين لنا جميع الخطوط الأصليه و الفرعيه لأسلوب مواجهه المخالفين، و أنّ هذه الأصول إنما احتوت كل الأسس المنطقيه و العاطفيه و النفسيه و التكتيكيه، و كل ما يؤدي للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الإيجابي فيها.

و مع ذلك... فالإكتفاء بالمنطق و الاستدلال في مواجهه الأعداء و في كل الظروف لا يقول به الإسلام و لا يقوّهه، بل كثيرا ما تدعو الضروره لدخول الميدان عمليا في مواجهه الأعداء حتى يلزم الأمر في بعض الأحيان المقابله بالمثل و التوسل بالقوّه في قبال استعمال القوه من قبل الأعداء، و بالتدابير المبيته في قبال ما يبيتون أمور، و لكن أصول العدل و التقوى و الأخلاق و الإسلاميه يجب أن تراعى في جميع الحالات.

ص: ٣٦٩

و لو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعموره أو معظمها على أقل التقادير.

### خاتمه مقال سوره النحل «سوره النعم»:

مِمَّا يَلْفُتُ النَّظْرَ فِي السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ - كَمَا قَلْنَا سَابِقًا - ذَكَرَهَا لكَثِيرٍ مِنَ النَّعْمِ الْإِلَهِيَّةِ، الْمَادِيَّةِ مِنْهَا وَ الْمَعْنَوِيَّةِ، الظَّاهِرِيَّةِ وَ الْبَاطِنِيَّةِ، الْفَرْدِيَّةِ وَ الْجَمَاعِيَّةِ، مِمَّا دَعَتِ الْمَفْسَّرِينَ لِأَنْ يُطْلَقُوا عَلَيْهِمْ اسْمُ (سُورَةِ النَّعْمِ).

و بِمِلَاحِظَةٍ وَ دِرَاسَةِ آيَاتِ السُّورَةِ تَظْهَرُ لَنَا فِي حُدُودِ الْأَرْبَعِينَ نِعْمَةً مِنَ النَّعْمِ الْكَبِيرَةِ وَ الصَّغِيرَةِ مَتَوَزِعَةً بَيْنَ طَيَّاتِهَا، وَ سَنَذَكُرُ أَدْنَاهَا فَهَرَسًا لِهَذِهِ النَّعْمِ مَعَ التَّأَكِيدِ عَلَى أَنَّ الْهَدَفَ مِنْ ذِكْرِهَا إِنَّمَا هُوَ لِأَمْرَيْنِ:

الأول: تعليم درس التوحيد و بيان عظمه الخالق.

الثاني: تقويه حب و تعلق الإنسان بخالقه و تحريك غريزه الشكر لديه.

١- خَلَقَ السَّمَاوَاتِ .

٢- وَ الْأَرْضَ .

٣- وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا .

٤- الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ صَوْفِهَا وَ جِلْدِهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ .

٥- وَ مَنَافِعٌ .

٦- مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

٧- الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ جَمَالِ الْإِسْتِقْلَالِ الْاِقْتِصَادِيِّ وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ .

٨- وَ تَحْمِيلُ أَنْقَالِكُمْ - وَ الْخَيْلِ وَ الْبِغَالِ وَ الْحَمِيرِ لِتَرْكَبُوهَا .

٩- الْهَدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .

١٠- هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ .

١١- إِنْشَاءَ الْمَرَاعِي وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ .

١٢- يُنْبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالرَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .

١٣- وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

١٤- وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .

١٥- وَالنُّجُومَ .

١٦- وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ .

١٧- وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .

١٨- وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ .

١٩- وَالْأَقْفَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .

٢٠- وَأَنْهَارًا .

٢١- وَسُبُلًا .

٢٢- وَعَلَامَاتٍ لِمَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ .

٢٣- وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ فِي مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ لَيْلًا .

٢٤- وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَتَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .

٢٥- نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ .

٢٦- وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا .

٢٧- الْعَسَلُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ .

٢٨- وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .

٢٩- وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنِينَ وَحَفَدَةً .

٣٠- وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بِمَعْنَاهَا الْوَاسِعِ .

٣١- وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ .

٣٢- وَالْأَبْصَارَ .

٣٣- وَالْأَفْئِدَةَ .

ص: ٣٧١



٣٤- وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ هِيَ الْبُيُوتُ الثَّابِتَةُ.

٣٥- وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا وَ هِيَ الْبُيُوتُ الْمَتَحْرِكَةُ.

٣٦- وَ مِنْ أَضْوَاءِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَ مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ .

٣٧- نِعْمَةُ الظَّلَالِ وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا .

٣٨- نِعْمَةُ وَجُودِ الْمَلَاجِي الْأَمْنَةِ فِي الْجِبَالِ وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا .

٣٩- وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .

٤٠- وَ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِأَسْكُمُ أَي: فِي الْحُرُوبِ.

وَ جَاءَ فِي خَاتَمِهِ هَذِهِ النِّعَمُ: كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ .

### الهدف من ذكر النعم:

لا- حاجه للتنبيه على أن ذكر النعم الإلهيه الوارده في القرآن الكريم لا- يقصد منها إلقاء المنة أو كسب الوجاهه و ما شابه ذلك، فشأن البارى أجلّ و أسمى من ذلك و هو الغنى و لا غنى سواه. و لكنّ ذكرها جاء ضمن أسلوب تربوى مبرمج يهدف لإيصال الإنسان إلى أرقى درجات الكمال الممكنه من الناحيتين الماديه و المعنويه. و أقوى دليل على ذلك ما جاء فى أواخر كثير من الآيات السابقه من عبارات و التى تصب- مع كثرتها و تنوعها- فى نفس الاتجاه التربوى المطلوب.

فبعد ذكر نعمه تسخير البحار، يقول القرآن فى الآيه (١٤): لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

و بعد بيان نعمه الجبال و الأنهار و السبل، يقول فى الآيه (١٥): لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

و بعد بيان أعظم النعم المعنويه (نعمه نزول القرآن) تأتى الآيه (٤٤) لتقول: لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

و بعد ذكر نعمه آلات المعرفه المهمه (السمع و البصر و الفؤاد)، تقول الآيه (٧٨): لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

و بعد الإشاره إلى إكمال النعم الإلهيه، تقول الآية (٨١): لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ .

و بعد ذكر جملة أمور في مجال العدل و الإحسان و محاربه الفحشاء و المنكر و الظلم، تأتي الآية (٩٠) لتقول: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

و الحقيقه أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى خمسة أهداف من خلال ما ذكر في الموارد الستة أعلاه:

١-الشكر.

٢-الهدايه.

٣-التفكر.

٤-التسليم للحق.

٥-التذكّر.

و ممّا لا شك فيه أنّ الأهداف الخمسه مترابطه فيما بينها ترابطا وثيقا فالإنسان يبدأ بالتفكر، و إذا نسي تذكّر، ثم يتحرك فيه حس الشكر لوأهب النعم عليه، فيفتح الطريق إليه ليتهدى، و أخيرا يسلم لأوامر مولاه.

و عليه، فالأهداف الخمسه حلقات مترابطه في طريق التكامل، و إذا سلك السالك ضمن الضوابط المعطاه لحصل على نتائج مثمره و عاليه.

و ثمّه ملاحظه، هي أنّ ذكر النعم الإلهيه بشكليها الجمعي و الفردي إنّما يراد بها بناء الإنسان الكامل.

إلهي! أحاطت نعمك بكل وجودنا، فغرقنا في بحر عطايك، و لكننا لم نعرفك بعد.

إلهي! هب لنا بصرا و بصيره نرى بهما طريق معرفتك و حبك، و وفقنا للسير في مرضيک و أوصلنا إلى منزل الشاكرين حقا.

اللهم! أنت تعلم بحوائجنا دون غيرك، و تعلم أكثر ممّا لما نريد، فمنّ علينا لنكون كما تحب، و اجعلنا خيرا ممّا يظن الناس إنك سمع مجيب.

ص: ٣٧٣



## سوره الإسراء

### اشاره

مکيه و عدد آياتها مائه و إحدى عشره آيه

ص: ۳۷۵



«سورة الإسراء» قبل الدخول في تفسير هذه السورة من المفيد الانتباه إلى النقاط الآتية:

### أولاً: أسماء السورة و مكان النزول:

بالرغم من أنّ الاسم المشهور لهذه السورة هو «بنى إسرائيل» إلا أنّ لها أسماء أخرى مثل «الإسراء» و «سبحان» (١).

و من الواضح أنّ ثمة علاقة تصل بين أى اسم من أسماء السورة و بين محتواها و مضمونها، فهي «بنى إسرائيل» لأنّ هناك قسماً مهمّاً في بدايه السورة و نهايتها يرتبط بالحديث عن بنى إسرائيل.

و إذا قلنا أنّها سورة «الإسراء» فإنّ ذلك يعود إلى الآية الأولى فيها التي تتحدث عن إسراء (و معراج) النّبي الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و أمّا تسميتها ب «سبحان» فإنّ ذلك يعود إلى الكلمة الأولى في السورة المباركة.

و لكنّ الروايات التي تتحدّث عن فضيله هذه السورة، تطلق عليها «بنى إسرائيل» فقط. و لهذا السبب فإنّ معظم المفسّرين يقتصرون على هذا الاسم، و قد

ص: ٣٧٧

اختاروه دون غيره.

و بالنسبه لمكان نزول السوره، فمن المشهور أنّ جميع آياتها مكيه، و ممّا يؤيد ذلك أنّ مضمون السوره و مفاهيمها يناسب بشكل كامل مضمون و محتوى و سياق السور المكيه، هذا بالرغم من أنّ المفسرين يعتقد بأنّ هناك مقطعا من السوره قد نزل في المدينه، و لكن المشهور ما شاع بين المفسرين من مكيه تمام السوره.

### ثانياً: فضيله سوره الإسراء:

وردت في فضيله سوره الإسراء و أجراها أحاديث كثيره عن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلم و عن الإمام الصادق عليه السلام. فعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «من قرأ سوره بنى إسرائيل في كل ليله جمعه لم يمت حتى يدرك القائم و يكون من أصحابه».

و بالنسبه لثواب قراءه سور القرآن الكريم و الروايات التي تتحدث عن فضائلها، ينبغي أن يلاحظ أنّ ملاك الأمر لا يتعلق بمجرد القراءه و حسب، و إنّما - كما قلنا مراراً - أنّ التلاوه ينبغي أن تقترب بالتفكر في معانيها و التأمل في مفاهيمها، و ينبغي أن يعقب ذلك جميعاً العمل بها، و تحويلها إلى قواعد يسترشد بها الإنسان المسلم في سلوكه.

خصوصاً و إنّنا نقرأ في واحده من الروايات التي تتحدث عن فضيله هذه السوره ما نصه:

«فرق قلبه عند ذكر الوالدين». أي أنّ هناك أثر ترتب على القراءه، و قد تمثل هنا بموجه من الأحاسيس النبيله و الحبّ و المودّه للوالدين.

إذاً، ألفاظ القرآن تملك و لا شك قيمه و احتراماً بحدّ ذاتها، إلا أنّ هذه الألفاظ هي مقدمه للوعي الفكري الصحيح، كما أنّ الوعي الفكري الإيماني الصحيح هو مقدمه للعمل الصالح.

ص: ٣٧٨

## ثالثا: خطوط عامّة في محتوى السورة:

لقد أشرنا إلى مكّيه السورة وفق القول المشهور بين المفسّرين، لذا فإنّ محتوى السورة يوافق خصوصيات السور المكيّة، من قبيل تركيزها على قضيه التوحيد و المعاد، و مواجهه إشكاليات الشرك و الظلم و الانحراف.

و بالإمكان فرز المحاور المهمّة الآتية التي يدور حولها مضمون السورة:

أوّلا: الإشارة إلى أدله التّبوه الخاتمه و براهينها، و في مقدمتها معجزه القرآن و قضيه المعراج.

ثانيا: تمّه بحوث في السورة ترتبط بقضيه المعاد و ما يرتبط به من حديث عن صحيفه الأعمال، و قضيه الثواب و العقاب المترتب على نتيجته الجزاء.

ثالثا: تتحدّث السورة في بدايتها و نهايتها عن قسم من تاريخ بني إسرائيل المليء بالأحداث.

رابعا: تتعرض السورة إلى حريه الإختيار لدى الإنسان و أنّ الإنسان غير مجبر في أعماله، و بالتالي فإنّ على الإنسان أن يتحمل مسئوليّه تلك الحريه من خلال تحمله لمسئوليّه أعماله سواء كانت حسنه أو سيئه.

خامسا: تبحث السورة قضيه الحساب و الكتاب في هذه الدنيا، لكي يعي الإنسان قضيه الحساب و الكتاب على أعماله و أقواله في اليوم الآخر.

سادسا: تشير إلى الحقوق في المستويات المختلفه، خصوصا فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، و بالأخص منهم الأم و الأب! سابعا: تتعرض السورة إلى حرمه «الإسراف»، و «التبذير»، و «البخل»، و «قتل الأبناء»، و «الزنا»، و «أكل مال اليتيم»، و «البخس في المكيال»، و «التكبر»، و «إراقه الدماء».

ثامنا: في السورة بحوث حول التوحيد و معرفه الله تعالى.

ناسعا: تواجه السورة مواقف العناد المكابره إزاء الحق، و أنّ الذنوب تتحوّل



إلى حجب تمنع الإنسان من رؤيه الحق.

عاشرا:تركز السوره على أفضليه الإنسان على سائر الموجودات.

أحد عشر:تؤكد السوره على تأثير القرآن الكريم فى معالجه الأشكال المختلفه من الأمراض الأخلاقيه و الاجتماعيه.

ثانى عشر:تبحث السوره فى المعجزه القرآنيه و عدم تمكن الخصوم و عجزهم عن مواجهه هذه المعجزه.

ثالث عشر:تحذر السوره المؤمنين من وساوس الشيطان و إغوائته، و تنبههم إلى المسالك التى ينفذ من خلالها إلى شخصيه المؤمن.

رابع عشر:تعرض السوره إلى مجموعه مختلفه من القضايا و المفاهيم و التعاليم الأخلاقيه.

خامس عشر:أخيرا تعرض السوره إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس و العبر من هذه القصص.

فى كل الأحوال تعكس سوره الإسراء فى مضمونها و محتواها العقائدى و الأخلاقى و الاجتماعى لوحه متكامله و متنافسه لسمو و تكامل البشر فى المجالات المختلفه.

و الجميل فى السوره أنها تبدأ ب«تسبيح الله»-جلّ جلاله-و تنتهى ب«الحمد و التكبير».و التسبيح هو تنزيه عن كل عيب و نقص،و الحمد علامه على تحقق صفات الفضيله و تمثّلها فى ذاته العليا المقدّسه،بينما التكبير هو رمز الشرف و العظمه.

ص :٣٨٠

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

التفسير

اشاره

معراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

الآيه الأولى فى سورة الإسراء تتحدّث عن إسرائ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أى سفره ليلا من المسجد الحرام فى مكّه المكرمه إلى المسجد الأقصى (فى القدس الشريف).

وقد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمه لمعراجه صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء. وقد لو حظ فى هذا السفر أنّه تمّ فى زمن قياسي حيث أنّه لم يستغرق سوى ليله واحده بالنسبه إلى وسائل نقل ذلك الزمن و لهذا كان أمرا اعجازيا و خارقا للعادة.

السّوره المباركه تبدأ بالقول: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى .

وقد كان القصد من هذا السفر الليلي الإعجازى هو لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ .

ثمّ ختمت الآيه بالقول: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . وهذه إشاره إلى أنّ الله

تبارك و تعالى لم يختر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ لم يصطفه لشرف الإسراء و المعراج إلا بعد أن اختبر استعداده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لهذا الشرف و لياقته لهذا المقام، فالله تبارك و تعالى سمع قول رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ رأى عمله و سلوكه فاصطفاه للمقام السامى الذى اختاره له فى الإسراء و المعراج.

و احتمال بعض المفسرين فى قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أن يكون تهديدا لمنكرى هذا الإعجاز، و أنّ الله تبارك و تعالى محيط بما يقولون و بما يفعلون، و بما يمكرون! و بالرغم من أنّ هذه الآيه تنطوى على اختصار شديد، إلا أنّها تكشف عن مواصفات هذا السفر الليلي «الإسراء» الإعجازى من خلال ما ترسمه له من أفق عام يمكن تفصيله بالشكل الآتى:

أولاً: إنّ تعبير «أسرى» فى الآيه يشير إلى وقوع السفر ليلاً، لأنّ «الإسراء» فى لغة العرب يستخدم للدلاله على السفر الليلي، فيما يطلق على السفر النهارى كلمه «سير».

ثانياً: بالرغم من أنّ كلمه «ليلاً» جاءت فى الآيه تأكيداً لكلمه «أسرى» إلا أنّها تريد أن تبين أن سفر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قد تمّ فى ليله واحده فقط على الرغم من أنّ المسافه بين المسجد الحرام و بيت المقدس تقدّر بأكثر من مائه فرسخ، و بشروط مواصلات ذلك الزمان، كان إنجاز هذا السفر يتطلب أياماً بل و أسابيع، لا أن يقع فى ليله واحده فقط! ثالثاً: إذا كان مقام العبوديه هو أسمى مقام يبلغه الإنسان فى حياته، فإنّ الآيه قد كرّمت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بإطلاق وصف العبوديه عليه، فقالت «عبده» للدلاله على مراقى الطاعه و العبوديه التى قطعها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لله تبارك و تعالى حتى استحق شرف «الإسراء» حيث لم يسجد جبين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لشيء سوى الله، و لم يطع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ما عداه، و قد بذل كل وسعه، و خطا كل خطوه فى سبيل مرضاته

رابعاً: تفيد كلمه «عبد» فى الآيه، أنّ سفر الإسراء قد وقع فى اليقظه، و أنّ رسول الله سافر بجسمه و روحه معاً، و أنّ الإسراء لم يكن سفراً روحانياً معنوياً و حسب، لأنّ الإسراء إذا كان بالروح -و حسب- فهو لا يعدو أن يكون رؤياً فى المنام، أو أى وضع شبيه بهذه الحاله، و لكن كلمه «عبد» فى الآيه تدلّ على أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم قد سافر بجسمه و روحه، لأنّ «عبد» معنى يطلق على الروح و الجسد معاً.

أمّا الأشخاص الذين لا يستطيعون هضم معجزه الإسراء و المعراج، و لم تستطع عقولهم أن تتعامل مع هذه المعجزه كما هى، فقد عمدوا إلى توجيهها بعنوان الإسراء الروحى فى حين أنّه لو قال شخص لآخر: إني نقلتك إلى المكان الفلانى فإنّ المفهوم الصريح للمعنى لا يمكن تأويله باحتمال أنّ هذا الأمر قد تمّ فى حاله النوم، أو أنّه تعبير عن حاله معنويه تمتزج بأبعاد من الوهم و التخيل.

خامساً: لقد كان مبتدأ هذا السفر (الذى كان مقدمه للمعراج كما سنثبت ذلك فى محلّه) هو المسجد الحرام فى مكّه المكرمه، و منتهاه المسجد الأقصى فى القدس الشريف.

بالطبع هناك كلام كثير للمفسّرين عن المكان الدقيق الذى انطلق منه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و فيما إذا كان هذا المكان بيت أحد أقربائه (باعتبار أنّ المسجد الحرام قد يطلق أحياناً و من باب التعظيم على مكّه المكرمه بأجمعها) أو أنّه انطلق من جوار الكعبه، و لكن ظاهر الآيه بلا شك يفيد أنّ المنطلق فى سفر الإسراء كان من المسجد الحرام.

سادساً: لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازى أن يشاهد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم آيات العظمه الإلهيه، و قد استمرّ سفر الإسراء إلى المعراج صعوداً فى السماوات لتحقيق هذا الغرض، و هو أن تمتلئ روح رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أكثر بدلائل العظمه

الزبانية، وآيات الله في السماوات، ولتجد روحه الساميه في هذه الآيات زخما إضافيا يوظفه صلى الله عليه وآله وسلم في هداية الناس إلى رب السماوات والأرض! وبذلك فإن سفر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رحله الإسراء والمعراج لم يكن -كما يتصور البعض ذلك- بهدف رؤيه الله تبارك وتعالى -ظنا منهم أنه تعالى يشغل مكانا في السماوات!!! وبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان عارفا بعظمه الله سبحانه، وكان عارفا أيضا بعظمه خلقه، ولكن «متى كان السماع كالرؤيه؟!».

و نقرأ في سورة (النجم) التي تلت سورة الإسراء وتحدثت عن المعراج قوله تعالى: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى .

سابعاً: إنَّ تعبير الآية بَارَكْنَا حَوْلَهُ تفيد بأنه علاوه على قدسيه المسجد الأقصى، فإنَّ أطرافه أيضاً تمتاز بالبركه والأفضليه على ما سواها. ويمكن أن يكون مراد الآية البركه الظاهرية المتمثله بها تهبه هذه الأرض الخصبه الخضراء من مزايا العمران والأنهار والزراعة.

ويمكن أن تحمل البركه على قواعد الفهم المعنوي فتشير حين ذاك إلى ما تمثله هذه الأرض في طول التأريخ، من كونها مركزاً للنبوات الإلهيه، ومنطلقاً لنور التوحيد، وأرضاً خصبه للدعوه إلى عبوديه الله.

ثامناً: إنَّ تعبير إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ إشاره إلى أن إكرام الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بمعجزه الإسراء والمعراج لم يكن أمراً عفويًا عابراً، بل هو بسبب استعدادات رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم وقابلياته العظيمة التي تجلت في أقواله وأفعاله، هذه الأقوال والأفعال التي يعرفها الله ويحيط بها.

تاسعاً: إنَّ كلمه «سبحان» إشاره إلى أن سفر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإسراء والمعراج دليل آخر على تنزيه الله تبارك وتعالى من كل عيب ونقص.

عاشراً: كلمه «من» في قوله تعالى: مِنْ آيَاتِنَا إشاره إلى عظمه آيات الله

بحيث أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على علو مقامه و استعداده الكبير-لم ير من هذه الآيات خلال سفره الإعجازى سوى جزء معين منها.

## المعراج:

### اشاره

من المعروف و المشهور بين علماء الإسلام أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند ما كان فى مكّه!أسرى به الله تبارك و تعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،و من هناك صعد به إلى السماء«المعراج»ليرى آثار العظمه الرّبانيه و آيات الله الكبرى فى فضاء السماوات،ثم عاد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى نفس الليله إلى مكّه المكرمه.

و المعروف المشهور أيضا أنّ سفر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى الإسراء و المعراج قد تمّ بجسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و روحه معا.

و لكن العجيب ما يحاوله البعض من توجيه معراج الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالمعراج الروحى و الذى هو حاله شبيهه بالنوم أو«المكاشفه الروحيه»و لكن هذا التوجيه- كما أشرنا-لا ينسجم إطلاقا مع ظواهر الآيات،بل هو مخالف لها،إذ يدل الظاهر على أنّ القضيّه تمت بشكل جسمى حسى.

فى كل الأحوال تبقى هناك مجموعه أسئله تثار حول قضيّه المعراج يمكن أن نلخصها بالشكل الآتى:

١-كيفيه المعراج من وجهه نظر القرآن و التأريخ و الحديث.

٢-آراء علماء الإسلام شيعه و سنه حول هذه القضيّه.

٣-الهدف من المعراج.

٤-إمكانيه المعراج من وجهه نظر العلوم المعاصره.

بالرغم من أنّ الإجابة المفصّله على هذه الأسئله هى خارج نطاق بحثنا التفسيري،إلا أننا سنعالج هذه النقاط باختصار يناسب ذوق القارئ الكريم.إن

## المعراج فى القرآن و الحديث:

فى كتاب الله سورتان تتحدثان عن المعراج:

السوره الأولى هى سوره «الإسراء» التى نحن الآن بصدددها، و قد أشارت إلى القسم الأول من سفر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم (أى أشارت لإسرائه صلى الله عليه و آله و سلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) و قد استتبع الإسراء بالمعراج.

السوره الثمانيه التى أشارت للمعراج هى سوره «النجم» التى تحدثت عنه فى ست آيات هى: وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُنتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ .

هذه الآيات تفيد حسب أقوال المفسرين أنّ الإسراء و المعراج تمّ فى حاله اليقظه، و إنّ قوله تعالى: مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَىٰ هو إثبات آخر لصحه هذا القول.

فى الكتب الإسلاميه المعروفه هناك عدد كبير جدًا من الأحاديث و الروايات التى جاءت حول قضيه المعراج، حتى أنّ الكثير من علماء الإسلام يذهب إلى «تواتر» حديث المعراج أو اشتهاره، و على سبيل المثال نعرض للنماذج الآتيه:

يقول الشيخ «الطوسى» فى تفسير (التبيان) ما نصّه: «إنّه عرج به فى تلك الليله إلى السماوات حتى بلغ سدره المنتهى فى السماء السابعة، و أراه الله من آيات السماوات و الأرض ما ازداد به معرفه و يقينا، و كان ذلك فى يقظته صلى الله عليه و آله و سلم دون منامه» (١).

أمّا العلامة «الطبرسى» فى تفسيره المعروف «مجمع البيان» فيقول: «و ما

ص: ٣٨٦

قاله بعضهم أنّ ذلك كان فى النوم فظاهر البطالان إذ لا- معجز يكون فيه ولا- برهان، وقد وردت روايات كثيره فى قصه المعراج، فى عروج نبينا صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء، و رواها كثير من الصحابه.. [إذ أنه صلى الله عليه وآله وسلم]

صلى المغرب فى المسجد الحرام ثم أسرى به فى ليلته ثم رجع فصلى الصبح فى المسجد الحرام. وقال الأكثرون و هو الظاهر من مذاهب أصحابنا و المشهور فى أخبارهم، أنّ الله تعالى صعد بجسمه إلى السماء حيا سليما حتى رأى ما رأى من ملكوت السماوات بعينه، و لم يكن ذلك فى المنام» (١).

أمّا العلامة «المجلسى» فيقول فى (بحار الأنوار) ما نصه: «أعلم أنّ عروجه صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس ثم إلى السماء فى ليله واحده بجسده الشريف، ممّا دلّت عليه الآيات و الأخبار المتواتره من طرق الخاصه و العامه، و إنكار أمثال ذلك أو تأويلها بالعروج الروحانى أو بكونه فى المنام ينشأ إما من قله التتبع فى آثار الأئمه الطاهرين أو من ضعف اليقين» (٢).

ثم يردف العلامة المجلسى قائلا: «لو أردت استيفاء الأخبار الوارده فى هذا الباب لصار مجلدا كبيرا» (٣).

و من علماء السنه قام منصور على ناصف الأزهرى المعاصر بجمع أحاديث المعراج فى كتابه المعروف باسم «التاج».

أمّا الفخر الرازى-المفسّر الإسلامى المعروف- فيقول بعد ذكره لسلسله من الاستدلالات على إمكان الوقوع العقلى للمعراج، ما يلى: «من وجهه نظر الحديث تعتبر أحاديث المعراج من الروايات المشهوره فى صحاح أهل السنه، و مفاد هذه الأحاديث إسراء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مكه إلى بيت المقدس، و عروجه من بيت

ص: ٣٨٧

١- ١) - مجمع البيان، المجلد الثالث، ص ٣٩٥.

٢- ٢) - بحار الأنوار، الطبعة الحديثه المجلد ١٨، ص ٢٨٩.

٣- ٣) - المصدر السابق، ص ٢٩١.



أمّا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز و هو من متعصبى علماء الوهابيه و الذى يشغل الآن منصب رئيس إدارات البحوث العلميه و الإفتاء و الدعوه و الإرشاد، فيقول فى كتابه «التحذير من البدع»: «ليس من شك فى أنّ الإسراء و المعراج هى من العلامات الكبيره على صدق النبى صلى الله عليه و آله و سلم و علو مقامه و منزلته» إلى أن يقول: «نقلت أخبار متواتره عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بأنّ الله تبارك و تعالى أخذ الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و فتح له أبواب السماء» (1)

و لكن ينبغى أن نلاحظ هنا أن من بين الروايات الوارده فى قضيه المعراج ثمّه أحاديث ضعيفه و مجعوله لا يمكن القبول بها مطلقا.

لذلك نرى أن المفسّر الإسلامى الكبير، الشيخ الطبرسى عمد فى ذيل تفسير هذه الآيه مورد البحث إلى تقسيم الأحاديث الوارده فى المعراج إلى أربع فئات هى:

١- ما يقطع بصحته لتواتر الأخبار به و إحاطه العلم بصحته، و مثله أنّه أسرى به على الجملة.

٢- ما ورد فى ذلك ممّا تجوزه العقول و لا تأباه الأصول، فنحن نجوزه ثمّ نقطع على أنّ ذلك كان فى يقظته دون منامه، و مثله ما شاهده من آيات ربّه فى السماوات.

٣- ما يكون ظاهره مخالفا لبعض الأصول إلاّ أنّه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول، نحو ما روى أنّه صلى الله عليه و آله و سلم رأى قوما فى الجنّه يتنعمون فيها، و قوما فى النار يعذبون فيها، فهو يحمل على أنّه رأى صفتهم أو أسماءهم.

٤- ما لا يصح ظاهره و لا يمكن تأويله إلاّ على التعسف البعيد فالأولى أن لا

نقبله، نحو ما قيل من أنه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم كَلَّمَ اللهُ سبحانه وجهه، و رآه و قعد معه على سريره...مما يوجب ظاهره التشبيه و الله سبحانه و تعالى يتقدّس عن ذلك (١).

هناك أيضا اختلافات بين المؤرخين المسلمين حول تاريخ وقوع المعراج، إذ يقول البعض: أنه حصل في السنه العاشره للبعثه في ليله السابع و العشرين من شهر رجب، و البعض يقول: أنه عرج به صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في (١٧) رمضان من السنه الثانيه عشره للبعثه المباركه. و بعض ثالث قال: إنَّ المعراج وقع في أوائل البعثه.

و لكن في كل الأحوال، فإنَّ الاختلاف في تأريخ وقوع المعراج لا ينفى أصل الحادثه.

من المفيد أيضا أن نذكر أن عقيدته المعراج لا تقتصر على المسلمين، بل هناك ما يشابهها في الأديان الأخرى، بل إنا نرى في المسيحيه أكثر مما قيل في معراج النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم، إذ يقول أولئك كما في الباب السادس من إنجيل «مرقس» و الباب (٢٤) من إنجيل «لوقا» و الباب (٢١) من إنجيل (يوحنا) أن عيسى بعد أن صلب و قتل و دفن نهض من مدفنه و عاش بين الناس أربعين يوما قبل أن يعرج إلى السماء ليقى هناك في عروج دائم! و نستفيد من مؤدى بعض الروايات أن بعض الأنبياء السابقين عرج بهم إلى السماء أيضا.

### هل كان المعراج جسديا أم روحيا؟

إن ظاهر الآيات القرآنيه الوارده في أوائل سوره الإسراء، و كذلك سوره النجم (كما فصلنا أعلاه) تدلل على وقوع المعراج في اليقظه، و يؤكّد هذا الأمر كبار علماء الإسلام من الشيعة و السنه.

و تشهد التواريخ الإسلاميه أيضا على صدق هذا الموضوع، و نقرأ في التأريخ

ص: ٣٨٩

أن المشركين أنكروا بشدّه قضيه المعراج عند ما تحدث بها الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأخذوها عليه ذريعه للاستهزاء به، ممّا يدل بوضوح على أنّ الرّسول لم يدع الرّؤية أو المكاشفه الروحيه أبداً، وإلاّ لما استتبع القضيّه كل هذا الضجيج.

أمّا ما ورد عن الحسن البصرى أنّه (كان فى المنام رؤيا رآها) أو عن عائشه أنّه: (و الله ما فقد جسد رسول الله ولكن عرج بروحه)، فيبدو أنّ لذلك منظور سياسى، لإخماد الضجّه التي أثّرت حول قضيه المعراج.

## هدف المعراج:

اتّضح لنا من خلال البحوث الماضيه، أنّ هدف المعراج لم يكن تجوالاً للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فى السماوات للقاء الله كما يعتقد السذج، و كما نقل بعض العلماء الغربيين -و مع الأسف- لجهلهم أو لمحاولتهم تحريف الإسلام أمام الآخرين، و منهم (غيور غيف) الذى يقول فى كتاب (محمد رسول ينبغى معرفته من جديد، ص ١٢٠)، (بلغ محمد فى سفر معراجه إلى مكان كان يسمع فيه صوت قلم الله، و يفهم أنّ الله منهمك فى تدوين حساب البشر! و مع أنّه كان يسمع صوت قلم الله إلاّ أنّه لم يكن يراه! لأنّ أحداً لا يستطيع رؤيه الله و إن كان رسولا).

و هذا يظهر أنّ القلم كان من النوع الخشبى! الذى يهتز و يولد أصواتاً عند حركته على الورق!! أو أمثال هذه الخرافات و الأوهام.

كلا. فالهدف كان مشاهدته الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لأسرار العظمه الإلهيه فى أرجاء عالم الوجود، لا سيما العالم العلوى الذى يشكل مجموعه من براهين عظمته، و تغذى بها روحه الكريمه و تحصل على نظره و إدراك جديدين لهدايه البشريه و قيادتها.

و يتّضح هذا الهدف بشكل صريح فى الآيه الأولى من سورة الإسراء، و الآيه (١٨) من سورة النجم.

و هناك روايه أيضا منقوله عن الإمام الصادق عليه السلام فى جوابه على سبب المعراج. أنه

قال عليه السلام: «إنَّ الله لا يوصف بمكان، و لا يجرى عليه زمان، و لكنّه عزّ و جلّ أراد أن يشرف به ملائكته و سكان سماواته، و يكرمهم بمشاهدته، و يريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه» (١).

## المعراج و العلوم العصريه:

كان بعض الفلاسفه القدماء يعتقد بنظريه «الأفلاك البطليموسيه التسعه» و التى تكون على شكل طبقات البصل فى إحاطتها بالأرض، لذلك فقد أنكر المعراج بمزاعم علميه تقوم على أساس الإيمان بنظريه الهيئه البطليموسيه و التى بموجبها يلزم خرق هذه الأفلاك و من ثمّ الثامها ليكون المعراج ممكنا (٢).

و لكن مع انهيار قواعد نظريه الهيئه البطليموسيه أصبحت شبهه خرق و التثام الأفلاك فى خبر كان، و ضمتها يد النسيان، و لكن التطور المعاصر فى علم الأفلاك أدّى إلى إثارة مجموعه من الشبهات العلميه التى تقف دون إمكانيه المعراج علميا، و هذه الشبهات يمكن تلخيصها كما يلى:

أولا: إنّ أوّل ما تواجهه الذى يريد أن يجتاز المحيط الفضائى للأرض إلى عمق الفضاء هو وجوب الانفلات من قوه الجاذبيه الأرضيه، و يحتاج الإنسان للتخلص من الجاذبيه إلى وسائل استثنائيه تكون معدّل سرعتها على الأقل (٤٠) ألف كيلومتر فى الساعه.

ثانيا: المانع الآخر يتمثل فى خلو الفضاء الخارجى من الهواء، الذى هو القوام فى حياه الإنسان.

ثالثا: المانع الثالث يتمثل بالحراره الشديده الحارقه (للمشمس) و البروده

ص: ٣٩١

١-١) - تفسير البرهان، المجلد ٢، ص ٢٠٠.

٢-٢) - بعض القدماء يعتقد بعدم إمكان خرق هذه الأفلاك ثمّ الثامها.

القاتله، و ذلك بحسب موقع الإنسان في الفضاء من الشمس.

رابعاً: هناك خطر الإشعاعات الفضائية القاتله كالأشعه الكونيه و الأشعه ما وراء البنفسجيه و أشعه إكس، إذ من المعروف أنّ الجسم يحتاج إلى كميات ضئيله من هذه الإشعاعات، و هى بهذا الحجم لا تشكّل ضرراً على جسم الإنسان و وجود طبقه الغلاف الجوى يمنع من تسربها بكثره إلى الأرض، و لكن خارج محيط الغلاف الجوى تكثر هذه الإشعاعات إلى درجه تكون قاتله.

خامساً: هناك مشكله فقدان الوزن التى يتعرض لها الإنسان في الفضاء الخارجى، فمن الممكن للإنسان أن يتعود تدريجياً على الحياه في أجواء انعدام الوزن، إلاّ أنّ انتقاله مرّه واحده إلى الفضاء الخارجى - كما فى المعراج - هو أمر صعب للغاية، بل غير ممكن.

سادساً: المشكله الأخيره هى مشكله الزمان، حيث تؤكد علوم اليوم على أنّه ليست هناك وسيله تسير أسرع من سرعه الضوء، و الذى يريد أن يجول في سماوات الفضاء الخارجى يحتاج إلى سرعه تكون أسرع من سرعه الضوء!

### فى مواجهه هذه الأسئلة:

أولاً: فى عصرنا الحاضر، و بعد أن أصبحت الرحلات الفضائيه بالاستفاده من معطيات العلوم أمراً عادياً، فإنّ خمساً من المشاكل الست الأنفه تنتفى، و تبقى - فقط - مشكله الزمن. و هذه المشكله تثار فقط عند الحديث عن المناطق الفضائيه البعيده جداً.

ثانياً: إنّ المعراج لم يكن حدثاً عادياً، بل أمر إعجازى خارق للعاده ثمّ بالقدره الإلهيه. و كذلك الحال فى كافه معجزات الأنبياء و هذا يعنى عدم استحاله المعجزه عقلاً، أمّا الأمور الأخرى فتتم بالاستناد إلى القدرات الإلهيه.

و إذا كان الإنسان قد استطاع باستثمار لمعطيات العلوم الحديثه أن يوفّر

حلولاً للمشكلات الآنفه الذكر، مثل مشكله الجاذبيه و الأشعه و انعدام الوزن و ما إلى ذلك، حتى أصبح بمسئطاعه السفر إلى الفضاء الخارجى.. فألا يمكن لله- خالق الكون، صاحب القدرات المطلقه- أن يوفّر وسيله تتجاوز المشكلات المذكوره؟! إننا على يقين من أنّ الله تبارك و تعالى وضع فى متناول رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم مركبا مناسباً صانه فيه عن كل المخاطر و الأضرار فى معراجه نحو السماوات، و لكن ما اسم هذا المركب هل هو «البراق» أو «ررفرف»؟ و على أى شكل و هيئه كان؟ كل هذه أمور غامضه بالنسبه لنا، و لكنّها لا تتعارض مع يقيننا بما تمّ، و إذا أردنا أن نتجاوز كل هذه الأمور فإنّ مشكله السرعه التى بقيت- لوحدها- تحتاج إلى حل، فإنّ آخر معطيات العلم المعاصر بدأت تتجاوز هذه المشكله بعد أن وجدت لها حولا مناسبه بالرغم ممّا يؤكّده «إنشتاين» فى نظريته من أن سرعه الضوء هى أقصى سرعه معروفه اليوم.

إنّ علماء اليوم يؤكّدون أنّ الأمواج الجاذبه لا تحتاج إلى الزمن، و هى تنتقل فى آن واحد من طرف من العالم إلى الطرف الآخر منه و هناك احتمال مطروح بالنسبه للحركه المرتبطه بتوسّع الكون (من المعروف أنّ الكون فى حاله اتساع و أنّ النجوم و المنظومات السماويه تبتعد عن بعضها البعض بحركه سريعه) إذ يلاحظ أنّ الأفلاك و النجوم و المنظومات الفضائيه تبتعد عن بعضها البعض و عن مركز الكون إلى أطرافه، بسرعه تتجاوز سرعه الضوء! إذن، بكلام مختصر نقول: إنّ المشكلات الآنفه ليس فيها ما يحول عقلا- دون وقوع المعراج، و دون التصديق به، و المعراج بذلك لا يعتبر من المحالات العقليه، بل بالإمكان تذليل المشكلات المثاره حوله بتوظيف الوسائل و القدرات المناسبه.

و بذلك فالمعراج لا- يعتبر أمرا غير ممكن لا- من وجهه الأدله العقليه، و لا- من وجهه معطيات و موازين العلوم المعاصره. و هو بالإضافة إلى ذلك أمر إعجازى

خارق للعادة. لذلك، إذا قام الدليل النقلى السليم عليه فينبغى قبوله و الإيمان به (١).

و أخيرا.. هناك إشارة أخرى حول المعراج سنقف عليها أثناء الحديث عن سورة النجم إن شاء الله.

ص: ٣٩٤

---

١ - ١) - للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعه كتاب: «لكل يريد أن يعرف» و الذى يبحث فى قضيه المعراج و شق القمر بالإضافه إلى قضايا أخرى.

إشارة

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا  
(٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَتَتَّعَلَنَّ عُلوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ  
عِبَادًا لَنَا أُولى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيِّنَ وَ  
جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنَّ أَحْسَنَ نَسَمٍ أَحْسَنُ نَفْسٍ لِّأَنفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ لِيُسْوُوا وُجُوهُكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ  
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمْتُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

التفسير

بعد أن أشارت الآية الأولى في السورة إلى معجزة إسرائ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلا من



المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كشفت آيات السوره الأخرى، عن موقف المشركين و المعارضين لمثل هذه الأحداث، و أبانت استنكارهم لها، و عنادهم إزاء الحق، فى هذه الاتجاه انعطفت الآية الأولى - من الآيات مورد البحث - على قوم موسى، ليقول لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: إن تاريخ النبوات واحد، و إن موقف المعاندين واحد أيضاً، و أنه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشى موقفه هذا منك، و بين يديك الآن تاريخ بنى إسرائيل فى موقفهم من موسى عليه السلام.

تقول الآية أولاً: وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .

و صفه هذا الكتاب أنه: وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ و الكتاب الذى تعنيه الآية هنا هو «التوراه» الذى نزل على موسى عليه السلام هدى لبني إسرائيل.

ثم تشير الآية إلى الهدف من بعثه الأنبياء بما فيهم موسى عليه السلام فتقول:

أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا

(١)

إن التوحيد فى العمل هو واحد من معالم أصل التوحيد، و هو علامه على التوحيد العقائدى. الآية تقول: لا تتكى على أحد سوى الله، و إن أى اعتماد على غيره دلاله على ضعف الإيمان بأصل التوحيد. إن أسمى معانى التجلى فى هدايه الكتب السماويه، هو اشتعال نور التوحيد فى القلوب و الانقطاع عن الجميع و الاتصال بالله تعالى.

و من أجل أن تحرّك الآية التاليه عواطف بنى إسرائيل و تحفزهم لشكر النعم الإلهيه عليهم، خصوصاً نعمه نزول الكتاب السماوى، فإنها تضع لهم نموذجاً للعبد الشكور فتقول: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ (٢) و لا تنسوا: إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا .

ص: ٣٩٦

١ - ١) - من وجهه التركيب النحوى يقول بعض المفسرين: إن تقدير جملة أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا هو: لئلا تتخذوا.. و بعضهم قال: «أن» زائده، و جملة «قلنا لهم» تقديرها: «و قلنا لهم لا تتخذوا من دونى و كيلا».

٢ - ٢) - إن جملة: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ جملة ندائيه و فى التقدير تكون: يا ذريه من حملنا مع نوح. أمّا ما احتمله البعض من أن «ذريه» هى بدل عن «و كيلا» أو مفعول ثان ل «تتخذوا» فهو بعيد، و لا يتسق مع جملة إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا .

و الآية تخاطب بنى إسرائيل بأنهم أولاد من كان مع نوح، وعليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم و آبائهم فى الشكر لأنعم الله.

«شكور» صيغه مبالغه بمعنى «كثير الشكر»، و أما كون بنى إسرائيل ذريه من كان مع نوح، فإن ذلك قد يعود إلى أن من فى الأرض جميعاً، بعد طوفان نوح، و منهم بنو إسرائيل، هم كلهم من سلالة الأبناء الثلاثة لنوح، أى «سام» و «حام» و «يافت» كما ورد فى كتب التاريخ، و ممّا لا شك فيه أنّ كل أنبياء الله شكورون، و لكنّ الأحاديث تعطى ميزه خاصّه لنوح الذى كان دائم الشكر على كل نعمه ففى كل شربه ماء، أو وجبه غذاء، أو وصول نعمه أخرى له فإنّه يذكر الله فوراً و يشكره على نعمائه.

و

فى حديث عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام نقرأ قولهما إنّ نوحاً كان يقرأ هذا الدعاء فى كل صباح و مساء، «اللهم إني أشهدك أنّ ما أصبح أو أمس بي من نعمه فى دين أو دنيا فمنك، و حدك لا شريك لك، لك الحمد و لك الشكر بها على حتى ترضى، و بعد الرضا».

ثمّ أضاف الإمام: «هكذا كان شكر نوح» (١).

بعد هذه الإشاره تدخل الآيات إلى تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث، فتقول: وَ قَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا .

كلمه «قضاء» لها عدّه معان، إلا أنّها استخدمت هنا بمعنى «إعلام» أمّا المقصود من «الأرض» فى الآية- بقريته الآيات الأخرى هى ارض فلسطين المقدسه التى يقع المسجد الأقصى المبارك فى ربوعها.

الآيه التى تليها تفصل ما أجملته من إشاره إلى الإفسادين الكبيرين لبنى

ص: ٣٩٧

(١-١) -يراجع تفسير مجمع البيان أثناء تفسير الآية.

إسرائيل و الحوادث التي تلى ذلك على أنها عقوبه الهيه فتقول: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا و ارتكبتم ألوان الفساد و الظلم و العدوان بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ .

و هؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ .

و هذا الأمر لا مناص منه: وَ كَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا .

ثم تشير بعد ذلك إلى أن الإلطف الإلهيه ستعود لتشملكم، و سوف تعينكم فى النصر على أعدائكم، فتقول: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (١) .

و هذه المنه و اللطف الإلهيه بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم و تصلحوا أعمالكم و تتركوا القبائح و الذنوب لأنه: إِنَّ أَحْسَنَتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .

إن الآيه تعبر عن سنه ثابتة، إذ أن محصله ما يعمله الإنسان من سوء أو خير تعود إليه نفسه، فالإنسان عند ما يلحق أذى أو سوء بالآخرين، فهو فى الواقع يلحقه بنفسه، و إذا عمل للآخرين، فإنما فعل الخير لنفسه، أمّا بنو إسرائيل، فهم مع الأسف لم توقظهم العقوبه الأولى، و لا نبهتهم عوده النعم الإلهيه مجددا، بل تحركوا باتجاه الإفساد الثانى فى الأرض و سلكوا طريق الظلم و الجور و الغرور و التكبر.

تقول الآيه فى وصف المشهد الثانى أنه حين يحين الوعد الإلهيه سوف تغطيكم جحافل من المحاربين و يحيق بكم البلاء الى درجه أن آثار الحزن و الغم تظهر على وجوهكم: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِهِ لِيُسُوُوا وَجُوهَكُمْ .

بل و يأخذون منكم حتى بيت المقدس: وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

ص: ٣٩٨

١ - ١) - «نفير» اسم جمع و هى بمعنى مجموعه من الرجال، و قال بعض: هى من «نفر». و «نفر» فى الأصل على وزن «عفو» تعنى الارتحال و الإقبال على شىء. و لذلك يطلق على الجماعه المستعده للتحرك باتجاه شىء بأنها فى حاله «نفير».

و هم لا يعكفون بذلك، بل سيحتلون جميع بلادكم و يدمرونا عن آخرها:

وَ لِيَسْتَبْرُوا مَا عَلُوا تَتَّيْرًا

و فى هذه الحاله فإن أبواب التوبه الإلهيه مفتوحه:

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم

وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا

أى إن عدتم لنا بالتوبه فسوف نعود عليكم بالرحمه، و إن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبه. و إذا كان هذا جزاؤكم فى الدنيا ففى الآخره مصيركم جهنم: وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (١).

\*\*\*

## ملاحظات

## إشارة

### الأولى: الإفسادان التآريخيان لبني إسرائيل:

تحدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبني إسرائيل، يقود كل منهما إلى الطغيان و العلو، و قد لاحظنا أن الله سلط على بني إسرائيل عقب كل فساد رجال أشداء شجعانا يذيقونهم جزاء فسادهم و علوهم و طغيانهم، هذا مع استثناء الجزاء الأخرى الذى أعدّه الله لهم.

و بالرغم من اتساع تاريخ بني إسرائيل، و تنوع الأحداث و المواقف فيه، إلا أن المفسرين يختلفون فى كل المرات التى يتحدث القرآن فيها عن حدث أو موقف من تاريخ بني إسرائيل و على سبيل التذليل على هذه الحقيقه تتعرض فيما يلى للنماذج الآتيه:

أولاً: يستفاد من تاريخ بني إسرائيل بأن أول من هجم على بيت المقدس و خرّبه هو ملك بابل «نبوخذ نصر» حيث بقى الخراب ضاربا فيه لسبعين عاما، إلى

ص: ٣٩٩

١- ١) - «حصير» مشتقه من «حصر» بمعنى الحبس، و كل شىء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم «حصير». و يقال للحصير العاديه حصيرا لأن خيوطها و موادها نسجت إلى بعضها البعض.

أن نهض اليهود بعد ذلك لإعمارهم وبنائه. أما الهجوم الثاني الذي تعرّض له، فقد كان من قبل قيصر الروم «أسيانوس» الذي أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس و قتل بنى إسرائيل. وقد تمّ ذلك فى حدود مائه سنة قبل الميلاد.

و بذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتى «نبوخذ نصر» و «أسيانوس» لأنّ الأحداث الأخرى فى تاريخ بنى إسرائيل لم تفن جمعهم، و لم تذهب بملكهم و استقلالهم بالمزّه، و لكن نازله (نبوخذ نصر) ذهبت بجمعهم و سؤددهم إلى زمن «كورش» حيث اجتمع شملهم مجددا و حررهم من أسر بابل و أعادهم إلى بلادهم و أعانهم فى تعمير بيت المقدس، إلى أن غلبتهم الروم و ظهرت عليهم، و ذهبت قوتهم و شوكتهم (1).

لقد استمر بنو إسرائيل فى مرحله الشتات و التشرّد إلى أن أعانتهم القوى الدوليه الاستعماريه المعاصره فى بناء كيان سياسى لهم من جديد.

ثانيا: أمّا «الطبرى» فينقل فى تفسيره عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّ المراد فى الفساد الأوّل هو قتل بنى إسرائيل لذكريا عليه السّلام و مجموعه أخرى من الأنبياء عليهم السّلام، و أنّ المقصود من الوعد الأوّل، هو الانتقام الإلهى من بنى إسرائيل بواسطه (نبوخذ نصر) و أمّا المراد من الفساد الثّانى فهو الفوضى و الاضطراب الذى قام به «بنو إسرائيل» بعد تحريرهم من بابل بمساعده أحد ملوك فارس، و ما قاموا به من فساد. أمّا الوعد الثّانى، فهو هجوم «أنطياخوس» ملك الروم عليهم.

و بالرغم من انطباق بعض جوانب هذا التّفسير مع التّفسير الأوّل، إلا أنّ راوى الحديث الذى يعتمد عليه «الطبرى» غير ثقّه، بالإضافة إلى عدم تطابق تاريخ «زكريا» و «يحيى» مع تاريخ «نبوخذ نصر» و «أسيانوس» أو أنطياخوس» إذا يلاحظ أنّ «نبوخذ نصر» عاصر «أرميا» أو «دانيال» الثّبنى كما يرى بعض

ص: ٤٠٠

المؤرخين، وقيامه قد تمّ في حدود (٦٠٠) سنة قبل زمان يحيى عليه السلام، لذلك كيف يقال: إن قيام نبوخذ نصر كان للانتقام من دم يحيى عليه السلام؟! ثالثاً: وقال آخرون: إن بيت المقدس شيّد في زمن داود و سليمان عليهما السلام، وقد هدمه «نبوخذ نصر» وهذا هو المقصود من إشاره القرآن إلى الوعد الأول. أمّا المرّة الثانيه، فقد بنى فيها بيت المقدس على عهد ملوك الأخمينيين ليقوم بعد ذلك «طيطوس» الرومى بهدمه و خرابه (الملاحظ أن «طيطوس» يطابق «طرطوز» الذى ذكر فى التفسير السابق) وقد بقى على خرابه إلى عصر الخليفه الثانى عند ما فتح المسلمون فلسطين (١). و الملاحظ فى هذا التفسير أنّه لا يفترق كثيراً عمّا ورد فى مضمون التفسيرين أعلاه.

رابعاً: فى مقابل التفاسير الآنفه و التفاسير الأخرى التى تتشابه فى مضمون آرائها مع هذه التفاسير، نلاحظ أنّ هناك تفسيراً آخر يورده «سيد قطب» فى تفسير «فى ظلال القرآن» يختلف فيه مع كل ما ورد، حيث يرى أن الحادثتين لم تقعا فى الماضى، بل تتعلقان فى المستقبل، فيقول: «فأمّا إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد فى الأرض فالجزء حاضر و السنه ماضيه و إنّ عُدْتُمْ عُدُنًا ثُمَّ يَقُول:

«و لقد عادوا إلى الإفساد فسَلَطَ اللهُ عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيره كلّها. ثمّ عادوا إلى الإفساد و سلّطَ اللهُ عليهم عبداً آخرين، حتى كان العصر الحديث فسَلَطَ عليهم «هتلر» و لقد عادوا اليوم إلى الإفساد فى صورته «إسرائيل» التى أذقت العرب أصحاب الأرض الويلات. و ليسلطنَ اللهُ عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقا لوعده الله القاطع، وفاقا لسنته التى لا تتخلف... و إنّ غدا لناظره قريب!» (٢).

و لكن الاعتراض الأساسى الذى يرد على هذا التفسير، هو أنّ أيّاً منهما لم

ص: ٤٠١

١- (١) - تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ٧، ص ٢٠٩.

٢- (٢) - سيد قطب، فى ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢١٤ الطبعة العاشره.

ينته بدخول القوم المنتصرين (على اليهود) إلى بيت المقدس حتى يخزبوه؟ خامسا: الاحتمال الأخير الذى ورده البعض فى تفسير الإفسادين الكبيرين لبنى إسرائيل، يرتبط بأحداث ما بعد الحرب العالميه الثانيه، حيث يقول هؤلاء: إن قيام الحزب الصهيونى و تشكيل دوله لليهود باسم «إسرائيل» فى قلب العالم الإسلامى مثل الإفساد و الطغيان و العلو الأول لهم، و بذلك فإنّ وعى البلاد الإسلاميه لخطر هؤلاء الشعوب الإسلاميه فى ذلك الوقت إلى التوحدّ و تطهير بيت المقدس و قسما آخر من مدن و قرى فلسطين، حتى أصبح المسجد الأقصى خارج نطاق احتلالهم بشكل كامل.

أمّا المقصود من الإفساد الثّانى حسب هذا التّفسير، فهو احتلال اليهود مجددا للمسجد الأقصى بعد أن حشّدت «إسرائيل» قواها و استعانت بالقوى الدوليه الاستعماريه فى شن هجومها الغادر (عام ١٩٤٧).

و بهذا الشكل يكون المسلمون اليوم فى انتظار النصر الثّانى على بنى إسرائيل، ليخلّصوا المسجد الأقصى من دنس هؤلاء و يقطعوا دابرهم عن كل الأرض الإسلاميه. و هذا ما وعد به المسلمون من فتح و نصر آت بلا ريب (١).

بالطبع هناك تفاسير و آراء أخرى فى الموضوع صرفنا النظر عنها، و لكن ينبغى أن يلاحظ أنّ فى حال اعتماد التّفسيرين الرّابع و الخامس، ينبغى أن نحمل الأفعال الماضيه فى الآيه على معنى الفعل المضارع. و هذا ممكن فى أدب اللغه العربيه، و ذلك إذا جاء الفعل بعد حرف من حروف الشرط.

و لكن يستفاد من ظاهر قوله تعالى: **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** إنّ الإفساد الأوّل على الأقلّ - و الانتقام الإلهى من بنى إسرائيل كان قد وقع فى الماضى.

ص: ٤٠٢

---

١-١) - يلاحظ هذا الرأى العدد (١٢) السنه (١٢) من جملة «عقيدته الإسلام» و قد كتب البحث فى عدددين إبراهيم الأنصارى.

و إذا أردنا أن نتجاوز كل ذلك، فينبغي أن نلتفت إلى أن قوله تعالى: **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ** تفيد في أن الرجال الذين سيؤدبون «بنى إسرائيل» على فسادهم و علوهم و طغيانهم، هم رجال مؤمنون، شجعان حتى استحقوا لقب العبودية. و مما يؤكد هذا المعنى الذى غفلت عنه معظم التفاسير، هو كلمه «و بعثنا» و «لنا».

و لكننا مع ذلك، لا نستطيع الادعاء أن كلمه «بعث» تستخدم فقط في مورد خطاب الأنبياء و المؤمنين، بل هى تستخدم فى غير هذه الموارد أيضا، ففي قصه هابيل و قابيل يقول القرآن الكريم: **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ (١)**.

و كذلك الحال فى كلمه «عباد» أو «عبد» فهى تطلق فى بعض الأحيان على الأفراد غير الصالحين من المذنبين و غيرهم، كما فى الآية (٥٨) من الفرقان فى قوله تعالى: **وَ كَفَىٰ بِهِ بَدُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا** و الآية (٢٧) من سوره الشورى، حيث يقول تعالى: **وَ لَوْ بَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّوْا فِي الْأَرْضِ** و فى خصوص المخطئين و المنحرفين نقرأ فى الآية (١١٨) من سوره المائده قوله تعالى: **إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**.

و لكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر - إن لم تقم قرينه خلاف ذلك - أن العباد الذين بعثهم الله للانتقام من بنى إسرائيل هم من العباد المؤمنين الصالحين.

و خلاصه البحث: إن هذه الآيات تتحدث عن فسادين كبيرين لبنى إسرائيل، و كيف أن الله تبارك و تعالى لم يهمل هؤلاء، بل أذاقهم جزاءهم فى الدنيا، و بقى عليهم جزاء الآخرة و حسابها، و الدرس الذى نستفيده و الإنسانى جمعا هو أن الله تعالى لا يهمل الظالمين و لا يسكت على ظلمهم بل علينا أن نعتبر و نتعظ من دروس التاريخ و أحوال الأمم الماضيه.

ص: ٤٠٣



الآيات الآنفه تشير إلى قاعده مهمه، و هي أنّ أعمال الإنسان سواء كانت حسنه أم قبيحه فإنّ مردودها يعود إليه، صحيح أنّ الآيات تتحدّث عن بني إسرائيل، ولكن القاعده من الشمول و العموم بحيث تشمل كافه البشر على مر التاريخ (1).

إنّ الحياه و التاريخ يعكسان لنا الكثير من تلك النماذج التي أسست أعمالا و سننا سيئه، و سنّت قوانين ظالمه و مبتدعه، و لكنّها في النهايه، كانت ضحيه ما سنّت و ابتدعت و أسست، و كانت نهايتها و نهايه من يلوذ بها الوقوع في نفس الحفره التي حفرتها للآخرين، و بذلك نالت جزاءها بما اقترفت أيديها. إنّ خصوصيه هذا الأمر تتّضح أكثر بالنسبه لأعمال الفساد و على الأخص العلو و الاستكبار، فإنّ الإنسان لا بدّ و أن يذوق في هذه الدنيا جزاء ما اقترف من أسباب العلو و الاستكبار و الإفساد.

و لهذا السبب بالذات رأينا أنّ بني إسرائيل لاقوا جزاءهم السريع في الدنيا، من دون أن يعنى ذلك انتفاء العقاب الأخرى إذ عاشوا طويلا واقع الشتات و التشرد، و ذاقوا الكثير من سوء و المصائب. إنّنا اليوم نعيش مظاهر من فساد بني إسرائيل و علوهم و طغيانهم، فهم قد اغتصبوا أرض الآخرين و طردوهم منها، و أذاقوا أهلها ألوان القتل و البطش و الإرهاب، و روعوا الأبناء و سبوا النساء، بل لم يحترموا حتى بيوت الله في بيت المقدس! إنّ هؤلاء يتعاملون مع العالم بدون رعايه أى شكل من أشكال القانون أو

ص: ٤٠٤

---

١- ١) -نقرأ في الآيه: **إِنْ أَحْسَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** بينما كان ينبغى أن يكون التعبير «عليها» لأنّ الإساءه لا تكون في فائده و نفع الإنسان بل هي في ضرره! إنّ السبب في ذلك يعود إلى ضروريات التنسيق بين قسمي الجمله، أو قد يكون ذلك بسبب أنّ اللام هنا استخدمت بمعنى التخصيص لا- بمعنى النفع و الضرر. بعض المفسّرين احتمل أيضا أن تكون اللام بمعنى «إلى».

الضوابط و المعايير الدوليه، فإذا قام-مثلا-فدائى فلسطينى بإطلاق رصاصه عليهم، فإنّهم بدلا عنها يقومون بقصف و تخريب المخيمات السكنيه للاجئين، و مدارس الأطفال، و المستشفيات. و هم فى مقابل خسارتهم لقتيل واحد، يقومون بحصد المئات من الأنفس البريئه و يفجّرون عددا كبيرا من البيوت.

إنّ هؤلاء يتجاهرون بعدم التزامهم، بل بعدائهم لكل قرارات المنظمات الدوليه، و الكل يعرف أنّ جرأتهم فى مواجهه العالم إنّما كانت و ما زالت مستمده من دعم القوى الاستعماريه الدوليه لهم-و فى الطليلعه منها أمريكا-من دون أن يعنى دعم هذه القوى لهم تبريرا لما يمتازون هم به من خصائص انحرافيه ذاتيه فى الفكر و الأخلاق، و استعداد قبلى للعلو و الطغيان و الفساد.

إنّهم بعلوّهم و فسادهم عليهم أن ينتظروا أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله:

عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ

حيث ينالون جزاءهم، و هو وعد الهى قاطع فى قرآنه الكريم.

### الثالثه: تطبيق الآيات على أحداث التاريخ الإسلامى:

فى روايات عدّه نرى انطباق الآيات أعلاه على بعض أحداث التاريخ الإسلامى حيث يشير بعضها إلى أنّ الفساد الأوّل و الثّانى هو قتل الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام، و العدوان على جنازه الإمام الحسن عليه السّلام. و بعضها تشير إلى أنّ المقصود من قوله تعالى: بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ هو الإشارة إلى الإمام المهدي عليه السّلام و أصحابه.

و فى روايات أخرى نقرأ أنّ المقصود، هو نهضة مجموعه من المسلمين قبل ظهور الإمام المهدي عليه السّلام (1).

ص: ٤٠٥

من الواضح أنّ هذه الأحاديث لا تفسّر الآيات تفسيراً لفظياً، لأنّ الآيات تتحدث بصراحة عن بني إسرائيل، و لكنّها تتحدث عن التشابه بين نهج هؤلاء (بني إسرائيل) و نهج ما يقع على شبههم و حالتهم في أحداث التاريخ الإسلامي.

و هكذا ننتهي إلى نتيجة مؤدّاه أنّ الآيات و إن تحدّثت عن خصوصيات بني إسرائيل، إلّا أنّها تتسع في مفهومها لترتفع إلى مستوى القاعده الكلية، و السنّه المستمرّه في تاريخ البشريه بما يطويه من حياه شعوب و أمم.

إشاره

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَ يَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا (١٢)

التفسير

إشاره

أقصر الطرق للهدايه و السعاده:

الآيات السابقه تحدّثت عن بنى إسرائيل و كتابهم السماوى «التوراه» و كيف تخلفوا عن برنامج الهدايه الإلهيه ليلقوا بعض جزائهم فى هذه الحياه الدنيا، و الباقي مدخر ليوم القيامه.

و فى هذا المقطع من الآيات، انتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب

السماوى للمسلمين، و آخر حلقه فى الكتب السماويه، فقال تعالى أولا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ .

«أقوم» صيغه تفضيل مشتقه من «قيام» حيث يكون الإنسان فيها على أحسن حالاته حينما يريد أن يشرع بعمل ما، لذلك فإنّ «القيام» كناية عن أفضل الصيغ التى ينجز فيها الإنسان الأعمال التى يباشرها، أو يستعد لمباشرتها.

«الاستقامه» مشتقه أيضا من ماده «قيم» وهى بمعنى الاعتدال و الإستواء و الثبات.

و بما أنّ «أقوم» هى «أفعل تفضيل» بمعنى الأكثر ثباتا و استقامه و اعتدالا، فإنّ معنى الآيه أعلاه، هو أنّ القرآن الكريم يمثل أقصر و أفضل طرق الاستقامه و الثبات و الهدايه و بهذا فإنّ الطريق القويم.

من وجهه نظر العقائد و الأفكار، يتمثل بالعقائد الواضحه، القابله للهضم و الإدراك و الفهم، و التى تكون أساسا للعمل، و تعبئه الطاقات الإنسانيه باتجاه الإعمار و البناء. العقيدة الأقوم هى العقيدة الخاليه من الخرافات و الأوهام، و هى التى توائم بين الإنسان و عالم الوجود و الطبيعه من حوله.

العقيدة الأقوم من هذه الزاويه، هى التى توافق بين الإعتقاد و العمل، و الظاهر و الباطن، الفكر و المنهج، و تدفع الإنسان و الجميع نحو الله.

أمّا الأقوم من وجهه نظر القوانين الاجتماعيه و الاقتصاديه و العسكريه و السياسيه، التى تسود المجتمع، فهى تلك التى تربى فى المجتمع الإنسانى الجوانب الماديه و المعنويه و تدفع الجميع نحو التكامل و الاتساق.

و الأقوم من وجهه النظر العباديه و الأخلاقيه، هو كل ما يجعل الإنسان فى المركز الوسط بين الإفراط و التفریط، و يجعله فى موقع الاعتدال بين الإسراف و البخل، بين الاستضعاف و الاستكبار.

و أخيرا فإنّ المنهج الأقوم بالنسبه للنظم و السلطات الحاكمه، هو كل ما

يدفعها إلى إقامة العدل، والدعوة إلى إشاعة الإنصاف، ومواجهه الظلم و الظالمين.

نعم، إنّ القرآن هو الطريق الأقوم في كل تلك المستويات الآنفه الذكر، وهو الأسلوب الأقوم في كل جوانب الحياه و الوجود، و على كافة القضايا و الصعد.

و لكننا هنا نقف مع نقطه حساسه، و هي إذا كان القرآن هو الأقوم، أي «أفعل تفضيل» فمعنى ذلك تفوقه في ميزات العدل و صفات الهدايه و الاستقامه ليس على سائر المذاهب و العقائد الوضعيه و حسب، و إنّما على سائر الأديان و الشرائع السابقه عليه أيضا.

و إزاء المفهوم الذي تطرحه هذه النقطه نرى أنفسنا بحاجة إلى إثارة الحديث على النحو الآتي.

أولاً: إذ كانت أطراف المقاييسه هي الأديان السماويه الأخرى، فلا شك أنّ كل دين و شريعته منها كانت أفضل و أقوم لوقتها و زمانها، و لكن وفق قانون التكامل الذي وصلت البشريه بمقتضاه إلى أقصى حالات رشدتها و تكاملها، في زمن الرساله الإسلاميه الخاتمه و النبوه الخاتمه، فإنّ القرآن الكريم يعبر تبعا لذلك عن أرقى و أقوم مضامين الهدايه و الاستقامه الاعتدال.

ثانياً: أمّا إذا كان طرف المقاييسه هو المذاهب و العقائد الوضعيه، فمن الطبيعي جدّاً أن يكون القرآن كتاب السماء الواصل إلينا من الله ذي العلم المطلق، هو الأقوم و الأظهر عليها، لأنّ العقائد الوضعيه مهما بلغت مزاياها فهي نتاج الفهم المحدود للبشر.

ثالثاً: أشرنا في غير مكان إلى أن «أفعل تفضيل» لا يدلّ دائماً على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفاً للمقاييسه، كما في قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى (١).

ثالثاً: أشرنا في غير مكان إلى أن «أفعل تفضيل» لا يدلّ دائماً على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفاً للمقاييسه، كما في قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى (٢).

ص: ٤٠٩

و على هامش هذه النقطة ينبغي أن لا يفوتنا أن تعبير «أقوم» فى الآيه الآنفه يشير إلى أن الإسلام هو آخر أديان السماء، و أن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم هو آخر الأنبياء.

و كيفيه ذلك، هو أن أقوم بوصفها أفعل تفضيل، تمثل أعلى درجات التفضيل، و لأن الآيه لا تذكر الطرف الآخر فى المقايسه و الذى يكون القرآن أقوم بالنسبه إليه، و طالما أن حذف المتعلق يدل على العموم كما يقول الأصوليون، فينتج أن الإسلام آخر الأديان، و أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم خاتم الرسل، لأنه ليس بعد صيغه تفضيل «أقوم» من درجه فى التفضيل.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس فى مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذى ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالأولى يكون حالها كما يقول تعالى:

وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا

أما الفئه الثانيه فيكون مصيرها تبعا لموقفها كما يقول تعالى: وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

و إذا كان استخدم «بشاره» واضح هنا بالنسبه للمؤمنين، فهو بالنسبه لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية و الاستهزاء، أو أنه بشاره للمؤمنين أيضا تخبرهم عن حال غير المؤمنين (1).

ضمنا الآيه تشير باختصار بليغ إلى جزاء المؤمنين و ثوابهم فتقول: أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا أَمَّا غير المؤمنين فإن لهم بنفس صورته الإيجاز القرآنى البليغ عَذَابًا أَلِيمًا و هذا الاختصار البليغ يطوى فى كلا مجاليه صوراً تفصيليه من الثواب و العقاب.

أما لماذا اقتضرت الآيه فى غير المؤمنين على صفه عدم إيمانهم بالآخره

ص: ٤١٠

١- ١) فى نهايه الآيه (١٣٨) من سوره النساء قلنا: إن «البشاره» مشتقه أصلا من «البشره» بمعنى الوجه. و الملاحظ أن صحيفه الوجه و بشرته كالمراه تعكس كل خبر إذا كان سارا أو سيئا بشكل إحياءات معينه.

دون غيرها من الصفات والأعمال. فى الواقع يمكن أن يكون ذلك بسبب أن الإيمان بالآخره هو صمام أمان يضبط الإنسان عن ارتكاب المعاصى و الذنوب.

ثم إن إنكار القيامة يعتبر إنكارا لوجود الله تعالى، وإلا- كيف يستقيم للإنسان أن يؤمن بالله العادل الحكيم و لا يؤمن بوجود آخره يحاسب فيها الإنسان على أعماله و ينال حسابه العادل؟! ثم إن حديث الآيه هو عن العقاب و الثواب و هو يتناسب مع الحديث عن الإيمان باليوم الآخر.

الآيه التى بعدها تنساق فى نفس اتجاه البحث و تشير إلى احدى العلل المهمه لعدم الإيمان و تقول بأن عجله الإنسان و تسرعه و عدم اطلاعه على الأمور و إحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى فى جهده بين دعائه بالخير و طلبه، و بين دعائه بالشر و طلبه له! تقول الآيه: وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .

لما ذا؟: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا .

إن كلمه «دعا» هنا تنطوى على معنى واسع يشمل كل طلب و رغبه للإنسان، سواء أعلن عنها بلسانه و كلامه، أو سعى إليها بعمله و جهده و سلوكه.

إن استعجال الإنسان و اندفاعه فى سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظره السطحيه للأمور بحيث أنه لا يحيط بالأشياء بالدراسه الشامله المعمقه مما يفوت عليه تشخيص خيره الحقيقى و منفعتة الواقعيه، و هكذا بنتيجه تعجله و اندفاعه المضطرب يضع عليه وجه الحقيقه، و يتغير مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر و الأعمال السيئه الضارّه.

و هكذا ينتهى الإنسان-نتيجه سوء تشخيصه و اضطراب مقياسه فى رؤيه الخير و الحقيقه- إلى أن يطلب من الله الشر، تماما كما يطلب منه الخير، و أن يسعى وراء الأعمال السيئه، كسعيه وراء الأعمال الحسنه. و هذا الاضطراب



و فقدان الموازين هي أسوأ بلا يصاب به الإنسان و يحول بينه و بين السعاده الحقيقيه.

ما أكثر الناس الذين يضعون أنفسهم-بسبب من عجلتهم و اندفاعاتهم المضطربه-على حافه الخطر و مشارف الضلال،و هم يظنون أنهم يسرون نحو الأمن و الاستقرار و الهدايه.إنّ مثل هؤلاء كمن هو غارق بالسوء و القبائح و هو يفتخر بما هو فيه!! إنّ نتيجة العجله و التسرع و الاندفاع الأهوج لن تكون أحسن من هذه العاقبه.

من هنا يتّضح-كما أشرنا سابقا-أنّ معنى «دعا» لا يقتصر لا على الرغبات التي يظهرها الإنسان على لسانه،و لا على تلك الرغبات التي يسعى لتحقيقها بسلوكه و بما يبذل لها من جهد،و إنّما المعنى يشمل محصله الإثنين معا.و أمّا ما ذهب إليه بعض المفسرين من حصر المعنى في أحدهما فليس ثمّه دليل عليه.

أمّا ما يظهر من بعض الروايات من اقتصار المعنى على الدعاء اللفظي،فإنّ ذلك من قبيل بيان المصداق لا كل المفهوم من قبيل الروايه التي

يقول فيها الإمام الصادق عليه السلام: «و أعرف طريق نجاتك و هلاكك،كى لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك،و أنت تظن أنّ فيه نجاتك،قال الله تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً .

من هنا يتبين أنّ أفضل طريق لوصول الإنسان إلى الخير و السعاده،هو أن يكون الفرد في كل خطوه و موقف على غايه قصوى من الدقه و الحيطه و الحذر، و أن يتجنب الاندفاع و العجله و التسرع،و يدرس الموقف من جميع جوانبه، و بجانب الأحكام المتعجله الممزوجه بالهوى و العاطفه،و أن يستعين بالله العزيز و يستمدده القوه و العون.

الآيه التي بعدها تتحدث عن تعاقب الليل و النهار و منافع هذا التعاقب،لتجعل من هذا الشاهد مثالا على معرفه الله و التمعن بآياته،و المثال أيضا يفيد معنى

التأمل و الهدوء و يدعو إلى محاذره التعجل و التسرع.

الآيه تقول أولاً: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتٍ ثُمَّ: فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً. و لنا فى ذلك هدفان: الأول: لِيَتَّبِعُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ حيث تنطلقون نهارة فى الكسب و العمل و المعاش مستثمرين العطايا الإلهية، و تنعمون ليلاً بالراحة و الهدوء و الاستقرار. و الهدف الثانى فهو: وَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ لَكى لا تبقى شبهه لأحد وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً.

بين المفسرين كلام كثير حول المقصود من «آيه الليل» و «آيه النهار» و فيما إذا كان ذلك كناية عن نفس الليل و النهار، أم أن المقصود من «آيه الليل» القمر، و من «آيه النهار» الشمس (١).

و لكن التدقيق فى الآيه يكشف عن رجاءه التفسير الأول، خصوصاً و أن المقصود من قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتٍ هو أن كل واحد منهما علامه على إثبات وجود الله، أمّا محو آيه الليل فهو تمزيق ظلمه الليل و حجب الظلمه فيه بواسطة نور النهار، الذى يكشف ما كان مستورا بظلمه الليل.

و إذا كانت آيات أخرى فى القرآن [آيه (٥) من سوره يونس]

تفيد أن الغايه من خلق الشمس و القمر هو تنظيم الحساب إلى سنين و أشهر، فليس ثمه تنافى بين الآيتين، إذ من الممكن أن تنتظم حياه الإنسان و حسابه على أساس الليل و النهار، و على أساس الشمس و القمر من دون أى تنافى بين الإثنين.

فى نهج البلاغه نقراً للإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، قوله: «و جعل شمسها آيه مبصره لنهارها، و قمرها آيه ممحوه من ليلها، و أجراهما فى مناقل مجراهما، و قدر سيرهما فى مدارج درجهما، ليميز بين الليل و النهار بهما، و ليعلم عدد السنين و الحساب بمقاديرهما» (٢).

ص: ٤١٣

١- ١) فى الحاله الأولى تكون الإضافة «إضافيه بيانيه» أما فى الثالثه فتكون الإضافة «إضافه اختصاصيه».

٢- ٢) نهج البلاغه، خطبه الأشباح، رقم (٩١).

إنّ كلام الإمام هنا لا- ينافى التفسير الأوّل، لأنّ حساب السنين يمكن أن يكون على أساس الأيام و الليالي، كما يمكن أن يتم ذلك على أساس الشمس و القمر.

\*\*\*

**بحوث**

**إشاره**

### **أولاً: هل الإنسان عجول ذاتا؟**

إنّ الإنسان لا- يوصف في القرآن بوصف «العجول» و حسب، و إنّما هناك أوصاف أخرى أطلقها على الإنسان مثل «ظلوم» و «جهول» و «كفور» و «هلوع» و «مغرور».

و لكن السؤال هنا، هو أنّ هذه الأوصاف تتعارض مع التعليمات القرآنيه التي تتحدّث عن الفطره النظيفه الطاهره للإنسان، فكيف إذن نوائم بين الحالتين؟ بعبارة أخرى: إنّ الإنسان من وجهه نظر الإسلام هو أفضل الموجودات و أكرمها حتى أنّه استحق مقام الخلافه عن الله، في الأرض، و هو معلّم الملائكه و أفضل منها، فكيف- إذن- يتسق هذا الطرح مع الأوصاف السيئه الآنفه التي نقرؤها عن الإنسان في القرآن؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال يمكن أن نختصرها بجملة واحده، و هي أنّ شخصيه الإنسان هي كما تقوم آنفا من السمو و الرفعه، و لكن بشرط أن تتم تربيته و تكون رعايته من قبل القاده الرّبانيين، و إلّا- ففي غير هذه الصوره، فسيتسافل نحو أسوأ الأحوال، و يغرق في الهوى و الشهوات، و يخسر القابليات العظيمه الموجوده فيه بالقوه لتظهر بدلا عنها الجوانب السلبيه.

لذلك إذا تحقّق الشرط السابق (تربيته الإنسان على يد القاده الإلهيين) فإنّ الجوانب الإيجابيه في الإنسان هي التي تظهر، و هي التي تطبعه بطابعها و بعكس

ص: ٤١٤

ذلك تظهر الصفات السلبية، لذلك نقرأ في الآيات ١٩-٢٤ من سورة المعارج قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ ذَائِمُونَ. ويمكن للقارئ أن يعود إلى تفسير الآية (١٢) من سورة يونس لأجل المزيد من التفاصيل حول الموضوع.

## ثانياً: أضرار العجلة

إنّ تعلق الإنسان واندفاعه نحو موضوع معين، و التفكير السطحي المحدود، و الهوى و الاضطراب، و حسن الظن أكثر من الحد الطبيعي إزاء أمر ما، كلّها عوامل للعجلة في الأعمال. ثمّ إنّ الاقتصار على بحث المقدمات بشكل سطحي سريع و مرتجل لا يكفي في التوصل إلى حقيقته الأمر، و عادة تؤدي العجلة و التسرع في الأعمال إلى الخسران و الندامه! و قد قرأنا في الآيات أعلاه أنّ عجله الإنسان تقوده إلى أن يطلب الشر لنفسه و يسعى إليه، بنفس حاله و سرعه التي يطلب فيها الخير و يسعى إليه! إنّنا لا نستطيع أن نحصى ما أصاب الإنسان على طول التاريخ جرّاء استعجاله و تسرّعه، و في تجربته الحياتيه الخاصه لأي واحد منّا ثمه ما يكفي لتعلّم دروس العجلة و التسرع من خلال النتائج المرّه التي جنيناها.

إنّ «الثبت» و «التأني» هي الصفات التي تقابل العجلة، ففي حديث عن رسول الله نقرأ

قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «إنّما أهلك الناس العجلة، و لو أنّ الناس تثبتوا لم يهلك أحد» (١).

و

في حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السلام: «مع الثبت تكون السلامه، و مع العجلة تكون الندامه» (٢).

ص: ٤١٥

١-١ - سفينه البحار، ج ١، ص ١٢٩.

٢-٢ - المصدر السابق.

عن رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم قوله: «إِنَّ الْأَنَاةَ مِنَ اللَّهِ وَالْعَجْلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ» (١) (٢).

طبعا هناك باب في الروايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» ففي حديث عن رسول الله نقرأ

قوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَعْجَلُ» (٣).

إنَّ الروايات في هذا المجال كثيرة، والمقصود منها هي السرعة في مقابل الإهمال والتأخير غير الموجه، والاتكاء إلى الأعداء والتسويف باليوم وغدا، التي غالبا ما تؤدي إلى ظهور المشاكل في الأعمال، وشاهد هذا الكلام هو الحديث الوارد

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من همَّ بشيء من الخير فليعجله فإنَّ كلَّ شيءٍ فيه تأخير فإنَّ للشيطان فيه نظره» (٤).

لذلك نقول: نعم للجديهِ و السرعة في الأعمال، ولكن لا.. للعجلهِ و التسرع.

و بعبارة أخرى: إنَّ العجله المذمومه هي التي تكون أثناء البحث و الدراسه لمعرفة جوانب العمل المختلفه، أمَّا السرعة و العجله الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، و التصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ في الروايات «سارعوا في عمل الخير» أي بعد أن يثبت أن هذا العمل خير فلا مجال للتأخير و التسويف.

### ثالثا: دور العدد و الحساب في حياة الإنسان:

كل عالم الوجود يدور حول محور العدد و الحساب، و لا نظام في هذا العالم بدون حساب، و طبعي أن الإنسان الذي هو جزء من هذه المجموعه لا يستطيع العيش من دون حساب و كتاب.

لهذا السبب تعتبر الآيات القرآنيه وجود الشمس و القمر أو الليل و النهار

ص: ٤١٦

١- (١) - سفينه البحار، ج ١، ص ١٢٩.

٢- (٢، ٣) أصول الكافي، ج ١، كتاب الإيمان و الكفر، باب تعجيل فعل الخير.

٣- (٤) - المصدر السابق.

واحد من نعم الله تعالى، لأنها الأساس في تنظيم الحساب في حياة الإنسان، إن شيع الفوضى و فقدان الحياه للاتساق و النظم يؤدي إلى دمار الحياه و فنائها.

و الظريف أن الآيه تتحدّث عن فائدتين لنعمه الليل و النهار، الأولى: ابتغاء فضل الله و التي تعنى التكسب و العمل المفيد المثمر. و الثانيه: معرفه عدد السنين و الحساب.

و قد يكون الهدف من ذكر الإثنين إلى جنب بعضهما البعض يعود إلى أن (ابتغاء فضل الله) لا يتم بدون الاستفاده من (الحساب و الكتاب) و قد لا يكون هذا المعنى واضحاً في العصور الماضيه، أما في عصرنا فهو واضح كالشمس.

إنّ عالمنا اليوم، هو عالم الأرقام و الأعداد و الإحصاء، فإلى جانب كل مؤسسه و منظمه اقتصاديه أو اجتماعيه أو سياسيه أو عسكريه أو عمليه أو ثقافيه، ثمّه مؤسسه إحصائيه.

و هكذا نستفيد من الإشاره القرآنيه أنّ القرآن لا يبلى بالزمان، بل كلّما مرّ عليه الزمان تجددت معانيه و تجلّت آفاقه (١).

ص: ٤١٧

---

١-١) -لنا كلام مفصّل حول الموضوع أثناء الحديث عن الآيه (٥) من سوره يونس.

إشارة

وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنْ اهْتَدَىٰ فَأَتَمَّمَا اهْتِدَىٰ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

التفسير

إشارة

أربعة أصول إسلاميه مهمه:

لقد تحدّثت الآيات القرآنيه السابقه عن القضايا التي تتصل بالمعاد و الحساب، لذلك فإن الآيات التي نبحثها الآن تتحدّث عن قضيه «حساب الأعمال» التي يتعرض لها البشر، و كيفيه و مراحل إنجاز ذلك في يوم المعاد و القيامه حيث يقول تعالى: وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ .

«الطائر» يعنى الطير. و لكن الكلمه هنا تشير إلى معنى آخر كان سائدا و معروفا بين العرب، إذ كانوا يتفألون بواسطه الطير، و كانوا يعتمدون في ذلك على طبيعه الحركه التي يقوم بها الطير. فمثلا إذا تحرك الطير من الجهه اليمنى، فهم

يعتبرون ذلك فألا- حسنا و جميلا. أمّا إذا تحرّك الطير من اليسرى فإنّ ذلك في عرفهم و عاداتهم علامه الفأل السىء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطير، من هنا فإنّ هذه الكلمه غالبا ما كانت تعنى الفأل السىء فى حين أنّ كلمه التفؤل (عكس التطير) كانت تشير إلى الفأل الجميل الحسن.

و فى الآيات القرآنيه ورد مرارا أنّ «التطير» هو بمعنى الفأل السىء حيث يقول تعالى فى الآيه (١٣١) من سوره الأعراف: وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ وَفِي الآيه (٤٧) من سوره النمل نقراً أيضاً: قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ وَ الآيه تحكى خطاب المشركين من قوم صالح عليه السلام لنييهم.

بالطبع عند ما نقراً الأحاديث و الروايات الإسلاميه نراها تنهى عن «التطير» و تجعل «التوكل على الله» طريقا و أسلوبا لمواجهه هذه العاده.

و فى كلّ الأحوال فإنّ كلمه «طائر» فى الآيه التى نبحثها، تشير إلى هذا المعنى بالذات، أو أنّها على الأقل تشير إلى مسأله «الحظ و حسن الطالع» التى تقترب فى أفق واحد مع قضيه التفؤل الحسن و السىء، إنّ القرآن فى الحقيقه - يبين أنّ التفؤل الحسن و السىء أو الحظ النحس و الجميل، إنّما هى أعمالكم لا غير، و التى ترجع عهدتها إليكم و تتحملون على عاتقكم مسؤولياتها.

إنّ تعبير الآيه الكريمه، بكلمتى «ألزمناه» و «فى عنقه» تدلان بشكل قاطع على أنّ أعمال الإنسان و النتائج الحاصله عن هذه الأعمال لا تنفصل عنه فى الدنيا و لا فى الآخره، و هو بالتالى، و فى كلّ الأحوال عليه أن يكون مسئولاً عنها، إذ أنّ الملاك هو العمل دون غيره.

بعض المفسرين ذكروا فى إطلاق معنى كلمه «طائر» على الأعمال الإنسانيه أنّها تعنى أنّ الأعمال الحسنه و الأعمال القبيحه للإنسان كالطير الذى يطير من بين جنباته، لذلك شبهوها (أى الأعمال) بالطائر.

و فى كلّ الأحوال، اختلف المفسرون فى معنى كلمه طائرٍ فى هذه الآيه،



وقد أوردوا في ذلك مجموعه احتمالات منها أن «الطائر» بمعنى «حصيله ما يجنيه الإنسان من أعماله الحسنه و السيئه»، أو أن الطائر بمعنى «الدليل و العلامه»، و بعضهم قال: إن معناه «صحيفه أعمال الإنسان» بينما ذهب البعض الآخر إلى أن معنى «الطائر» هو «اليمن و الشؤم».

و لكن الملاحظ في هذه التفسيرات جميعاً، أن بعضها يرجع إلى نفس التفسير الذى ذكرناه فى البدايه، كما أن بعضها الآخر بعيد عن معنى الآية.

يقول القرآن بعد ذلك: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. و من الواضح أن المقصود من «الكتاب» فى الآية الكريمه هى صحيفه الأعمال لا غير.

و هى نفس الصحيفه الموجوده فى هذه الدنيا و التى تثبت فيها الأعمال، و لكنّها هنا (فى الدنيا) مخفيه عنّا و مكتومه، بينما فى الآخرة مكشوفه و معروفه.

إنّ التعبير القرآنى فى كلمتى «نخرج» و «منشوراً» يشير إلى هذا المعنى، إذ نخرج و ننشر ما كان مخفياً و مكتوماً.

و بالنسبه الصحيفه الأعمال و حقيقتها و ما يتعلق بها، فسيأتى البحث عنها فى نهايه هذه الآيات.

فى هذه اللحظه يقال للإنسان: اقْرَأْ كِتَابَكَ، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا يعنى أن المسأله-مسأله المصير-بدرجه من الوضوح و العلنيه و الانكشاف، بحيث أن كل من يرى صحيفه الأعمال هذه سيحكم فيها على الفور-مهتما كان مجرماً-لماذا؟ لأنّ صحيفه الأعمال هذه-كما سيأتى-هى مجموعه من آثار الأعمال أو هى نفس الأعمال، و بالتالى فلا مجال لانكارها فإذا سمعت-أنا-صوتى من شريط مسجّل، أو رأيت صورتى و هى تضبط قيامى ببعض الأعمال الحسنه أو السيئه، فهل أستطيع أن أنكر ذلك؟ كذلك صحيفه الأعمال فى يوم القيامه، بل هى أكثر حيوته و دقه من الصوره و الصوت! الآية التى بعدها توضح أربعة أحكام أساسيه فيما يخص مسأله الحساب

و الجزء على الأعمال، و هذه الأحكام هي:

١-أولا تقرّر أنّ من اهتدى فإنّما يهتدى لنفسه حيث تعود النتيجة عليه.

٢-ثمّ تقرّر أيضا أنّ ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها.

و قرأنا نظير هذين الحكيمين في الآية السابعة من هذه السورة في قوله تعالى:

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .

٣-ثمّ تنتقل الآية لتقول: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

«الوزر» بمعنى الحمل الثقيل. و أيضا تأتي بمعنى المسؤولية، لأنّ المسؤولية- أيضا- حمل معنوى ثقيل على عاتق الإنسان، فإذا قيل للوزير وزيرا، فإنّما هو لتحمله المسؤولية الثقيلة على عاتقه من قبل الناس أو الأمير و الحاكم.

طبعا هذا القانون الكلى الذى تقرّره آية وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى لا يتنافى مع ما جاء فى الآية (٢٥) من سورة النحل التى تقول: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ بِسَبَبِ تَضْلِيلِهِمْ لِلآخِرِينَ يَكُونُونَ فَاعِلِينَ لِلذَّنْبِ أَيْضًا، أَوْ يَعْتَبِرُونَ بِحُكْمِ الْفَاعِلِينَ لَهُ، وَ لِذَلِكَ فَهَمَّ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ يَتَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ وَ ذُنُوبَهُمْ، وَ بِتَعْبِيرِ آخَرَ:

فإنّ «السبب» هنا هو فى حكم «الفاعل» أو «المباشر».

كذلك مرّت علينا روايات متعدّده حول مسأله السنّه السيئه و السنّه الحسنه، و التى كان مؤدّاها يعنى أنّ من سنّ سنه سيئه أو حسنه فإنّه سيكون له أجر من نصيب العاملين بها، و هو شريكهم فى جزائها و عواقبها، و هذا الأمر هو الآخر لا يتنافى مع قاعده و لا- تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى لِأَنَّ الْمَوْسُسَ لِلْسَّنَّةِ، يَعْتَبَرُ فِي الْحَقِيقَةِ أَحَدَ اجْزَاءِ الْعِلَّةِ التَّامَّةِ لِلْعَمَلِ، وَ هُوَ بِالتَّالِيِ شَرِيكَ فِي الْعَمَلِ وَ الْجَزَاءِ.

٤-الحكم الرابع يتمثل فى قوله تعالى: وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا يَقُومُ بِبَيَانِ التَّكْلِيفِ وَ إِقَاءِ الْحُجَّةِ.

هناك نقاش بين المفسرين حول نوع العذاب المقصود هنا، و هل هو نوع من

أنواع العذاب الذى يقع فى الدنيا أو فى الآخرة، أم المقصود به هو عذاب «الاستيصال» الذى يعنى العذاب الشامل المدمر كطوفان نوح مثلاً؟ إن ظاهر الآية الكريمة يدل على الإطلاق، وهو بالتالى يشمل كل أنواع العذاب.

و هناك نقاش آخر- أيضاً- بين المفسرين حول قاعده و ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا و هل أن الحكم فيها يخص المسائل الشرعيه التى يعتمد فهمها على الأدله النقليه فقط، أو أنه يشمل جميع المسائل العقليه و النقليه فى الأصول و الفروع؟ فى الواقع، إذا أردنا العمل بظاهر الآية الذى يفيد الإطلاق، فينبغى القول أنها تشمل جميع الأحكام العقليه و النقليه، سواء ارتبطت بأصول أو فروع الدين.

و مفهوم هذا الكلام أنه حتى فى المسائل العقليه البحتة التى يقطع «العقل المستقل» بحسنها و قبحها مثل حسن العدل و قبح الظلم، فإنه ما لم يأت الأنبياء، و يؤيدون حكم العقل بحكم النقل، فإن الله تبارك و تعالى لا يجازى أحداً بالعذاب. للطفه و رحمته بالعباد.

و لكن هذا الموضوع مستبعد و ضعيف الاحتمال، لأنه يصطدم مع قاعده أن المستقلات العقليه لا تحتاج إلى بيان الشرع، و حكم العقل فى إتمام الحجج فى هذه الموارد يعتبر كافياً و مجزياً، لذلك فلا طريق أمامنا إلا أن نستثنى المستقلات العقليه عن مجال عمل القاعده المذكوره.

و إذا لم نستثن ذلك فسيكون معنى العذاب فى هذه الآية هو «عذاب الاستيصال» و سيكون المفاد الأخير للمعنى هو أن الله سبحانه و تعالى لرحمته و لطفه بالعباد لا يهلك الظالمين و المنحرفين إلا بعد أن يبعث الأنبياء، و تستبين جميع طرق السعاده و الهدايه، حتى تطابق حجج الشرع حجج العقل المستقل، و تتم الحجج بذلك من طريقى العقل و النقل (فتأمل ذلك).

## ١- التفؤل و التطير

التفؤل و التطير كانا موجودين بين جميع الأمم و لا يزالان كذلك. و يظهر أن مصدرهما هو عدم قدره على اكتشاف الحقائق، و الغفلة عن علل الحوادث.

و على أية حال، ليست هناك آثار طبيعية فعليه لهذين الأمرين، و لكن لهما آثارا نفسية، إذ (التفاؤل) يبعث على الأمل بينما «التطير» يؤدي إلى اليأس و العجز.

و لأن الإسلام يؤكد دائما على الأمور الإيجابية، و يدفعها مشجعا إياها، لذا فإنه لم ينع عن (التفاؤل) و لكنه أدان و بشده «التطير» حتى أنه في بعض الروايات اعتبر ذلك من الشرك، إذ جاء الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم

قوله: «الطيره شرك» و قد بحثنا هذا الموضوع بشكل مفصل في نهاية الآيه (١٣١) من سوره الأعراف (١).

الظريف في الأمر أن الإسلام يقوم دائما بتوجيه مثل هذه الأمور الوهميه و يحاول توظيفها في مجراها الصحيح و البناء، حتى يمكن الاستفادة منها.

فمثلا مما هو شائع بين الناس أن الزوجه الفلانيه قدمها خير، بينما الأخرى قدمها في بيت زوجها شرّ و نحس، و كذلك شائع أن الزوجه الفلانيه و منذ أن دخلت بيت زوجها حصل كذا و كذا (خيرا أم شرا) بينما واقع الحال إن هذه الأمور خرافيه و هميه، لكن الإسلام أعطى بعضها-من خلال توجيهه- شكلا بناء و مضمونا تربويا،

فعن الإمام الصادق عليه السلام نقراً: «من شؤم المرأه غلاء مهرها و شدّه مؤنتها» (٢).

في حديث آخر عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله و سلم نقراً: «أما الدار فشؤمها ضيقها و خبث جيرانها» (٣).

ص: ٤٢٣

١-١) -يراجع التفسير «الأمثل» عند تفسير قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ، أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، (الأعراف ١٣١).

٢-٢) -راجع وسائل الشيعه، ج ٣، ص ١٠٤.

٣-٣) -راجع سفينه البحار، ج ١، ص ٦٨٠.

لاحظوا بدقه كيف يستخدم الإسلام نفس الألفاظ التي كان الناس يستخدمونها في مفاهيم خرافيه و وهميه، يوظفها في مفاهيم واقعيه و بأسلوب تربوي بناء، و لاحظوا أيضا، كيف أنّ الأفكار التي كانت تنتهي إلى طريق مغلق، جاء الإسلام و وجهها نحو طريق الهدايه و الإصلاح.

أخيرا و قبل أن نتقل إلى الملاحظه الثانيه نختم حديثنا بكلام لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يطابق ما قلناه آنفا؟ إذا روى عنه صلى الله عليه و آله و سلم قوله: «اللهم لا خير إلا خيرك، و لا طير إلا طيرك و لا رب غيرك».

## ٢- صحيفه أعمال الإنسان العجيبه:

لقد تحدّث آيات قرآنيه و روايات عديده عن صحيفه أعمال الإنسان. و كلّ هذه الآيات و الروايات تؤكد على أنّ جميع الأعمال و جزئياتها و تفصيلاتها تكون مدوّنه في صحيفه الأعمال، و في يوم البعث و القيامة، يستلم الإنسان صحيفه عمله بيمينه إذا كان محسنا و يتناولها بشماله إذا كان مسيئا. ففي الآيه (١٩) من سوره الحاقه نقرأ! فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّ وَ فِي الآيه (٢٥) من نفس السوره نقرأ قوله تعالى حكاية عن الإنسان الخاسر: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّ. وَ فِي الآيه (٤٩) من سوره الكهف نقرأ قوله تعالى: وَ وُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَ لَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

و في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، يتعلق بالآيه-مورد البحث- إقرأ كتابك...

قال: «يذكر العبد جميع ما عمل، و ما كتب عليه، حتى كأنه فعله تلك الساعه، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيره و لا كبيره إلا»

و هنا يطرح هذا السؤال؛ عن ماهيه هذه الصحيفة و كيفيتها؟ ممّا لا شك فيه أنّها ليست من جنس الكتب و الورق و الصحف العاديه، لذا فإنّ بعض المفسّرين قالوا بأنّ صحيفه الأعمال ليست سوى «روح الإنسان» و التي تكون جميع الأعمال مثبتة فيها (٢) لأنّ أى عمل نعمله سيكون له أثر فى روحنا شئنا أم أبينا.

و قد تكون صحيفه الأعمال، هى أعضاء جسمنا و جلودنا، و الأعظم من ذلك هو أنّ الصحيفة قد تكون متضمّنه فى الأرض و الهواء و الفضاء الذى يحيطنا و الذى نعيش فيه، لأنّ هذه المفردات هى و وعاء أعمالنا، فترتسم الأعمال فى أفق الأرض الهواء و الوجود الذى حولنا، هذا الوجود الذى تنحت فى ذراته أعمالنا أو آثارها و على الأقل.

و إذا كانت هذه الآثار غير محسوسه اليوم، و لا- يمكن دركها فى الحياه الدنيا هذه، إلّا أنّ ذلك- بدون شك- لا يعنى عدم وجودها؛ فعند ما نرزق بصرا جديدا آخر (فى يوم القيامة) فسوف يكون بإمكاننا أن نرى جميع هذه الأمور، و نقرؤها.

على أنّ استخدام الآيه الكريمة لتعبير (اقرأ) ينبغى أن لا يغيّر من تفكيرنا شيئا إزاء ما ذهبنا إليه آنفا، لأنّ كلمه «اقرأ» تتضمّن مفهوما واسعا، و تدخل الرؤيا بمفهومها الواسع هذا، فنحن مثلا و فى تعبيرنا العاديه التى نستخدمها يوميا نقول:

قرأت فى عيني فلان ما الذى يريد أن يفعله، كما أننا فى عالم اليوم أخذنا نستخدم كلمه «اقرأ» بخصوص الأشعه التى تؤخذ للمرضى، هذا بالرغم من أنّ الأشعه، هى صورته تخضع للمشاهده لا للقراءه، و هذا المثال و الأمثله التى سبقته

١-١) -نور الثقلين، ج ٣، ص ١٤٤.

٢-٢) -يراجع تفسير الصافى فى شأن تفسير هذه الآيه.

تؤكد ما ذهبنا إليه أنّ المشاهده تدخل فى إطار المعنى الواسع للقراءه.

وقد تقدم فى الآيات السابقه أنّ تفصيلات صحيفه الأعمال هذه، لا يمكن إنكارها بأى وجه، لأنّ الآثار الحقيقيه الموضوعيه (أى الخارجيه) والتكوينيّه للعمل تشبه كثيرا الصوت المسجّل للإنسان، أو الصوره المأخوذه له، أو بصمات أصابعه، و أيّا من هذه الآثار لا يجد الإنسان إلى نكرانها سبيلا!

### ٣- البرىء لا يؤخذ بجريه المذنب:

فى منطق العقل و توجيهات الأنبياء عليهم السّلام لا يمكن معاقبه البرىء بسبب جريمه المذنب، و هذا تماما عكس ما هو شائع بين عامّه الناس من خلال المثل الذى يقول (يحرق الأخضر و اليابس معا)، و كمثل على ذلك، نرى أنّ فى كل المدن و المناطق التى كانت فى حدود نبوّه النّبى لوط عليه السّلام، لم تكن هناك سوى عائله مؤمنه واحده، و لكن عند ما نزل العذاب على قوم لوط عليه السّلام أنجى الله تلك العائله، و كتب لها سبيل الخلاص من العذاب العام، و هكذا لم تؤخذ هذه العائله المؤمنه البريئه بجريه القوم المذنبين.

و تتحدث الآيه، من مجموع الآيات التى نحن بصددّها، بصراحه عن هذه القاعده، فتقول: **وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**. و إذا صادف أن وجدنا من بين الأحاديث غير المعتمره، أمورا تعارض هذا القانون الإسلامى العام، فيجب ترك تلك الأحاديث أو توجيهها.

و فى هذه الاتجاه، أمامنا روايه تقول: إنّ الشخص الميت يتعذب ببيكاء الحيّ، (و هنا يحتمل، و من باب توجيه الحديث، أن يكون الغرض من العذاب، هو ليس العذاب الإلهى، بل الأذى الذى يصيب الميت من ذلك عند ما تطلع روحه على جزع الأهل و الأقرباء).

و يتضح هنا- أيضا- مصير عقيدته الأشخاص الذين يقولون: إنّ أبناء الكفار

يحشرون مع آبائهم فى نار جهنم لبطلانه إسلاميا و لمنافاته لقاعده و لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَ إِنَّ الذَّرِيهَ لَا تُوَاحِدُ بِجْرِيهِه  
الآباء، و هى بالتالى لا تعاقب بسبب ذنوب الأب و الأم. و لهذا السبب بالذات، فقد قلنا بأنّ الأبناء غير الشرعيين (أولاد الزنا) ليست  
لهم من جريره غيرهم عليهم شىء، و أنّهم بمنأى عن الذنب و أنّ أبواب السعاده أمامهم مفتوحه، إذا أرادوهم ذلك، بالرغم من  
اعترافنا بصعوبه تربيتهم!

#### ٤- قاعده «أصل البراءه» و آيه! مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ:

فى علم الأصول، و فى بحث «البراءه» استدلوا بقوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ... على أن فهم الآيه يوضح أنّ المسائل التى لا  
يمكن للعقل إدراكها أو القطع بها، لا- يعاقب عليها الإنسان حتى يبعث الله الرسل و الأنبياء ليبيّنوا الأحكام و التكاليف و  
الوظائف. و هذا بحد ذاته دليل على عدم العقاب فى الأمور التى لم تقم الحججه عليها، و قاعده «أصل البراءه» لا تعنى شيئا غير  
هذا؛ أى لا عقاب بدون حججه من العقل أو النقل.

أمّا قول البعض: إنّ مفاد «العذاب» فى الآيه أعلاه، هو «عذاب الاستئصال» مثل طوفان نوح، فلا دليل على ذلك، بل- كما قلنا- إنّ  
إطلاق الآيه ينفى ذلك، و هى تشمل بالتالى كلّ عذاب و عقاب.



اشاره

وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)

التفسير

اشاره

مراحل العقاب الإلهي:

إنّ موضوع البحث في هذه الآيات يكتمل ما كُنّا بصدد بحثه في نهايه الآيات السابقه، و لكن بصوره أخرى، إذ تقول الآيه الكريمه: وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١). إنّ الآيات التي كُنّا قبل قليل بصدد بحثها، كانت تتحدّث عن أنّ العقاب الإلهي لا يمكن أن ينزل بساحه شخص أو مجموعه أو أمه، من دون أن تكون هناك حجه و بيان للتكليف من قبل الرسل و الأنبياء عليهم السلام، و الآيه التي نحن بصددها الآن، تتحدّث عن نفس هذا الأصل، و لكن بطريقه أخرى.

صحيح أنّ المفسرين وضعوا احتمالات متعدده لتفسير هذه الآيه، إلا أنّنا

ص: ٤٢٨

(١-١) - بالرغم من أنّ كلمه «قول» لها معنى واسع، و لكنّها هنا تعني إعطاء الأمر بالعذاب.

نعتقد بأنه لا يوجد سوى تفسير واحد واضح لهذه الآيه، يمكن تبيانه من مؤدى ظاهرها، وهذا التفسير هو: إنَّ الله لا يعاقب أو يؤخذ أحدا بالعذاب، قبل أن يتمَّ الحجَّه عليه، وقبل أن يتَّضح و يستبين تكليفه، ففى البدايه يضع الله تعليماته و أوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها و أطاعوا فستنالهم سعادته الدنيا و الآخرة. أمّا إذا عصوا و خالفوا و لم يلتزموا الأوامر و النواهي الربانيه، فسيحقيق بهم العذاب، و يؤدى إلى هلاكهم.

و إذا تأملنا الآيه، و دققنا النظر فيها بشكل صحيح، فسنرى أنَّ هناك أربع مراحل لهذا البرنامج الربانى، هى:

١-مرحلة الأوامر و النواهي.

٢-مرحلة الفسق و المخالفه.

٣-مرحلة استحقاق المجازاه.

٤-مرحلة الهلاك.

و الملاحظ هنا، أنَّ المراحل الأربع هذه، معطوفه على بعضها البعض بواسطه «فاء»التفريع.

هنا يطرح هذا السؤال: لماذا كان المأمورون فى الآيه الكريمة هم المترفين دون غيرهم؟ (١).

فى الإجابة على السؤال المثار، لا بدّ من الإشاره إلى ملاحظه تعتبر مهمّه فى توضيح المعنى، و هى أنَّ المترفين هم وجهاء القوم، و رؤساء المجتمع - طبعاً هذه القاعده تخص المجتمعات المريضة- و الآخرون تبع لهم.

إضافه إلى ذلك، فإنّ التعبير فى الآيه الكريمة ينطوى على إشاره مهمّه، هى أنَّ أغلب المفسد الاجتماعيه تنبع من المترفين، أصحاب الأموال، البعيدين عن

ص: ٤٢٩

(١-١) -مترفون، من ماده رفاه، و تعنى المتنعمين و ذوى الأموال الكثيره الناسين لله تعالى.

اللّٰه تعالى، و الذين يعيشون حياه مترفه بعيده عن الشرع مملوءه بالأهواء و المفاسد، و هم بذلك لا- يفقهون شيئا عن تلك المفردات التي تتحدث عن الأخلاق و الإنسانيه و الإصلاح. و لهذا السبب بالذات، و بحكم موقعهم، كان المترفون دائما في الصفوف الأولى، في مواجهه دعوات الأنبياء و الرسل، و كانوا يعتبرون دعوات الأنبياء-القائمه على أساس العدل و حمايه المستضعفين-ضدّهم.

لهذه الأسباب ذكر هؤلاء بالخصوص لأنهم أساس الفساد. على أيه حال، هذه الآيه بمثابة تحذير لكل المؤمنين كي ينتبهوا، و لا يسلموا زمام أمورهم و حكوماتهم بيد المترفين و الأغنياء الغارقين بالشهوات، و ألا يتبعونهم، لأن هؤلاء يجرون مجتمعهم نحو الهلاك.

الآيه التي بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنها أصل عام، و قاعده ساريه، إذ تقول: **وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** وفقا لهذه القاعده و السنّه، ثمّ تضيف بعد ذلك: **وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَمِيرًا بَصِيرًا** أي إنّ ظلم و ذنوب فرد أو مجموعه لا يمكنها أن تكون خافيه على العين البصيره التي لا تنام لرّب العالمين.

«قرون» جمع «قرن» و هي تعنى الجماعه التي تعيش في عصر واحد، ثمّ أطلقت فيما بعد على مجموع العصر الواحد.

أمّا بصدد عدد سنين القرن الواحد، فهناك آراء مختلفه، فقسم اعتبر القرن (٤٠) سنه، و آخرون قالوا: ثمانين، و البعض الثالث، قال: إنّ القرن مائه عام، أخيرا فقد اعتبر البعض أنّ القرن هو مائه و عشرون عاما. و في كلّ الأحوال لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الحكم في هذه القضيّه يخضع لطبيعته الاتفاق العرفي الذي ينعقد حولها. و من هنا فقد اتفق في عصرنا الراهن على أنّ كل مائه سنه تعتبر قرنا

أمّا لماذا أكدت الآية على القرون من بعد نوح عليه السّلام فقد يكون ذلك بسبب أنّ الحياه قبل نوح عليه السّلام كانت حياه بسيطه، والاختلافات التي تقسم المجتمعات إلى مترف و مستضعف، كانت بسيطه و ضئيله، لذلك فالعذاب الإلهي لم يشملهم بكثرة.

أمّا عن سبب ذكر كلمتي «خبير» و«بصير» معاً، فإنّ ذلك يعود إلى المعنى المراد، إذ «الخبير» تعنى العلم و الإحاطه بالنيه و العقيده، أمّا «بصير» فدلاله على رؤيه الأعمال. لذلك فإنّ الله تبارك و تعالى يعلم بواطن الأعمال و النيات، و يحيط بنفس الأعمال، و مثل هذه قدره لا يمكنها بحال أن تظلم أحداً، و لا أن يضيع حق أحد في ظل حكومتها.

\*\*\*

ص: ٤٣١

اشاره

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِلُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدِّهُ هُوَ لَا يَمُنُّ هُوَ لَا يَمُنُّ هُوَ لَا يَمُنُّ هُوَ لَا يَمُنُّ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَ لِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

التفسير

اشاره

طلاب الدنيا و الآخرة:

لقد تحدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر الله تعالى، و كيفية هلاكهم، لذا فإنّ هذه الآيات-التي نحن بصددّها الآن- تشير إلى سبب التمرد على شريعه الله، و العصيان لأوامره، و هذا السبب هو حب الدنيا، إذ يقول تعالى:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِلُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا

«العاجله» تعنى النعم الزائله، أو الدنيا الزائله.

و الظريف فى الآيه، أنها لا- تقول: إن من يسعى وراء الدنيا، و يجعلها كل همه، يحصل على كل ما يريد، بل هى قيّدت ذلك بشرطين هما:

أولاً: سيحصل على جزء ممّا يريده، و أنّ هذا الجزء هو المقدار الذى نريده نحن، أى (ما نشاء).

و الشرط الثانى الذى يقيّد رغبه الساعى إلى الدنيا، فهو: إنّ جميع الأشخاص -رغم سعيهم الدنيوى- لا- يحصلون على هذا المقدار، و إنما قسم منهم سيحصل على جزء من متاع الدنيا. و هذا معنى قوله: لِمَنْ نُريدُ .

و بناء على ذلك، فلا كلّ طلاب الدنيا يحصلون عليها، و لا أولئك الذين يحصلون على شىء منها، يحصلون على ما يريدون. و مسير الحياه اليوميه يوضح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكدون ليلا و نهارا و لكنهم لا يحصلون على شىء.

و ما أكثر الذين لهم أمنيات كبيره و طموحات متعدده و مشاريع بعيده، و لكن لا يحصلون إلا على القليل منها.

و فى هذا تحذير الدنيا إنكم إذا تصورتتم بأنكم ستصلون إلى أهدافكم عن طريق بيع الآخره بالدنيا، فهذا خطأ و اشتباه كبير، حيث أنكم فى بعض الأحيان قد لا تحققون أى هدف، و فى أحيان أخرى قد تحققون بعض أهدافكم.

و عاده ما تكون للإنسان آمال كبيره و متعدده، لا يمكن إشباعها فى هذه الدنيا الماديه المحدوده، فلو أعطيت الدنيا كلها إلى شخص واحد، فقد لا يقتنع بها! أمّا الأشخاص الذين يكدون و لا يصلون إلى شىء، فلذلك أسباب مختلفه، إذ قد يكون هناك أمل فى إنقاذهم، و الله بذلك يحبهم و ييسر سبل الهدايه لهم. أو يكون السبب أنهم إذا وصلوا إلى مرحله ما من أهدافهم و رغباتهم، فسيطغون و يؤذون خلق الله، و يضيقون عليهم الخناق.

«يصلى» مشتقه من «صلى» و هي تعنى إشعال النار، و أيضا تعنى الحرق بالنار، و المقصود منها هنا هو المعنى الثانى.

و الجدير بالانتباه هنا، أنّ عاقبه هذه المجموعه من الناس، و التى هى نار جهنّم، قد تمّ تأكيدها فى الآيه، بكلمتى مَدْمُومًا و مَدْحُورًا إذ التعبير الأوّل يأتى بمعنى اللوم، بينما الثانى يعنى الابتعاد عن رحمه الخالق، و فى الحقيقه إنّ نار جهنّم تمثل العقاب الجسدى لهم، أمّا «مذموم» و «مدحور» فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح و للجسد، و الجزاء و العقاب يكون للإثنين معا.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعه الثّانيه و مصيرها، و بقرينه المقابله و هى أسلوب قرآنى مميز- يتوضح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَ سَعَىٰ لَهَا سَعِيًّا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعِيَّهُمْ مَشْكُورًا.

بناء على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسيه للوصول إلى السعاده الأبدية، هى:

أولاً- إرادته الإنسان: و هى الإراده التى ترتبط بالحياه الأبدية، و لا- تكون مرتبطه باللذات الزائله و النعم غير الثابته، و الأهداف الماديه، فالإرادته القويه و الروحيه العالیه تجعلان من الإنسان حرًا طليقا غير مرتبط بالدنيا.

ثانيا: هذه الإراده يجب أن لا تكون ضعيفه و قاصره فى المجال الفكرى و الروحى للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنسانى، و تدفعه للحركه، و يبذل كل ما يستطيع من السعى فى هذا المجال (يجب الملاحظه، بأنّ كلمه «سعيها» قد جاءت فى الآيه الكريمة للتأكيد. و هى تعنى أنّ على الإنسان أن يبذل أقصى ما يستطيع من السعى فى سبيل الآخره).

ثالثا: إنّ كل ما سبق من حيث عن الإراده فى النقطتين السابقتين، ينبغى أن يقترن بالإيمان، الإيمان الثابت القوى، لأنّ أى تصميم و جهد، إذا أريد له أن يثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحه، و مصدر هذه الأهداف هو الإيمان بالله لا غير.

صحيح أنّ السعى و بذل الجهد للآخره لا يمكن أن يكون بدون إيمان، حيث

أن مفهوم الإيمان داخل ضمنه، و لكن يجب عدم الاكتفاء بهذا المقدار من الدلالة الالتزامية للإيمان، بل و ينبغي التوسع في شرط الإيمان، بحكم أن (الإيمان) يعتبر أمراً أساسياً، و ركناً مهماً في هذا الطريق.

و الملاحظ هنا، أن الآية تخاطب عبيد الدنيا بالقول: **جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ** بينما عند ما تنتقل إلى طلاب الآخرة و عشاقها و مريدها، فهي تخاطبهم بالقول:

**فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا**

إن استخدام هذا التعبير أشمل و أجمل من استخدام أى تعبير آخر، مثل (جزاءهم الجنة) لأن الشكر من أى شخص هو بمقدار شخصيته و مكانته لا بمقدار العمل الذى تم، لذا فإن شكر الله لسعى عباده يتناسب مع ذاته اللامتناهية، و نعمه المادية و المعنوية و ما نتصوره و ما نعجز عن تصوّره.

و بالرغم من أن بعض المفسرين قد فسروا كلمة «مشكوراً» فى هذه الآية بمعنى «الأجر المضاعف» (١). أو بمعنى «قبول العمل» (٢)، إلا أنه من الواضح أن كلمة «مشكوراً» لها معنى أوسع من هذه المعانى جميعاً.

و قد يتوهم البعض و يلتبس عليه الأمر، ظناً أن نعم الدنيا هى من نصيب عبيدها و طلابها فقط، و أن طلاب الآخرة و أهلها محرومون منها. لذلك فإن الآية التى بعدها تقف أمام هذا اللبس، و تمنع هذا الظن، عند ما تقول: **كُلًّا نُمِدُّ هُوَلاءِ وَ هُوَلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ** لتضيف بعدها بقليل: **وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**.

نمد هنا من «الإمداد» بمعنى الزيادة.

الآية التى بعدها تشير إلى أصل مهم فى هذا الخصوص و تقول: كما أن السعى فى هذه الدنيا متفاوت، و متفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر فى الآخرة: و لكن التفاوت الدنيوى محدود، لأن الدنيا هى نفسها محدوده، و أما الآخرة - و لكونها

ص: ٤٣٥

١-١) -يراجع فى هذا الشأن تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٨٥٢.

٢-٢) -راجع تفسير الصافي عند الحديث عن هذه الآية.



غير محدود-فإن تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: **أُنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لِلآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا**

قد يقول قائل هنا: إننا نرى في هذه الدنيا أفرادا يحصلون على أرباح كثيرة بدون أى سعى أو جهد.

الجواب: إن وجود هؤلاء يعبر عن حالات استثنائية لا يمكن اعتبارها قاعده في مقابل الأصل الكلى، المتمثل في الجهد و السعى و دورهما في نجاح الإنسان و توفيقه. و بذلك فإن هذه الاستثناءات الثانويه لا تنافى الأصل الأساسى.

و أخيراً، و قبل أن ننتقل إلى الملاحظات، ينبغى أن ننبه إلى أن السعى و بذل الجهد لا يتعلقان بالكميه و المقدار فقط، ففى بعض الأحيان يكون السعى القليل ذو الكيفيه العاليه أكثر أثراً من السعى الكثير و الكيفيه الدانيه.

\*\*\*

**بحوث**

**إشاره**

**أولاً: هل الدنيا و الآخره تقعان على طرفى نقيض؟**

فى الواقع إننا نرى فى كثير من الآيات القرآنيه مدحا و تمجيذا للدنيا و بإمكانها الماديه، ففى بعض الآيات اعتبر المال خيراً (سوره البقره آيه ١٨٠).

و فى آيات كثيره و صفت العطايا و المواهب الماديه بأنها فضل الله **وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (١)**. و فى مكان آخر نقرأ قوله تعالى: **خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا (٢)**. و فى آيات كثيره أخرى و صفت نعم الدنيا بأنها مسخره لنا **سَخَّرَ لَكُمْ**.

و إذا أردنا أن نجتمع كل الآيات التى تهتم بالإمكانات الماديه و تؤكد عليها،

ص: ٤٣٦

١-١) -الجمعه، ١٠.

٢-٢) -البقره، ٢٩.

و تجعلها فى سياق واحد، فستكون أمامنا مجموعه كبيره منها.

و لكن، و برغم الأهميه الكبرى التى تختص بها النعم الماديه، فإنّ القرآن الكريم استخدم تعابير أخرى تحقّرها و تحطّ منها بقوه، إذ نقرأ فى سورة النساء، آيه (٩٤)، قوله تعالى: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و فى مكان آخر نقرأ قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١). و فى سورة العنكبوت آيه (٦٤)، نقرأ وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ أَمْيًا فى الآيه (٣٧) من سورة التور، فإننا نلتقى مع قوله تعالى: رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .

هذه المعانى المزدوجه إزاء النعم و المواهب الماديه، يمكن ملاحظتها أيضا فى الأحاديث و الروايات الإسلاميه، فالدنيا فى وصف لأمير المؤمنين على عليه السلام هى

«مسجد أحباء الله، و مصلى ملائكه الله، و مهبط وحى الله، و متجر أولياء الله» (٢).

و فى جانب آخر، نرى أنّ الأحاديث و الروايات الإسلاميه تعتبر الدنيا دار الغفله و الغرور، و ما شابه ذلك.

و السؤال هنا: هل تتعارض هذه المجاميع من الآيات و الروايات فيما بينها؟ فى الواقع، عند ما تلام الدنيا، فإنّ اللوم ينصب على أولئك الناس الذين لا هدف لهم و لا همّ سواها. من هنا نقرأ فى الآيه (٢٩) من سورة النجم قوله تعالى:

وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . و بعبارة أخرى: فإنّ الذم الذى يرد للدنيا يقصد به الأشخاص الذين باعوا آخرتهم بدنياهم. و لا يتناهون عن أى منكر و جريمه فى سبيل الوصول إلى أهدافهم الماديه، و فى هذا السياق نقرأ فى الآيه (٣٨) من سورة التوبه: أَرْضِيئْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ .

ثمّ إنّ الآيات التى نبحثها تشهد على ما نقول، إذ أنّ قوله تعالى:

ص: ٤٣٧

١- (١) - الحديد، ٢٠.

٢- (٢) - نهج البلاغه، باب الكلمات القصار، جمله رقم ١٣١.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...

هو خطاب لأولئك الذين يستهدفون هذه الحياه العاديه الزائله، و يقفون عندها.

و عاده فإن استخدام تعابير «المزرعه» أو «المتجر» و ما شاكلهما فى تشبيه الحياه الدنيا و وصفها، يعتبر دليلا حيا على هذا الموضوع.

و خلاصه القول: إنه إذا تمت الاستفاده من مواهب الدنيا و عطاياها التى تعتبر من النعم الإلهيه، و يعتبر وجودها ضروريا فى نظام الخلق و الوجود، و تمت الاستفاده فى سعادته الإنسان الأخرويه و تكامله المعنوى، فإن ذلك يعتبر أمرا جيدا، و تمتدح معه الدنيا. أما إذا اعتبرناها هدفا لا وسيله، و أبعدها عن القيم المعنويه و الإنسانيه، عندها سيصاب الإنسان بالغرور و الغفله و الطغيان و البغى و الظلم.

و ما أجمل وصف

الإمام على عليه السلام للدنيا حينما يقول: «من أبصر بها بصرته، و من أبصر إليها أعمته» (١). و فى أن الفرق بين الدنيا المذمومه و الدنيا الممدوحه، هو نفس الفرق الذى نستفيد منه، بين «إليها» و «بها»، إذ تعنى الأولى أن الدنيا هدف، بينما تعنى الثانى أنها مجرد وسيله!

### ثانيا: دور السعى فى تحقيق المكاسب:

هذه ليست المره الأولى التى يشيد فيها القرآن بالسعى و الجهد و دورهما فى تحقيق المكاسب، و بعكسه يحذّر الأشخاص العاطلين و الكسالى بأن السعاده الأخرويه لا يمكن ضمانها بالكلام المجرد، و التظاهر بالإيمان، بل الطريق يتمثل بالسعى و بذل الجهود.

و هذه الحقيقه واضح مفادها فى الكثير من الآيات القرآنيه. ففى سوره

ص: ٤٣٨

المدثر. آيه (٣٨) نقرأ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا و آيه أخرى تقول: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . و فى آيات كثيرة أخرى، يأتى العمل الصالح بعد ذكر الإيمان حتى لا يتوهم أحد و يظنّ بأنه يستطيع الوصول إلى مرحله ما بدون سعى و جهد، فمواهب الدنيا الماديه لا يمكن استحصالها بدون سعى و جهد، فكيف إذن بالسعاده الأخرويه الخالده!!؟

### ثالثاً: الإمدادات الإلهيه:

«نمدّ» مشتقّه من كلمه «إمداد» و هى تعنى إيصال المعونه، يقول الراغب الأصفهانى فى كتاب «المفردات» أن: كلمه «إمداد» غالباً ما تستعمل فى المساعدات المفيده و المؤثّره. أما كلمه «مدّ» فإنها تستعمل فى الأشياء المكروهه و غير المقبوله.

على أيه حال، نقرأ فى الآيات التى نبجثها، أنّ الله سبحانه و تعالى يضع جزءاً من نعمه فى خدمه الجميع، إذ يستفيد منها المحسنون و المسيئون، و هذه النعم غالباً ما تكون من النوع الذى يتوقف استمرار الحياه عليه.

بتعبير آخر: هذه النعم هى تعبير عن مقام الرحمانيه الإلهيه التى تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن و الكافر. و لكن ما وراء ذلك هناك نعم لا تحصى تختص بالمؤمنين و المحسنين دون غيرهم.

إشاره

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقُودَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)

التفسير

إشاره

أحكام إسلاميه مهمه:

الآيات التي نحن بصدد بحثها هي بدايه لسلسله من الأحكام الإسلاميه الأساسيه،و التي تبدأ بالدعوه إلى التوحيد و الإيمان،التوحيد الذي يعتبر الأساس و الأصل لكل النشاطات الإيمانيه،و الأعمال الحسنه و البناء.و الآيات عند ما تنحو هذا المنحى فهي بذلك تتصل مع مضمون البحث في الآيات السابقه،التي كانت تتحدث عن الناس السعداء الذين أقاموا حياتهم على دعائم ثلاث هي:

الإيمان، السعى و العمل و وضع الآخرة و منازلها نصب أعينهم.

و تعتبر هذه الآيات -أيضا- تأكيدا ثانيا لدعوه القرآن إلى أفضل السبل و أكثرها استقامة. في البدايه تبدأ هذه الآيات بالتوحيد و تقول: لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّهَا لَمِثْلُ نَقْتٍ لَا تَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، بل تقول: لَا تَجْعَلْ هَذَا اللَّفْظَ أَشْمَلًا وَ أَوْسَعًا، إذ هو يعنى: لا تجعل معبودا آخر مع الله لا- في العقيدة، و لا- في العمل، و لا في الدعاء، و لا في العبوديه. بعد ذلك توضح الآيه النتيجة القاتله للشرك: فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا .

إن استعمال كلمه «العود» تدل على الضعف و العجز، فمثلا يقال: قعد به الضعف عن القتال. و من هذا التعبير يمكن أن نستفيد أن للشرك ثلاثه آثار سيئه جدا في وجود الإنسان، هي:

١- الشرك يؤدي إلى الضعف و العجز و الذل، في حين أن التوحيد هو أساس الحركة و النهوض و الرفع.

٢- الشرك موجب للذم و اللوم، لأنه خط انحرافى واضح في قبال منطق العقل، و يعتبر كفرا واضحا بالنعم الإلهيه، لذا فالشخص الذى يسمح لنفسه بهذا الانحراف يستحق الذم.

٣- الشرك يكون سببا في أن يترك الله سبحانه و تعالى الإنسان إلى الأشياء التى يعبدها، و يمنع عنه حمايته، و بما أن هذه المعبودات المختلفه و المصطنعه لا- تملك حمايه أى إنسان أو دفع الضرر عنه، و لأن الله لا- يحمى مثل هؤلاء، لذا فإنهم يصبحون «مخذولين» أى بدون ناصر و معين.

إن هذا المعنى يتضح بشكل آخر في آيات قرآنيه أخرى، إذ نقرأ مثلا في الآيه (٤١) من سوره العنكبوت: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَ إِنْ أَوْهَنْ الْبُيُوتُ لَبِيتُ الْعُنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدى، تشير الآيات إلى واحده من أهم توجيهات

الأنبياء عليهم السلام للإنسان، فالآية-بعد أن تؤكد مرّة أخرى على التوحيد-تقول:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

كلمه «قضاء» لهم مفهوم توكيدي أكثر من كلمه «أمر» وهى تعنى القرار والأمر المحكم الذى لا نقاش فيه. وهذا أول تأكيد فى هذه القضية. أما التأكيد الثانى الذى يدل على أهميه هذا القانون الإسلامى، فهو ربط التوحيد الذى يعتبر أهم أصل إسلامى، مع الإحسان إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثالث والرابع فهما يتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفيده كلمه «إحسان» والذى تشمل كل أنواع الإحسان. وكذلك معنى الإطلاق الذى تفيده كلمه «والدين» إذ هى تشمل الأم والأب، سواء كانا مسلمين أو كافرين.

أمّا التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجىء كلمه «إحساناً» نكره لتأكيد أهميتها وعظمتها (1).

و من الضرورى الانتباه إلى هذه الملاحظة، وهى أنّ الأمر عادة ما ينصبّ على الأمور الإيجابية، بينما جاء هنا فى مفاد السلب والنفى (وقضى... ألا تعبدوا...) فما هو يا ترى سبب ذلك؟ من الممكن أن نقول: إنّ جملة وَقَضَىٰ... تتضمن تقديراً جملياً إيجابياً، يمكن أن نقدرها بالقول: وقضى ربك أن تعبد، ولا تعبد أى شىء سواه. أو من الممكن أن تكون جملة أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ التى تتضمن «النفى والإثبات» جملة إيجابية واحدة، إذ هى تحصر العبادة باللّه دون غيره ثم تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلاً بالإحسان إلى الوالدين فتقول: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا بِحَيْثُ يَحْتَاجَانِ إِلَى الرَّعَايَةِ وَالْإِحْتِمَامِ الدَائِمِ. فلا تبخل عليها بأى

ص: ٤٤٢

١ - ١) - يعتقد البعض أنّ كلمه «إحسان» تتعدى غالباً ب «إلى» مثل قولنا «أحسن إليه». وفى بعض الأحيان قد تتعدى بالباء. وقد يكون هذا التعبير لإظهار المباشرة، أى إظهار المحبته والاحترام مباشره وبدون أى واسطه. وهذا فى الواقع تأكيد سادس فى هذه القضية.

شكل من إشكال المحبّه و اللطف و لا تؤذيها أو تجرح عواطفهما بأقل إهانه حتى بكلمه «أف»: فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴿١﴾ بل: وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا و كن أمامهما فى غاية التواضع وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا .

### الأهميه الاستثنائية لاحترام الوالدين:

إن الآيتين السابقتين توضحان جانباً من التعامل الأخلاقى الدقيق، و الاحترام الذى ينبغى أن يؤديه الأبناء للوالدين:

١-من جانب أشارت الآيه إلى فتره الشيخوخه، و حاجه الوالدين فى هذه الفتره إلى المحبّه و الاحترام أكثر من أى فتره سابقه، إذ الآيه تقول: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ . من الممكن أن يصل الوالدان إلى مرحله يكونان فيها غير قادرين على الحركه دون مساعده الآخرين، و قد لا يستطيعون بسبب الكهوله رفع الخبائث عنهم، و هنا يبدأ الاختبار العظيم للأبناء، فهل يعتبرون وجود مثل هذين الوالدين دليل الرحمه، أو أنّهم يحسبون ذلك بلاء و مصيبه و عذاباً..هل عندهم الصبر الكافى لـاحترام مثل هؤلاء الآباء و الأمهات، أم أنّهم يوجهون الإهانات و يسيئون الأدب لهم، و يتمنون موتهم؟! ٢-من جانب آخر..تقول الآيه: فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ بمعنى لا تظهر عدم ارتياحك أو تنفرك منهم وَ لَا تَنْهَرْهُمَا ثُمَّ تَوَكَّدْ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى ضَرُورِهِ التحدّث معهم بالقول الكريم، إذ اللسان مفتاح إلى القلب وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

٣-من جانب ثالث تأمر الآيه بالتواضع لهم، هذا التواضع الذى يكون علامه

ص: ٤٤٣

١ - (١) - هناك قولان حول «إما» فى جملة «إما يبلغن» فالفخر الرازى فى تفسيره يذهب إلى أنّها مركبه من «إن» الشرطيه و «ما» الشرطيه، و هى بذلك تفيد التأكيد. أما البعض الآخر كصاحب «الميزان» مثلاً، فيرى أنّها مركبه من «إن» الشرطيه و «ما» الزائده، التى جاءت هنا لتسمع ل «إن» الشرطيه بالدخول على الفعل المؤكّد بنون التأكيد.



المحبه، و دليل الود لهم: وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .

٤- أخيرا تنتهى الآيات، إلى توجيه الإنسان نحو الدعاء لوالديه و ذكرهم بالخير سواء كانا أمواتا أم أحياء، و طلب الرحمة الربانيه لهما جزاء لما قاما به من تربيته و قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا .

إضافه إلى ما ذكرناه، فتمه ملاحظه لطيفه أخرى يطويها التعبير القرآني، هذه الملاحظه خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مسنين و ضعيفين و كهلين لا يستطيعان الحركه أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنك عند ما كنت صغيرا كنت على هذه الشاكله أيضا، و لكن والديك لم يقصرا فى مداراتك و العنايه بك، لذا فلا تقصّر أنت فى مداراتهم و محبتهم.

و قد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين و احترامهم و التواضع لهم، و قد يصدر هذا العقوق عن جهل فى بعض الأحيان، و عن قصد و علم فى أحيان أخرى، لذا فإن الآيه الأخيره فى بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ . و هذه إشاره إلى أنّ علم الله ثابت و أزلى و أبدى و بعيد عن الاشتباهات، بينما علمكم أيها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان و عصى أوامر خالقه فى مجال احترام الوالدين و الإحسان إليهم، و لكن بدون قصد و عن جهل، ثم تاب بعد ذلك و أناب، و ندم على ما فعل و أصلح، فإنه سيكون مشمولاً لعفو الله تعالى: إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غُفُورًا .

«أواب» مشتقه من «أوب» على وزن «قوم» و هى تعنى الرجوع مع الإراده، فى حين أن كلمه «رجع» تقال للرجوع مع الإراده أو بدونها، لهذا السبب يقال للتوبه «أوبه» لأنّ حقيقه التوبه تنطوى على الرجوع عن الأمر (المنكر)، إلى الله، مع الإراده.

و بما أنّ كلمه «أواب» هى صيغه مبالغه، لذا فإنها تقال للأشخاص الذين كلما

أذنبوا رجوعاً إلى خالقهم. وقد تكون صيغته المبالغه في «أواب» هي إشارة إلى تعدد عوامل العوده و الرجوع إلى الله. فالإيمان بالله أولاً و التفكير بحكمه يوم الجزاء و القيامه ثانياً، و الضمير الحي ثالثاً، و التفكير بعواقب و نتائج الذنوب رابعاً، كل هذه العوامل تعمل سويه لأجل عوده الإنسان من طريق الانحراف، نحو الله.

## بحوث

## إشاره

### أولاً: احترام الوالدين في المنطق الإسلامي

بالرغم من أنّ العاطفه الإنسانيه و معرفه الحقائق، يكفيان لوحدهما لـاحترام و رعايه حقوق الوالدين، إلا أنّ الإسلام لا يلتزم الصمت في القضايا التي يمكن للعقل أن يتوصل فيها بشكل مستقل، أو أن تدلّ عليها العاطفه الإنسانيه المحضه، لذلك تراه يعطى التعليمات اللازمه إزاء قضيه احترام الوالدين و رعايه حقوقهما، بحيث لا يمكن لنا أن نلمس مثل هذه التأكيدات في الإسلام إلا في قضايا نادره أخرى.

و على سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

ألف: في أربع سور قرآنيه ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مباشره، و هذا الاقتران يدل على مدى الأهميه يوليها الإسلام للوالدين.

ففي سورة البقره آيه (٨٣) نقرأ: لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .

و في سورة النساء آيه (٣٦) نقرأ قوله تعالى: وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . أما الآيه (١٥١) من سورة الأنعام فإنها تقول: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . و في الآيه التي نبحتها نقرأ قوله تعالى:

وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

ب- إنَّ مسأله احترام الوالدين و رعايه حقهما من المنزله بمكان، حتى أنّ

القرآن و الأحاديث و الروايات الإسلاميه، تؤكّدان معا على الإحسان للوالدين حتى و لو كانا مشركين، إذ نقرأ فى الآيه (١٥) من سوره لقمان: وَ إِنِّ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِيٰ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، فَلَا تُطِعْهُمَا وَ صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .

ج-رفع القرآن الكريم منزله شكر الوالدين إلى منزله شكر الله تعالى، إذ تقول الآيه (١٤) من سوره لقمان: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِرِوَالِدَيْكَ .

و هذا دليل على عمق و أهميه حقوق الوالدين فى منطق الإسلام و شريعته، بالرغم من أن نعم الله التى يشكرها الإنسان لا تعدّ و لا تحصى.

د-القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانته للوالدين، و لا يجيز ذلك، ففى حديث

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «لو علم الله شيئاً هو أدنى من أف لنهى عنه، و هو من أدنى العقوق، و من العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحدّ النظر إليهما» (١).

ه-بالرغم من أنّ الجهاد يعتبر من أهمّ التعاليم الإسلاميه، إلّا أنّ رعايه الوالدين تعتبر أهمّ منه، بل لا يجوز إذا أذى الأمر إلى أذيه الوالدين، بالطبع هذا إذا لم يكن الجهاد واجبا عينيا، و إذ توفّر العدد الكافى من المتطوعين له.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّ رجلا جاء إلى الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و قال له، إننى أحبّ الجهاد، و صحتى جيده، و لكن لى أمّ لا ترتاح لذلك، فما ذا أفعل، فأجابه صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إرجع فكن مع والدتك فو الذى بعثنى بالحق لأنسها بك ليله خير من جهاد فى سبيل الله سنه» (٢).

و لكن عند ما يجب الجهاد وجوبا عينيا، و تصبح بلاد الإسلام فى خطر يلزم الجميع بالحضور و لا تقبل جميع الاعذار حينئذ بما فيها عدم رضاء الوالدين.

و ما قلناه عن الجهاد ينطبق كذلك على الواجبات الكفائيه الأخرى، و كذلك المستحبات.

ص: ٤٤٦

١-١) - يلاحظ: جامع السعادات، النراقى، ج ٢، ص ٢٥٨.

٢-٢) - جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٦٠.

عن الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم قال: «إياك و عقوق الوالدين فإنَّ ریح الجنَّة توجد من میسرہ ألف عام و لا یجدها عاق»  
(١).

هذا التعبير ينطوى على إشاره لطيفه، إذ أن مثل هؤلاء الأشخاص (العاقين) ليسوا لا يدخلون الجنَّة و حسب، بل إنَّهم یبقون على مسافه بعيده جدا منها و لا يستطيعون الاقتراب منها.

و ينقل «سید قطب»

حدیثا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم جاء فيه: «عن بريده عن أبيه، أنَّ رجلا- كان فى الطواف حاملا- أمه يطوف بها، فرأى النَّبى صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم فسأله: هل أدیت حقَّها؟ فأجابہ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: «لا، و لا بزفره واحده».

و يقصد بالزفره الواحده الوجعه الواحده، أو الطلقه الواحده، التى تغشى الأم حين الولاده و الوضع (٢).

إذا أردنا نطلق العنان للقلم فى هذا المجال، فسيطول بنا المقام و نبتعد عن التفسير، لكن- بصراحه- يجب أن نعترف بأنَّ كل ما يقال فى هذا المجال فهو قليل، لأنَّ الوالدين حق العيش و الحياه على الولد.

فى نهايه هذه الفقره، أشير إلى أنَّ الوالدين- فى بعض الأحيان- يقترحان على الأبناء أشياء غير منطقيه و حتى- غير شرعيه، طبعاً فى مثل هذه الحالات لا تجب الطاعه، و لكن من الأفضل أن يتسم التعامل معهما بالهدوء و المنطق، و أن تتم عمليه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بأحسن وجه.

أخيراً نختم الكلام بحديث

عن الإمام الكاظم عليه السَّلام قال فيه: إنَّ رجلا- جاء النَّبى الأ- كرم صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يسأله عن حق الأدب على ابنه، فأجابہ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم بقوله: «لا يسميه باسمه، و لا يمشى بين يديه، و لا يجلس قبله، و لا يستسب له» (٣) (أى لا يفعل شيئاً يؤدى

ص: ٤٤٧

١-١) -جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٥٧.

٢-٢) -فى ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٢٢، الطبعة العاشره.

٣-٣) -نور الثقلين، ج ٣، ص ١٤٩.

الى أن يسبّ الناس والديه).

### ثانياً: بحث حول كلمة «قضى»:

«قضى» أصلها من كلمة «قضاء» بمعنى الفصل في شيء ما، إما بالعمل وإما بالكلام. وقال بعض: إنّ معناها هو وضع نهاية لشيء ما، و في الواقع فإنّ المعنيين متقاربان. و بما أنّ الفصل و وضع النهايه لهما معاني واسعه، لذا فإنّ هذه الكلمه لها استخدامات في مفاهيم مختلفه، فالقرطبي في تفسيره مثلاً ذكر لها ستة معان هي:

\* «قضى» بمعنى «أمر» كما في قوله تعالى: **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**.

\* «قضى» بمعنى «خلق» كما في قوله آيه (١٢) من سورة فصلت **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**.

\* «قضى» بمعنى «حكم» كما في الآيه (٧٢) من سورة طه **فَأَقْضِي مَا أَنْتَ قَاضٍ**.

\* «قضى» بمعنى الانتهاء من شيء، و مثله الآيه (٤١) من سورة يوسف **قَضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**.

\* «قضى» بمعنى «أراد» كما في سورة آل عمران آيه (٤٧): **إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**.

\* «قضى» بمعنى «عهد» كما في الآيه (٤٤) من القصص: **إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ (١)**.

و قد أضاف أبو الفتوح الرازي إلى هذه المعاني قوله:

\* «قضى» بمعنى «الإخبار و الإعلام» مثل قوله تعالى:

ص: ٤٤٨

و نستطيع أن نضيف إلى هذا المعنى، معنى آخر تكون فيه «قضى» بمعنى «الموت» كما في آية (١٥) من سورة القصص فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .

المهم هنا، أن بعض المفسرين وضع أكثر من (١٣) معنى لكلمه في القرآن الكريم (٢) .

ولكن لا يمكن اعتبار كل هذه معاني متعدده لكلمه «قضى» لأنها تنتهي إلى مفهوم واحد. لذلك فإن أغلب المعاني المذكوره أعلاه هي من باب اختلاط المصداق بالمفهوم. لأن كل واحد منها، ما هي في واقعها إلا مصداقا للمفهوم الكلى و الجامع المتمثل في «الفصل و وضع النهايه» فالقضى بحكمه يضع نهايه للدعوى، و الخالق يضع نهايه لما خلق، و المخبر بأخباره يضع نهايه لما يريد أن يوضحه. و لكن لا- يمكن الإنكار أن بعض هذه المصاديق، و من كثره الاستخدام قد وضعت معان جديده لكلمه «قضاء» مثل الحكم أو إعطاء الأوامر.

### ثالثا: بحث حول معنى كلمه «أف»:

أصل «أف» كل مستقدر من وسخ و قلامه ظفر و ما يجرى مجراهما، و يقال ذلك لكل مستخف به استقدارا له. و يمكن أن نشق منه فعلا، كمثل قولنا: قد أففت لكذا، إذا قلت ذلك استقدارا له. (مفردات الراغب صفحہ ١٩).

بعض المفسرين مثل «القرطبي» في الجامع، و «الطبرسي» في «مجمع البيان» قالوا: «أف» و «تف» في الأصل بمعنى وسخ الظفر حيث أنه ملوث و تافه أيضا، و ينقل الرازى عن الأصمعي أن «الأف» وسخ الأذن، و «التف» وسخ الظفر، حتى توسع المعنى ليشمل كل ما يتأذى منه، و تذكر اللفظه أيضا عند كل مكروه يصل

ص: ٤٤٩

١-١) - تفسيره أبو الفتوح الرازى، ج ٧، ص ١٨٨.

٢-٢) - وجوه القرآن للتفليسي، ص ٢٣٥.

و هناك معان أخرى لكلمه «أف» منها أنّها تعنى الشىء القليل، أو الأذى من الرائحة الكريهه.

البعض الآخر قال: إنّ أصل هذه الكلمه مأخوذ من «الصوت» الذى يخرج من الفم عند ما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملبسه من الغبار الموجود عليها، و هذا الصوت يشبه كلمه «أوف» أو «أف» و قد أستفيد منها فيما بعد للتعبير عن التنفّر و عدم الراحة من الأشياء الصغيره بالخصوص.

و خلاصه الذى ذكرناه أعلاه، و بالإضافة إلى قرائن أخرى يمكن القول بأنّ هذه الكلمه هى فى الأصل «اسم صوت» و المقصود بالصوت هنا ما يصدره الإنسان من فمه عند ما يتدمّر أو ينفخ لإزاله شىء ما. ثم بعد ذلك تحول «اسم الصوت» إلى كلمه يمكن اشتقاق الأفعال منها، و بذلك تكون المعانى التى ذكرناها مصاديق لهذا المفهوم العام و الشامل.

و منتهى الكلام هنا، أنّ الآيه تريد أن تقول بعباره قصيره و فصيحه و بليغه، إنّ احترام الوالدين و رعايه حقوقهما مهمان للغايه، بحيث لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمه «أف» من معنى.

ص : ٤٥٠

إشاره

وَ آتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ  
كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ  
لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)

التفسير

إشاره

رعايه الاعتدال في الإنفاق والهبات:

مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر من سلسله الأحكام الإسلاميه الأساسيه، التي لها علاقه بحقوق القربى و الفقراء و  
المساكين، و الإنفاق بشكل عام ينبغي أن يكون بعيدا عن كل نوع من أنواع الإسراف و التبذير، حيث تقول الآيه وَ آتِ ذَا الْقُرْبَىٰ  
حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا .



«تبذير» من «بذر» و هي تعنى بذر البذور، إلاّ- أنّها هنا تخص الحالات التي يصرف فيها الإنسان أمواله بشكل غير منطقي و فاسد. بتعبير آخر: إنّ التبذير هو هدر المال في غير موقعه و لو كان قليلاً، بينما إذا صرف في محلّه فلا- يعتبر تبذيراً و لو كان كثيراً. ففي تفسير العياشي، عن الإمام الصادق عليه السّلام، نقراً

قوله: «من أنفق شيئاً في غير طاعه الله فهو مبذر و من أنفق في سبيل الله فهو مقتصد» (١).

و ينقل

عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضاً أنّه دعا برطب (لضيوفه) فاقبل بعضهم يرمى بالنوى، فقال: «لا تفعل إن هذا من التبذير، و إنّ الله لا يحب الفساد» (٢).

و في مكان آخر نقراً،

أنّ رسول الهدى صلّى الله عليه و آله و سلّم مرّ بسعد و هو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفى الوضوء سرف؟ فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم: «نعم و إن كنت على نهر جار» (٣).

و بالنسبة لذوى القربى هناك كلام كثير بين المفسّرين، هل هم عموم القربى؟ أو المقصود بهم قربي الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم باعتباره هو المخاطب بالآيه؟ في الأحاديث الكثيره التي سنقرؤها و في الملاحظات التي سنقف عندها سنعرف بأنّ ذوى القربى هم قربي رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و بعض الروايات تشير إلى أنّ الآيه تتحدث عن قصّه فدك التي أعطاه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بنته فاطمه الزهراء عليها السّلام.

و لكن مخاطبه الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم في كلمه «و آت» لا- تعتبر دليلاً على اختصاص هذا الحكم به، لأنّ جميع الأحكام الواردة في هذه المجموعه من الآيات كالنهي عن الإسراف و مداراه السائل و المسكين، و النهي عن البخل، هي أحكام عامّه بالرغم من أنّها تخاطب الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم.

و هناك نقطه ينبغي الالتفات إليها، و هي مجيء النهي عن التبذير و الإسراف،

ص: ٤٥٢

١-١) -يراجع تفسير الصافي عند بحث هذه الآيه.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق.

بعد إعطاء الأمر بأداء حق الأقرباء و المساكين حتى لا يقع الإنسان تحت تأثير عاطفه القرباه أو الصدقه فيعطى لهذا المسكين أو ابن السبيل أو القريب أكثر مما يستحق أو يتحمل، فيعتبر ذلك إسرافاً و تبذيراً، و هما مذمومان دائماً.

الآيه التي بعدها هي لتأكيد النهي عن التبذير إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا .

أما كيف كفر الشيطان بنعم ربّه، فهذا واضح، لأنّ الله أعطاه قدره و قوه و استعداداً و ذكاء خارقاً للعادة، و لكن الشيطان استفاد من هذه الأمور في غير محلّها، أى في طريق إغواء الناس و إبعادهم عن الصراط المستقيم.

أما كون المبذرين إخوان الشياطين، فذلك لأنهم كفروا بنعم الله، إذ وضعوها في غير مواضعها. ثم إنّ استخدام «إخوان» تعنى أنّ أعمالهم متطابقه و متناسقه مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما متشابهه، أو أنهم قرناء و جلساء للشيطان في الجحيم، كما توضّح ذلك الآيه (٣٩) من سوره الزخوف بعد أن تشرك الشيطان و المذنب في العذاب: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

أما لما ذا جاءت كلمه الشيطان هنا بصيغه الجمع «شياطين»؟ قد يعود ذلك إلى أنّ لكل إنسان غافل عن خالقه و ربّه، شيطان قرين له، كما نرى هذا المعنى واضحاً في الآيه (٣٦) و (٣٨) من الزخرف: وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضًا لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ .. حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ .

ثم أنّ الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحياناً، و في هذه الحاله ترسم الآيه الكريمة طريقه التصرف بالنحو الآتى: إِذَا تَعَرَّضْنَا عَنْهُمْ إِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا .

«ميسور» مشتقّه من «يسر» و هي بمعنى الراحه و السهوله، أما هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كل كلام جميل و سلوك مقرون بالاحترام و المحبّه، و إذا فسرها

البعض بمعنى الوعد للمستقبل فَإِنَّ ذَلِكَ أَحَدُ مَصَادِقِهَا.

نقرأ في الرّوايات، أنّه بعد نزول هذه الآيه، كان إذا جاء شخص محتاج إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والرّسول لا يملك شيئاً لإعطائه،

قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يرزقنا الله و إياكم من فضله» (١).

وقديما عند ما كان السائل يطرق الباب، ويطلب منّا شيئاً لا نستطيع إعطائه إياه، نقول له «العفو» وذلك تأكيداً على أنّ لهذا السائل حق علينا يطالبنا به، وإذا كنّا لا نملك قضاء حاجته وإعطاءه حقّه، فإننا نطلب منه العفو.

الاعتدال هو شرط في كل الأمور بما فيها الإنفاق والمساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآيه للقول: **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ**. وهذا تعبير جميل يفيد أنّ الإنسان ينبغي أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء وأن أيديهم مغلوله إلى أعناقهم بخلا وخشيه من الإنفاق. ولكن في نفس الوقت تقرّر الآيه أنّ بسط اليد لا ينبغي أن يتجاوز الحد المقرر والمعقول في الصرف والبذل والعطاء، حتى لا ينتهي المصير إلى الملامه والابتعاد عن الناس: **وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**.

و«تقعد» مشتقّه من «قعود» وهي كناية عن التوقف عن العمل. أمّا تعبير «ملوم» فهو يشير إلى أنّ عاقبه الإسراف لا تؤدي إلى توقف الإنسان عن عمله ونشاطه وحسب، وإنما تؤدي إلى إيقاع لوم الناس عليه.

«محسور» مشتقّه من كلمه «حسر» وهي في الأصل تعني خلع الملابس رفع الثوب وإظهار بعض البدن من تحته، لذا يقال للمقابل الذي لم يلبس الخوذه والدرع، بأنه «حاسر». وأيضاً يقال للحيوان الذي يتعب من كثره المشى بأنه «حسير» أو «حاسر» بسبب استنفاد طاقته وقدرته.

ص: ٤٥٤

وقد توسع هذا المفهوم فيما بعد بحيث أصبح يطلق على كل إنسان عاجز عن الوصول إلى هدفه بأنه «حسير» أو «محسور» أو «حاسر».

أمّا كلمة «الحسره» والتي تعنى الغم و الحزن، فهى مشتقة من هذه الكلمة، و تطلق على الإنسان الفاقد لقابليه حل المشاكل بسبب الضعف.

و كذلك بالنسبه للإنفاق، فهو إذا تجاوز الحد المقرّر بحيث يستنفذ طاقه الإنسان، فإنّه يؤدى إلى أن يصاب صاحبه بالغم و الحزن بسبب الضعف عن أداء واجباته و مسؤولياته، و ينقطع اتصاله و ارتباطه بالناس.

و بعض الروايات التى تتحدث عن سبب نزول الآيه تؤكّد هذا المعنى، إذ أنّها تتحدث أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم كان يوماً فى بيته فجاءه سائل يسأله إعطاه ملابس، و لمّا لم يكن مع الرّسول ما يعطى السائل، فقد خلع لباسه و أعطاه إياه، الأمر الذى أدّى إلى بقاء الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم فى البيت و عدم خروجه فى ذلك الوقت للصلاه.

و قد كان هذا الحادث سبباً لتقولات الكفار المنافقين، الذين قالوا: إنّ الرّسول نائم، أو إنّّه فى لهو أنساه صلاته. و بذلك أدّى هذا العمل إلى إيقاع اللوم شماته الأعداء و الانقطاع عن الأصحاب، و أصبح بذلك مصداقاً للملوم و المحسور، عندها نزلت الآيه أعلاه تنهى الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم عن تكرار هذا العمل.

أمّا عن التضاد القائم بين هذا الأمر و مسأله «الإيثار» فسنبحثه فى الملاحظات القادمه إن شاء الله.

بعض الروايات تتحدث عن أنّ سبب نزول الآيه، هو أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم كان يعطى ما يوجد فى بيت المال إلى المحتاج بحيث إذا جاءه محتاج آخر، فلن يجد شيئاً يعطيه له، فيلوم ذلك المحتاج الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و يؤذيه، لذلك صدرت التعليمات بأن لا ينفق كل ما فى بيت المال لمواجهة هذه المشكلات.

سؤال: لما ذا يجب أن يكون هناك مساكين و فقراء و محرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الأفضل أن يعطيهم الله ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآيه الأخيره بمثابة جواب على هذا السؤال: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا. إِنَّهُ اخْتِبَارٌ لَنَا، فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ بِهَذَا الطَّرِيقِ تَرْبِيتَنَا عَلَى رُوحِ السَّخَاءِ وَالتَّضَحِيهِ وَالعَطَاءِ.

إِضافه إلى ذلك، إذا أصبح أكثر الناس في حاله الكفايه و عدم الحاجه فإن ذلك يقود إلى الطغيان و التمرد إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَبَ، لذلك من المفيد أن يبقوا في حد معين من الحاجه. هذا الحد لا يسبب الفقر و لا الطغيان. من ناحيه أخرى يرتبط التقدير و البسط في رزق الإنسان بمقدار السعي و بذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبيل العجزه و المعلولين)، و هكذا تقتضى المشيئه الإلهيه ببسط الرزق و تقديره لمن يشاء، و هذا دليل الحكمه، إذ تقتضى الحكمه بزياده رزق من يسعى و يبذل الجهد، بينما تقتضى بتضييقه لمن هو أقل جهدا و سعيا.

العلامه الطباطبائي ينظر للعلاقه بين هذه الآيه و التي قبلها في ضوء احتمال آخر فيقول في تفسير الميزان: «إِنَّ هَذَا دَأْبُ رَبِّكَ وَ سُنَّتُهُ الْجَارِيَةُ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ لِمَن يَشَاءُ، فَلَا يَبْسُطُهُ كُلَّ البَسْطِ، وَ لَا يَمْسُكُ عَنْهُ كُلَّ الإِمْسَاكِ رِعَايَةً لِمَصْلَحَتِهِ الْعِبَادَةِ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا أَوْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَتَخَلَّقَ بِخَلْقِ اللَّهِ وَ تَتَّخِذَ طَرِيقَ الاعتدال و تتجنب الإفراط و التفريط» (١).

\*\*\*

**بحوث**

**اشاره**

**أولاً: من هم المقصودون بذى القربى؟**

كلمه «ذى القربى» تعنى الأرحام و المقربين، و هناك كلام بين المفسرين،

ص: ٤٥٦

١- (١) - تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٨٤.

حول المقصود بها، إذ هل هو المعنى العام أو الخاص؟ ويمكن أن نلاحظ هنا بعض هذه الآراء:

\*البعض يعتقد أنّ المخاطب بالآيه جميع المؤمنين و المسلمين، والغرض هو الحث على أداء حقوق الأقرباء.

\*البعض الآخر يرى أنّ المخاطب فى الآيه هو الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، والغرض هو إيصال حقوق أقرباء النبى صلى الله عليه و آله و سلم كخمس الغنائم، أو غيرها مما يتعلق بها الخمس.

أو بصوره عامه تأديه كل الحقوق التى لهم فى بيت المال.

لذلك نرى فى روايات عديده عند الشيعة و السنه إنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بعث إلى فاطمه عليها السلام بعد نزول هذه الآيه، و وهبها فدكا (١).

ففى مصادر السنه مثلا نقرأ عن أبى سعيد الخدرى الصحابى المعروف: «لما نزل قوله تعالى: وَ آتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ أعطى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فاطمه فدكا» (٢).

و يستفاد من بعض الروايات، أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام أثناء سيره إلى الشام بعد واقعه كربلاء، استدلل بهذه الآيه و آت ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ فى التعريف بنفسه و أهل بيته و عيال أبيه الحسين عليه السلام، بأنهم المعنيين بقوله تعالى: فيما كان أهل الشام يغمطونهم هذا الحق! (٣).

و لكن - كما أشرنا سابقا - ليس هناك تعارض بين هذين التفسيرين، فالكل مكلفون بإيتاء حقوق ذوى القربى، و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الذى اعتبر قائدا للأئمه

ص: ٤٥٧

١- ١) - فدك أرض معموره و خصبه، كانت بالقرب من خيبر و على بعد (١٤٠) كم عن المدينه المنوره، و فدك بعد خيبر كانت مركزا لاستقرار يهود الحجاز [يراجع كتاب: مراصد الأطلاع. موضوع فدك]. و بعد أن استسلم اليهود للنبى صلى الله عليه و آله و سلم بدون حرب، أعطى الرسول هذه الأرض إلى فاطمه الزهراء عليها السلام و ذلك وفقا للوقائع التاريخيه الثابته لدى الجميع، لكنّها صودرت بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لأسباب سياسيه و بقيت فى أيدي الخلفاء إلى أن أعادها عمر بن عبد العزيز أيام خلافته إلى العلويين.

٢- ٢) - نقل هذا الحديث «البدار» و «أبو يعلى» و «ابن أبى حاتم» و «ابن مردويه» عن «أبى سعيد» [لا حظ كتاب ميزان الاعتدال المجلد الثانى صفحہ (٢٨٨) و كنز العمال المجلد الثانى صفحہ (١٥٨)] و قد ورد هذا الحديث أيضا فى تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسى عند حديثه عن هذه الآيه، و فى الدر المنثور أيضا و قد أخرجه عن طريق السنه و الشيعة معا.

٣- ٣) - راجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٥٥.

الإسلاميه مكلف أيضا بالعمل بهذه المسؤوليه الكبيره، فأهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هم في الواقع من أوضح مصاديق القربى له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. والرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في طليعه المخاطبين بالآيه الكريمه. لهذا السبب و هب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حقوق ذوى القربى لهم، فأعطى فاطمه فدكا، وأجرى عليهم الأخماس و غير ذلك، حيث كانت الزكاه أموالا عامّه محرمة على أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و قرياه.

### ثانيا: مصائب الإسراف و التبذير:

لا ريب في أنّ النعم الموجوده على الكره الأرضيه كافيه لساكنيها، بشرط واحد، هو أن لا يبذروا هذه النعم بلا سبب، بل عليهم استثمارها بشكل معقول و بلا إفراط أو تفريط، و إلا فإنّ هذه النعم ليست غير متناهيه حتى لو أسىء استثمارها و التصرف بها. و قد يؤدي الإسراف و التبذير في منطقه معينه الى الفقر في منطقه أخرى، أو إنّ إسراف و تبذير الناس في هذا الزمان يسبّب فقر الأجيال القادمه.

و في ذلك اليوم الذي لم تكن فيه الأرقام و الإحصاءات في متناول الإنسان، حدّر الإسلام من مغبه الإسراف و التبذير في نعم الله على الأرض، لذلك فالقرآن أدان في أماكن كثيره و بشده المسرفين و المبذرين.

ففي الآيتين (١٤١) من الأنعام و (٣١) من الأعراف نقرأ قوله تعالى وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

أما في غافر (٤٣) فنقرأ: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ .

و الآيه (١٥١) من الشعراء تنهى عن طاعه المسرفين: وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ .

أما الآيه (٨٣) من يونس فتجعل الإسراف صفه فرعونيه: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ .

و الهدايه ممنوعه عن المسرفين كما هو مفاد الآيه (٢٨) من سوره غافر: إِنَّ

اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

و أخيرا تتحدث الآية (٩) من سورة الأنبياء عن مصيرهم: وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ .

و قد رأينا فى الآية التى نبجثها أن الله تعالى جعل المسرفين إخوان الشياطين. و الإسراف بمعناه الواسع هو الخروج و تجاوز الحد فى أى عمل يقوم به الإنسان، و لكنّها عادة تستخدم فى المصروفات.

و من آيات القرآن نفسها نستفيد أنّ الإسراف هو فى مقابل التقدير، بينما هناك طريق ثالث هو منزله بين الأمرين، كما فى الآية (٦٧) من سورة الفرقان: وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا .

### ثالثا: الفرق بين الإسراف و التبذير:

فى الواقع لا يوجد هناك بحث واضح عند المفسرين فى التفاوت الموجود بين الإسراف و التبذير، و لكن عند التأمل بأصل هذه الكلمات فى اللغة، يتبين أنّ الإسراف هو الخروج عن حد الاعتدال، و لكن دون أن نسخر شيئا، فمثلا نلبس ثيابا ثمينا بحيث أنّ ثمنه يعادل أضعاف سعر الملابس الذى نحتاجه، أو أننا نأكل طعاما غاليا بحيث يمكننا إطعام عدد كبير من الفقراء بثمنه. كل هذه أمثله على الإسراف، و هى تمثّل خروجنا عن حد الاعتدال، و لكن من دون أن نخسر شيئا.

أمّا كلمه «تبذير» فهى تعنى الصرف الكثير، بحيث يؤدى إلى إتلاف الشىء و تضييعه، فمثلا- نهى طعام عشره أشخاص لشخصين، كما يفعل ذلك بعض الجهلاء و يعتبرون ذلك فخرا، حيث يرمون الزائد فى المزابل.

و لكن بالرغم من هذا التمييز، لا بدّ من القول بأنّ كثيرا ما تستخدم هاتين الكلمتين للتدليل على معنى واحد، و قد تتابعان فى الجملة الواحده لغرض التأكيد.

فالإمام على فى نهج البلاغه يقول: «ألا إنّ إعطاء المال فى غير حقه تبذير



و إسراف و هو يرفع صاحبه في الدنيا و يضعه في الآخرة، و يكرمه في الناس و يهينه عند الله».

و في الآيات التي بحثناها رأينا أن الإسلام بحيث كثيرا على عدم الإسراف و التبذير إلى درجة أنه نهى عن الإسراف في ماء الوضوء حتى إذا كان ذلك قرب نهر جار، و حتى في نوى التمر. و عالم اليوم الذي بدأ يتحسس الضائقة في بعض الموارد. أخذ يهتم بهذه الفكرة، حتى بات يستفيد من كل شيء، فهو مثلا يستفيد من فضولات المنازل في صنع السماد، و من ماء المجارى لسقى المزروعات، لأنه أحس أن المصادر الطبيعية محدوده، لذا لا يمكن التفريط بها بسهولة، و إنما ينبغي الاستفادة منها ضمن ما يعرف ب«دوره المصادر الطبيعية».

### رابعاً: هل ثمة تعارض بين الاعتدال في الإنفاق و الإيثار؟

مع الأخذ-بنظر الإعتبار-الآيات أعلاه و التي تؤكد ضروره الاعتدال في الإنفاق، يثار سؤال مؤداه، إن في سورة الدهر مثلا، و آيات أخرى، و في مجموعه من الأحاديث و الروايات، ثمة إشاده بالمؤثرين الذين يؤثرون غيرهم على أنفسهم في أحلك الساعات و أشد الظروف و يعطون ما يملكون للآخرين، فكيف يا ترى نوفق بين هذين المفهومين؟ إن الدقه في سبب نزول هذه الآيات مع قرائن أخرى تفيدنا في الوقوف على جواب هذا السؤال، إذ يكون الأمر بمراعاة الاعتدال في المجالات التي يكون فيها العطاء و الهبات الكثيره سببا لاضطراب الإنسان في حياته أو بمصطلح القرآن يصبح فيها مَلُومًا مَحْسُورًا و كذلك إذا كان الإيثار سببا في التضيق على أبنائه أو أنه يهدد تركيبه عائلته. و إذا لم يقع أى من هذين المحذورين، فإن الإيثار يعتبر أفضل السبل، نضيف إلى ذلك أن الاعتدال في الإنفاق يعتبر حكما عاما، بينما الإيثار يعتبر حكما خاصا يرتبط بمصاديق خاصه، و ليس ثمة تضاد بين الاثنين.

إشارة

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجِيَّ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوِجِيَّهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَآتُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَآتُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)

التفسير

إشارة

سته أحكام مهمه:

في متابعه للأحكام الإسلاميه التي أثارها الآيات السابقه، تتحدّث هذه الآيات عن سته أحكام إسلاميه أخرى وردت في ست آيات، بعبارات قصيره و معان كبيره، تأخذ بلباب القلوب.

أولاً: تشير الآية إلى عمل قبيح و جاهلى هو من أعظم الذنوب، فتنهى عنه:

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ

فرزق هؤلاء ليس عليكم نَحْنُ نَزُّقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ أَمَا عَلَّه الْحَكْمُ فَهِيَ: إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً .

هذه الآية تفيد أن الوضع الاقتصادي للعرب في الجاهلية كان صعباً و سيئاً.

بحيث أنهم كانوا يتقلون أبناءهم في بعض الأحيان خوف العيلة و الفقر.

و هناك كلام بين المفسرين فيما إذا كان العرب في الجاهلية يدفنون البنات أحياء و حسب، أو أنهم كانوا يقتلون الأبناء أيضاً خوفاً من الفقر! البعض يعتقد أن الآيات تتحدث عن دفن البنت و هي حية، هذا العمل الذي كان شائعاً في الجاهلية لسببين:

الأول: يتمثل في الخوف من وقوعهن في الأسر أثناء الحروب، الأمر الذي يجعل الأعراس و النوااميس تحت رحمة العدو.

أما الثاني: فيعود إلى خوفهم من الفقر و عدم تمكنهم من توفير المؤونه للبنات اللاتي لا يقمن بعمل إنتاجي، و يقتصر دورهن على الاستهلاك فقط. صحيح أن الولد في مطلع حياته لا ينتج، لكنه في عرف عرب الجاهلية يعتبر رأسمالاً ثميناً، لا يمكن التفريط به.

البعض الآخر من المفسرين يعتقد أن هناك نوعين من القتل، النوع الأول يشمل البنات، لحفظ الناموس حسب اعتقادهم الخاطيء. أما النوع الثاني فسببه الفقر. و هو يشمل البنات و البنين معاً.

ظاهر الآية يدل على هذا المعنى، لوجود ضمير الجمع المذكور في الآية في «قتلهم» و هذا الضمير يطلق في اللغة العربية على الولد و البنت معاً، و بالتالى فإنه يستبعد اختصاصه بالبنات و حدهن.

أما ما يقال من أن الولد قادر على الإنتاج، و يعتبر وجوده رأسمالاً للمستقبل، فهذا صحيح في حال وجود قدره المالى، أما في حاله عدم قدره على تأمين

حياء هؤلاء الأولاد فالراى الثانى هو الأصح لهذا الدليل.

المهم أنّ هذا التصرف الجاهلى يرتبط بعقيده وهميه تقول: إنّ الأب و الأم هما الرازقان، بينما الله سبحانه و تعالى يقول: اطرودوا هذا التفكير الشيطانى من أذهانكم و ابدلوا سعيكم و وسعكم و الله يؤمن رزقكم و رزقهم.

و فى الوقت الذى تستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحق النوع البشرى، فإنّ عصرنا الحاضر -و فى أكثر مجتمعاته رقىا و تقدما- يعيد تكرار هذه الجريمة و لكن بأسلوب آخر، إذ أنّ العمليات الواسعه فى إسقاط الجنين و قتله خوفا من الضائقه المالىه و ازدياد عدد السكان، هى نموذج آخر للقتل، (للمزيد راجع تفسير الآيه (١٥١) من سوره الإنعام).

إنّ تعبير «خشيه إملاق» إشاره لطيفه إلى الدافع الوهمى الشيطانى و رفضه، حيث يفيد التعبير أنّ الوهم و مجرد الخوف هو الذى يتحكم بهذا السلوك المحرم، لا الدوافع الحقيقيه.

كما يجب الانتباه إلى أنّ «كان» فى <sup>□</sup> كَانَ خَطًّا كَبِيرًا هى فعل ماض، يفيد هنا التأكيد على أنّ قتل الأبناء يعتبر من الذنوب العظيمه التى كانت معروفه، منذ القدم بين البشر، و أنّ الفطره الإنسانيه السليمه تحمل دوافع الرفض و الإدانه لمثل هذا السلوك الذى لا يختص بزمان معين دون غيره.

ثانيا: الآيه التى بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا و لا تُقْرَبُوا الزَّانِيَ □ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً □ وَ سَاءَ سَبِيلًا □ و فى هذا التعبير القرآنى تمت الإشاره إلى ثلاث نقاط:

ألف- لم تقل الآيه: لا تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، و هذا الأسلوب فى النهى فضلا عمّا يحمله من تأكيد، فإنّه يوضح أنّ هناك مقدمات تجر إلى الزنا ينبغى تجنبها و عدم مقاربتها، فخيانه العين تعتبر واحده من المقدمات، و السفور و التعرى مقدمه أخرى، الكتب السيئه و الأفلام الملوّثه و المجالات الفاسده و مراكز الفساد كل واحده منها تعتبر مقدمه لهذا العمل.

كذلك فإنّ الخلوّه بالأجنبيّه (يعنى خلوّه المرأه و الرجل الأجنبي عليها فى مكان واحد و لوحدهما) يعتبر عاملا فى إثارة الشهوه.

و أخيرا فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصه مع ملاحظه الصعوبات الموضوعه أمام الطرفين، هى من العوامل التى قد تؤدى إلى الزنا. و الآيه نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر، و لكننا نرى فى الأحاديث و الروايات نهيا مفصلا عن كل واحده من هذه المقدمات.

ب- إنّ جملة **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً** بتأكيداتها الثلاثه المستفاده من «إن» و الفعل الماضى «كان» و كلمه «فاحشه» تكشف عن فظاعه هذا الذنب.

ج- إنّ جملة **سَاءَ سَبِيلًا** توضح حقيقه أنّ هذا العمل «الزنا» يؤدى إلى مفاسد أخرى فى المجتمع.

### فلسفه تحريم الزنا:

يمكن الإشارة إلى خمس عوامل فى فلسفه تحريم الزنا، وهى:

١- شياع حاله الفوضى فى النظام العائلى، و انقطاع العلاقه بين الأبناء و الآباء. هذه الرابطه التى تختص بكونها سببا للتعارف الاجتماعى، بل إنّها تكون سببا لصيانه الأبناء، و وضع أسس المحبّه الدائمه فى مراحل العمر المختلفه، و التى هى ضمانه الحفاظ على الأبناء.

إنّ العلاقات الاجتماعيه القائمه فى أساس العلاقات العائليه ستتعرض للانهايار و التصدّع إذا شاع وجود الأبناء غير الشرعيين «أبناء الزنا»، و للمرء أن يتصوّر مصير الأبناء فيما إذا كانوا ثمره للزنا، و مقدار العناء الذى يتحملونه فى حياتهم من لحظه الولاده و حتى الكبر.

و علاوه على ذلك، فإنّهم سيحرمون من الحبّ الأسرى الذى يعتبر عاملا فى الحدّ الجريمه من فى المجتمع الإسلامى، و حينئذ يتحول المجتمع الإنسانى بالزنا

إلى مجتمع حيواني تغزوه الجريمة و القساوه من كل جانب.

٢- إن إشاعة الزنا فى جماعه ما،ستفود إلى سلسله واسعه من الانحرافات أساسها التصرفات الفرديه و الاجتماعيه المنحرفه لذوى الشهوات الجامحه.و ما ذكر فى هذا الصدد من القصص عن الجرائم و الانحرافات المنبعثه عن مراكز الفحشاء و الزنا فى المجتمعات يوضح هذه الحقيقه،و هى أنّ الانحرافات الجنسيه تقترن عاده بأبشع ألوان الجرائم و الجنائيات.

٣-لقد أثبت العلم و دلت العلم و دلت التجارب على أنّ إشاعه الزنا سبب لكثير من الأمراض و المآسى الصحيه و كل المعطيات تشير إلى فشل مكافحه هذه الأمراض من دون مكافحه الزنا أصلا.(يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز فى المجتمعات المعاصره،و نتائجها الصحيه و النفسيه المدمره).

٤-إنّ شياع الزنا غالبا ما يؤدى إلى محاوله إسقاط الجنين و قطع النسل،لأنّ مثل هؤلاء النساء«الزانيات»لا يرضين بتربيته الأطفال،و عاده ما يكون الطفل عائقا كبيرا أمام الانطلاق فى ممارسه هذه الأعمال المنحرفه،لذلك فهن يحاولن إسقاط الجنين و قطع النسل.

أمّا النظرية التى تقول،بأنّ الدوله يمكنها-من خلال مؤسسات خاصّه-جمع الأولاد غير الشرعيين و تربيتهم و العناية بهم،فإنّ التجارب أثبتت فشل هذه المؤسسات فى تأديه أهدافها،إذ هناك صعوبات التربيه،و هناك النظرة الاجتماعيه لهؤلاء،ثم هناك ضغوطات العزله و الوحده و فقدان محبّه الوالدين و عطفهما،كل هذه العوامل تؤدى إلى تحويل هذه الطبقة من الأولاد الى قساه و جناه و فاقدى الشخصيه.

٥-يجب أن لا ننسى أنّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزه الجنسيه و حسب، بل المشاركه فى تأسيس الحياه على أساس تحقيق الاستقرار الفكرى و الأنس الروحى للزوجين.و أما تربيته الأبناء و التعامل مع قضايا الحياه،فهى آثار طبيعيه

للزواج، وكل هذه الأمور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل و قطع دابر الزنا و أشكال المشاعيه الجنسيه.

في حديث عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم يقول: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا و ثلاث في الآخرة. فأما اللاتي في الدنيا، فيذهب بنور الوجه، و يقطع الرزق، و يسرع الفناء. و أما اللواتي في الآخرة، فغضب الرب، و سوء الحساب، و الدخول في النار، أو الخلود في النار» (١).

ثالثاً: الحكم الآخر الذي تشير إليه الآية التي بعدها، هو احترام دماء البشر، و تحريم قتل النفس حيث تقول: **وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .**

إن احترام دماء البشر و حرمة قتل النفس تعتبر من المسائل المتفق عليها في كل الشرائع السماويه و قوانين البشر، فقتل النفس المحترمه لدى الجميع من الذنوب الكبيره، إلا أن الإسلام أعطى أهميه استثنائيه لهذه المسأله بحيث اعتبر من يقتل إنساناً فكأنما قتل الناس جميعاً، كما في الآية (٣٢) من سوره المائده **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا . بَلْ نَسْتَفِيدُ مِنْ بَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنْ جَزَاءَ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقِّ هُوَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَوَرَّطُونَ فِي دَمِ الْأَبْرِيَاءِ يَخْرُجُونَ عَنِ رِبْقَةِ الْإِيمَانِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا مُؤْمِنِينَ: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا (٢).** و حتى في الإسلام فإن الذين يشهرون السلاح بوجه الناس ينطبق عليهم عنوان «محارب» و هذا الصنف له عقوبات شديده مفضله في المصنفات الفقيهيه، و قد أشرنا إلى بعضها أثناء الحديث عن الآية (٣٣) من سوره المائده.

إن الإسلام يحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضيه القتل و إراقه الدماء؟! و هنا نستطيع أن نقول -باطمئنان-: إننا لا نرى

ص: ٤٦٦

١-١ - تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٤.

٢-٢ - النساء، ٩٣.

أى شريعته غير الإسلام أعطت هذه الحرمه الاستثنائيه لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات ينتفى معها احترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبه به، لذلك فإن الآيه بعد أن تثبت حرمه الدم كأصل، تشير للاستثناء بالقول: **إِلَّا بِالْحَقِّ** .

و

فى حديث معروف عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نقرأ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزانى المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعه» (١) .

أمّا القاتل فتكون نهايته معلومه بالقصاص، الذى يؤمن استمرار الحياه واستقرارها. وإذا لم يعط الحق لأولياء دم المقتول بالقصاص من القاتل، فإنّ قتله سيتجرءون على المزيد من القتل والإخلال بالأمن الاجتماعى.

أمّا الزانى المحصن، فإنّ قتله فى قبال واحد من أعظم الذنوب قباحه، وهو يساوى سفك الدم الحرام فى المرتبه.

أمّا قتل المرتد فيمنع الفوضى والإخلال فى المجتمع الإسلامى، وهذا الحكم - كما أشرنا سابقا- هو حكم سياسى، لأجل حفظ النظام الاجتماعى فى قبال الأخطار التى تهدد كيان النظام الإسلامى و وحده أمنه الاجتماعى، والإسلام- عادة- لا يفرض على أحد قبول الانتماء إليه، ولكن إذا اقتنع أحد بالإسلام واعتنقه، وأصبح جزاء من المجتمع الإسلامى، وأطلع على أسرار المسلمين، ثم أراد بعد ذلك الارتداد عن الإسلام ممّا يؤدى عملا الى تضعيف و ضرب قواعد المجتمع الإسلامى، فإن حكمه سيكون القتل (٢) بالشرائط المذكوره فى الكتب الفقهيّه.

ص: ٤٦٧

١- ١) -صحيح البخارى و مسلم نقلا عن تفسير فى ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٢٣.

٢- ٢) -هناك بحث مفصل فى نهايه الآيه (١٠٦) من سوره النحل، من التفسير الأمثل حول الارتداد، و فلسفه العقوبات الشديده للمرتد.



إنَّ حرمة دم الإنسان في الإسلام لا تختص بالمسلمين و حسب، بل تشمل غير المسلمين أيضا من غير المحاربين، و الذين يعيشون مع المسلمين عيشه مسالمة، فإنَّ دماءهم -أيضا- و أعراضهم و أرواحهم مصونه و يحرم التجاوز عليها.

تشير الآية بعد ذلك إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولى القتل فتقول:

وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِّهِ سُلْطَانًا

و لكن في نفس الوقت ينبغي لولى المقتول أن يلتزم حد الاعتدال و لا يسرف فلا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا إذا ما دام ولى الدم يتحرك في الحدود الشرعية فإنه سيكون موردا لنصره الله تعالى.

و النهى عن الإسراف تشير إلى واقع كان سائدا في الجاهلية، و اليوم أيضا يمكن مشاهدته نماذج لها، فحين يقتل فرد من قبيلة معينة، فإنها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. كأن يكون المقتول شخصا معروفا و ذا منزله اجتماعية. فإنَّ أهله وفق الأعراف الجاهلية، سوف لن يكتفوا بحدِّ القصاص الشرعي، بل يقتلون فردا معروفا و مكافئا في منزلته الاجتماعية للمقتول من قبيلة القاتل، حتى و إن لم يكن له أى دور في عملية القتل. (١).

و عصرنا الحاضر، شهد من التجاوز في الإسراف و هدر دماء الأبرياء ما غسل معه عار أهل الجاهلية، فهذه إسرائيل اليوم تقوم بحجه قتل أحد جنودها بإلقاء القنابل و الصواريخ على رؤوس النساء و الأطفال الفلسطينيين الأبرياء، و تعمد إلى هدم ديارهم.

ص: ٤٦٨

١-١) -يراجع تفسير الآلوسى (روح المعانى) أثناء حديثه عن هذه الآية.

كذلك شهدت سنوات الحرب الظالمه التي شنها النظام البعثي على الجمهوريه الإسلاميه أسوء أنواع العدوان على دماء الأبرياء والإسراف في القتل.

إنّ رعايه العداله-حتى في عقاب القاتل-تعتبر مهمه إسلاميا،لذلك نقرأ في وصيه الإمام على عليه السّلام،بعد أن اغتاله عبد الرحمن بن ملجم المرادي

قوله: «يا بني عبد المطلب،لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين،تقولون قتل أمير المؤمنين،ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه،فاضربوه،ضربه بضربه، و لا تمثلوا بالرجل» (١).

رابعا:الآيه التي بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم،و الملاحظ أنّ الآيه استخدمت نفس أسلوب الآيه التي سبقتها،فلم تقل:لا تأكلوا مال اليتيم و حسب، و إنما قالت: **وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ**.

و في هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم.و لكن قد تكون هذه الآيه حجج لبعض الجهلاء الذين سياتركون مال اليتامى يهدر و يكون عرضه للحوادث بدون أن يكون عليه قيم،لذلك استثنت بقوله: **إِلَّا بِمَالِي هِيَ أَحْسَنُ**. و بناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال،و تنميتها و تكثيرها.و هذا الوضع يستمر الى أن يبلغ اليتيم سنّ الرشد و يستطيع فكريا و اقتصاديا أن يكون قيما على نفسه و أمواله **حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**.

«أشدّ» مأخوذه من «شدّ» على وزن «جدّ» و هي بمعنى «العقده المحكمه» ثمّ توسع المعنى فيما بعد ليشمل أى نوع من القوه الروحيه و الجسميه.و المقصود من كلمه «أشدّ» في الآيه هو الوصول إلى مرحله البلوغ.و لكن ليس البلوغ الجسمي و حسب،و إنّما الرشد الفكري و القدره الاقتصاديه التي تؤهل اليتيم لأن يحفظ أمواله.اختيار كلمه «أشدّ» في الآيه هو لتحقيق كل هذه المعاني مجتمعه،و التي

ص: ٤٦٩

يمكن اختيارها بالتجربه.

الأيتام ظاهره طبيعته فى أى مجتمع، ووجودهم يكون تبعا لحوادث مختلفه يمر بها المجتمع، والدوافع الإنسانيه تفرض رعايه هؤلاء اليتامى من قبل الخيرين و المحسنين فى المجتمع، والإسلام يحث على رعايه الأيتام، وقد تحدثنا عن هذا الأمر مفصلا فى الآيه (٢) من سوره النساء.

والشئ الذى نريد أن نضيفه هنا هو أن بعض الروايات والأحاديث الإسلاميه وسّعت فى مفهوم اليتيم ليشمل الأفراد الذين انقطعوا عن إمامهم وقائدهم، ولا يصل صوت الحق إليهم. وهذا المعنى نوع من التوسع فى المفهوم واستفاده معنويه من حكم مادي.

خامسا: تشير الآيه بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: **وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئَلًا**. إن الكثير من العلاقات الاجتماعيه و خطوط النظام الاقتصادى و المسائل السياسيه قائمه على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور و انهارت الثقه بين الناس، فسينهار النظام الاجتماعى و ستحل الفوضى، و لهذا السبب تؤكد الآيات القرآنيه -بقوّه- على قضيه الوفاء بالعهود.

«العهد» له معان واسعه، فهو يشمل العهود و الموائيق الخاصه بين الأفراد فى القضايا الاقتصاديه و المعاشيه، و فى العمل و الزواج، و هو يشمل أيضا الموائيق و المعاهدات بين الحكومات و الشعوب، و فوق ذلك فإنّ العهد يشير إلى ميثاق الأمم مع الله و رسوله و كتبه، و كذلك العكس، أى التزام هؤلاء بالعهد أمام الناس (١).

سادسا: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل فى الوزن و الكيل و رعايه حقوق الناس فى ذلك و محاربه التطفيف فى الميزان حيث تقول الآيه

ص : ٤٧٠

---

١ - ١) - بالنسبه لأهميه الوفاء بالعهد و القسم لدينا بحث مفصل حول الموضوع يمكن مراجعته فى بحث الآيات ٩١-٩٤ من سوره النحل.

الكريمه: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ، وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

\*\*\*

## ملاحظات

### إشاره

#### ١- أضرار التطفيف فى الكيل:

أول ملاحظه ينبغى الانتباه إليها هنا، هى أن القرآن الكريم أكد مرارا على ضروره الوزن للناس بالقسطاس، و حذر من البخس و التطفيف فى الميزان حتى أنه اعتبر ذلك فى موضع، مرادفا لنظام الخلق فى عالم الوجود، حيث نقرأ فى الآيتين (٧،٨) من سوره الرحمن، قوله تعالى: وَ السَّمَاءَ رَفَعَهَا وَ وَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . و الآيه تشير إلى أن مسأله بخس الناس و التطفيف فى الميزان ليست مسأله صغيره، بل هى كبيره و تدخل فى صميم أصول العداله و النظام المهيم على عالم الوجود برمته.

فى مكان آخر، و بأسلوب أكثر قوه، يهدد القرآن المطففين، بقوله، كما فى سوره المطففين (١-٤): وَيَلْلُ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَ إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ .

بعض الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن كانوا يحاربون التطفيف بعد الشرك مباشره، كما حصل لشعيب مع قومه، و لما لم يلتفتوا إلى تعليمات نبيهم نالهم العذاب الأليم. (تراجع القصة فى نهايه آيه ٨٥ من سوره آل عمران).

و عادته، فإن الحق و العدل و النظام و الحساب، كل هذه الأمور تعتبر أصولا- أساسيه للحياه، بل و تدخل فى نظام الوجود و الخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل- خصوصا بالنسبه لبخس الكيل و التطفيف فى الميزان- يؤدي إلى إنزال ضربه شديده بالثقه التى تعتبر جوهر استقرار التعامل الاقتصادى بين الناس.

و مع الأسف فإننا نرى-فى بعض الأحيان-أن غير المسلمين،و لأغراض كسب الثقة بأنفسهم و تجارتهم،يلتزمون بشكل دقيق بالمواسفات و الأرقام المتفق عليها،بينما يتجاوز بعض المسلمين هذه الحدود! و هذه إشاره على أن طريق الدنيا أيضا يمر من خلال عدم الخيانه و الغش.

و ينبغى أن يلاحظ هنا أن هؤلاء الذين يخلون بالميزان و يطففون الكيل مسئولون أمام المشتري مسئوليه حقوقيه،لذلك فإن توبتهم لا تتم إلا برد الحقوق المغصوبه إلى أهلها،و إذا تعدر عليهم ذلك،فينبغى لهم إعطاء ما يساويها إلى الفقراء و المحتاجين بعنوان رد مظالم عن الأصحاب الحقيقيين.

## ٢- ما هو حكم التطفيف و بخس الكيل؟

الجدير بالملاحظه أن حكم التطفيف و بخس الكيل،قد يعتم بحيث يشمل كل أشكال التقصير المتعمد فى الأعمال و الوظائف المختلفه،فمن التطفيف من لا ينجز عمله كاملا،و المعلم الذى لا يدرّس بشكل جيد،و الموظف الذى لا يلتزم بأوقات عمله و هو غير حريص عليه.و لكن الألفاظ المستخدمه فى هذه الآيه لا تفيد معنى هذا التعميم،فهى من التوسعه العقليه إلا أن قوله تعالى: وَ السَّمَاءَ رَفَعَهَا وَ وَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ يشير إلى هذا التعميم.

## ٣- ما هو معنى «قسطاس»؟

«قسطاس» بكسر القاف أو ضمها على وزن «مقياس» و أحيانا تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «الميزان» و البعض يعتبرها كلمه روميه،بينما البعض يرى بأنها كلمه عربيه.و هناك من يقول بأنها مركبه من كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى كفه الميزان.أما البعض الآخر فيقول بأن كلمه «قسطاس» تطلق

على الميزان الكبير، بينما كلمه «ميزان» تطلق على الموازين الصغيره (١).

و فى كل الأحوال، فإنّ (القسطاس المستقيم) تعنى الميزان الصحيح و السالم و العادل بدون نقيصه أو زياده.

و الطريف هو أنّ هناك روايه عن الإمام الباقر عليه السلام، تفسر هذه الكلمه بقوله:

«هو الميزان الذى له لسان» (٢).

و ذلك لأنّه مع عدم وجود اللسان لا- يستطيع الميزان أن يوضح حركه الكفتين بشكل دقيق، أمّا مع وجوده فإنّ أقل حركه للكفتين تنعكس على اللسان، و بهذا الشكل يمكن رعايه العدل كاملا.

ص: ٤٧٣

---

١-١) -تلاحظ تفاسير الميزان، و الفخر الرازى، و مجمع البيان فى تفسير الآيه مورد البحث.

٢-٢) -يراجع تفسير الصافى، أثناء تفسير هذه الآيه.

إشاره

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَ وَالْأَفْئَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكُمْ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)

التفسير

إشاره

الانقياد للعلم:

في الآيات السابقه وقفنا على مجموعه من الأصول و الأحكام الإسلاميه التي بدأت بالتوحيد بوصفه أساس هذه التعاليم، و انتهت بالأحكام التي تشمل الحياه الفرديه و الجماعيه للإنسان.

و في الآيات التي نبحثها الآن نلتقى مع آخر مجموعه من سلسله هذه

الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه الى عدّه احكام مهمّه:

أولاً- في البدايه ينبغي للإنسان المسلم أن يلتزم الدقه في كل الأمور و يجعل العلم رائده و لا- تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ في شؤونك الشخصيه و في القضاوه بين الناس، و في إعطاء الشهاده، و حتى في الأعمال الشخصيه ليكن رائدك الدائم هو العلم دون غيره.

و على هذا الأساس يكون مورد الآيه شاملاً لمعان واسع، و لا دليل على ما يذهب إليه بعض المفسرين من تقييد المعنى ببعض ما ورد أعلاه من الموارد و الذي يؤيد ذلك أن لا تَقْفُ مأخوذه من «قفو» على وزن «عفو» و هي تعنى متابعه شيء ما، و من المعلوم أن الأمور التي نتابعها هي أمور لا تقف عند حد، لذلك فإن النهى الوارد في الآيه يشملها جميعاً.

بناء على ذلك، يتضح أن (العلم و اليقين) هما أساس المعرفة في كل شيء، و أن لا شيء من «الظن» أو «التخمين» أو «الشك» يسد مسد العلم و اليقين، و من يعتمد على ما دون العلم فإنه بذلك يخالف القانون الإسلامى الصريح.

و بعبارة أخرى: لا- الشائعه يمكن أن تكون مقياساً للقضاء و الشهاده و العمل، و لا- القرائن الظنيه، و لا- الأخبار غير القطعيه المشكوك في مصادرها. و في النهايه تعلل الآيه عدم اتباع ما دون العمل، فتقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ البَصَرَ وَ الفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا .

و السؤال الذى تواجه به الأعضاء المذكوره يعود إلى مسئولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسئول عن الكلام المشكوك غير الموثق، و البصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهده و الرؤيه مع أنه لم يشاهد أو يرى، و الفؤاد يسأل عن الأفكار الخاطئه التى تدخل في الأحكام الخاطئه. و إذا كان بعض المفسرين يرى أن المسئوليه التى تتحدث عنها الآيه تقع على عاتق صاحبها لا عليها- أى الأعضاء- بالذات، إلا أن هناك الكثير من الآيات تصرّح بأن الأعضاء نفسها



تسأل يوم القيامة (مثل الآية ٢١ من سورة فصّلت) و تجيب عمّا اقترفت. لذلك لا- معنى لتوجيه المسؤولين في الآية من الأعضاء المذكوره إلى صاحبها.

أمّا لما ذا أشارت الآية- من بين كل حواس الإنسان- إلى السمع و البصر بالذات؟ فسبب ذلك واضح، إذ أنّ معظم المعلومات الحسية للإنسان يكون مصدرها السمع و البصر.

### درس في استقرار النظام الاجتماعي:

الآية المذكوره آنفا تشير إلى أحد المبادئ و الأصول المهمّة في الحياه الاجتماعيه الذي لو طبّق في المجتمع البشرى بشكل دقيق لأمكن اجتثاث جذور الفساد من الشائعات و الأحكام القضائيه المتسرعه و الظنون العائمه و الأكاذيب و أمثال ذلك، و في غير هذه الصوره فإنّ حاله من الفوضى ستضرب العلاقات الاجتماعيه، إذ سوف لا يبقى أى شخص بمنأى عن الشك و الريبه، و بمأمن عن سوء الظن و ستندم الثقه بين الأفراد. و تكون مكانه الفرد في المجتمع في خطر دائم.

لذلك نرى الآيات و الأحاديث الإسلاميه تؤكّد بكثره على هذه الفكره، و بين يدينا الآن ما يلي:

\* الآية (٣٦) من سوره يونس تنتقد بشده الأفراد الذين يتبعون الظن و يجعلونه مقاسا لقناعاتهم و ما يتبع أكثرهم إلا ظناً، إنّ الظنّ لا يُغنى من الحقّ شيئاً.

\* أمّا الآية (٢٣) من النجم، فإنها اعتبرت الظن في مرتبه إتباع هوى النفس إنّ يتبعون إلا الظنّ و ما تهوى الأنفس .

\* و

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ: «إنّ من حقيقه الإيمان أن لا يجوز

\*و

فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام نقل عن آباءه عليهم السلام، قوله: «ليس لك أن تتكلم بما شئت، لأن الله عز وجل يقول: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (٢)» .

\*و

عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الكذب» (٣).

\*و

فى من لا يحضره الفقيه: «قال رجل للصادق عليه السلام: إن لى جيرانا ولهم جوار يتغنين و يضربن بالعود، فربما دخلت المخرج فأطيل الجلوس استماعا منى لهن؟ قال له الصادق عليه السلام: «تالله أنت! أما سمعت الله يقول: إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَ وَالْأَفْؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً» فقال الرجل: كأنى لم أسمع بهذه الآيه من كتاب الله عز وجل من عربى ولا عجمى، ولا جرم أنى قد تركتها وأنا أستغفر الله تعالى» (٤).

و فى بعض المصادر الحديثيه نقرأ أن الإمام الصادق عليه السلام أمر الرجل أن ينهض و يغسل غسل التوبه، و أن يصلى ما استطاع، لأنه قد ارتكب عملا سيئا لو قبض عليه لكانت مسئوليته عظيمه! من خلال مجموع هذه الآيات و الروايات تتضح مدى المسئوليه التى تقع على العين و الأذن، و كيف أن الإسلام ينهى عن أن يقول الإنسان ما لم يسمع، أو ما لا يقوم على العلم، أو يتحدث عن أشياء لم يرها، إذا العلم وحده هو الميزان دون إتباع الظن و الوهم و الحدس أو الاعتماد على الشك و الإشاعه، لأن سبيل الاعتماد على هذه المصادر يؤدى إلى آثار خطره على حياه الفرد و المجتمع، هذه الآثار يمكن أن نلخصها كما يلى:

١- إن اعتماد ما هو دون العلم، يؤدى إلى هضم حقوق الأفراد و إعطاء الحق

ص: ٤٧٧

١-١) - وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ١٦.

٢-٢) - وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ١٧.

٣-٣) - وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٣٨.

٤-٤) - نور الثقلين، ج ٣، ص ١٦٤.

لغير صاحبه.

٢-الاعتماد على الظن و ما شابهه يؤدي إلى تعريض كرامه الإنسان المؤمن للخطر،و يقلل أيضا من حماس و اندفاع المخلصين.

٣-اعتماد ما هو دون العلم،يؤدي إلى انتشار الشائعات.

٤-اعتماد الظن و غيره يقضى على ملاكات الدقه و البحث و التحقيق عند الإنسان و يجعله ساذجا سريع التصديق.

٥-إنّ الاعتماد على غير العلم ينقض العلائق الوديه الحميمه القائمه بين الناس فى البيت و السوق و محل العمل،و يجعل بعضهم يسيء الظن بالبعض الآخر.

٦-اعتماد غير العلم يفسد فى الإنسان قابليه الاستقلال الفكرى و يجعله عرضة للأفكار الفاسده.

٧-إنّ اعتماد غير العالم يكون قاعده للتعجل فى انتخاب الأشياء و الحكم على الأشخاص ممّا يسبب الندامه و الفشل فيما بعد.

### الأوهام و سبل مكافحتها

السؤال الذى يرد هنا،هو كيف نصون أنفسنا و مجتمعنا من الانجرار إلى هذه العاده الخاطئه(إتباع الظن)ذات العواقب الوخيمه؟ و الجواب على السؤال يحتاج إلى بحث طويل،و لكننا لانعدم ثلاث إشارات سريعه هى:

ألف-يجب أن نتبه الناس إلى العواقب الخطيره لاتباع الظن دون العلم، و نحذّره من مغبه النتائج الوخيمه لذلك.

ب-يجب تكريس طريقه التفكير الإسلامى،و جعلها حيّه فى حياه الإنسان، هذه الطريقه التى يؤكّد على أنّ الإنسان مراقب دوما من قبل الله تعالى،إذ هو سميع و بصير،و خبير بالنوايا و البواطن،إذا جاء فى الآيه(١٩)من غافر قوله

ص: ٤٧٨

تعالى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ .

ج-ينبغي ترشيد المستوى الفكرى و الثقافى فى حياه الإنسان المسلم لأن إتباع غير العلم هو سمه يختص بها الجهلاء الذين ما إن يستمعوا إلى إشاعه معينه حتى يصدقوا بها،و يجعلوا منها قاعده للحكم على القضايا و مقياسا لآرائهم.

### ثانيا:الكبر و الغرور:

الآيه التى بعدها تدعو إلى محاربه الكبر و الغرور،و بتعبير واضح و لطيف تنهى المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث تخاطب النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالقول: **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا (١)**. لما ذا؟ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . و هذه إشاره إلى سلوك المتكبرين و المغرورين الذى يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكى يلتفت الناس إليهم،و يرفعون رؤوسهم فى السماء علامه على أفضليتهم المزعومه بين الناس،لهؤلاء تقول الآيه: إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . إذ مثل هؤلاء كالنمله التى تمشى على صخره كبيره و تضرب برجلها عليها،إلا أن الصخره تسخر من حماقتها.ثم أنت أيها المتكبر هل تستطيع -مهما رفعت رأسك فى السماء- أن تكون مثل الجبال علوا،إنك مهما تفعل لا ترتفع سوى سنتيمترات قليله،و حتى هذه الجبال لن تكون شيئا إزاء الكره الأرضيه،و الكره الأرضيه تعتبر ذره سابعه فى عالم الوجود! إذن فما هذا الكبر و الغرور الموجود عندك أيها الإنسان؟! الظريف فى الأمر،أن القرآن لم يبحث مباشره هذه الصفات الداخليه الخطره فى تركيب الإنسان و وجوده(أى التكبر و الغرور)و إنما أشار إليها من خلال آثارها و الظواهر السلوكيه التى تنتج عنها،حيث تحدت القرآن عن مشيه المتكبر

ص: ٤٧٩

(١- ١) -«مرح»على وزن فرح،و هى تعنى الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

و المغرور، و هذه إشاره إلى أنّ التكبر و الغرور، حتى في أهون الصور و أقل الحالات، يعتبر مذموماً مخجلاً- مهما كانت آثاره جزئيه و صغيره.

و في الآيه-أيضا-إشاره إلى أنّ الصفات الداخليه-الباطنيه-للإنسان تظهر-شاء أم أبى-من خلال الأعمال و التصرفات، من خلال المشى مثلا، أو النظر أو الكلام و أمثال ذلك. لهذا السبب ينبغي علينا إذا ما واجهتنا أدنى ظاهره أو أثر لهذه الصفات، أن نعرف أنّ الخطر أصبح قريبا، و أنّ هذه الصفه المذمومه (التكبر و الغرور) قد عششت في روحنا و يجب علينا مجاهدتها فورا.

و يمكن أن نفهم من خلال هذه الآيه، و ما ذكر في القرآن الكريم (و من خلال سوره لقمان و سور أخرى) أنّ التكبر و الغرور مرفوضان بشكل عام. لماذا؟ لأنّ الغرور هو مصدر الغربه عن الله و عن النفس السليمه، و هو سبب الخطأ في الحكم و القضاء، و سبيل ضياع الحق و الارتباط بخط الشيطان و التلوث بأنواع الذنوب.

فالإمام على عليه السلام يقول في صفات المتقين في حديثه إلى «همام»:

«و مشيهم التواضع» (1). و المقصود بالمشى هنا ليس التجوال في السوق و الشارع، و إنما هي كناية عن أسلوب المشى و التعامل في جميع الأمور الحياتيه، بما في ذلك خطوطهم الفكرية إذ هم متواضعون في تفكيرهم.

البرنامج الحياتي العملي لقاده الإسلام يعتبر درسا مفيدا لكل مسلم حقيقى في هذا المجال. ففي سيره الرسول صلى الله عليه و آله و سلم نرى أنه لم يكن يسمح لأحد أن يمشى بين يديه و هو راكب، بل كان يقول: اذهب أنت إلى المكان الفلاني و أنا سأتيك إلى نفس المكان، حيث أنّ المشى بين يدي الراكب يؤدي إلى غرور الراكب و ذله الماشى.

و نقرأ-أيضا- أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يجلس على التراب تواضعا، و يأكل

ص: ٤٨٠

الطعام كما يأكله العبيد، و كان صَلَّى اللهُ عليه و آله و سَلَّمَ يحلب الماعز بنفسه، و يركب الدابة دون غطاء.

و قد كان الرّسول صَلَّى اللهُ عليه و آله و سَلَّمَ يلتزم هذا السلوك في كل مواقفه حتى عند فتح مكّه، حتى لا يفكر الناس بأنّهم إذا وصلوا إلى منصب مهم، أو أحرزوا إنجازاً ما، فإنّ ذلك مدعاه لهم بأن يصابوا بالتكبر و الغرور و يكونوا بالتالي بعيدين و غرباء عن الناس و المستضعفين.

و في سيره الإمام على عليه السّلام، نقرأ أنّه كان يجلب الماء إلى البيت، و في بعض الأحيان كان ينظّف البيت.

أمّا في سيره الإمام الحسن عليه السّلام، فنقرأ أنّه عليه السّلام، حجّ إلى بيت الله عشرين مرّة مشياً على الأقدام، و النجائب (المحامل و الدواب) تقاد بين يديه، و كان عليه السّلام يبيّن أن هذا العمل تواضع لله تعالى (١).

أمّا الآية التي بعدها فهي تؤكد على ما تمّ تحريمه في الآيات السابقة كالشرك و قتل النفس و الزنا و قتل الأولاد و التصرف في مال اليتيم و إيذاء الوالدين و ما شابه ذلك، حيث تقول الآية: كُلُّ ذَلِكُمْ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٢).

و من هذا التعبير يتّضح أنّ الله سبحانه و تعالى ليس فقط لا- يجبر الإنسان على الذنب، و إنّما لا يريد له (بمعنى لا يرغب و لا يؤد) أن يرتكب الذنب أيضاً، و إلّا لو كان الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر، لما أكّد الله سبحانه و تعالى على كراهية هذه الذنوب.

و يتّضح من التعبير- أيضاً- أنّ القرآن استخدم كلمه «مكروه» اتجاه أعظم الذنوب و أكبرها.

ص: ٤٨١

١ - ١) - لقد تحدّثنا عن التكبر و الغرور و آثارهما السيئه في المجلد الرّابع في تفسير الأمثل لدى تفسير الآية ١٢ من سوره الأعراف.

٢ - ٢) - ضمير «سيئه» يعود على «ذلك» أو «كل» و سبب كونه مفرداً لأنّ كلا من هاتين الكلمتين مفردتين بالرغم من أنّهما تعطيان معنى الجمع.

من أجل التأكيد أكثر على أنّ كل هذه التعليمات إنّما تصدر من الوحي و تتسم بالحكمه، تقول الآية: ذَلِكُمْ مِمَّا أَوْحِيَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ .

إنّ استخدام كلمه «الحكمه» هي إشاره إلى أنّ هذه التعاليم و النواهي برغم كونها وحيًا سماويًا إلهيًا، إلا أنّها في نفس الوقت يمكن إدراكها بميزان العقل.

و إلا- فمن يستطيع أن ينكر- عقلا- قباحه الشرك أو القتل أو إيذاء الوالدين أو قبح الزنا و التكبر و الغرور، و ظلم اليتامى و العواقب السيئه لنقض العهود و ما إلى ذلك؟ بتعبير آخر، إنّ هذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هي ثابتة عن طريق الوحي الإلهي. و عادة ما تكون جميع الأحكام الإلهيه على هذه الشاكله، بالرغم من أنّ الإنسان لا- يستطيع في كثير من الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهيه مع العقل بحكم عدم كماله، و يبقى بعد ذلك الوحي هو المجال الوحيد لمصداقيه دركها و الإيمان بها.

بعض المفسرين استفادوا من كلمه «حكمه» على أساس أنّ الأحكام المتعدده في الآيات السابقه تعتبر من الأحكام الثابته التي لا تقبل النسخ في جميع الأديان السماويه، إذ لا يمكن في أى شريعه إلهيه- اعتبار الشرك و قتل النفس و الزنا و نقض العهود أمورًا جائزه. لذلك فإنّ هذه الأحكام تعتبر من المحكمات و القوانين الثابته.

بعد ذلك ينتهى الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البدايه التي انطلق منها، حيث يقول تعالى: وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لما ذا؟ لأنّ المصير سيكون فُتُلُقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا .

و في الحقيقه: إنّ الشرك هو أساس جميع الانحرافات و الجرائم و الذنوب، لذلك فإنّ هذه المجموعه من الأحكام بدأت بالشرك و انتهت به.

آخر آيه-من الآيات التي نبحتها- تشير إلى واحده من الأفكار الخرافيه للمشركين، إذ الكثير منهم كان يعتقد بأن الملائكه هم بنات الله، في حين أنهم كانوا يعتبرون البنت عارا و شنارا، و ولادتها في بيت يؤدي إلى سوء الحظ. القرآن يساير هذا المنطق فيقول لهم: أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا .

إن البنات- بدون شك- كالبنين، هم عطايا الإله و مواهبه، و لا يوجد أي تفاوت بينهم في القيمة الإنسانية. و عادة لا يمكن الحفاظ على الأصل البشري من دونهما معا، لذلك فإن تحقير البنات تعتبر عادة جاهليه كانت تعيشها تلك المجتمعات، كما أشرنا إلى ذلك سابقا (1). و لكن هدف القرآن هو مقابلهم بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربكم ما تحسبوه عارا لكم؟! بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا إذ هذا الكلام لا يتلاءم مع أي منطق و يعتبر ضعيفا من عدّه جهات، هي:

١- إن الإعتقاد بوجود ابن لله يعتبر إهانته عظيمه لمحضره المقدّس، لأنه سبحانه و تعالى ليس بجسم، و ليست فيه الصفات الجسمانيه، و لا يحتاج في بقائه إلى النسل. لذا فالاعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم معرفه بالصفات الإلهيه.

٢- كيف تعتقدون بأن أولاد الله كلهم بنات، في حين أنكم ترون البنات أدنى مكانه و احتراماً من الأولاد؟ هذا الإعتقاد السفيه يعتبر إهانته أخرى ألى مقام الله تبارك و تعالى.

٣- هذا الإعتقاد يعتبر إهانته لمقام ملائكه الله الذين يعتبرون من المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرد سماع كلمه «بنت»، في حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثاً؟!

ص: ٤٨٣



من الالتفات إلى هذه الأمور يتّضح أنّ هذا الكلام يعتبر انحرافا عظيما و كبيرا..إنّه كبير من حيث الانحراف عن الحقائق و كبير من حيث استحقاق صاحبه العقاب العظيم، و هو أيضا كبير قياسا لأعراف أهل الجاهليه و عاداتهم، هذه العادات التي كانت تقوم على أساس تحقير البنات.

أمّا لما ذا يعتبر مشركو العرب الملائكة إناثا؟ و لما ذا كان عرب الجاهليه يئدون البنات أحياء و يفزعون من مجرّد ذكرهن؟..ثمّ دور الإسلام في إعادته بناء موقع المرأة داخل مجتمعهم، كل هذه الأمور بحثناها مفصلا أثناء الحديث عن الآيات (٥٧-٥٩) من سورة النحل. و ننصح هنا بالعودة لها مجددا.نهايه المجلد الثامن

ص: ٤٨٤



























بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.



مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

**www.Ghaemiyeh.com**

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩